http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : تفسير الشعراوي

{ يضاهئون قَوْلَ الذين كَفَرُواْ مِن قَبْلُ } والتعقيب هنا إنما يصدر من الحق تبارك وتعالى عليهم ، ولم يتركه الحق لنا ، وساعة تسمع : { اتخذ الله وَلَداً } فالفطرة الإنسانية تفرض أن يقول السامع لهذا الكلام : قاتلهم الله كيف يقولون هذا؟ وشاء الحق هنا أن يتحملها عنا جميعاً؛ لأننا إن قلنا نحن : « قاتلهم الله أو لعنهم الله » فلا أحد منا يضمن استجابة الدعاء عليهم ، فالأمر قد لا يتحقق ، ولكن حين يقولها الحق سبحانه وتعالى . فتكون أمراً مقضياً . لذلك يقول الحق : { قَاتَلَهُمُ الله أنى يُؤْفَكُونَ } ، وما معنى قاتلهم الله؟ أنت إذا رأيت فعلاً قبيحاً من فرد ، تقول : قاتله الله . لأن حياته تزيد المنكرات ، ومثال ذلك من يسب أباه ، يقول من يسمعه « قاتله الله » بينما يقول الإنسان منا لإنسان يفعل الخير : « فليعش هذا الرجل الطيب »؛ لأنك ترى أن حياته فيها خير للناس .

وقول الحق : { قَاتَلَهُمُ الله } أي لعنهم وطردهم ، ويقول سبحانه وتعالى : { أنى يُؤْفَكُونَ } ، وكلمة { أنى } ترد بمعنيين ، فمرة تعني « من أين؟ » ، ومرة أخرى تعني « كيف؟ » ، والمثال على معناها الأول قول الحق سبحانه وتعالى على لسان سيدنا زكريا لما دخل على مريم البتول : { أنى لَكِ هذا } [آل عمران : 37] .

قال ذلك لأنه رأى عندها أشياء من الخيرات لم يأت بها إليها ، مع أنه هو الذي يكفلها ، والمفترض فيه أن يأتي لها بمقومات حياتها ، وعندما دخل عليها ووجد شيئاً هو لم يأت به ، سألها : { أنى لَكِ هذا } أي : من أين لك هذا؟ فأجابت مريم المصطفاة بما جاء في القرآن الكريم : { قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] .

وجاء الحق بهذه الكلمة لتخدم أموراً إيمانية كثيرة جداً ، وجاء بها على لسان مريم المصطفاة؛ لأن المسألة ليست مجرد طعام يأتيها من مصدر لا يعلمه البشر حتى من هي في كفالته . بل هي تقديم لما سوف يحدث . فلا تظن أن الأمور تسير سير المسألة الحسابية بأسباب ومسببات ، وعلل ومعللات ، ومقدمات ونتائج ، بل هي بإرادة الله تعالى؛ لأنها لو كانت من عند الإنسان لفعلها بحساب ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يعطي بلا حساب؛ لأنه خالق الأسباب ، وهو قادر على أن يخلق المسبَّب على الفور : { يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] .

وحين أنطق الحق سبحانه وتعالى مريم بهذا إنما كان ليوضح لها ولزكريا في آن واحد : إنك يا زكريا

تأتي لها بالرزق في حدود قدراتك وحساباتك البشرية ، ولكن الله يأتيها بالرزق بغير حساب ، وهو ما تستطيع أن تأتي به قدرات البشر ، فقد يكون الرزق الذي رآه سيدنا زكريا عند سيدتنا مريم لوناً من الأطعمة لا يأتي إلا في الصيف ، بينما كان الوقت شتاء ، أو العكس ، وقد يصح أن هذا الرزق ليس في بلادهم مثله ، ولذلك قال : { أنى لَكِ هذا } وقول الحق تبارك وتعالى : { أنى لَكِ هذا } هو قضية تربوية اجتماعية بمعنى أن الكفيل على قوم حينما يرى عندهم أشياء لم يأتِ بها هو ، وجب عليه أن يسأل عن مصدرها ، فحينما ترى في يد ابنك قلم حبر غالي الثمن وأنت لم تحضره له ، لا بد أن تسأله : من أين جئت به؟ وذلك لتعرف التأثيرات الخارجية عليه ، هل سرقه؟ أم أن أحداً أراد استدراجه إلى غرض سَيِّئ فأغراه بهذا القلم؟

لا بد إذن أن تسأل ابنك : من أين لك هذا؟ وكذلك إن رأيت ابنتك ترتدي ثوباً لم تأت لها به ولا أتت به أمها بعلمك ، لا بد أن تسأل ابنتك : من أين لك هذا؟ وهذه القضية إن سيطرت على كل بيت من بيوتنا فلن يحدث في البيوت ما يشينها ، لكننا للأسف الشديد نرى في بعض البيوت طفلاً يدخل ومعه قطعة من الشيكولاتة ، ولا تسأله الأم : من أين لك هذا؟ بل تربت عليه وتأخذ منه قطعة من « الشيكولاته » لتأكل معه .

لكن الأم التي تجيد التربية تماماً تسأل الابن : من أين أتيت بها؟ حتى تعرف هل ثمنها مناسب لمصروف يده أم لا ، فإن لم تجد أنه قد جاء بهذه « الشيكولاتة » من مصدر معلوم لها وحلال فهي تحذره وتضرب على يده .

ولا بد لنا أن نعلم أن قانون : « من أين لك هذا؟ » يحكم العالم كله؛ لأنه يتحكم في التربية الاجتماعية كلها . وقد سبق الإسلام العالم بأربعة عشر قرناً حين أنزل الحق تبارك وتعالى قوله : { أنى لَكِ هذا } ، وأجابت سيدتنا مريم الإيجاب الإيماني ، وأوضحت لسيدنا زكريا عليه السلام : أنت تتكلم بحسابك ولكني أتكلم بحساب الله تعالى؛ لأن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، أنطقها الحق ذلك لأن هذا القول سوف يخدم قضايا عقدية متعددة في الكون :

القضية الأولى : أنها ساعة أن قالت : { إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] .

نبهت زكريا إلى قضية عقدية ، وهي أن الله سبحانه وتعالى غير محكوم بالأسباب ، وسبحانه يعطي بلا حساب ، ونظر زكريا إلى نفسه متسائلاً : ما دام الله عز وجل يعطي بغير حساب ، وأنا قد بلغت من الكبر عتياً ، وامرأتي عاقر ، فلماذا لا أطلب منه أن يعطيني الولد؟

إذن : فقد نبهت مريم سيدنا زكريا عليه السلام ولفتت نظره إلى قضية عقدية ، وهي أن الله يعطي بلا أسباب ، وبلا حساب ، فدعا الله أن يرزقه غلاماً فلما بشره الحق بالغلام تساءل :

كيف يرزق بالغلام وامرأته عاقر ، وهو قد بلغ من الكبر عتياً؟ وجاءت الإجابة من الحق سبحانه وتعالى :

{ قَالَ كذلك قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً } [مريم : 9] .

وهكذا انتفع زكريا بعطاء الله بالابن ، ولم يكتَف الحق سبحانه وتعالى بذلك ، بل تكفل عن زكريا بتسميته ، ولله ملحظ في تسميته ، ونحن نعلم أن الناس تسمي الوليد الصغير بأسماء تتيمن بها ، مثل أن يسمى رجل ابنه « سعداً » رجاء أن يكون سعيداً ، وقد يسمونه « فارساً » ، رجاء أن يكون فارساً ، ويسمونه « فضلاً » رجاء أن يكون كريماً ، ويسمون الفتاة « قمراً » لعلها تكون جميلة . إذن : فالتسمية باسم يحمل معنىً شريفاً على أمل أن يكون الوليد هكذا ، وهناك شاعر كان أولاده يموتون بعد الولادة ، فجاءه ابن وسمَّاه يحيى ، فمات هذا الابن أيضاً فقال الشاعر متحسِّراً :

سَمَّيتُه يَحْيى لِيَحْيا فَلَمْ ... يكُنْ لِرد قضاء اللهِ فيه سَبِيلُ

إذن : فالتسمية بالاسم الشريف ، أو بالاسم الذي يدل على الشيء المؤمَل هو رجاء أن يكون الوليد هكذا ، لكن المسمى لا يملك أن يكون سعيداً ، ولا أن يكون فارساً ، ولا أن يعيش؛ لأن الذي يملك كل ذلك هو الله سبحانه وتعالى ، فإذا كان الله هو الذي سمى يحيى ، فلا بد أن يكون الأمر مختلفاً؛ لأن الذي يملك هو الذي سمَّى ، فهل سيعيش يحيى بن زكريا كالحياة التي نحياها وفيها الموت مُحتَّم على الجميع؟ نعم؛ لذلك شاء له الله أن يموت لتبقى حياته موصولة إلى أن تقوم الساعة . وهكذا رأت سيدتنا مريم آثار ذلك منذ أن قال لها زكريا عليه السلام { أنى لَكِ هذا } وأجابت : { إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] .

لقد رأت كل ذلك في سيدنا زكريا وفي ميلاد يحيى ، وجعل الله كل ذلك مقدمات لها؛ لأنها سَتُمتحن في عِرْضها فهي التي ستنجب ولدا من غير أب ، وعليها أن تتذكر دائماً قولها : { إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] .

ولذلك تجد القرآن الكريم في قصصه العجيب يقول على لسان مريم : { أنى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ } [مريم : 20] .

وقد بشرَّها الحق تبارك وتعالى بذلك في سورة آل عمران : { إِنَّ الله يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسمه المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ } [آل عمران : 45] .

وما دام قد نسبه الله لها فلن يكون له أب ، فتساءلت : كيف يكون لي غلام من غير أب .

ويُذكِّرها الحق عز وجل بهذا القول : { إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] .

وقال لها : { كذلك قَالَ رَبُّكَ } [مريم : 21] .

مثلما قال لزكريا من قبل ، إذن { أنى } هذه هي مفتاح الموضوع العقدي كله ، في زكريا ويحيى ، وفي مريم وعيسى ، وهذا هو معنى { أنى } وقلنا إن « أنّى » تأتي بمعنى كيف؟ مثل قول الحق تبارك وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : { رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الموتى } [البقرة : 260] .

وسيدنا إبراهيم لا يُكذب أن الله قادر على الإحياء ، ولكنه يسأل عن الكيفية ، وهنا يقول الحق : { قَاتَلَهُمُ الله أنى يُؤْفَكُونَ } أي : كيف يعدلون عن الحق؟ فالقضية منطقية ، وما كان يصح أن تغيب عنهم ، فكيف يُصرَفون عن هذه الحقيقة التي توجبها الفطرة الإيمانية؟ وكيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟

ويقول سبحانه بعد ذلك عن أهل الكتاب : { اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله والمسيح ابن مَرْيَمَ . . . }

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31)

و « الحَبْر » هو لقب عند اليهود ، وهو العالم . ويقال في اللغة « حِبر » أو « حَبْرُ » أي رجل يدقق الكلام ويزنه بأسلوب عالم . والرهبان عند النصارى والمقصود بهم المنقطعون للعبادة ، فالحَبر عالِم اليهود ، والراهب عابد النصارى ، أما عالم النصارى فيسمى « قسيس » ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : { قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً } [المائدة : 82] .

فإن قصدنا عالم الدين المسيحي قلنا : « قسيس » ، وإن قصدنا رجل التطبيق أي العابد قلنا : « الراهب » والراهب هو من يقول : إنه انقطع لعبادة الله فوق ما طلب الله منه من جنس ما طلب ، ونعلم أنه لا رهبانية في الإسلام ، ولكن الإنسان يستطيع أن يتقرب إلى الله كما يحلو له من جنس ما طلب الله منه ، فإن كان الحق عز وجل قد أمر بإقامة الصلاة خمس مرات في اليوم ، فالمسلم الذي يرغب في زيادة التقرب إلى الله يمكنه أن يصلي ضعف عدد مرات الصلاة ، وإذا كان الحق سبحانه قد فرض أن تكون الزكاة بمقدار اثنين ونصف في المائة ، فالعبد الصالح قد يزيد ذلك بضعفه أو أضعافه . وهذه زيادة من جنس ما فرض الله تعالى وزيادة ، وهذا يعني في الإسلام الدخول إلى مقام الإحسان ، واقرأ إن شئت قول الحق تبارك وتعالى : { إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ } [الذاريات : 15-16] .

أي : أنهم قد دخلوا إلى مقام الإحسان أي ارتقوا فوق مقام الإيمان . ويزيدنا الحق علماً بمقام الإحسان فيقول : { كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ * وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ والمحروم } [الذاريات : 17-19] .

وسبحانه لا يطلب منا في فروض الدين ألا نهجع إلا قليلا من الليل ، بل نصلي العشاء وننام إلى الفجر . لكن إنْ قام الإنسان منَّا وتهجد فذلك زيادة عما فرض الله ولكنه من جنس ما فرض الله . وكذلك الاستغفار فمن تطوع به فهو خير له . وكذلك الصدقة على غير المحتاج ، فهنا زيادة في العطاء على ما فرضه الله من الزكاة التي حُدِّدَتْ من قبل في قول الحق تبارك وتعالى : { والذين في أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ } [المعارج : 24] .

والرهبانية كانت رغبة من بعضهم في الدخول إلى مقام الإحسان ، ولكن الحق لم يفرضها عليهم؛ لأنه هو الذي خلق وَعلم أزلاً قدرات من خلق ، لذلك قال الحق وتعالى : { وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ } [الحديد : 27] .

هم إذن قد ابتدعوها ابتغاء رضوان الله وزيادة في العبادة ، وليس في ذلك ملامة عليهم ، ولكنها ضد الطبيعة البشرية؛ لذلك لم يراعوا الرهبانية حق رعايتها ، ويقول المولى سبحانه وتعالى هنا في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

{ اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً } فهل معنى ذلك أنهم يقولون للحبر أو الراهب « رب »؟ لا ، ولكن كانت معاملتهم لهم كمن يعامل ربه؛ لأن الله هو الذي يُحل ويحرم ب « افعل » و « لا تفعل » ، فإذا جاء هؤلاء الأحبار وأحلُّوا شيئاً حرمه الله أو حرَّموا شيئاً أحلَّه الله ، فهم إنما قد أخذوا صفة الألوهية فوصفوهم بها؛ لأن التحليل والتحريم هي سلطة الله ، فلذلك

« عندما دخل عدي بن حاتم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجد الرسول صلى الله عليه وسلم في عنق الرجل صليباً من الذهب أو من الفضة قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : » اخلع هذا الوثن « ، ومن أدب الرجل مع الرسول خلع الصليب . وقال صلى الله عليه وسلم : » « إنكم لتتخذون الأحبار والرهبان أرباباً » . فقال الرجل : نحن لا نعبدهم . . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أولا تطيعونهم فيما حرموا وأحلوا؟ قال : نعم . قال : تلك هي العبادة « .

{ اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله والمسيح ابن مَرْيَمَ } ولسائل أن يسأل : وما معنى عطف المسيح على الأرباب ، وعلى الأحبار والرهبان؟ والإجابة : إن الذي يحلل ويحرم إن لم يكن رسولاً ، فهو إنسان يطلب السلطة الزمنية ، وذلك لا يتأتى من الرسول؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما جاء ليلفت الناس إلى عبادة الله بما شرعه الله ، وعيسى عليه السلام هو رسول لم يقم إلا بالبلاغ عن الله ، ولكن البعض أخطأ التقدير وظن أنه ابن الله ، ولذلك يتابع الحق قوله :

{ وَمَآ أمروا إِلاَّ ليعبدوا إلها وَاحِداً لاَّ إله إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } وهكذا يذكر الحق أن الأمر لم يصدر منه سبحانه وتعالى إلا بأن يعبد من يؤمن بالرسالات الإله الواحد . ورسولنا صلى

الله عليه وسلم يقول : » خير ما قلته أنا والنبيون : لا إله إلا الله « .
وأنت حين تنظر إلى » لا إله إلا الله « تجد النفي في » لا « والاستثناء من النفي والإثبات في » إلا « ، وهذا نفي الألوهية عن غير الله وإثباتها له وحده ، وحين نقول : » الله واحدا « فهذا يتضمن الإثبات فقط . ويأخذ الفلاسفة الذين يملكون قوة الأداة والبيان من هذه القضية » الإثبات والنفي « ، أو » الموجب والسالب « ، ويقولون : كل التقاء بين موجب وسالب إنما يعطي طاقة ، والطاقة يمكن استخدامها في الإنارة أو تدار بها آلة ، وكذلك الطاقة الإيمانية تحتاج إلى » سالب وموجب « ، ويقول الشاعر إقبال :
إنما التوحيدُ إيجَابٌ وسَلبٌ ... فِيهِما للنفْسِ عزمٌ ومَضَاء
ويقول سبحانه وتعالى تذليلاً للآية الكريمة : { سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } وحين تسمع كلمة { سُبْحَانَهُ } فاعرف أنها للتنزيه ، فلا ذات مثل ذات الله ، ولا صفة مثل صفات الله ، فالله غني وأنت غني ، فهل غناك الحادث مثل غنى الله الأزلي؟ وأنت حي والله حي ، فهل حياتك الموقوتة مثل حياته؟ فحياته ذاتية وحياتك موهوبة ، فسبحانه حي بذاته ، ولذلك يجب أن تفرق بين اسمه » الحي « واسمه » المحيي « ، فهو حي في ذاته ، ومُحْي لغيره ، وإن كانت الصفة لله في الذات فهي لا تتعدى إلى الغير ، إن الله يوصف بها ولا يوصف بنقيضها ، فتقول » حي « ولا تقول المقابل ، ولكن إن قلت : » محيي « فأنت تأتي بالمقابل وتقول : » مميت « .

وتقول : « قابض وباسط » و « رحيم وقهار » .
إذن : فصفة الذات يتصف الله بها ولا يتصف بمقابلها ، وأما صفة الفعل فيتصف بها ويتصف بمقابلها لأنها في غيره ، فسبحانه هو مُحي لغيره ، ومميت لغيره ، لكنه حي في ذاته . إذن فكلمة { سُبْحَانَهُ } تعني التنزيه ذاتاً ، وصفاتٍ ، وأفعالاً ، وإذا جاء فعل من الله ، ويأتي مثله فعل من البشر ، نقول : إن فعل الله عز وجل غير فعل البشر لأن فعل الله بلا علاج ، ولكن فعل البشر بعلاج ، بمعنى أن كل جزئية من الزمن تأخذ قدراً من الفعل ، كأن تنقل شيئاً من مكان إلى مكان ، فأنت تأخذ وقتاً وزمناً على قدر قوتك ، أما فعل الله عز وجل فلا يحتاج إلى زمن ، وقوته سبحانه وتعالى لا نهائية .
ولذلك حين قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أسْرِيَ بي إلى بيت المقدس ، قال من سمعوه : أتدعي أنك أتيتها في ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً؟ لكن لم يلتفت أحد منهم إلى أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يقل : لقد ذهبت إليها بقوتي ، بل قال : لقد أسرِيَ بي من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . إذن : فالذي أسْرَى هو الله القوي القادر ولا يحتاج الله إلى زمن .
إذن : ف { سُبْحَانَهُ } هي تنزيه لله سبحانه وتعالى عن أي شيء يوجد في البشر . ولا تقارن

قدرة الله سبحانه وتعالى بقدرة البشر مهما كان ، بل إن العمل ينسب لقدرة صاحبه ، وكلما زادت القوة زادت القدرة والله هو القوي . وقوله تعالى : { سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } هو تنزيه لله ، ولا تجد بشراً يقول لبشر حتى من الكفار الذين يعاندون الإيمان ، لا يقول واحد منهم لآخر « سبحانك » لأن التنزيه أمر يختص به الله عز وجل .

والناس تضع أسماء أولادها ، فالأسماء مقدور عليها من البشر ، ولكنك لا تجد كافراً معانداً محارباً لدين الله عز وجل يسمى ابنه « الله » فالمؤمن لا يجرؤ على هذه التسمية لأنه يؤمن بالله ، والكافر لا يجرؤ عليها أبدا بقدرة الله وقهره . لذلك فكلمة { سُبْحَانَهُ } ولفظ الجلالة « الله » لفظان يختص بهما الله وحده بالقدرة المطلقة لله سبحانه وتعالى ، وسبحانه القائل :

{ رَّبُّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فاعبده واصطبر لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً } [مريم : 65]

.

إذن : فالله سبحانه وتعالى – بالقدرة والقهر – حجز ألسنة البشر جميعاً أن يقول أحدهم لأحد : « سبحانك » ، أو أن يسمي أحد ابنه « الله » .

والله عز وجل يقول هنا : { لاَّ إله إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } ، وموقف المشركين وأهل الكتاب واقع تحت هذه الآية؛ لأن منهج السماء لا يأتي إلا إذا عَمَّ الفساد والله سبحانه وتعالى يريد من الإنسان الخليفة في الأرض أن يكون صالحاً ومصلحاً ، وأقلُّ درجات الصلاح أن تترك الصالح فلا تفسده ، فإن استطعت أن ترتقي به فهذا هو الأفضل . فإن كانت هناك بئر يشرب منها الناس ، فالصلاح أن تترك هذه البئر ولا تردمها ، والأصلح من ذلك أن تحمي جدرانها بالطوب حتى لا تنهار الأتربة وتسُدَّها ، وأن تحاول أن تسهل حصول الناس على الماء من البئر ، والأصلح منه أن تصنع خزانا عاليا ، ومن هذا الخزان تمتد المواسير ليصل الماء إلى الناس في منازلهم بدون تعب ، هذا إصلاح لأنك بذلك إنما تأخذ بأسباب الحق القائل عن تميز الفكر؛ عند ذي القرنين : { وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً } [الكهف : 84–85]

أي : أن الله سبحانه وتعالى أعطى لذي القرنين الأسباب ، وهو زَادَ باجتهاده أسباباً أخرى؛ إذن : فالحق سبحانه يريد من الإنسان أن يُصْلح في الأرض حتى يسعد المجتمع بأي إصلاح في الأرض ويستفيد منه الكل ، ولذلك يعطي الحق سبحانه وتعالى اختيارات في أشياء ولا يعطيها في أشياء أخرى ، فالإنسان له اختيار في أن يصلي أو لا يصلي ، يتصدق أو لا يتصدق ، يعمل أو لا يعمل إلى آخر ما نعلمه ، ولكن الكون الأعلى محكوم بالقهر ، فالشمس والقمر والنجوم والهواء والماء وكل هذا له نظام دقيق ، فلا الشمس ولا القمر ولا النجوم ، ولا غيرها من الكون الأعلى يخضع لاختيار الإنسان ، وإلا لفسد الكون . وكل شيء مقهور سليم بالفطرة ولا يحدث فساد إلا في الشيء الذي فيه اختيار للإنسان؛ لأن الاختيار قد يتبع الشهوة وهوى النفس ، حتى

المخلوقات المقهورة كالحيوانات التي سخرها الله للإنسان لا يأتي منها الشر . بل إن مُخلَّفاتها تُستخدم في زيادة خصوبة الأرض . ولكن الأشياء التي صنعها الإنسان ملأت أجواء الدنيا بالسموم ولوثت الجو؛ لأن الأولى مخلوقة بهندسة إلهية ، والثانية بهندسة بشرية علم صانعها أشياء وغابت عنه أشياء .

وقد يعتقد الناس أن هناك بعضاً من الاكتشافات قد حلَّتْ مشكلات الكون ، ثم بعد ذلك وعندما تمر السنوات يعرفون أنه جاءت بالشقاء للبشرية ، ولعل تلوث البيئة الذي بدأ يؤثر على حياة الكون أخيراً يلفتنا إلى ذلك ، حتى إن الإنسان الذي قطع الأشجار وأزال الغابات التي خلقها الله في هذا الكون لتكون مصدراً للهواء النقي وأنشأ بدلاً منها مصانع ومُدناً؛ بدأ الآن يحاول أن يعيد زراعة هذه الأشجار بعد أن علم أن تدخله في الكون قد أفسد جَوّه وماءه وأفسد لمنهج الله تعالى لاستقام أمر الدنيا ، كما استقام الكون الأعلى .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { الرحمن * عَلَّمَ القرآن * خَلَقَ الإنسان * عَلَّمَهُ البيان * الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ * والنجم والشجر يَسْجُدَانِ * والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان } [الرحمن : 1-7] .

إذن : فالميزان للعلويات لا يختل أبداً ، فإذا عرفتم ذلك فنِّفذوا أمر الحق سبحانه وتعالى في قوله : { أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي الميزان } [الرحمن : 8] .

فإذا سرْتم على ضوء منهج الله تعالى ، تستقيم أموركم الدنيا كما استقامت أموركم العليا ، وها هو ذا الكون أمامكم يسير منضبطاً ، وهذا شأن الشيء الذي فيه اختيار للإنسان؛ إنْ لم يسِرْ على منهج الله عز وجل تجدوه غير مستقيم . وعلى هذا إذا رأيت عورة في الكون من أي لون ، فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عُطِّل .

ولذلك نجد – أيضاً – أن المفسدين ساعة يرون أن مصلحاً قد جاء ليضرب على أيدي المفسدين ، تجدهم يحاولون إفساده وجذبه إليهم ليعيش فسادهم ، وإذا لم يتحقق لهم ذلك فهم يقفون أمام هذا المصلح لأنهم إنما يعيشون بالفساد وعلى الفساد ، ويصنعون لأنفسهم السيادة والجبروت ويستعبدون غيرهم ، وحين يرى المفسدون رجلاً يريد أن يعدل ميزان الكون فهم يحاربونه .

وأنت حين تشتري سلعة ، فالبائع يزنُ لك بمقدار ما تدفع من ثمن ، ويحتاج البائع إلى ميزان منضبط ليزنَ لك به ما تشتريه ، فإن كان بائعاً مخادعاً ، فهو يعبث بالميزان ليبيع لك الأقل بالثمن الأكبر ، وليبخسك حقك . ومثل هذا البائع مثل المفسدين الذين يرهقهم أن يأتي مصلح يعيد ميزان الكون لما أمر الله عز وجل من إقامة العدل وإصلاح المعوج .

ومن قبل قلنا : إنَّ الحق ضرب المثل فجعل له سبحانه نورين . . النور الأول حسي وهو في

الماديات ، والنور الثاني معنوي وهو في القيم ، وكما أن النور الحسي يهدي الإنسان إلى طريقه دون أن يصطدم بأي شيء؛ لأن الإنسان إن اصطدم بشيء أقل منه ، فإنه يحطمه ، وإذا كان الشيء أكبر من الإنسان فهو يحطم الإنسان ، وهكذا يلعب النور دوراً في الحسيات ، وكذلك جعل الله للمعنويات نوراً ، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : { نُّورٌ على نُورٍ يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ } [النور : 35] .

والمفسد يكره أن يوجد مثل هذا النور ، بل يريد أن يطفئه ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : { يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ الله . . . }

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32)

لكن هل يستطيعون أن يطفئوا نور الله؟ لا؛ لأن الإنسان في الأمر الحسّي لا يستطيع أن يطفئ النور؛ لأن هناك فَرقاً بين مصدر النور وبين أداة التنوير ، فالإنسان يمكنه أن يحطم الدائرة الزجاجية التي تحمل النور ، لكن لا أحد بإمكانه أن يطفئ « المُنوِّر » والمنوِّرُ الأعلى هو الله ، ولا أحد يستطيع إطفاءه . { يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ ويأبى الله } أي : لا يريد الله شيئاً { إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ } ، وسبحانه قد أرسل الرُّسُل حاملة لمنهج النور ولم يرسل الرسل لينتصر عليهم الكفر ، ولذلك يقول لنا : { ويأبى الله } أي لا يريد { إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون } .

ويتابع الحق جل وعلا قوله : { هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق . . . }

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (33)

والرسول صلى الله عليه وسلم إنما جاء بالقيم التي تهدي إلى الطريق المستقيم ، جاء بالدين الحق . فكلمة « دين » أخذَتْ واستعملت أيضاً في الباطل ، ألم يأمر الحق سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أَن يقول لكفار ومشركي مكة : { لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } [الكافرون : 6] . فهل كان لهم دين؟ نعم كان لهم ما يدينون به مما ابتكروه واخترعوه من المعتقدات؛ لكن { وَدِينِ ا } هو الذي جاء من السماء .

{ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ } ولنلحظ أن الحق سبحانه وتعالى جاء بهذا القول ليؤكد أن الإسلام قد جاء ليظهر فوق أي ديانة فاسدة ، ونحن نعلم أن هناك ديانات متعددة جاءت من الباطل ، فسبحانه القائل : { وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السموات والأرض } [المؤمنون : 71] .

ونتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى : { عَلَى الدين كُلِّهِ } ، فلو أن الفساد كان في الكون من

لون واحد ، كان يقال ليظهره على الدين الموجود الفاسد ، ولكنَّ هناك أدياناً متعددة؛ منها البوذية وعقائد المشركين ، وديانات أهل الكتاب والمجوس الذين يعبدون النار أو بعض أنواع من الحيوانات ، وكذلك الصابئة . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يظهر دينه؛ الذي هو دين الحق على دين واحد؛ من أديان الباطل الموجودة ، ولكن يريد سبحانه أن يظهره على هذه الأديان كلها ، وأن يعليه حتى يكون دين الله واقفاً فوق ظَهْر هذه الأديان كلها ، والشيء إذا جاء على الظَّهْر أصبح عالياً ظاهراً . والحق سبحانه وتعالى يقول : { فَمَا اسطاعوا أَن يَظْهَرُوهُ } [الكهف : **97**] .

أي : أن يأتوا فوق ظهره . وكل الأديان هي في موقع أدنى بكثير من الدين الإسلامي . بعض الناس يتساءل : إذن كيف يكون هناك كفار ومجوس وبوذيون وصابئون وأصحاب أديان أخرى كاليهودية والنصرانية ، فما زالت دياناتهم موجودة في الكون وأتباعها كثيرون ، نقول : لنفهم معنى كلمة الإعلاء ، إن الإعلاء هو إعلاء براهين وسلامة تعاليم ، بمعنى أن العالم المخالف للإسلام سيصدم بقضايا كونية واجتماعية ، فلا يجد لها مخرجاً إلا باتباع ما أمر به الإسلام ويأخذون تقنيناتهم من الإسلام ، وهم في هذه الحالة لا يأخذون تعاليم الإسلام كدين ، ولكنهم يأخذونها كضرورة اجتماعية لا تصلح الحياة بدونها . وأنت كمسلم حين تتعصب لتعاليم دينك ، فليس في هذا شهادة لك أنك آمنت ، بل دفعك وجدانك وعمق بصيرتك لأنْ تؤمن بالدين الحق ، ولكن الشهادة القوية تأتي حين يضطر الخصم الذي يكره الإسلام ويعانده إلى أن يأخذ قضية من قضايا الإسلام ليحل بها مشكلاته ، هنا تكون الشهادة القوية التي تأتي من خصم دينك أو عدوك . ومعنى هذا أنه لم يجد في أي فكر آخر في الكون حلاً لهذه القضية فأخذها من الإسلام .

فإذا قلنا مثلاً : إن إيطاليا التي فيها الفاتيكان الذي يسيطر على العقائد المسيحية في العالم الغربي كله ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية في الفاتيكان تحارب الطلاق وتهاجم الإسلام لأنه يبيح الطلاق ، ثم اضطرتهم المشكلات الهائلة التي واجهت المجتمع الإيطالي وغيره من المجتمعات الأوروبية إلى أن يبيحوا الطلاق؛ لأنهم لم يجدوا حلاً للمشكلات الاجتماعية الجسيمة إلا بذلك . ولكن هل أباحوه لأن الإسلام أباحه ، أم أباحوه لأن مشاكلهم الاجتماعية لا تُحلُّ إلا بإباحة الطلاق؟ وساعة يأخذون حلاً لقضية لهم من ديننا ويطبقون الحل كتشريع ، فهذه شهادة قوية ، يتأكد لهم بها صحة دين الله ويتأكد بها قول الحق سبحانه وتعالى : { لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ } [التوبة : **33**] { وَلَوْ كَرِهَ الكافرون } [التوبة : **32**] ، وبالله لو كان الإظهار غلبة عقدية ، بمعنى ألاَّ يوجد على الأرض أديان أخرى ، بل يوجد دين واحد هو الإسلام لما قال الحق هنا : { وَلَوْ كَرِهَ الكافرون } ولما قال في موضع آخر من القرآن : { وَلَوْ كَرِهَ المشركون } وهذا يعني أن

الحق سبحانه وتعالى قد جعل من المعارضين للإسلام من يظهر الإسلام على غيره من الأديان لا ظهور اقتناع وإيمان ، لا ، بل يظلون على دينهم ولكن ظروفهم تضطرهم إلى أن يأخذوا حلولاً لقضاياهم الصعبة من الإسلام . ومثال آخر من قضية أخرى ، هي قضية الرضاعة ، يقول الحق سبحانه وتعالى : { والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرضاعة } [البقرة : 233] .

وقامت في أوروبا وأمريكا حملات كثيرة ضد الرضاعة الطبيعية ، وطالبوا الناس باستخدام اللبن المجفف والمصنوع كيميائياً بدلاً من لبن الأم ، وكان ذلك في نظرهم نظاماً أكمل لتغذية الطفل ، ثم بعد ذلك ظهرت أضرار هائلة على صحة الطفل ونفسيته من عدم رضاعته من أمه . واضطر العالم كله إلى أن يعود الطفل ونفسيته من عدم رضاعته من أمه . واضطر العالم كله إلى أن يعود إلى الرضاعة الطبيعية وبحماسة بالغة . هل فعلوا ذلك تصديقاً للقرآن الكريم أم لأنهم وجدوا أنه لا حَلَّ لمشكلاتهم إلا بالرجوع إلى الرضاعة الطبيعية؟

وكذلك الخمر نجد الآن حرباً شعواء ضد الخمر في الدول التي أباحتها من قبل وتوسعت فيها ، ولكن شنُّوا عليها هذه الحرب بعد أن اكتشف العلم أضرارها على الكبد والمخ والسلوك الإنساني ، هذا هو معنى { لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ } أي : يجعله غالباً بالبرهان والحجة والحق والدليل على كل ما عداه . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المشركون } فقد ظهر هذا الدين وغلب في مواجهة قضايا عديدة ظهرت في مجتمعات المشركين والكافرين الذين يكرهون هذا الدين ويحاربونه ، وهو ظهور غير إيماني ولكنه ظهور إقراري ، أي رغماً عنهم .

وبعد أن بيَّن الله سبحانه وتعالى أن الأحبار والرهبان لا يؤمنون بالله الإيمان الصحيح ، ولا باليوم الآخر بالشكل السليم ، ويحلون ما حرم الله ، ويحرمون ما أحل الله ، ويتخذهم أتباعهم أرباباً من دون الله . هنا يقول الحق سبحانه وتعالى : { ياأيها الذين آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأحبار والرهبان لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الناس بالباطل وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله . . . }

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34)

وبعد أن شرح سبحانه لنا ما يدور في ذواتهم ، وانحرافهم عن منهج الله تعالى ، والغرق في حب الدنيا وحب الشهوات ، وهم قد اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ، وحرَّفوا تعاليم السماء حتى يأكلوا أموال الناس بالباطل ، ولكن هل الأموال تؤكل؟ طبعاً لا ، بل نشتري بالمال الطعام الذي نأكله ، فلماذا استخدم الحق سبحانه عبارة { لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الناس } ؟ أراد الحق سبحانه وتعالى بذلك أن يلفتنا إلى أنهم لا يأخذون المال على قدر حاجتهم من الطعام والشراب ، ولكنهم

يأخذون أكثر من حاجتهم ليكنزوه .

ولذلك يأتي قوله تعالى في ذات الآية أنهم { وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } . هم إذن أكلوا أموال الناس بالباطل ، مصداقاً لقول الحق سبحانه { لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الناس بالباطل } ومعنى ذلك أنَّ هناك أكْلاً من أموال الناس بالحق في عمليات تبادل المنافع ، فالتاجر يأخذ مالك ليعطيك بضاعة؛ ويذهب التاجر ليشتري بها بضاعة وهكذا ، وقانون الاحتياط هنا في أن يكون هناك رهبان وأحبار محافظون على تعاليم الدين ، ولا يأكلون أموال الناس بالباطل ، وهذا ظاهر في قول الحق سبحانه وتعالى : { إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأحبار والرهبان لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الناس بالباطل } ولم يقل جل جلاله : كل الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ، بل قال { إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأحبار والرهبان } ؛ لأنه قد يوجد عدد محدود من الأحبار والرهبان ملتزمون ، والله لا يظلم أحداً؛ لذلك جاء بالاحتمال . فلو أن الله سبحانه وتعالى عمَّم ووُجد منهم من هو ملتزم بالدين . فمعنى ذلك أن يكون القرآن الكريم لم يُغطِّ كل الاحتمالات ، ومعاذ الله أن يكون الأمر كذلك؛ لأن الحق سبحانه وتعالى في قرآنه يصون الاحتمالات كلها .

إذن : فاستيلاء بعض من هؤلاء الأحبار والرهبان على أموال الناس لا يكون بالحق ، لأي لا يحصلون فقط على ما يكفيهم ، بل بالباطل أي بأكثر مما يحتاجون . وهم يأخذون المال ليصدوا به عن سبيل الله ، وهم في سبيل الحصول على الأموال الدنيوية؛ يُغيِّرون منهج الله بما يتفق مع شهوتهم للمال ، وما يحقق لهم كثرة الأموال التي يحصلون عليها ، ولهذا تأتي العقوبة في ذات الآية فيقول المولى سبحانه وتعالى :

{ والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } والكنز مأخوذ من الامتلاء والتجمع ، ولذلك يقال : « الشاة مكتنزة » ، أي مليئة باللحم وتجمَّعَ فيها لحمٌ كثير .

إذن : فيكنزون أي يجمعون ، وقول الحق سبحانه وتعالى : { يَكْنِزُونَ الذهب والفضة } ؛ وهذان المعدنان هما أساس الاقتصاد الدنيوي ، فقد بدأ التعامل الاقتصادي بالتبادل ، أي سلعة مقابل سلعة ، وهي ما يسمى عمليات المقايضة ، وعندما ارتقى التعامل الاقتصادي اخترعت العملة التي صارت أساساً للتعامل بين الناس والدول .

والعملة من بدايتها حتى الآن ترتكز على الذهب والفضة . وحتى عندما وجدت العملة الورقية ، كان لا بد أن يكون لها غطاء من الذهب لكي تصبح لها قيمة اقتصادية؛ لأنَّ العملة الورقية لا يكون لها قيمة إلا بما يغطيها من الذهب والفضة .

ومن إعجاز القرآن الكريم أن الحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن الذهب والفضة وهما معدنان ،

يجعلهما الأساس في النقد والتجارة ، ولقد وجدت معادن أخرى أغلى من الذهب وأغلى من الفضة كالماس مثلاً . لكن لا يزال الأساس النقدي في العالم هو الذهب والفضة . وعلى مقدار رصيد الذهب الذي يغطي العملة الورقية ترتفع قيمة عملة أي بلد أو تنخفض . . فمثلاً في مصر في عهد الاحتلال البريطاني كان النقد المتداول ثمانية ملايين جنيه ، ورصيدنا من الذهب عشرة ملايين جنيه فيكون الفائض من الذهب مليوني جنيه ، وبذلك كانت قيمة الجنيه المصري تساوي جنيهاً من الذهب مضافاً إليه قرشان ونصف القرش . والذي يهبط بالنقد إلى الحضيض أن يكون رصيد الذهب قليلاً وكمية النقد المتداولة كثيرة ، وهكذا يبقى الذهب هو الحجة والأساس في الاقتصاد العالمي .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أراد أن يلفتنا إلى أن الذهب والفضة هما أساس التعامل في تسيير حركة العالم الاقتصادية ، وأن هذا التعامل يقتضي الحركة الدائمة للمال؛ لأن وظيفة المال هي الانتفاع به في عمارة الأرض ، ولو أنك لم تحرك مالك وكنت مؤمناً ، فإنه ينقص كل عام بنسبة 2 5% وهي قيمة الزكاة . ولذلك يفنى هذا المال في أربعين سنة . فإن أراد المؤمن أن يُبْقي على ماله؛ فيجب أن يديره في حركة الحياة ليستثمره وينميه ولا يكنزه حتى لا تأكله الزكاة؛ وهي نسبة قليلة تُدفَعُ من المال . ولكن إذا أدار صاحب المال ما يملكه في حركة الحياة ، فسينتفع به الناس وإن لم يقصد أن ينفعهم به؛ لأن الذي يستثمر أمواله مثلاً في بناء عمارة ليس في باله إلا ما سيحققه من ربح لذاته ، ولكن الناس ينتفعون بهذا المال ولو لم يقصد هو نفعهم؛ فمن وضع الأساس يأخذ أجراً ، ومن جاء بالطوب يأخذ قدر ثمنه ، ومن أحضر أسمنتاً أخذ ، ومن جاء بالحديد أخذ ، والمعامل التي صنعت مواد البناء أخذت ، وأخذ العمال أجورهم؛ في مصانع الأدوات الصحية وأسلاك الكهرباء وغيرها ، والذين قاموا بتركيب هذه الأشياء أخذوا ، إذن : فقد انتفع عدد كبير في المجتمع من صاحب العمارة ، وإن لم يقصد هو أن ينفعهم . ولذلك فإن الذي يبني عمارة يقدم للمجتمع خدمة اقتصادية ينتفع بها عدد من الناس ، وكذلك كل من يقيم مشروعاً استثمارياً .

إذن : سبحانه وتعالى لا يريد من المال أن يكون راكداً ، ولكنه يريده متحركاً ولو كان في أيدي الكافرين؛ لأنه إذا تحرك أفاد الناس جميعاً فيحدث بيع وشراء وإنتاج للسلع وإنشاء للمصانع ، وتشغيل للأيدي العاملة إلى غير ذلك ، ولكن إن كنز كل واحد منا ماله فلم يستثمره في حركة الحياة ، فالسلع لن تستهلك ، والمصانع ستتوقف ، ويتعطل الناس عن العمل .

وكما يحث الإسلام على استثمار المال ، يطالبنا أيضاً بألا يذهب المال إلى الناس بغير عمل؛ حتى لا يعتادوا على الكسب مع الكسل وعدم العمل . ولذلك قيل : إذا كثر المال ولم تكن هناك حاجة إلى مشروعات جديدة ، فلا تترك الناس عاطلين؛ بل عليك أن تأمرهم ولو بحفر بئر ثم

تأمرهم بطمّها أي ردمها ، في هذه الحالة سيأخذ العمال أجر الحفر والردم ، فلا تنتشر البطالة ويتعود الناس أن يأكلوا بدون عمل؛ لأن هذا أقصر طريق لفساد المجتمع .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى يريد للمال أن يتحرك ولا يكنز؛ ولذلك قال المولى سبحانه وتعالى : { والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } لأنهم بكنزهم المال إنما يُوقفُونَ حركة الحياة التي أرادها الله تعالى لكونه . وأنت ترى العالم الآن يعيش في غائلة البطالة؛ لأن المال لا يتحرك لعمارة الكون ، بل هناك من يكتنزون فقط .

ولقائل أن يقول : ولكن الناس الآن يتعاملون بالنقد الورقي ، بينما ذكر الله سبحانه وتعالى الذهب والفضة؛ نقول : إن العملة الورقية ليست نقداً بذاتها ، ولكنها استخدمت لتعفي الناس من حمل كميات كبيرة وثقيلة من الذهب والفضة ، قد لا يقدرون على حملها ، إذن فهي عملية للتسهيل ، وهي منسوبة إلى قيمتها ذهباً ، إذن : فالذين يكنزون العملة الورقية ولا ينفقونها فيما يعمر بها الكون وتتم عمارته تنطبق عليهم الآية الكريمة .

ولكن الكنز في هذه الآية لا يأتي فقط بمعنى الجمع؛ ولكنه أيضاً بمعنى أنهم لا يؤدون حق الله فيها . ولذلك فإن المال الذي أخرجتَ زكاته لا يُعدُّ كنزاً ، لأنه يتناقص بالزكاة عاماً بعد آخر؛ أما المال المكنوز فهو المال الذي لا تُؤدَّى زكاته . والذي يملك مالاً مهما كانت قيمته ويؤدي حق الله فيه لا يعتبر كانزاً للمال . بل الكنز في هذه الحالة ما لم يؤد فيه حق الله .

وإذا عُدْنا إلى نص الآية الكريمة : { والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة وَلاَ يُنفِقُونَهَا } نتساءل : لماذا لم يقل الله : ولا ينفقونهما مع أنهما معدنان؟ ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى استخدم أسلوب الجمع؛ لأن الذهب يطلق إطلاقات كثيرة ، فهناك من يملك ألف دينار من الذهب ، وغيره يملك مائة دينار من الذهب ، وثالث ليس لديه إلاَّ دينار ذهبيّ واحد وكذلك الفضة ، وما دام الجمع هنا موجوداً فلا بد أن تستخدم { يُنفِقُونَهَا } .

ولم تقل الآية الكريمة : والذي يكنز . ولكنها قالت : { والذين يَكْنِزُونَ } ، إذن : فالمخاطبون متعددون ، فهذا عنده ذهب ، وهذا عنده ذهب ، وثالث عنده فضة ، إذن فلا بد من استخدام صيغة الجمع . ويلفتنا القرآن الكريم إلى هذه القضية في قوله تعالى :

{ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا } [الحجرات : 9] .

ولم يقل « اقتتلا » لأن الطائفة اسم لجماعة مكونة من أفراد كثيرين ، فإذا جاء القتال لا تقوم طائفة وتمسك سيفاً وتقاتل الثانية ، وإنما كل فرد من الطائفة الأولى يقاتل كل فرد من الطائفة الثانية ، إذن فهما طائفتان ساعة السلام ، ولكن ساعة الحرب يتقاتل كل أفراد الطائفة الأولى مع كل أفراد الطائفة الثانية . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : { اقتتلوا } ، ولم يقل « اقتتلا » . أما في حالة الصلح فقد قال سبحانه وتعالى : { فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا } [الحجرات : 9] .

واستخدم هنا « المثنى » لأننا ساعة نصلح بين طائفتين ، لا نأتي بكل فرد من الطائفة الأولى ونصلحه على كل فرد من الطائفة الثانية ، ولكن نأتي بزعيم الطائفة الأولى ونصالحة على زعيم الطائفة الثانية فيتم الصلح . ولذلك هنا تجب التثنية .

وكذلك في قوله تعالى : { والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة } لم يقل ولا ينفقونهما ، ولكن قال سبحانه وتعالى : { وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله } والإنفاق في سبيل الله يشمل مجالات متعددة ، ففي سبيل الله تحدث حركة في المجتمع يستفيد منها الناس ، فحين تُخْرِجُ الزكاة يستفيد منها الناس ، وحين تُجَهَّزُ بها جيوش المسلمين يستفيد منها الناس ، ونظرية عدم كنز المال ربما ظهرت حديثاً في الاقتصاد العالمي ولكنها موجودة منذ نزول القرآن الكريم .

فأنت إن أنفقت ولم تكنز حدث رواج في السوق . والرواج معناه إيجاد العمل ووسائل الرزق . وإيجاد الحافز الذي يؤدي إلى ارتقاء البشرية ، وأنت حين تشتري لبيتك غسالة أو ثلاجة أو بنيت بيتاً صغيراً فإنك تُوجِدُ رواجاً اقتصادياً في المجتمع . وفي نفس الوقت ارتقيت بوسائل استخداماتك . والرواج يدفع إلى اكتشاف الأحسن الذي يفيد البشرية ، ولكن إذا كنزت كل مالك ساد الكساد الاقتصادي .

وليس معنى ذلك أن ينفق صاحب المال كل ماله وزيادة؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد الوسط في كل الأشياء . ولذلك يقول سبحانه وتعالى : { والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً } [الفرقان : 67] .

والحق سبحانه وتعالى في هذه الآية يحذر من سفاهة الإنفاق ، وعدم الإبقاء على جزء من المال لمواجهة أي أزمة مفاجئة . لكنك إن قترت حدث كساد في السوق وتوقف الإنتاج وتعطل العمال ، والإسلام يريد نفقة معتدلة توجد الرواج السلعي ، وادخاراً تستخدمه في الارتقاء بحياتك ومواجهة الأزمات .

والإنفاق أنواع : إنفاق في المساوي لإبقاء الحركة الدائمة بين المنتج والمستهلك ، وإنفاق في غير المساوي بإعطاء الزكاة للفقير والمحتاج والمعدم ، والزكاة تنقي المجتمع من مفاسد كثيرة؛ فهي تمنع الحقد بين الناس؛ لأن الفقير إذا وجد من يعطيه فهو يتمنى له دوام النعمة حتى يستمر العطاء فلا يسخط الفقير على الغني ، والغني والفقير متساويان في الانتفاع؛ لأن الفقير عندما يأخذ لا يسخط على أنه فقير ، ولكنه يحس بالعطاء حوله ، والغني حين يعطي يحس أن هذا أمان له؛ لأنه إن ذهبت عنه النعمة فسوف يجد من يعطيه .

وهكذا يحدث توازن في المجتمع بين الناس ، فلا يوجد من لا يستطيع الحصول على ضروريات الحياة ، ولا يوجد من لديه فائض يحبسه عن الناس . ولهذا يدعونا الإيمان إلى العمل بما يزيد عن قدر الحاجة ، ليكون هناك فائض للزكاة والصدقة . والإنسان إذا عمل فإنه لا يفيد نفسه فقط

بل يفيد المجتمع أيضاً . فسائق « التاكسي » مثلاً إذا كسب مائة جنيه في اليوم قد يظن أنه نفع نفسه فقط ، ولكنه في الحقيقة نفع المجتمع كله بأن يسَّر على العباد مصالحهم ، فنقل هذا إلى عمله؛ ونقل ذلك إلى المستشفى ، ونقل غيرهما إلى السوق ليشتري ما يحتاج إليه ، ونقل رابعاً ليزور قريباً أو ليحقق مصلحة وهكذا .

إذن : فالذي يعمل يكون عمله خيراً لنفسه وخيراً للمجتمع ، وإن عمل كل الناس على قدر حاجاتهم فقط ، فمن أين يعيش غير القادر على العمل؟ من أين يعيش المستحق للزكاة والصدقة؟ إنه لا يعيش إلا بفائض القادر على العمل ، ولذلك لا بد للإنسان المسلم أن يعمل على قدر طاقته ، وليس على قدر حاجته . والعمل على قدر الحاجة يجعله يوفي بحاجات من يعولهم ، ولا يضطرهم إلى أن يمدوا أيديهم للآخرين؛ أي أنه يقيهم شر الحاجة . أما العمل على قدر الطاقة فيجعله يأخذ حاجته ، ويعطي لغير القادر ما يقيم حياته ، وبذلك يقدم الخير لنفسه ومن يعولهم وللآخرين .

إن المجتمع الذي يجد فيه غير القادر حاجته ، هو مجتمع يملؤه الاطمئنان بالنسبة للقادر وغير القادر . ونحن نعلم أننا نعيش في دنيا أغيار ، ولا يوجد من يدوم غناه أو من يدوم فقره؛ لأن دوام الحال من المحال ، إن عاش الغني في مجتمع متكافل يجد فيه الفقير حاجته فهو لن يخشى تقلبات الزمن؛ لأنه وهو الآن يعطي الفقير ، إن أصبح فقيراً فسوف يجد مقومات حياته ، والفقير إذا أغناه الله تعالى فسيذكر أنه كان يأخذ من الأغنياء ، فيبادر ليعين الفقراء كنوع من رَدِّ الجميل . وبذلك يعيش المجتمع كله حياة آمنة ، كما أن الحياة في مثل هذا المجتمع إنما تهيء الاطمئنان للناس على أولادهم وذريتهم ، ذلك أن الأعمار بيد الله ، وعندما يحس الإنسان بأنه إن مات وترك أولاداً صغاراً ضعافاً فسوف يتكفل المجتمع بهم ، عندئذ يحس بالأمان في حياته ، ولكن إذا كان المجتمع قاسياً يضيع في حق اليتيم ، فالأب يعيش غير مطمئن على أولاده الصغار ، ولهذا نجد أن الحق تبارك وتعالى قد أمر بكفالة اليتيم؛ ليعوضه عن أب واحد بآباء متعددين يَرْعَونهُ ، فَيُحسُّ الأب بالأمان وتُحس الأم بالأمان ويحس الصغار بالأمان ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَلْيَخْشَ الذين لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواّ الله وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً }

[النساء : 9] .

وتقوى الله تكون ضماناً في أن يكفل المجتمع اليتيم؛ فيدخل الأمن في قلب كل أب يخشى أن يموت وأولاده صغار .

إذن : فساعة يكفل المجتمع اليتيم فالطفل لن يسخط على القدر الذي حرمه من أبيه لأنه وجد آباء يرعونه ، وهناك قصة يرويها عدد من إخواننا العلماء ، فقد مات زميل من زملائهم وأولاده

صغار ، وكانت الأم تبكي على أطفالها لأنهم تيتموا ، ثم مرت السنوات وكبر الأطفال فصار هذا مهندساً وصار ذلك طبيباً ، والثالث أصبح محامياً ، بينما من لا يزال آباؤهم على قيد الحياة كانوا متعثرين في دراستهم ، فقال أحدهم للآخر : ليتنا نموت حتى يفتح الله باب الرزق على أولادنا .

إذن : فهناك آباء محابس رزق ، إذا ذهبوا فاض الله بالرزق على أولادهم ، وهذه صورة نراها في الكون؛ فنعرف أن المسألة في يد الله سبحانه وتعالى القائل : { إِنَّ الله هُوَ الرزاق ذُو القوة المتين } [الذاريات : 58] .

إذن : فالاقتصاد الإسلامي مبني على وجود حركة في الكون ، ولا بد أن تكون هذه الحركة على قدر طاقة المتحركين ، وليس على قدر حاجاتهم؛ حتى يكون هناك فائض يأخذه غير القادر من المتحرك القادر .

ثم يعطينا الله سبحانه وتعالى لمحة إيمانية ، حينما نرى الفقير غير القادر وهو يتلقى العطاء من أي إنسان غني يتعب في عمله ، وكأن من هم أغنى منه يعملون ليعطوه ، وسبحانه وتعالى حين سلب القوة من هذا الرجل فقد عوَّضه بأن أعطاه ثمرة من جهد وناتج عمل غيره فلا يسخط على اختبار الله تعالى له بالابتلاء .

{ والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }

وساعة تسمع كلمة { فَبَشِّرْهُمْ } تعرف أن البشارة عادة تكون في خبر سار ، وإن جاءت في خبر محزن تكون تهكمًا ، فالإنسان الذي هو عزيز قومه ويجعل الناس له اعتباراً ، إن ظلم وطغى وخاف الناس أن يردوه؛ لأنه لا يخشى الله فيهم ، هذا الظالم يُؤتَى به يوم القيامة ويُعذَّب أشد العذاب ، ويقال له : { ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم } [الدخان : 49] .

وبطبيعة الموقف في النار هو مهان بعذاب جهنم ولا يمكن أن يكون عزيزاً كريماً ، ولكن قول ملائكة النار : { ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم } ، هو تهكم شديد ، وهو في ذلك كقول الحق تبارك وتعالى : { وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه } [الكهف : 29] .

وهم ساعةَ يسمعون كلمة { يُغَاثُواْ } يفرحون؛ لأن عطشهم شديد وهم قد استغاثوا فقيل لهم إنهم سيغاثون ، وهذا خبر سار بالنسبة لهم ، ولكن الإغاثة تأتيهم بماء يشوي وجوههم ، فهل هذه إغاثة؟ إنه تهكم عليهم وزيادة في عذابهم ، كذلك قول الحق سبحانه وتعالى هنا : { فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } ويصف لنا الحق هذا العذاب الأليم الذي سيتعرضون له ، ويُبيّن لنا خبر المغيَّب عنَّا في الآخرة بصورة مُحَسَّة لنا فيقول : { يَوْمَ يحمى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فتكوى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ . . . }

يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (35)

نحن نعلم أن النار لا تُحمى إلا للمعادن ، فإن كان ما كنزوه أوراقَ نقد فكيف يُحمَى عليها؟ وإن كان ما كنزوه معادن فهي صالحة لأنْ تُكْوَى بها أجسادهم ، أما الورق فكيف يتم ذلك؟ ونقول : إن القادر سبحانه وتعالى يستطيع أن يجعل من غير المُحْمَى عليه مُحمىً ، أو يحولها إلى ذهب وفضة؛ وتكوى بها نَواحٍ متعددة من أجسادهم ، والكية هي أن تأتي بمعدن ساخن وتلصقه بالجلد فيحرقه ويترك أثراً .

و « حين مات أحد الصحابة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وبحثوا في ثيابه فوجدوا فيها ديناراً ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : » هذه كَيَّة من النار « ؛ لأن صاحبه كان حريصاً على أن يكنزه ، كما » وجدوا مع صحابي آخر دينارين كنزهما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هاتان كَيَّتانِ » « .

كان هذا قبل أن تشرع الزكاة ، أما إذا كان صاحب المال قد أدى حق الله فيه فلا يُعَدُّ كنزاً ، وإلا لو قلنا : إنَّ الإنسان إذا أبقى بعضاً من المال لأولاده حتى ولو أدى زكاته فإن ذلك يعتبر كنزاً ، لو قلنا ذلك لكنا قد أخرجنا آيات الميراث في القرآن الكريم عن معناها؛ لأن آيات الميراث جاءت لتورث ما عند المتوفي . والمال المورَّث المفترض فيه أنه قد أتى عن طريق حلال وأدى فيه صاحبه حق الله ، لذلك لا يعتبر كنزاً .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : { فتكوى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ } ، لماذا خَصَّ الله هذه الأماكن بالعذاب؟ لأن كل جارحة من هذه الجوارح لها مدخل في عدم إنفاق المال في سبيل الله . كيف؟ مثلاً : تجدون الوجه هو أداة المواجهة ، وإذا رأيت إنساناً فقيراً متجهاً إليك ليطلب صدقة ، وأنت تعرف أنه فقير وقد جاءك لحاجته الشديدة ، فإن كان أول ما تفعله حتى لا تؤدي حق الله أن تشيح بوجهك عنه ، أو تعبس ويظهر على وجهك الغضب ، فإن هذا الفقير يحس بالمهانة والذلة؛ لأن الغني قد تركه وابتعد عنه ، فإذا لم تنفع إشاحة الوجه واستمر الفقير في تقدمه من الغني ، فإنه يعرض عنه بأن يدير له جنبه ليحس بعدم الرضا ، فإذا استمر الفقير واقفاً بجانبه فإنه يعطي له ظهره .

إذن : فالجوارح الثلاث قد تشترك في منع الإنفاق في سبيل الله ، وهي الوجه الذي أداره بعيداً ، ثم أعطاه جانبه ، ثم أعطاه ظهره . هذه هي الجوارح الثلاث التي تشترك في منع حق الله عن الفقير ، ولذلك لا بد أن تُعذَّب فَتُكْوى الجباه والجنوب والظهور .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { هذا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ } ، أي : هذا ما منعتم فيه حق الله ، فإن

كنز الإنسان مالاً كثيراً فسيكون عذابه أشد ممن كنز مالاً قليلاً؛ لأن الكَيَّ سيكون بمساحة كبيرة ، أما إن كان الكنز صغيراً فتكون الكية صغيرة .

ولهذا لا يجب أن يغتر المكتنز بكمية ما كنز؛ لأن حسابه سوف يكون على قدر ما كنز .
وقوله سبحانه وتعالى : { فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ } أي : أن عذابكم في الآخرة سيكون بسبب كنزكم المال ، فالمال الذي تفرحون بكنزه في الدنيا كان يجب أن يكون سبباً في حزنكم؛ لأنكم تكنزون عذاباً لأنفسكم يوم القيامة ، ومهما أعطاكم كنز المال من تفاخر وغرور في الحياة الدنيا ، فسوف يقابله في الآخرة عذابٌ ، كُلٌّ على قدر ما كنز .
ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : { إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْراً فِي كتا بِ الله يَوْمَ خَلَقَ السموات والأرض مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ . . . }

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (36)

والشهر : هو دورة القمر كما هو معلوم ، ونحن نعرف أن الكون فيه شمس وقمر وفيه نجوم ، هذه هي الأشياء المرئية لنا ، وهناك كواكب أخرى بعيدة عنا تستطيع أن تأخذ مليون شمس في جوفها ، كل هذا يعطيك فكرة عن مدى اتساع الكون ، فلا تعتقد أن الشمس هذه موجودة بذاتها ، بل هي تأخذ أشياء من كواكب أعلى منها كثيرة ، ولكن ما نراه بأعيننا محدود ، وهناك ما لا يمكننا أن نراه؛ لأنه غير منظور لنا . وأنت إذا نظرت إلى مصباح كهربائي ، فنور المصباح ليس ذاتياً ، بل إن وراءه أجهزة كثيرة تمده بالكهرباء من أسلاك وكابلات وأكشاك ، ثم محطة توليد الكهرباء التي تولد التيار الكهربائي ، ثم المصانع التي أنتجت الآلات التي تعمل في محطة الكهرباء ، إذن : فوراء هذا المصباح الصغير حجم هائل من العمل والأجهزة المختلفة .
ونحن نرى الشمس فيها ضياء ، والقمر فيه نور ، فما الفرق بين الضياء والنور؟
الضياء : فيه نور وفيه حرارة . والنور : فيه ضوء وليس فيه حرارة . ولذلك يسمون ضوء القمر « الضوء الحليم » ، أي : أنك عندما تجلس في ضوء القمر لا تحتاج إلى مظلة تحميك منه ، ولكن إن جلست تحت ضوء الشمس فأنت تحتاج إلى مظلة تحميك من حرارة الشمس الشديدة .

والحق سبحانه وتعالى يسمى الشمس سراجاً وهَّاجاً ، والسراج فيه حرارة وفيه ضوء . أما القمر فسماه منيراً؛ لأن أشعة الشمس تنعكس عليه فينير ، وهذان الكوكبان العلويان – الشمس والقمر – وضع الله فيهما موازين الزمن . والزمن له حالات كثيرة تتطلب موازين وقياسات

مختلفة ، وأساس الزمن هو اليوم والليلة ، وأساس اليوم هو صباح وظهر وعصر ومغرب ، وهناك الفجر الصادق والفجر الكاذب والشروق ، وهناك أوقات يتساوى فيها الشيء وظله ، وأوقات يكون الظل مثْلَيْ الشيء . والليل فيه الظلام ، ويأتي بعد النهار والليل – في مقاييس الزمن – الشهورُ ، وبعد الشهور تأتي السنوات .

إذن : فمقاييس الزمن محتاجة لآلات تقاس بها ، وأنت تعرف بداية اليوم بشروق الشمس . إذن فالشمس معيار اليوم . وأنت تعرف بداية الليل بغروب الشمس . وهكذا فالشمس تعطينا بداية ونهاية الليل والنهار ، ولكنها لا تعطينا شيئاً عن الشهور ، فإذا نظرت إلى الشمس فإنك لا تعرف هل أنت في أول الشهر أو في منتصفه أو في آخره . ولكنك إذا نظرت إلى القمر عرفت ، ففي أول الشهر يكون القمر هلالاً ، وفي منتصفه يكون بدراً ، وفي آخره المحاق . والشهور عند الله اثنا عشر شهراً .

وهكذا نرى أن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يخلق الإنسان ، ويجعله خليفة في الأرض؛ خلق له كوناً مُعَدًّا إعداداً حكيماً لاستقباله ، فقدَّر في الأرض الأقوات وجعل الشمس والقمر وأنزل المطر ، فكل ما يقيم حياة الإنسان كان موجوداً في الكون قبل أن يأتي الإنسان إليه .

والإنسان جعله الله خليفة في الأرض وله حركة ، وهي الأحداث التي تقع منه أو تقع فيه أو تقع عليه ، والأحداث تتطلب زماناً ومكاناً ، ولذلك خلق الله لها الزمان والمكان . إذن : فالحياة كلها تفاعل بين حركة الإنسان الخليفة وبين الزمان والمكان .

وكما أعدَّ الله سبحانه وتعالى للإنسان في كونه مقومات حياته اليومية . . أنزل له القيم التي تحفظ له معنويات حياته ، وأراد بها الحق سبحانه وتعالى أن تتساند حركة الإنسان ولا تتعاند ، ومعنى التساند أنْ تتحد حركة الناس جميعاً في إيجاد النافع لمزيد من الإصلاح في الأرض ، أما إن تعاندت حركات البشر ضد بعضها البعض ، فإن الفساد يظهر في الأرض؛ لأن كل واحد يريد أن يهدم ما يفعله الآخر .

ولكي تتساند حركات الإنسان في الكون؛ فلا بد من مُشَرِّع واحد – وهو المشرع الأعلى – يعطي قوانين الحركة البشرية لكل الناس . وإن ابتعد الناس عن تشريعات الله تعالى ، وأخذوا يقنِّنون لأنفسهم ، نجد قوانين البشر تتبع أهواءهم ، وكل واحد يحاول أن يحصل على مَيْزات لنفسه ، ويأخذ حقوق الآخرين؛ فتفسد الحياة ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السموات والأرض } [المؤمنون : 71] .

إن اتباع الحق لأهوائهم سيُخضِعُ الكون لأهواء البشر ، هذا يريد وهذا لا يريد ، والحق سبحانه يريد في الكون حركة السلام والأمن والاطمئنان ، وهذه لا تتم إلا إذا التزم كل إنسان بمنهج الله؛ حينئذ يوجد سلام دائم ومستوعب شامل ، مستوعب لسلام الإنسان مع نفسه ، ولسلام

الإنسان مع الكون ، ولسلام الإنسان مع الله ، لكن الإنسان الذي خلقه الله مُخيَّراً وأنزل له المنهج بالتكليف ، في إمكانه أن يطيع هذا المنهج أو أن يعصيه . وإن عصى الإنسان المنهج فهو يفسد في الأرض وينشر فيها الظلم والفساد .

وأراد الحق سبحانه أن يضع للسلام ضماناً ، وهو أن توجد قوة تقف أمام الفساد في الأرض؛ لذلك شاء الحق أن يكون للحرب وجود في هذا الكون؛ لتتصارع الإرادات ، فما دام للإنسان اختيار ، وما دام هناك من يعصي ومن يطيع ، فلا بد أن يحدث الصراع . أما الأمور التي لا اختيار للإنسان فيها فهي لا تعكر السلام في الكون ، فلن تقوم ثورة – مثلاً – لكي تشرق الشمس ، أو تشتعل حرب لإنزال المطر؛ لأن هذه الأمور تسير بقوانين القهر التي أرادها الله لها ، وتعطي نفعها للجميع ، ولكن الفساد يأتي من انحراف الناس عن منهج الله ، وما دام في الكون حراس للمنهج من البشر ، بحيث إذا انحرف إنسان ضربوا على يده حتى يعود إلى الطريق السليم؛ فإن الحياة المطمئنة الآمنة تبقى . ولكن إن عَمَّ الفساد ، ولم يوجد في المجتمع من يقف ضده تعاندت حركات الحياة وتعب الناس في حياتهم وأرزاقهم .

ولكي يسود السلام في الكون؛ وضع الحق سبحانه في الزمن وفي المكان حواجز أمام طغيان النفوس؛ عَلَّها تفيق وتعود إلى الحق ، فجعل في الزمان أشهراً حُرماً يمتنع فيها القتال ، ويسود فيها السلام بأمر السماء ، وأراد الحق أن يكون هذا السلام القسري فرصة تجعل هؤلاء المتحاربين يفيقون إلى رشدهم وينهون الخلاف بينهم ، كذلك خصَّ الله بعض الأماكن بتحريم القتال فيها ، فإذا التقى الناس في هذه الأماكن كانت هناك فرصة لتصفية النفوس وإنهاء الخلاف .

والإنسان في حربه مع أخيه الإنسان يُنهك بنيران ونتائج الحرب ، تنهكه دماً ، وتنهكه مالاً ، وتنهكه عتاداً ، ويصيب الضعفُ الإنسان نتيجة هذه الإنهاكات منتصراً كان أم مهزوماً ، ولكنه أمام عزة نفسه في مواجهة خصمه يريد أن يستمر في الحرب حتى لا يظهر أمام الخصم بأنه قد ذُلَّ . فيشاء الله برحمته لخلقه أن يجعل في الزمان وفي المكان ما يحرم فيه القتال؛ حتى لا يقال : إن قبيلة ما أو جماعة ما قد أوقفت القتال خوفاً من خصومها ، أو لأن خصومها هم الأقوى؛ ولكن ليقول الناس : إنهم أوقفوا الحرب بأمر الله .

وبهذا يحتفظ كل طرف من الأطراف المتحاربة بكرامته؛ فيسهل الصلح وتسلم الأرواح والنفوس . وكذلك إن لجأ واحد من المتحاربين إلى المكان أو الأماكن التي يحرم الله فيها القتال ، أمن على نفسه ، وفي هذا منع للشر أن يستمر ، وصون للنفوس من المهانة والذلة والانكسار أمام الغير؛ لذلك أراد الله أن يوضح لنا : أنا خالقكم ، وأنا الرحيم بكم ، وسأجعل لكم من الزمان زماناً أحرم فيه القتال ، وأجعل مكاناً مَنْ دخله كان آمناً ، فاستتروا وراء ذلك وكُفُّوا عن القتال .

وهذه هي بعض من رحمة الله ، يعطي بها سبحانه للناس فرص الحياة ، وهذا من عطاءات الربوبية ، وعطاء الربوبية من الله هو لخلقه جميعاً ، المؤمن منهم والكافر ، والطائع والعاصي ، وكل نعم الكون من عطاءات ربوبية الله .

إن عطاءات الله سبحانه لا تفرق بين المؤمن والكافر ، فالأرض مثلاً لا تعطي الزرع للطائع وتمنعه عن العاصي ، والشمس لا تضيء وتسقط دفئها وحرارتها للمؤمن دون الكافر؛ فَنِعَمُ الكون المادية كلها من عطاء ربوبية الله سبحانه وتعالى لخلقه .

الأسباب – إذن – هي للناس جميعاً ، ولهم أن يتخذوا الأزمان المواتية لحركة الحياة كما يحبون ، فيسيرون الزراعات على أي تقويم ، ويحددون المواسم على حسب ما يفيدهم ، وهم يحددون بذلك مصالحهم المادية التي هي من عطاء الربوبية . ولكن الله رب قَيِّم ، ولذلك فهناك عطاء ألوهية لله في المنهج الذي أرسل به الرسل للناس فأوضح : أنا أختار الزمان الذي أجده مناسباً للقيم والمعاني السامية ، وأختار الأماكن المناسبة للقيم والمعاني السامية .

وأراد الحق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن يشيع اصطفاء المكان والزمان لكل الزمان والمكان .

والشهور والأزمان عند الله هي اثنا عشر شهراً ، وما دام قد قال : { عِندَ الله } ، فهناك « عند » غير الله؛ وهناك « عند » الناس .

وأوضح سبحانه لخلقه : قَدِّروا أزمانكم بمصالحكم ، وهذا ما يحدث في الواقع المعاش . . إنك تجد من يزرع حسب التقويم القبطي ، حيث تكون شهور الصيف فيه ثابتة ، وكذلك شهور الشتاء والربيع والخريف؛ لأن التقويم القبطي قائم على التقويم الشمسي .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد للقيم أزماناً مخصوصة؛ لذلك قال : { إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْراً } وأوضح سبحانه : لا تجعلوا زمن القيم كالأزمان التي تجعلونها لمصالحكم .

وأراد الله سبحانه أن تعم القِيمَ كل الزمن ، ولا تكون مقصورة على أزمان معينة ، ولذلك اختار سبحانه أزماناً للصلاة مثلاً ، فصلاة الصبح لها قوت ، وصلاة الظهر لها وقت ، والعصر لها وقت ، والمغرب لها وقت ، والعشاء لها وقت . ولكن أوقات الصلاة رغم أنها محدودة فهي تشمل الزمن كله؛ فالصلاة تقام مثلاً في أسوان ، وبعد دقائق في الأقصر ، وبعد دقائق في القاهرة ، وبعد دقائق في الإسكندرية ، ثم تتدرج إلى دول أوربا ، وهكذا . فكأنها لا تتوقف عند فترة معينة ، بل هي مستمرة حسب اختلاف الأوقات في الدول المختلفة ، فصلاة الفجر – على سبيل المثال – قبل شروق الشمس . والشمس تشرق في كل دقيقة على بقعة مختلفة من الأرض . فكأن الصلاة دائمة على سطح الأرض . بل أكثر من ذلك نجد أننا في الوقت الذي نصلي فيه نحن الظهر ، قد يصلي غيرنا العصر في شمال أوربا ، والمغرب في أمريكا ، والعشاء في كندا مثلاً ،

فكأن الصلاة تقام في كل وقت على ظهر الأرض؛ ذلك لأن الكون كله مُسبِّح لله .
ونأتي بعد ذلك إلى اختيار الله ليوم وقفة عرفات ، ولشهر الصوم وغير ذلك من الأوقات ، فشهر رمضان يأتي مرة في الصيف ، كما يأتي في الشتاء وفي الربيع ، وفي الخريف . كذلك الحج يأتي في فصول السنة المختلفة . وهكذا شاء عدل الله أن تكون الأيام المفضلة عنده مُوزَّعة على الزمن كله . وجعل الحق سبحانه وحدة الزمن هي اليوم ، واليوم يتكون من الليل والنهار ، والأيام وحدتها الشهر ، والشهور وحدتها العام ، وجعل من مهمة الشمس أن تحدد لنا اليوم ، ومن مهمة القمر أن يحدد لنا الشهر؛ فهو في أول الشهر هلال ، ثم تربيع أول وتربيع ثانٍ فبدْر إلى آخره . إذن فالقمر هو الذي يحدد بداية الشهر ونهايته .
ولقد حدد الحق سبحانه شهور العام ، فقال :
{ إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْراً } وقال : { مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ } .
ولكن لماذا لم يجعل الحق الأشهر سلاماً؟ نقول : إن الحق في تشريعه أراد أن يسود السلام ، ولكن الحرب أيضاً قد تكون سبباً لتحقيق السلام ، فليس كل إنسان أو مجتمع يسير على الجادة ، فمن الممكن أن تخرج جماعة عن الجادة ، ولهذا لا بد من قتال تلك الجماعة ، ولا بد كذلك من وقفة للخير أمام الشر ، وما دام الإنسان له اختيار؛ فقد يسير في اختياره إلى ناحية السوء؛ لذلك لا بد أن يضرب المجتمع على يد المسيء ، وإذا ما اختارت دولة قتال دولة أخرى اعتداءً ، فالحرب ضرورة للدفاع .

وكذلك لو أن الحق قد جعل العام كله أياماً حُرُماً لأذلَّ الكفار والمشركون المؤمنين؛ لأن الكفار والمشركين سيعصون الله ويحاربون ، والمؤمنون ملتزمون بأمر الله ، فكأن الله قد فرض العبودية على المؤمن به . وأعطى السيادة لغير المؤمن . ثم إن قوى الخير والشر تتصارع في هذا الكون ، وقوى الحق والباطل تتقاتل ، ولا بد من وقفة للحق أمام الباطل ، ولذلك أباح الحق في الأشهر الحرم القتال ، حتى إذا استشرى الباطل تصدى له الحق بالقوة ، ولذلك قال شوقي :
الحَرْبُ في حَقٍّ لَدَيْكَ شريعةٌ ... ومِنَ السُّمُومِ النَّافِعَاتِ دَوَاءُ
إذن : فقد شاء الله أن يوجد من يقاوم الباطل ، وضمن للحق أن يحارب الباطل ويواجهه؛ لذلك لم يشرع تحريم القتال في العام كله . ولكنه شرع هذا التحريم فقط أربعة أشهر يذوق الناس فيها حلاوة السلام ويتوقف فيها القتال وتتاح الفرصة للصلح .
ولقد أوجد سبحانه في الكون سُنَّة ، هي أنه إذا ما التقى حق وباطل في المعركة فالباطل ينهزم في وقت قصير . وإن رأيت معركة تطول سنوات طويلة فاعرف أنه بين باطل وباطل ، وإذا قامت الحرب بين وباطل فإن السماء لا تتدخل ، وأما إذا قامت المعركة بين حق وباطل فإن السماء تنصر الحق على الباطل . ولا تقوم معركة بين حَقَّيْن أبداً؛ لأن الحق في الدنيا كلها واحد ، فلا

يوجد حقان ، بل حق وباطل ، وإن وجد الصراع فإنه لا يطول بينهما؛ لأن الباطل زهوق بطبيعته ، وإن وجدت حرب بين باطلين ، فالسماء توضح لنا أنه لا يوجد باطل منهما أولى بأن ينصره الله على الآخر؛ بل يترك سبحانه هذا الصراع لأسبابهم؛ مما يطيل أمد الحرب .

وحين شرع الله الأشهر الحرم ، ضمن الناس مطلوبات السلام الدائم؛ لأن الناس تنهكهم الحرب ويحبون أن يرتاحوا منها ، فإذا جاءت الأشهر الحرم كانت فرصة للناس ليوقفوا الحرب ، دون أن يشعر أحدهم بالذل والهوان والهزيمة . ونحن نلجأ إلى ذلك أحياناً ، فإذا كنا في بيت يسكنه عدد من الناس – كما يحدث في الريف – وسُرِق شيء ثمين من هذا البيت ، والسارق من السكان ونريد منه أن يعيده دون أن ينكشف أمره فهم يحددون مكاناً معيناً ، وكل واحد من سكان البيت يأتي ليلاً ويضع حفنة من التراب في هذا المكان ، لعل السارق يضع ما سرقه دون أن يعرفه أحد ، وفي هذا ستر له فلا ينفضح أمام الناس .

والأشهر الحرم فرصة للسلام دون أن ينفضح أحد من الأطراف المتحاربة أمام الناس بأنه ضعيف أو غير قادر على الاستمرار في الحرب ، وتتوقف خلالها الحرب وقد ستر الله كل أطرافها ، وتقوى خلالها فرص أكبر للسلام والصلح ، وبذلك تكون فرص السلام أكبر من فرص الحرب بكثير .

ولكن ماذا يحدث عندما يعتدي عصاة غير مطيعين لله على المؤمنين في الأشهر الحرم التي حرم الله القتال فيها؟ إن الحق سبحانه لا يعني بتشريعاته أبداً أن تكون مصدر إذلال للمؤمنين وإعزاز للكافرين؛ ولذلك ينبهنا إلى أننا يجب ألا نسمح لأعداء الله بأن يستغلوا حرمة الأشهر الحرم ليتمادوا في العدوان على المؤمنين ، فأباح للمؤمنين القتال في هذه الأشهر إذا قاتلهم الكفار فيها ، وكذلك في الأماكن المحرَّم فيها القتال ، فقال : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهر الحرام قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ . . . } [البقرة : 217] .

وهكذا أباح الله القتال في الشهر الحرام ليدافع المؤمنون فيه عن أنفسهم إذا بدأهم الكفار بالقتال ، وأباح الحق سبحانه أيضاً القتال في المسجد الحرام إذا قام الكفار بقتال المؤمنين فيه ، رغم أننا نعلم أن تحريم القتال في المسجد الحرام هو تحريم دائم ، ولكن الحق سبحانه وضع استثناء فقال : { وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المسجد الحرام حتى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فاقتلوهم كَذَلِكَ جَزَآءُ الكافرين } [البقرة : 191] .

وهكذا جاء التقنين الإلهي ليحمي المؤمنين من طغيان الكافرين ، فالمؤمنون يلتزمون بعدم القتال في الأشهر الحرم كما أمر الله؛ بشرط التزام الطرف الآخر الذي يقاتلهم ، فإن لم يلتزم الكفار بهذا التحريم ، فسبحانه لا يترك المؤمنين للهزيمة ، وهكذا شاء الحق أن يضع التشريعات المناسبة لهذا الموقف . فإن احترمها الطرفان كان بها ، أما إن خالفها الكفار فقد سمح الله للمؤمنين بالقتال .

وهنا يقول سبحانه :

{ إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ الله } والكتاب يطلق على الشيء المكتوب المدوَّن ، ولا يُدوَّن الكلام إلا إذا كانت له أهمية ما ، أما الأحاديث التي تتم بين الناس فهم لا يكتبونها ولا تُدوَّن . بينما الكلام المهم وحده هو الذي يُكتب حتى يكون حجة في الاستشهاد به في حالة وجود خلاف .

ولكن أين { كِتَابِ الله } الذي كُتِبَ فيه هذا؟

إنه اللوح المحفوظ عند الله ، والمهيمن على كل الكتب التي نزلت في مواكب الرسل ، ويقصد بالكتاب – أيضاً – القرآن الكريم الذي نزلت فيه هذه الآية ، وقد جاء القرآن جامعاً لمنهج الله بدءاً بآدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة . وتغير في القرآن كثير من الأحكام الموجودة في الرسالات السابقة ، أما العقائد فهي واحدة . كما أن القرآن قد تضمن الحقائق الكونية التي لم تكن معروفة وقت نزوله ، والمثال هو قوله الحق : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلة قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج . . . } [البقرة : 189] .

وأيضاً يقول الحق سبحانه : { هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب . . . } [يونس : 5] .

فكأنه ربط السنين والحساب بالقمر ، وهذا الحساب هو من ضمن إعجازات الأداء البياني في القرآن؛ لأن العالم قد بحث عن أدق حساب للزمن ، فلم يجد أدق من حساب القمر ، وكل الأحياء المائية تعتمد في حسابها على الحساب القمري ، والله سبحانه يريد منا حين نقرأ كتاباً أن نتمعن في وضع الألفاظ في موضعها .

فيقول سبحانه :

{ إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ الله يَوْمَ خَلَقَ السموات والأرض } وبعد ذلك يأتي باستثناء هو : { مِنْهَآ } أي من الاثني عشر شهراً { أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلك الدين القيم فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ } ، ولقائل أن يقول : لماذا لم يقل الله : « فيها » بدلاً من { فِيهِنَّ } ما دام قد قال من قبل : { مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ } ؟

ونقول : إن الحق ينهى عن الظلم العام في كل الشهور ، وإن كان المقصود الأشهر الحرم الأربعة ، فالمقصود النهي عن ظلم الحرب . وهنا قاعدة لغوية يجب أن نلتفت إليها؛ وعندنا في اللغة جمع قلة وجمع كثرة؛ جمع القلة من ثلاثة إلى عشرة ، ويختلط الأمر على بعض الناس في مسألة جمع القلة وجمع الكثرة ، وجمع التكسير وجمع الصحيح . فجمع القلة وجمع الكثرة ، غير جمع التكسير ، والجمع الصحيح؛ لأن التكسير هو أن تكسير بنية الكلمة ، فمثلاً بيت جمعها بيوت ، ورسول جمعها رسل؛ هنا كسرْتَ بنية الكلمة أي : غيَّرتها .

أما إن قلت : « مسلم » فجمعها « مسلمون » ، وهنا تضيف « واواً ونوناً » ، ولكن كلمة « مسلم » صحيحة ، أي أننا لم نكسر المفرد . ولكن إن قلت : « سفينة » وجمعها « سفن » تكون قد كسرت المفرد .

وقول الحق هنا : { إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ الله } فما دام العدد هو اثنا عشر شهراً تكون قد زادت عن جمع القلة؛ لأن جمع القلة من ثلاثة إلى عشرة ، وجمع القلة يعاملونه معاملة الجماعة . وإن زاد على عشرة يعاملونه معاملة المفرد المؤنث ، مثل وضع الشهور الأربعة المحرمة في كتاب الله ، ولذلك قال : { فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ } وجاء هنا ب « نون النسوة » للجمع . والقاعدة – كما قلنا – إن جمع القلة يعامل معاملة الجماعة ، فإن كان جمع كثرة عومل معاملة المفرد المؤنث؛ لأن الفرد يكون معصوماً بالجماعة ، أي أنه بمفرده ضعيف . فإن وجد جماعة ينتمي إليها فهو يُحِسُّ بالقوة .

إذن : فالفرد يعصم بالجماعة ، وبهذا تعامل الجماعة كلها كهيئة واحدة ، وهناك شاعر يستهزىء بقوة جماعة ما ، فيقول :

لاَ أُبَالِي بِجَمْعِهِنَّ فَجَمْ ... عُهُنَّ كُلُّ جَمْعٍ مُؤَنَّثِ

إذن : فكل جمع يكون مؤنثاً ، وهذا ما ينطبق على قوله سبحانه وتعالى هنا : { فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ } . وأكرر : إن أردت الظلم العام فإن الله قد حرم الظلم في كل شهور السنة؛ سواء ظلمك لنفسك أم ظلمك للناس ، وإن أردتَ من معنى الكلام تحريم الحرب في الأشهر الحرم تكون : { فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ } قد أتت بالمؤنث .

ومعنى قوله : { فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ } أي : إياكم أن تظنوا أن مخالفتكم لمنهج الله يحدث منها شيء يضر الحق سبحانه ، فكل ما يحدث من ظلمكم لأنفسكم هو أن تضروا أنفسكم أو غيركم ، لكن لن يضر أحدكم الله؛ لأن صفات الله في الكون لا تتأثر أطاع الخلق أم عَصَوا .

ولذلك فإن اتباع منهج الله هو أمر لصالح الناس ، لصالحنا نحن ، فانصرافنا عن المنهج لا يضر الله سبحانه شيئاً ولكن يضرنا نحن ، فكل ما أنزله الله من قيم هو لصالحنا حرباً وسلاماً ، وتحريماً وتحليلاً .

ولكن لماذا خصَّ الحق سبحانه الشمس بحساب اليوم ، والقمر بحساب الشهر؟ وأقول : لأن الله سبحانه يريد أن يوزع الفضل على كل الزمن ، وأن ييسر على الناس أداء مناسكه وما يكلفهم به . فلو حسبت الشهور بالشمس لكان ميعاد الحج كل عام في أشهر الصيف دائماً ، ومن يعيش مثلاً في بلاد باردة إن ذهب إلى الحج صيفاً يتعرض لأخطار شديدة ، فكأنه ليس هناك عدل بين الذين يعيشون في مناطق باردة ، والذين يعيشون في مناطق حارة في أداء مناسك الحج ، فلو كان ميعاد الحج هو الصيف دائماً ، فسوف يؤديه الذين يعيشون في المناطق الحارة بسهولة ، بينما

يؤديه من يحيا في المناطق الباردة بصعوبة ، ولتمام عدل الله بين خلقه نجده سبحانه قد أدار الأشهر القمرية في السنة الميلادية ، فلا يأتي الحج أبداً في طقس واحد ، وبذلك تستوي كل البيئات وكل الناس في أحكام الله .

وأيضا صوم رمضان لو كان يأتي في الصيف دائماً ، لوجدنا بعض الناس سيصومون ثماني أو تسع ساعات ، والذين يعيشون قرب القطب الشمالي يصومون عشرين ساعة في اليوم ، ولكن مجيء رمضان في فصول السنة كلها يجعل أولئك الذين يعيشون قرب القطب الشمالي يصومون مرة تسع عشرة ساعة مثلاً ، ومرة ساعتين أو ثلاثاً ، وهذه تعوض تلك ، فيتم العدل ، وإذا أخذنا متوسط ساعات الصيام بالنسبة لهؤلاء الناس على مدار السنة ، نجد أن فترات صومهم فترة تسع عشرة ساعة وفترات ثلاث ساعات ، وبذلك يتساوون في المتوسط مع أولئك الذين يصومون ثماني أو تسع ساعات يومياً .

ونجد بالحساب أن تقويم الهلال ينقص عن تقويم الشمس بمقدار أحد عشر يوماً وثلث يوم كل عام ، ويكون الفرق عاماً كاملاً كل ثلاث وثلاثين سنة وثلث العام ، أي أن رمضان يأتي مرة في يناير ومرة في فبراير ومرة في مارس ، وكذلك الحج ، وبذلك تتكافأ الفرص بين المؤمنين جميعاً ، فالذين يصومون في الصيف المعروف بيومه الطويل ، يصومون في الشتاء ويومه قصير . والذين يعانون من الصوم في حرارة الجو ، يصومون أيضاً في برد الشتاء ، وهكذا يدور رمضان والحج في شهور العام كله ، وبذلك يتم عدل الله على الجميع بالتشريع الحق ، ويدور التكليف مشقة ويُسْراً وصعوبة وسهولة على جميع المؤمنين .

وإذا نظرنا إلى ربط اليوم بالشمس نجد أن الحق سبحانه وتعالى الذي ربط أوقات الصلاة بالشمس ، كفل لها الدوام التكليفي ، لماذا؟

لأن القمر نراه أياماً ، ولكننا لا نراه في أيام المحاق ، فلو ربطنا الصلاة بالقمر لضاع منا الدوام ، مضافاً إلى ذلك أن القمر يظهر لنا في أوقات غير متساوية؛ فعندما يكون هلالاً لا يظهر للعين في الأفق معدودة ، ولكن الشمس تشرق كل يوم في وقت محدد ، وتغيب كل يوم في وقت محدد ، وهي بضوئها ظاهرة للناس كل الناس من الشروق إلى الغروب ، فلا يجدون مشقة في رؤيتها .

ولذلك فربْطُ الصلاة بالشمس فيه يُسْر التكليف ودوامه ، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الصلاة عماد الدين ، من أقامها أقام الدين » وهي الركن الوحيد من أركان الإسلام الذي لا يسقط أبداً؛ لأن الفقير تسقط عنه الزكاة ، والمريض يسقط عنه الصوم ، وغير المستطيع يسقط عنه الحج ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يكفي أن تقال مرة واحدة في العمر ، ولكن إقامة الصلاة لا تسقط أبداً . إذن فهي عماد الدين ، ولذلك تتكرر خمس مرات يومياً لكل أهل الأرض ، فالصبح في دولة قد يكون ظهراً في دولة ثانية ، وعصراً في دولة ثالثة

ومغرباً في دولة رابعة وعشاء في دولة خامسة؛ وذلك بسبب فروق التوقيت بين دول العالم ، وهكذا تكون في كل لحظة من الزمن جميع أوقات الصلاة قائمة على الأرض ، فيظل الله سبحانه وتعالى معبوداً بالصلاة في كل الزمن في كل بقاع الأرض . وهكذا يرتفع الأذان : الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله في كل لحظة على الأرض .

قد نجد رجلاً أمياً لا يعرف القراءة أو الكتابة ، لكن له إشراقات نورانية ، أفاض الله عليه يقول : يا زمن وفيك كل الزمن ، أي يا فجر وفيك كل أوقات الصلاة على سطح الأرض . ولذلك فظاهر الأمر أن الصلوات خمس ، والحقيقة أن الصلاة دائمة على وجه الأرض في كل ثانية ، ولا يوجد جزء من الزمن إلا والله معبود فيه بعبادات كل الزمن ، أي أنه في كل لحظة تمر نجد الله معبوداً بالصلوات الخمس على ظهر الأرض . وهذا سبب ربط الصلاة بالشمس .

وإذا عرفنا هذه الحقيقة ، وعلمنا أن الكون كله يصلي لله في كل لحظة من الزمن ، فإننا نعلم أن القرآن يتسع لأشياء كثيرة ، وأن كل جيل يأخذ من القرآن على قدر عقله ، فإذا ارتقى العقل أعطى القرآن عطاءً جديداً . وهذا ما يؤكد أن آيات القرآن يتسع إدراكها في الذهن كلما مر الزمن ، فنتنبه إلى معان جديدة لم نكن ندركها .

وعندما يأتي المستشرقون ليقولوا : إن في القرآن تناقضاً في الكونيات .

نقول لهم : مستحيل .

فيقولون : لقد جاء في القرآن : { قَالَ رَبُّ المشرق والمغرب وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ } [الشعراء : 28] .

ويقول : { رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين } [الرحمن : 17] .

ويقول : { فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ المشارق والمغارب . . . } [المعارج : 40] .

وبين هذه الآيات تناقض ظاهر .

ونرد : إن التقدم العلمي جعلنا نفهم بعمق معنى هذه الآيات ، فكل مكان على الأرض له مشرق وله مغرب ، هذه هي النظرة العامة ، إذن فقوله تعالى : { رَبُّ المشرق والمغرب } صحيح ، ثم عرفنا أن الشمس حين تشرق عندي ، تغرب عند قوم آخرين ، وحين تغرب عندي تشرق عند قوم آخرين ، إذن فمع كل مشرق مغرب ومع كل مغرب مشرق ، فيكون هناك مشرقان ومغربان . ثم عرفنا أن الشمس لها مشرق كل يوم ومغرب كل يوم يختلف عن الآخر . وفي كل ثانية هناك شروق وغروب ، إذن فالقسم هنا { بِرَبِّ المشارق والمغارب } ؛ لأن المشارق والمغارب مختلفة على مدار السنة .

فإذا سأل أحدهم : لماذا تخصون القمر لحساب الزمن وتخصون الشمس لحساب اليوم؟ نقول : إن الشمس مرتبطة بعلامة يومية ظاهرة وهي النهار ، واختفاؤها عنك مرتبط بعلامة يومية ظاهرة

وهي الليل . ولكن القمر غير مرتبط بعلامة يومية ، صحيح أن القمر موجود دائماً ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يدركه أو يراه إلا في أوقات محددة .

بعض الناس يقول : إذا كان المقصود بهذه الآية – التي نحن بصدد خواطرنا عنها – هو بيان الأشهر الأربعة الحرم ، فما فائدة باقي أشهر السنة؟

ونقول : إنك لن تستطيع أن تحدد الأشهر الحرم إلا من خلال بيان وتوضيح أمر السنة ومعرفة عدد أشهرها ، وهذا أمر ضروري أيضاً حتى تستطيع أن تحدد الأشهر الأربعة الحرم في العام .

وإلا كيف يمكن أن نميز هذه الأشهر وزمنها؟ لا بد لنا إذن من أن نعلم أن هناك عاماً ، وأن العام فيه اثنا عشر شهراً لنستطيع أن نحدد الأشهر الحرم . والأشهر الحرم منها ثلاثة متتابعة وشهر فرد ، والأشهر المتتابعة هي : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وشهر رجب هو الشهر الفرد . وتحديد الحق لهذه الأشهر الأربعة يعني أنها تتميز بخصوصيات؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لو أراد أن تكون هذه الشهور في أي وقت من السنة لتركها لنا لنحددها بمعرفتنا فنختار أي أربعة أشهر على هوانا ، لنمتنع فيها عن القتال ، ولكن كون الله تبارك وتعالى حددها فذلك لخصوصيات فيها . جاء البعض وقال : ما دام سبحانه وتعالى قد جعل الشهور اثني عشر شهراً وجعل منها أربعة حرماً ، ونحن نريد أن نحارب في شهر المحرم فلنفعل ذلك ونمتنع عن القتال في شهر آخر غيره ، وبذلك نكون قد حافظنا على عدد الأشهر الحرم وهي أربعة كما حددها الله .

ونقول : إنكم حافظتم على العدد ولم تحافظوا على المعدود . ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبين الأربعة الأشهر المقصودة بالآية الكريمة من الاثني عشر شهراً ، لأصبح من حق كل جماعة أن تختار ما تريده من أشهر السنة ، ولكنه صلى الله عليه وسلم خصصها؛ لأننا علمنا بذلك كيف نحافظ على الفرق بين العدد والمعدود .

إن مسألة العدد والمعدود حَلَّتْ لنا إشكالات كثيرة ، منها إشكالات أثارها المستشرقون الذين يريدون أن يسيئوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الزواج كان مطلقاً عند العرب ، ثم حدد الله سبحانه وتعالى عدد الزوجات بأربع ، وأمر النبي عليه الصلاة والسلام الذين كانوا قد تزوجوا بأكثر من أربع زوجات أن يمسك الواحد منهم أربعاً ويفارق الباقيات ، وأضاف المستشرقون تساؤلاً : إذا كان الرسول قد شرع للناس ، فلماذا لم يطبق هذا الأمر على نفسه ، ولماذا اتخذ تسع زوجات؟

ونقول : إننا إذا قمنا بعملية حسابية منصفة ، لوجدنا أنه ليست توسعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما هي تضييق عليه ، فأنت حين تأخذها من ناحية العدد فقط تقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ تسع زوجات وأمته أخذت أربعاً ، ولكنك لم تلاحظ مع العدد المعدود ، أي أنه إذا ماتت زوجاتك الأربع أحلت لك أربع أخريات ، وإن ماتت واحدة أحلت

لك أخرى ، إذن فأنت – كمسلم – عندك عدد لا معدود ، بحيث إذا طَلَّقْتَ واحدة أو اثنتين حلَّت لك زوجة أو زوجتان أخريان ، فأنت مُقيَّد بالعدد ، ولكن المعدود أنت حُرٌّ فيه . أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد نزلت هذه الآية الكريمة : { لاَّ يَحِلُّ لَكَ النسآء مِن بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ . . . } [الأحزاب : 52] .

وهكذا نجد أن التشريع ضَيَّق على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المعدود . وكان استثناؤه عليه الصلاة والسلام في العدد للتشريع ، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتزوج بإرادة التشريع التي يشاؤها الله .

وسبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : { إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ الله يَوْمَ خَلَقَ السموات والأرض } وعرفنا أن قوله سبحانه : { فِي كِتَابِ الله } معناها اللوح المحفوظ أو القرآن ، وقوله تعالى : { يَوْمَ خَلَقَ السموات والأرض } معناه : أنها مسألة لم تطرأ على الكون ، ولكنها محسوبة من قبل أن يُخلقَ الإنسان . فهي إذن مسألة من النظام الكوني الذي خُلق عليه الكون . وهو سبحانه قد خلق الكون بدقة وإحكام ، فكأن الحق يريد أن يلفتنا إلى أن من مهام الشمس والقمر أن يكونا حساباً للزمن؛ لليوم والشهر والعام ، ولذلك يقول سبحانه : { الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ } [الرحمن : 5] .

أي : أنهما خُلِقَا بحساب دقيق ، ويقول سبحانه : { فَالِقُ الإصباح وَجَعَلَ الليل سَكَناً والشمس والقمر حُسْبَاناً } [الأنعام : 96] .

أي : أنه سبحانه يطالبنا بأن نستخدم الشمس والقمر حساباً لنا . وهذا يتفق مع منطق الأمور ، فالشيء الذي تريد أن تتخذه حساباً لنا .

وهذا يتفق مع منطق الأمور ، فالشيء الذي تريد أن تتخذه حسباً لك ، لا بد أن يكون مصنوعاً بحساب دقيق . ولذلك فإن الساعة مثلاً إن لم تكن مصنوعة بدقة فإنها لا تصلح قياساً للوقت؛ لأنها تقدم أو تؤخر . ولكن إن كانت مصنوعة بحساب دقيق فهي تعطيك الزمن الدقيق . إذن : فدقة قياس الزمن تعتمد أساساً على دقة صناعة آلات القياس .

وقبل أن يُنزِلَ الحق هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، كان العرب يعترفون بالأشهر الأربعة الحرم ، ولكنهم كانوا يغيّرون في مواعيدها ، فكانت الجماعة منهم تقاتل الأخرى ، فإذا ما أحسوا بقرب انتصارهم وجاءت الأشهر الحرم قالوا : نستبدل شهراً بشهر ، أي نقاتل في الشهر الحرام ، ثم نأخذ شهراً آخر نمتنع عن القتال فيه ، وحسبوا أنهم ما داموا قد حافظوا على العدد يكونون بذلك قد أدوا مطلوبات الله ، ولكنهم نسوا أنهم لم يحافظوا على المعدود ، ونسوا أن الدين مجموعة من القيم التي لا بد أن نؤمن بها ونطبقها .

والإيمان – كما نعلم – هو انقياد وتسليم لله سبحانه وتعالى ، فإذا أمر الله بأمر من الأمور فلا

اختيار لنا فيه؛ لأنه سبحانه وتعالى يرى بحكمته وعلمه هدفاً أو أهدافاً أو حكمة ، وهنا يجب أن يقف الاختيار البشري ، بمعنى أنه لا أحد يملك تعديل مرادات الله بأي شكل من الأشكال؛ لأننا في حياتنا اليومية حين نرى واحداً من البشر قد اشتهر بحكمته وعلمه في أمر من الأمور أكثر منا ، نقول له : وَكَّلْناكَ في هذا الأمر ، وسنسير وراءك فيما تقرره . ومعنى هذا أننا سنسلم اختيارنا لاختيارات هذا الحكيم .

إننا لا نعطي أحداً هذه الصلاحية إلا إذا تأكدنا بالتجربة أنه عليم بهذه المسألة ، وأنه حكيم في تصرفه .

وإن سألك أحد من الناس : لماذا تتصرف في ضوء ما يقوله لك فلان؟ فتقول : إنه حكيم وخبير في هذه المسائل ، وهذا دليل منك على أنك واثق في علمه ، وواثق في صدقه ، وواثق في حكمته .

والمثال الحي المتجدد أمامنا هو سيدنا أبو بكر رضي الله عنه عندما قيل له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلن أنه نبي الله ، قال أبو بكر رضي الله عنه : إن كان قد قال فقد صدق . قال أبو بكر رضي الله عنه هذا القول؛ لأنه عرف ولمس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكذب قط في كل الأحداث السابقة ، فإذا كان عليه الصلاة والسلام لا يكذب على أهل الأرض أيكذب على السماء؟ طبعاً هذا غير معقول .

وأنت لا تسلم زمام أمرك للمساوي لك إذا كانت هناك مقدمات أثبتت أنه أعلى منك في ناحية معينة ، صحيح أنه مساويك في الفردية وفي الذاتية ، ولكنه أعلى منك علماً في المجال الذي يتفوق فيه .

فما يقوله تنفذه بلا نقاش لأنك وثقت في علمه . وأنت إذا مرضت – لا قدر الله – وكان هناك طبيب تثق في علمه وقال لك : خذ هذا الدواء؛ أتناقشه أو تجادله؟ طبعاً لا ، بل تفعل ما يأمرك به بلا نقاش .

فإذا سألك أحدهم : لماذا تتناول هذا الدواء؟ تقول : لقد كتبه لي الطبيب الذي أثق فيه . وهذا يكفي كحيثية للتنفيذ .

فإذا جئنا إلى الله سبحانه الذي أعدَّ لنا هذا الكون وأنزل إلينا منهجاً وطالبنا أن نُسلِمَ له وجوهنا ، وأن نفعل ما يأمرنا به في كل أمور الحياة ، فإن احتجنا إلى حكمة فهو الحكيم وحده ، وإن احتجنا إلى قدرة فهو القادر دائماً ، وإذا احتجنا إلى قهر فهو القاهر فوق عباده ، وإن احتجنا إلى رزق فهو الرازق ، وعنده كنوز السماوات والأرض . أيوجد من هو أحق من الحق سبحانه لنُسْلمَ زمامنا له ونفعل ما يأمرنا به؟ طبعاً لا يوجد ، وإذا سألنا أحد : لماذا نتبع هذا المنهج؟ نقول : إنه سبحانه قد أمرنا باتباعه . وهذا هو الإسلام الحقيقي؛ أن تسلم اختيارك في الحياة

لمرادات الخالق الأعلى ، فالدين معناه الالتزام والانقياد لله ، ولذلك يقول سبحانه : { ذلك الدين القيم } أي قَيِّم على كل أمور حياتنا ، والدليل على ذلك قائم فيما تحدثنا عنه ، فما دام الله سبحانه وتعالى قد قال ، فنحن نفعل . إذن : فالدين قَيِّم علينا . والدين قَيِّم أيضاً على غيره من الرسالات السماوية ، أي مُهَيْمِنٌ عليها ، وفي هذا يقول الحق : { وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الكتاب بالحق مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكتاب وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ . . . } [المائدة : 48] .

حددت الآية – التي نحن بصدد خواطرنا عنه – أشهراً حُرماً يحرم فيها القتال وحذرت من الظلم بالحرب أو غيرها ، وقد يقال : إن معنى هذا أن تضعف حمية الحرب عند من يريد الحرب ضد الباطل ، فنرى الباطل أمامنا خلال الأشهر الحرم ولا نحارب .

نقول : إن هذا غير صحيح ، ففترة السلام هذه تكون شَحْذاً لِهمَمِ المقاتلين ضد الكفر والظلم؛ لأنك قد ترى الباطل أمامك لكنك تمتثل لأمر الله في وقف القتال ، فإن ذلك يزيد الانفعال الذي يحدثه الباطل في تحديه للنفس المؤمنة ، فإذا انتهت الأشهر الحرم كنت أكثر حماسة . تماماً كالإنسان الحليم الذي يرى إنساناً يضايقه باستمرار فيصبر عليه شهراً واثنين وثلاثة ، فإذا نفذ صبره كان غضبه قوياً شديداً ، وقتاله شرساً ، ولذلك قيل : « اتقوا غضب الحليم »؛ لأن غضبه أقوى من غضب أي إنسان آخر . وكذلك يكون حِلْم المؤمن على الكافر في الأشهر الحرم؛ شحذاً لهمته إذا استمر الباطل في التحدي ، وفي هذا تحذير للمسلمين من أن تضعف في نفوسهم فكرة القتال وعزيمتهم فيه ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

{ وَقَاتِلُواْ المشركين كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً }

وكلمة { كَآفَّةً } هنا سبقها أمران : { وَقَاتِلُواْ } فإلى أي طرف ترجع { كَآفَّةً } هنا؟ هل تُرجعها إلى المؤمنين المقاتلين ، أم إلى المقاتلين من الكفار؟ وهذا إثراء في الأداء القرآني في إيجاد اللفظ الذي يمكن أن نضعه هنا ونضعه هناك فيعطيك المعنى .

ولكن هل يريدنا الحق أن نقاتل المشركين حالة كوننا – نحن المؤمنين – كافة؟ أم نقاتل المشركين حالة كونهم كافة؟ . إن { كَآفَّةً } كما نعرف لفظ لا يُجمَعُ ولا يُثنَّى ، فالرجل كافة ، والرجلان كافة ، والقوم كافة ، وهي مأخوذة من الكف . وتطلق أيضاً على حافة الشيء لأنها منعت امتداده إلى حيز غيره . وفي لغة من يقومون بحياكة الملابس يقال : « كافة الثوب » حين يكون الثوب حين يكون الثوب قد تنسل ، فيقول الحائك بمنع التنسيل بتكفيف الثوب .

والحق سبحانه هنا يقول : { وَقَاتِلُواْ المشركين كَآفَّةً } أي : يأيها المؤمنون كونوا جميعاً في قتال المشركين . وهي تصلح للفرد ، أي : للمقاتل الواحد ، وللمقاتلين ، ولجماعة المقاتلين .

وقوله : { وَقَاتِلُواْ المشركين كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً } ذلك أن الباطل يتجمع مع الباطل دائماً ، والمثال الواضح في السيرة أن يهود المدينة تحالفوا مع الكفار ضد المسلمين ، فكما أن الباطل

يجتمع مع بعضه البعض فاجمعوا أنتم أيها المؤمنون وأصحاب الحق قوتكم لتواجهوا باطل الكفر والشرك .

ويقول الإمام علي كرم الله وجهه : « أعجب كل العجب من تضافر الناس على باطلهم وفشلكم عن حقكم » ويتعجب الإمام علي رضي الله عنه من أن أهل الحق يفرطون في حقهم رغم اجتماع أهل الباطل على باطلهم . ويعطينا القرآن صورة من تجمُّع أهل الباطل في قول اليهود لكفار مكة : { هؤلاء أهدى مِنَ الذين آمَنُواْ سَبِيلاً . . . } [النساء : 51] .

أي أن اليهود قالوا : إن عبدة الأصنام أهدى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه ، قالوا ذلك رغم أن كتبهم قد ذكرت لهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيأتي بالدين الخاتم حتى إنهم كانوا يقولون لأهل المدينة من المشركين : لقد أطل زمان نبي سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . كذلك في كتب أهل الكتاب نبأ رسول الله وأوصافه وزمانه . وعندما تحقق ما في كتبهم كفروا به واجتمعوا مع أهل الباطل .

وهنا يوضح لنا الحق : ما دام الباطل قد اجتمع عليكم وأنتم على الحق فلا بد أن تجتمعوا على دحض الباطل وإزهاقه؛ ولذلك يقول سبحانه وتعالى : { واعلموا أَنَّ الله مَعَ المتقين } إذن : فالله يأمر المؤمنين بأن يجتمعوا على قتال الكافرين ، ولأن الله مع الذين آمنوا؛ لذلك فهو ينصر المؤمنين ، وإذا وُجدَ الله مع قوم ولم يوجد مع آخرين ، فأيُّ الكفتين أرجح؟ لا بد من رجحان كفة المؤمنين . { واعلموا أَنَّ الله مَعَ المتقين }

والعلم – كما قلنا – حكم يقين عليه دليل ، أي لا يحتاج إلى دليل؛ لأن العلم هو أن تأتي بقضية غير معلومة ، م تقيم الدليل عليها لتصبح يقيناً .

وإذا قال الله سبحانه وتعالى : { واعلموا } فالعلم هنا ينتقل من علم يقين إلى عين يقين . والعلم – كما نعرف – قضية معلومة في النفس يؤيدها الواقع وتستطيع أن تقيم عليها الدليل . فإذا علمت بشيء أخبرت به ، ويقينك بما علمت يكون على قدر ثقتك بمن أخبرك .

والمثال : حين قيل لأبي بكر رضي الله عنه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنه أُسْرِيَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعُرِجَ به إلى السماء السابعة ، هنا قال الصدِّيق : إن كان قد قال فقد صدق » ، وكانت هذه هي ثقته في القائل ، وهو يستمد منها الثقة فيما قال وروي .

وحينما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدتنا خديجة رضي الله عنها بخبر الوحي وأبدى خوفه مما يرى ، قالت : « كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصِلُ الرحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتَكْسِبُ المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » ، وهي بذلك قد أخذت من المقدمات حيثيات الحكم وكانت أول مجتهدة في الإسلام عملت بالقياس . فقد قاست الحاضر

بالماضي .

وعندما يقول الحق : { واعلموا أَنَّ الله مَعَ المتقين } فيكفينا أن يكون هذا كلام الله سبحانه ليكون يقيناً في نفوسنا ، وهناك علم يقين يأتيك ممن تثق في علمه وصدقه ، وأنت إن رأيت الشيء الذي أخبرت به وشاهدته يصبح عين يقين ، فإذا اختبرته وعِشْت فيه يصبح حقَّ يقين .

وحين قال الحق : { واعلموا أَنَّ الله مَعَ المتقين } وجدنا بعض المؤمنين قد أخذوها على أنها علم عين يقين ، أو حق يقين؛ لأنهم شاهدوا ذلك في المعارك حين كانوا قلة ، فمن أخذ كلام الله دون مناقشة عقلية – لأن الله هو القائل – أخذه علم يقين . والذي أخذ الكلام على أنه يصل إلى درجة المشاهدة أخذه على أنه حق يقين ، والذي أخذ الكلام كأنه عايشه فهذا عين يقين ، ولكي نعرف هذه المنازل نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : { أَلْهَاكُمُ التكاثر * حتى زُرْتُمُ المقابر * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين } [التكاثر : 1–5] .

وهذه أولى الدرجات : علم يقين؛ لأنه صادر عن الحق سبحانه وتعالى : { لَتَرَوُنَّ الجحيم * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين } [التكاثر : 6–7] .

أي : أنكم في الآخرة سوف تروها بأعينكم بعد أن كنتم مؤمنين بها كعلم يقين ، أما الآن فقد أصبحت عين يقين أي مشاهدة بالعين . وفي هذه السورة أعطانا الحق مرحلتين من مراحل اليقين هما : علم اليقين وعين اليقين ، ففي الآخرة سوف يُضرب الصراط على جهنم ، ويرى الناس – كل الناس ، المؤمن منهم والكافر – نار جهنم ، وهم يمرون فوق الصراط ، ويرونها مشتعلة متأججة ، وحين يمر المؤمن فوق الصراط ويرى جهنم وهولها ، يعرف كيف نجاه الإيمان من هذا العذاب الرهيب فيفرح؛ فإذا دخل الجنة ورأى نعيمها يزداد فرحة؛ فله فرحة بأنه نجا من العذاب ، وفرحة بالنعم وبالمنعم ، ويقول المؤمن : الحمد لله الذي أنقذني من النار .

وهذه نعمة كبيرة وفوز عظيم ، ولذلك يقول الحق : { فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ . . . } [آل عمران : 185] .

فالنجاة من النار وحدها فضل كبير ، ودخول الجنة فضل أكبر ، والحق هو القائل : { وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً } [مريم : 71] .

ويَرِدُ الشيء أي يصل إليه دون أن يدخل فيه ، ويقال : ورد الماء أي وصل إلى مكانه دون أن يشرب منه . إذن فكل منا سوف يرى جهنم ، ويعرف المؤمن نعمة الله عليه؛ لأنه أنجاه منها ، ويندم الكافر؛ لأنه يُعذب فيها .

وقد ضربت من قبل مثلاً – ولله المثل الأعلى – بالقراءة عن مدينة نيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية ، ويعرف القارىء أنه مبنية على عدة جزر ، وفيها ناطحات سحاب وأنها مزدحمة بالسكان ، وهذه القراءة هي علم يقين ، فإذا ركب الإنسان الطائرة ورآها من الجو يكون ذلك

عين يقين ، فإذا ما نزل وعاش على أرضها بين ناطحاتها وعايش ازدحامها بالسكان يكون ذلك حق اليقين .

وفي سورة التكاثر جاء الله سبحانه وتعالى بمرحلتين فقط من مراحل اليقين ، وجاء بالمرحلة الثالثة في سورة الواقعة ، فقال : { فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المقربين * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين * فَسَلاَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضآلين * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين } [الواقعة : 88-95] .

وحقُّ اليقين هو آخر مراحل العلم ، والإنسان قد يكابر في حقيقة ما حين يقرؤها ، وقد يجادل في حقيقة يشاهدها ، ولكنه لا يستطيع أن يكابر في واقع يعيشه ، وقد حدث ذلك وحملته لنا سطور الكتب عن سيدنا عمر وقد قال عن أحد المعارك : « وحينما شهرت سيفي لأقصف رأس فلان؛ وجدت شيئاً سبقني إليه وقصف رأسه » أي : هناك من شاهد ذلك بنفسه .

وبعد ذلك يعطي الله الحكم فيمن يُغيّر الأشهر الحرم أو يُبدلها فيقدمها شهراً ، أو يؤخرها شهراً ، فيقول : { إِنَّمَا النسياء زِيَادَةٌ فِي الكفر يُضَلُّ بِهِ الذين كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً . . . }

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (37)

والنسيء هو التأخير ، فكأنهم إذا ما دخلوا في قتال وجاء شهر حرام قالوا : ننقله إلى شهر قادم ، واستمروا في قتالهم؛ وهم بذلك قد أحلُّوا الشهر الذي كان محرماً وجعلوا الشهر الذي لم تكن له حرمة؛ شهراً حراماً ، وهنا يوضح الحق سبحانه أن هذا العمل زيادة في الكفر؛ لأنه أدخل في المحلل ما ليس منه ، وأدخل في المحرم ما ليس منه؛ لأن الكفر هو عدم الإيمان فإذا بدَّلْتَ وغيَّرْتَ في منهج الإيمان ، فهذا زيادة في الكفر .

ثم يقول سبحانه : { يُضَلُّ بِهِ الذين كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً } و { يُضَلُّ } هنا مبنية للمجهول؛ ومعنى ذلك أن هناك من يقوم بإضلال الذين كفروا ، وهذه مهمة الشيطان؛ لأن هناك فرقاً بين الضلال والإضلال ، فالضلال في الذات والنفس ، أما الإضلال فيتعدى إلى الغير ، فهناك ضال لا يكتفي بضلال نفسه ، بل يأتي لغيره ويضله ويغويه على المعصية بأن يزينها له . ولذلك هناك جزاء على الضلال ، وجزاء أشد على الإضلال ، فإذا كان هناك إنسان ضال فهو في نفسه غير مؤمن ، أي أن ضلاله لم يتجاوز ذاته ، ولم ينتقل إلى غيره . ولكن إذا حاول أن يغري غيره بالضلال والمعصية يكون بذلك قد ضلَّ غيره . ويتخذ بعض المستشرقين هذه القضية مطعناً في القرآن – بلا وعي منهم أو فهم – فيقولون : إن القرآن يقول : { وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى } [فاطر : 18] .

ثم يأتي في آية أخرى فيقول : { وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ . . . } [العنكبوت : 13

.]

فكيف يقول القرآن : إن أحداً لا يتحمل إلا وزره ، ثم يقول : إن هناك من سيتحمل وِزْره ووِزْر غيره؟

ونقول لهم : أنتم لم تفهموا المعنى ، فالأول : هو الضَّالُّ الذي يرتكب المعاصي ولكنه لم يُغْرِ بها غيره ، أي : أنه عصى الله ولم يتجاوز المعصية . أما الثاني : فقد ضلَ وأضل غيره . . أي : أنه لم يكتف بارتكاب المعصية بل أخذ يغري الناس على معصية الله . وكلما أغرى واحداً على المعصية كان عليه نفس وِزْر مرتكب المعصية .

وهنا يقول الحق : { ضَلَّ بِهِ الذين كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً } وطبعاً التحليل والتحريم هنا حدث منهم لظنهم أن هذه مصلحتهم ، أي أنهم أخضعوا الأشهر الحرم لشهواتهم الخاصة ، وخرجوا عن مرادات الله في كونه ، يوم خلق السماوات والأرض .

ولكن لماذا يُحلُّونه عاماً ويُحرِّمونه عاماً؟ تأتي الإجابة من الحق : { لِّيُوَاطِئُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ الله } أي : ليوافقوا عدة ما أحله الله حتى يبرروا ويقولوا لأنفسهم : نحن لسنا عاصين ، فإن كان الله يريد أربعة أشهر حرم ، فنحن قد التزمنا بذلك! ولكن تشريع الله ليس في العدد فقط ولكن في المعدود أيضاً ، وقد حدد لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأشهر الحرم .

وكان عمرو بن لحي أو نعيم بن ثعلبة هما أول من قاما بعملية النسيء هذه ، فأحلَّ شهر المحرم ، وحرَّم غيره وهؤلاء الذين قاموا بهذا العمل كانوا يعرفون أن هناك أربعة أشهر حرم بدليل أنهم أحلوا وحرموا . ولو لم يعرفوها ما أحلوا ولا حرموا ، ولكن هم أرادوا أن يُخضعُوا تشريع الله لأهوائهم . وهذا هو المغزى من تحليل شهر المحرم وتحريم شهر آخر ، وأرادوا بذلك إخضاع مرادات الله لشهوات نفوسهم؛ لأن المحرم ثابت فيه التحريم ، وهو شهر حرام سواء قام الإنسان بتأجيله أم لم يؤجله ، فهو شهر حرام بمشيئة الله لا مشيئة الناس . ولذلك حكم الحق سبحانه على النسيء بأنه زيادة في الكفر؛ لأنك حين تؤخر حرمة شهر المحرم إلى شهر غيره ، تكون قد قُمْتَ بعمليتين؛ أحللت شهراً حراماً وهذا كفر ، وحرمت شهراً حلالاً وهذا كفر آخر . . أي : زيادة في الكفر . ثم يقول الحق سبحانه : { لِّيُوَاطِئُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ الله فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ الله } وقد حكم الله عليهم بالكفر بأنهم أحلوا ما حرمه الله .

ثم يقول الحق : { زُيِّنَ لَهُمْ سواء أَعْمَالِهِمْ } والتزيين : هو أمر طارئ أو زائد على حقيقة الذات مما يجعله مقبولاً عند الناس ، فالمرأة مثلاً لها جمال طبيعي ، ولكنها تتزين . إذن : فالتزيين تغيير في المظهر وليس في الجوهر . وهناك تزيين في أشياء كثيرة ، تزيين في الفكر مثلاً ، بأن يكون هناك استعداده للقتال فيأتي القائد فيزين للمقاتلين دخول المعركة ، ويقول : أنتم ستنتصرون في ساعات ، ولن يصاب منكم أحد وسيفِرّ عدوكم؛ هذا تزيين محمود .

ولذلك أراد الحق أن يكشف لنا حقيقة التزيين الذي قاموا به حين حللوا حرمة الأشهر الحرُم ، وكشف لنا سبحانه أن هذا لون من التزيين غير المحمود فقال : { زُيِّنَ لَهُمْ سواء أَعْمَالِهِمْ والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين } وما دام قد زُيِّن لهم السوء فهذا العمل قد خرج عن منطقة الهداية ، وخرج عن نطاق التزيين المحمود إلى التزيين السيىء . وما داموا قد خرجوا عن هداية الله فلن يعينهم الله؛ لأنه سبحانه لا يعين من كفر ، ولا يعين من ظلم ، ولا يعين من فسق .

ولذلك قال سبحانه : { والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين } أي : أنهم بكفرهم قد أخرجوا أنفسهم عن هداية الله ، فالحق سبحانه لم يمنع عنهم الهداية ، بل هم الذين منعوها عن أنفسهم بأن كفروا فأخرجوا أنفسهم عن مشيئة هداية الله لهم ، وهذا ينطبق فقط على هداية المعونة ، ونحن نعلم أن لله سبحانه هداية دلالة وهداية معونة؛ هداية الدلالة هي للمؤمن وللكافر ، ويدل الله الجميع على المنهج ، ويريهم آياته ، وتبلغ الرسل منهج السماء الذي يوضح الطريق إلى رضاء الله والطريق إلى سخطه وعذابه . فمن آمن بالله دخل في مشيئة هداية المعونة ، فيعينه الله في الدنيا ويعطيه الجنة في الآخرة . أما من يرفض هداية الدلالة من الله ، فالله لا يعطيه هداية المعونة؛ لأن الكفر قد سبق من العبد .

وكذلك الظلم والفسق ، فيكون قد منع عن نفسه هداية المعونة بارتكابه لتلك الآثام .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين } [التوبة : 37] . { والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين } [التوبة : 19] . { والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين } [التوبة : 24] .

إذن : هم الذين قدَّموا الكفر والظلم والفسوق ، فمنعوا عن أنفسهم هداية المعونة التي قال الحق عنها : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } [محمد : 17] .

وبعد أن طلب الحق سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يواجهوا الباطل جميعاً ، كما يجتمع الباطل عليهم ويقاتلهم جميعاً . يقول سبحانه : { ياأيها الذين آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفروا فِي سَبِيلِ الله اثاقلتم . . . }

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38)

وساعةَ تسمع { ياأيها الذين آمَنُواْ } فهذا نداء خاص بمن آمن بالله؛ لأن الله لا يكلف من لم يؤمن به شيئاً ، ولكنه كلف الذين آمنوا ، فلا يوجد حكم من أحكام منهج الله فيه تكليف لكافر أو غير مؤمن . ولكن أحكام المنهج موجهة كلها للمؤمنين . ولذلك ساعةَ تسمع : { ياأيها الذين آمَنُواْ } تعرف أن الله يخاطب أو يأمر من آمن به؛ لأنك أنت الذي آمنت باختيارك

، ودخلتَ على الإيمان برغبتك ، فالحق سبحانه لم يأخذك إلى الإيمان قهراً ، ولكنك جئت للإيمان اختياراً ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى لك : ما دُمْتُ قد آمنت بي إلهاً قادراً قيُّوماً ، له مطلق صفات الكمال ، فاسمع مني ما أريده لحركة حياتكَ .

ولا يحسب أحد أنه قادر على أن يدخل في الإيمان ولا ينفذ المنهج ، ولا يحسب أحد أنه قادر أن يضر الله شيئاً ، وسبق أن ضربنا المثل بالمريض الذي يختار أبرع الأطباء ، ولم يجبره أحد على أن يذهب إليه ، وأجرى الطبيب الكشف على المريض ، وحدد الداء وكتب الدواء ، ولكن المريض بعد أن خرج من العيادة أمسك بتذكرة الدواء ومزقها ، أو أنه اشترى الدواء ولم يتناوله . أيكون بذلك قد عاقب الطبيب أم عاقب نفسه؟

إن الطبيب لن يتأثر ولن يضره شيء مما فعله هذا المريض ، ولكنه هو الذي سيزداد عليه المرض ويقود نفسه إلى الهلاك ، وكذلك الإنسان إن لم يتبع منهج الله ، فإنه يضيع نفسه ويُغرقها في الشقاء؛ لأن الحق سبحانه قد وضع هذا المنهج وفيه علاج لكل أمراض الإنسان ، فإن عمل به الإنسان نجا من بلاء الدنيا ، وإذا عمل به مجتمع لن يظهر فيه الشقاء . بل يمتلىء بالرخاء والأمن والطمأنينة ، ومن لم يعمل به فلن يضر الله شيئاً ، بل يحصل على الشقاء ويهلك نفسه .

وحين يخاطب الحق سبحانه الذين آمنوا يوضح : خذوا مني هذا التكليف ففيه سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة ، ولهذا نجد أن الحق سبحانه وتعالى لا يذكر أمراً من أوامره بأي تكليف أو نهياً من نواهيه ، إلا مسبوقاً بقوله سبحانه : { ياأيها الذين آمَنُواْ } مثل قوله تعالى : { ياأيها الذين آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام . . . } [البقرة : 183] .

وقوله سبحانه : { ياأيها الذين آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القصاص . . . } [البقرة : 178] .

وهذه التكليفات لمَ تأتِ مبنية للمعلوم ، فمن الذين يكتب؟ إنه الحق سبحانه ، كما أنها صيغة مبنية دائماً لما لم يُسَمَّ فاعله ، أي : أن الكتابة أتت من كثير . ونقول : صحيح أن الله سبحانه وتعالى هو الذي كتب ، فلماذا لم يقل : يأيها الذين آمنوا كتبتُ عليكم . ولماذا يقول : { ياأيها الذين آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام } ؟ . ونقول : لأن الله وإن كان قد كتب ، إلا أنه لم يكتبها على كل خلقه ، بل كتبها على الذين آمنوا به ، وأنت بإيمانك أصبحت ملتزماً بعناصر التكليف ، فكأن الحق سبحانه لم يكتب ثم يلزمك ، ولكن التزامك تم في نفس اللحظة التي دخلت فيها باختيارك في الإيمان .

وبذلك تكون كل هذه الأحكام قد كُتِبتْ علينا باختيار كل منا ، فمن لم يَخْتَرْ الإيمان ليس مكتوباً عليه أن ينفذ أحكام الإيمان؛ لأنها لا تُنفذ إلا بالعقد الإيماني بيننا وبين الحق سبحانه؛ وقد احترم سبحانه دخولنا في هذا العقد ، فلم ينسبه لذاته العلية فقط ، بل شمل أيضاً كل مَنْ دخل في الإيمان .

ولذلك فإن سأل أحد عن حكمة التكليف من الله ، نقول له : إن الحكمة تنبع من أنه سبحانه هو الذي كَلَّف . ثم إن معرفة الحكمة لا تكون إلا من المساوي للمساوي ، فإن ذهب المريض إلى الطبيب وكتب له الدواء ، وظل المريض يناقش الطبيب في الدواء وفوائده؛ فالطبيب يرفض المناقشة ، ويقول للمريض : ادخل كلية الطب واقْضِ فيها سبع سنوات ، واحصل على الدرجات العلمية ، ثم تَعَالَ وناقشني .

إذن : فأنت تربط علة التكليف بأمر المكلف ، مع أن المكلف من البشر قد يخطئ . أما إذا جئنا بمجموعة من الأطباء ليكشفوا على مريض احتار الطب فيه ، ثم جلسوا بعد الكشف يتناقشون ، فكل منهم يقبل مناقشة الآخر؛ لأنه مُسَاوٍ له في الفكر والثقافة والعلم إلى آخره ، لكن إنْ أردتَ أن تسأل عن الحكمة في تكليف من الله فلن تجد مساويًا لله سبحانه وتعالى ، وبذلك تكون المناقشة مرفوضة .

إذن : فالمكلف لا بد أن تكون له منزلة سابقة على التكليف ، ومنزلة الحق أنك آمنت به ، ولهذا أرى أن البحث عن أسباب التكليف هو أمر مرفوض إيمانياً ، فإذا قيل : إن الله فرض الصوم حتى يشعر الغني بألم الجوع؛ ليعطف على الفقير ، نقول : لا ، وإلا سقط الصوم عن الفقير؛ لأنه يعرف ألم الجوع جيداً . وإذا قيل لنا : إن الصوم يعالج أمراض كذا وكذا وكذا . نقول : إن هذا غير صحيح ، وإلا لما أسقط الله فريضة الصوم عن المريض في قوله تعالى : { وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ . . . } [البقرة : 185] .

فإذا كان الله قد أباح للمريض أن يفطر ، فكيف يأتي إنسان ويقول : إن علة فرض الصوم هي شفاء الأمراض؟ كما أن هناك بعض الأمراض لا يُسْمَح معها بالصوم .

إذن : فنحن نصوم لأن الله فرض علينا الصوم ، وما دام الله قد قال فسبب التنفيذ هو أن القول صادر من الله سبحانه ، ولا شيء غير ذلك ، فإذا ظهرت حكمة التكليف فإنها تزيدنا إيماناً ، مثلما ثبت ضرر لحم الخنزير بالنسبة للإنسان؛ لأن لحم الخنزير مليء بالميكروبات والجراثيم التي يأكلها مع القمامة ، ونحن لا نمتنع عن أكل لحم الخنزير لهذا السبب ، بل نمتنع عن أكله لأن الله قد أمرنا بذلك ، ولو أن هذه الحكمة لم يكشف عنها الطب ما قَلَّلَ هذا من اقتناعنا بعدم أكل لحم الخنزير؛ لأننا نأخذ التكليف من الله ، وليس من أي مصدر آخر .

ونعود إلى خواطرنا حول الآية الكريمة : { يأيها الذين آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفروا فِي سَبِيلِ الله اثاقلتم إِلَى الأرض } ، ونجد كلمة : { مَا لَكُمْ } تأتي حين نتعجب من حال لا يتفق مع حال ، وكأن حرب المؤمنين للكفار أمر متوقع وتقتضيه الحال؛ لأن المؤمنين حين يقاتلون الكفار إنما يدخلون شيئاً من اليقين على أهل الاستقامة ، فأهل الاستقامة إن لم يجدوا من يضرب على أيدي الكافرين فقد ينحرف على أيدي الكفار ، فإنه بفعله هذا يريب في المؤمن إيمانه؛ لأنه يرى عدوه

وهو يتلقى النكال . كأن تقول للتلميذ : ما لك تهمل في مذاكرتك وقد قَرُبَ الامتحان؟ أي : أن المفروض أنه إذا قرب الامتحان لا بد أن يجتهد الطالب في المذاكرة . فإن أهمل التلميذ عمله فنحن نتعجب من سلوكه؛ لأنه لا يتفق مع ما كان يجب أن يحدث . وبذلك نستنكر أن يحدث مثل هذا الإهمال ، مثلما نستنكر ونتعجب من مريض يترك الدواء بينما هو يتألم .

ويتعجب الحق سبحانه هنا من تثاقل المؤمنين حين يُدْعَوْنَ إلى القتال؛ لأن قوة الإيمان تدعو دائماً إلى أن يكون هناك استعداد مستمر للقتال ، وهذا الاستعداد يخيف الكفار ويمنع عدوانهم واستهتارهم بالمؤمنين أولاً ، كما أنه ثانياً يجعل المؤمنين قادرين على الرد والردع في أي وقت . ويعطي ثالثاً شيئاً من اليقين للمجتمع المؤمن عندما يرى أن هناك من يضرب على يد الكافرين إذا استهانوا بمجتمع الإيمان وحاولوا أن يستذلوا المؤمنين .

إذن : فَلِكَيْ يبقى المجتمع المؤمن قوياً وآمناً؛ لا بد أن يوجد استعداد دائم للقتال في سبيل الله ورغبة في الشهادة ، وهنا يقول الحق : { مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفروا فِي سَبِيلِ الله } فكأن الاستعداد المستمر للقتال في سبيل الله أمر لا بد أن يوجد بالفطرة وبالعقل ، فإذا ضَعُفَ هذا الاستعداد أو قَلَّ صار هذا الأمر موطناً للتعجب؛ لأن المؤمنين يعرفون أن مجتمع الكفر يتربص بهم دائماً ، وعليهم أن يكونوا على استعداد دائم مستمر للمواجهة ، ويستنكر الحق أن يتثاقل المؤمنون إذا دُعُوا للقتال في سبيل الله أو أن يتكاسلوا .

وقوله سبحانه : { انفروا } من « النفرة » وهي الخروج إلى أمر يهيج استقرار الإنسان ، فحين يكون الإنسان جالساً في مكانه ، قد يأتي أمر يهيجه فيقوم ليفعل ما يتناسب مع الأمر المهيج ، فأنت مثلاً إذا رأيت إنساناً سيسقط في بئر ، فهذا الأمر يهيجك ، فتنطلق من مكانك لتجذبه بعيداً ، ومنه النُّفْره التي تحدث بين الأحباب الذين يعيشون في وُدٍّ دائم ، وقد يحدث بينهم أمر يُحوِّل هذا الود إلى جَفْوة .

إذن : فكلمة { انفروا } تدل على الخروج إلى أمر مهيج ، وهو المنطق الطبيعي الذي يجب أن يكون؛ لأن عمل الكفار يهيج المؤمنين على مواجهتهم .

وقول الحق سبحانه : { انفروا } يدل على الاستفزاز المستمر من الكفار للمؤمنين . ويقول الحق تعالى : { مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفروا فِي سَبِيلِ الله اثاقلتم } .

والثقل معناه : أن كتلة الشيء تكون زائدة على قدرة من يحمله ، فإن قلت : إن هذا الشيء ثقيل فهذا يعني أن وزنه مثلاً أكبر من قوة عضلاتك فلا تستطيع أن تحمله . أما التثاقل فهو عدم موافقة الشيء لطبيعة التكوين . كأن تقول : فلان ثقيل أي أن وزنه ضخم ولا يستطيع أن يقوم من مكانه إلا بصعوبة ، ولا أن يتحرك إلا بمشقة .

ولكن التثاقل معناه تكلف المشقة ، أي : لك قدرة على الفعل ، ولكنك تتصنع أنك غير قادر

، كأن يكون هناك – على سبيل المثال – شيء وزنه رطل ، ثم تدَّعي أنه ثقيل عليك ولا تستطيع أن تحمله .

إذن : فقوله تعالى : { اثاقلتم إِلَى الأرض } أي : تكلفتم الثقل بدون حقيقة ، فأنتم عندكم قدرة على القتال ولكنكم تظاهرتم بأن لا قدرة لكم .

وهكذا نعرف أن الموقف يقتضي النفرة ليواجهوا الكفر؛ لأن المنهج الذي ارتضوه لأنفسهم والتزموا به يحقق السلامة والأمن والاطمئنان لهم ولغيرهم ، وكأن التثاقل إلى الأرض له مقابل ، فالنفرة تكون في سبيل الله ، والمقابل في سبيل الشيطان أو في سبيل شهوات النفس .

لقد تحدث العلماء في المسائل التي تجعل الإنسان يُقبِلُ على المعصية ، وهي النفس التي تُحدِّث الإنسان بشيء ، فالإنسان يقبل على المعصية بهذين العاملين فقط . فما الفرق بين الاثنين؟ وكيف يتعرف الإنسان على ذلك؟ قال العلماء : إذا كانت النفس تُلحُّ عليك أن تفعل معصية بعينها بحيث إذا صرفتها عنها عادت تُلِحُّ عليك لاقتراف نفس المعصية لتحقق متعة عاجلة ، فهذا إلحاح من النفس الأمَّارة بالسوء .

ولكن الشيطان لا يريد منك ذلك ، إنه يريدك مخالفاً لمنهج الله على أي لون ، فإذا استعصى عليه أن يجذبك إلى المال الحرام ، فهو يزين لك شهوة النساء ، فإذا فشل جاء من ناحية الخمر . إذن : فهو يريدك عاصياً بأي معصية ، ولكن النفس تريدك عاصياً بنفس المعصية التي تشتهيها . وهذا هو الفرق .

وهكذا نعرف أن هناك واقعين ، واقعاً يدعو المؤمنين إلى قتال الكفار الذين يفسدون منهج الله في الأرض ، وواقعاً يدعوهم إلى أن يتثاقلوا عن هذا القتال ، وذلك إما بسبب حب الدنيا لتحقيق شهوة النفس أو إغراء الشيطان ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { أَرَضِيتُمْ بالحياوة الدنيا مِنَ الآخرة } والرضا هو حب القلب ، فيقال : فلان رَاضٍ لأنه مسرور بالحال الذي هو فيه .

ومعنى تثاقل المؤمنين عن القتال في سبيل الله ، أن هناك شيئاً قد غلب شيئاً آخر في داخل نفوسهم ، فالرضا بالحياة الدنيا قد تغلَّبَ على حب الآخرة . ولكن المنطق الإيماني يقول : إنه إذا كان هناك أمر آخر غير الدنيا ، أو حياة أخرى غير حياتنا الدنيوية ، فلا بد أن نقارن بين ما تعطيه الدنيا وبين ما تعطيه الآخرة ، فإذا رضينا بما تقدمه لنا هذه الحياة المادية ، يكون المؤمن بلا طموح وبلا ذكاء؛ لأنه رضي بمتاع قليل زائل وترك متاعاً أبدياً ممتداً بقدرة الله .

وأنت لو نظرت إلى الدنيا نظرة فاحصة ، تجد أنها متغيرة متبدلة ، فالصحيح يصبح مريضاً ، والغني يصبح فقيراً ، والقوي يصبح ضعيفاً .

إذن : فمتاع الدنيا متغير ولا عصمة لك فيه ، وأنت لا تستطيع أن تعصم نفسك من المرض أو من الضعف أو من الفقر؛ لأن هذه كلها أغيار تحكمك ولا تحكمها أنت؛ تقهرك ولا تستطيع

أنت أن تقهرها . فإن رضيت بمتاع الدنيا اليوم فأنت لا تضمن استمراره إلى غد .
ولهذا ينبغي ألا تؤخر تنفيذ ما يكلفك به الله؛ لأنك الآن تستطيع أن تؤديه ، لكن أنت لا تضمن إن كنت قادراً غداً أم لا . كذلك لا تأخذ التكليف على أنه قد يسلبك حريتك أو مالك ، بل هو يسلبك ويعطيك في نفس الوقت . فإذا أمر الله سبحانه بأن تُخرِجَ الزكاة ، قد تعتقد أن هذا يُنقصُ مالك ، أو تقول : هذه غرامة . نقول : إن هذا في ظاهر الأمر قد يكون صحيحاً ، ولكنه سبحانه يأخذ منك هذا المال فيزيده لك ويُنميه فإذا بالجنيه الواحد قد تضاعف إلى سبعمائة مِثْل ، ثم تضاعف إلى ما شاء الله ، كما أن هذا الحكم الذي يأخذ منك الآن وأنت غني ، هو بذاته الذي سوف يعطيك إن افتقرتَ ولجأت إلى الناس . فإذا كان الحكم الذي سيأخذ هو الذي سيعطي تكون هذه عدالة وتأميناً ضد الأغيار ، وعليك أن تقارن الصفقة النفعية بمقابلها ، وساعةَ تعطي أنت الذي لا يملك ، لا بد أن تتذكر أنه قد يأتي عليك يَوْمٌ لا تملك فيه .
وكلمة دنيا بالنسبة لحياتنا أعطتنا الوصف الطبيعي الذي ينطبق عليها؛ لأن « الدنيا » مقابلها « العليا » . والحياة العليا تكون في الآخرة . فإذا كانت هذه هي الحياة الدنيا . فلماذا تربط نفسك بالأدنى إلا أن يكون ذلك خَوَراً في العزيمة؟
والمثال للقوة الإيمانية هو : سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وكان قبل أن يصبح خليفة المؤمنين يرتدي أفخر الثياب ويتعطر بأجمل العطور ، وكان الناس يدفعون أموالاً لمن يغسل ثياب عمر بن عبد العزيز ليدخلوا ثيابهم مع ثيابه حتى تمتلئ عطراً . وذلك من غزارة وجود العطر الذي كان يضعه عمر بن عبد العزيز على ثيابه فتخرج كل الثياب مليئة بالعطر . وعندما أصبح عمر بن عبد العزيز خليفة ، كانوا يأتونه بالثوب الخشن الذي كان يرفض ارتداءه قبل الخلافة ، فيرفضه ويقول : هاتوا أخشن منه ، وامتنع عن العطر ، أي : أن معاييره قد تغيرت وليس في هذا أدنى تناقض ، بل هو علو في الحياة ، ولذلك قال : اشتاقت نفسي إلى الإمارة فقلت لها : اقعدي يا نفْسُ ، فلما نلْتُهَا اشتاقت نفسي إلى الخلافة فنهيتها عن ذلك ، فلما نلْتُها؛ أي نال الخلاَفة ، اشتاقت نفسي إلى الجنة فسلكتُ كل طريق يؤدي إليها .

وهكذا نعرف أن سلوكه رضي الله عنه لم يكن في تناقض بل تعلية للصفقة الإيمانية . كان دائماً في علو يريد أن يواصله ، فقد اشتاق أولاً إلى الإمارة ، فلما تحققت أراد أن يعلو فاشتاق للخلافة ، فلما تحققتْ أراد أن يعلوَ فاشتاق إلى الجنة ، إذن : فهو دائماً في عُلُوٍّ .
وأقول : ليس في سلوكه أدنى تناقض؛ لأن علماء النفس يفسرون التناقض في السلوك البشري على أنه اختلاف في المقارنة ، فالإنسان يقارن بشيء ثم يقارن بشيء آخر وهكذا؛ لأن كل شيء في الدنيا نسبي . ومعنى النسبية أن ينسب الشيء لما حوله ، فإذا قلت : إنني أسكن فوق فلان ، فأنت في نفس الوقت تسكن تحت فلان الذي يعيش في الطابق الذي يعلوك .

إذن : فأنت فوق فلان وتحت فلان في نفس الوقت ، فلا تأخذ نقطة وتغفل عن الأخرى ، وهذا اسمه « معنى إضافي » أي : أن المعاني لا تتحقق بذاتها ، ولكن بالنسبة إلى شيء تقاس به ، وكذلك المقاييس بين الأشياء يجب أن نقيسها بالأمور التي تُصعد لك القيمة . فأنت إذا نظرت إلى الدنيا؛ تجد أن الحق سبحانه أسماها : دُنْيا ولم يجد اسماً أقلَّ من هذا ليسميها به ، لماذا؟ لأنك تتنعم في الدنيا على قدر وجودك فيها ، أي على قدر عمرك ، وهو مهما زاد وطال فهو سنوات معدودة ، وقد يكون متاعك منها حتى سنِّ الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين . أو أكثر من ذلك أو أقل . ومتاعك فيها بما تحققه قدراتك ، فالذي عنده ألف جنيه يتمتع على قدرها ، والذي عنده عدة ألوف متاعه على قدرها ، وصاحب الملايين متاعه أكبر .

إذن : فكل واحد يتمتع بقدر ما عنده من مال . وحتى إن وصل الإنسان إلى أعلى متاع في الدنيا؛ متاع صاحب الملايين ، فهذه الملايين إما أن تزول عن صاحبها ، وإما أن يترك هو هذه الملايين بالموت . وهذه تتحقق وهذه تتحقق . إذن : فنعمة الدنيا إما أن تنخلع منك أو تنخلع أنت منها .

فإذا جئتَ إلى المقابل وهو الآخرة تجد أن النعيم فيها دائم لا يزول عنك ، وأنت خالد لا تزول عن النعمة بالفناء أو الموت ، وأنت لا تتمتع في الآخرة بقدراتك أنت ، بل بقدرة الله سبحانه . فكأن المتاع أكبر كثيراً من قدرتك ، وأعلى كثيراً من كل ما تستطيع أن تحققه . فمثلاً : إن كان معك ريال وجاءك رجل فقير فأعطيته له ليأكل به ، تكون في ظاهر الأمر قد آثرتَ الفقير على نفسك؛ لأنك أعطيته كل ما تملك ليأكل به وحرمت نفسك منه ، ولكنك في الحقيقة فضَّلْتَ نفسك على الفقير؛ لأنك أعطيته هذا الريال ليكون عند الله عشرة إلى سبعمائة ضعف ، فمَنْ منكما الذي استفاد؟ ومَنْ منكما الذي انتفع؟ إنه أنت .

ولذلك نجد أن الدين الصحيح ضد الأنانية الحمقاء ، ويُعْلي فيك الأنانية العاقلة بأن يجعلك تحب نفسك حباً أعلى . فأنت حين تتصدق تحب نفسك ، ولذلك تريد أن تعطيها الأعلى والأنفع . فظاهر الأمر أنك أعطيت ، وفي حقيقته أنك قد أخذت . وأنت حين تعطي إنساناً مساوياً لك كأن تقدم له هدية في مناسبة معينة ، تنتظر أن يرد إليك الهدية بمثلها في مناسبة أخرى . إذن : فالعطاء مُتَساوٍ ، وقد يرد هذا الإنسان الهدية ، وقد لا يردها . وقد ينوي ردها ولكن تصادفه ظروف لا تُمكِّنه من أن يردها لك . لكن الحق سبحانه يقول : { مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً . . . } [البقرة : 245] .

إذن : فحينما تعطي ابتغاء وجه الله فأنت لا تحصل على عطاء مُسَاوٍ لما أعطيت . لكنك تحصل على عطاء مضاعف أضعافاً مضاعفة . والذي يعطيك الثواب هو الله سبحانه وتعالى دائم الوجود ، ولن ينفد عطاؤه لك؛ لأنه دائم القدرة ، ولن يأتي عليه وقت يكون غير قادر على أن

يرد لك ما أعطيت؛ لأن عنده كنوز السماوات والأرض؛ وهو سبحانه قادر على أن يضاعف لك مهما كانت قيمة عطائك . فإن فضَّلْتَ الحياة الدنيا على الآخرة ، فأنت تقيس بمقاييس الكمال عندك وهي مقاييس ساقطة وهابطة ، ولو كنت تملك المقياس الصحيح لعرفتَ أن الذي يحقق لك النفع الأكبر هو أن تعطي وتعمل طلباً للآخرة وليس للدنيا . ولذلك فالحق سبحانه يقول هنا : { أَرَضِيتُمْ بالحياوة الدنيا مِنَ الآخرة } أي : أنكم أردتم الحياة الدنيا بدل الآخرة . وهذه مقارنة غير عاقلة وغير حكيمة .

وكلمة { مِنَ } تدل على البدل في قوله : { بالحياوة الدنيا } ومادة البدل والاستبدال البيع والشراء ، ونعرف أن الباء تدخل على المتروك ، فأنت تقول : اشتريت الشيء بكذا درهم ، أي : تركت الدراهم مقابل شرائك الشيء ، كأن هؤلاء الراضين بالحياة الدنيا قد أخذوا الدنيا بدلاً من الآخرة ، وهذه صفقة تخلو من العقل والحكمة .

وبعد أن استنكر الله سبحانه وتعالى على المؤمنين أن يرضوا بالحياة الدنيا ويتركوا الآخرة يقول سبحانه : { فَمَا مَتَاعُ الحياوة الدنيا فِي الآخرة إِلاَّ قَلِيلٌ } والمتاع : هو ما يستمتع به . والإنسان لا يستطيع أن يوقن أنه سيستمتع بالحياة ، وهذا أمر مطعون فيه ، فليس كل كائن حي مستمتعاً بالحياة ، هناك أشقياء وهناك تعساء ، وهناك مَنْ يُدريهم ماذا يحمل المستقبل لهم؟ ألا يمكن أن يكون استمتاعهم هذا وقتياً؟ ألا يمكن أن يأتيهم ظرف من الظروف؛ أو قدر من الأقدار يملأ حياتهم بالشقاء؟

إننا نجد العقلاء – حين يرون في نعمة الله عليهم ما يكدر حياتهم – يشكرون الله ، بينما نجد الإنسان السطحي التفكير والفهم يستاء وينفعل ويزيد الموقف معاناة .

العاقل – إذن – يعرف أن الإنسان يعيش في دنيا أغيار ، ومعنى أننا نعيش في دنيا أغيار أنه تأتي أحداث تنقلنا من حال إلى حال ، أي من الغنى إلى الفقر . أو من الصحة إلى المرض إلى غير ذلك من أحوال الدنيا المتقلبة المتغيرة ، ففي الدنيا لا يدوم حال ، وما دامت الدنيا أغياراً؛ فأحوال الناس تتغير فيها دائماً .

وهَبْ أن إنساناً وصل إلى القمة التي لا يوجد أعلى منها . نقول له : لا داعي أن يأخذك الفرح والكبر والخيلاء ، ولا تنس أنك تعيش في دنيا أغيار ، وأن دوام الحال من المحال ، فلو دامت لغيرك ما وصلتَ أنت إلى القمة؛ لأن مَنْ كان عليها سقط فصعدتَ أنت .

إذن : فمعنى هذا أنك وإن وصلتَ للقمة فلن تثبت عليها وتبقى هكذا بلا تغيير . وما دمتَ قد وصلت إلى أعلى ما يمكن ، فالتغيير الوحيد الذي يمكن أن يحدث لك هو أن تنزل؛ لأنك وصلت إلى قمة الصعود ، ولم يَعُدْ بعدها شيء تصعد إليه . فالتغيير المتوقع لا بد أن يكون إلى أسفل ، ويقال : « ترقَّبْ زَوالاً إذا قِيل تَمّ » ، ولهذا نجد أهل الحكمة والبصيرة يقولون : إن

المصائب في الأموال والأنفس من تمائم النعمة ، وكأن الحق لا يريد أن يتمم النعم؛ لأنه إن تمت تزول؛ لأن المصيبة ما دامت قد حدثت فلا بد أن تزول .

وسبحانه حين يقول : { فَمَا مَتَاعُ الحياوة الدنيا فِي الآخرة إِلاَّ قَلِيلٌ } يريد أن يبين لنا أن متاع الآخرة أكبر ، فأنت حين تقول : شيء في شيء . فأيهما يكون أكبر؟ إنه الذي يدخل فيه الشيء الآخر ، فإذا قلنا : فلان في البيت ، فمعنى ذلك أن البيت أكبر من فلان هذا ، وإلا لما احتواه داخله . وإن قلنا : محمد في جدة أو في المملكة السعودية أو في مصر؛ يكون هناك ظرف ومظروف ، والمظروف عادة أوسع من الظرف ، وسعته كبيرة لدرجة أنه تحيط بالظرف من كل جوانبه .

وقول الحق سبحانه : { فَمَا مَتَاعُ الحياوة الدنيا فِي الآخرة إِلاَّ قَلِيلٌ } معناه : أن متاع الدنيا يتوه في متاع الآخرة؛ لأن متاع الآخرة أوسع ويحتوي متاع الدنيا ويزيد ، وما دام الكلام بقدرة الله سبحانه وتعالى ، فمعنى ذلك أن سعة متاع الآخرة بالنسبة لمتاع الدنيا لا نهائية . فإذا زاد الحق سبحانه وقال : { فَمَا مَتَاعُ الحياوة الدنيا فِي الآخرة إِلاَّ قَلِيلٌ } فهو لإعطاء صورة لسعة متاع الآخرة .

لكن هذا الاستثناء في قوله تعالى { إِلاَّ قَلِيلٌ } إنما هو لمخاطبة العقول بالنسبة لقمة المتمتعين في الدنيا .

ومثال هذا : أنك تجد إنساناً قد أعطاه الله قمة متاع الدنيا ، وتجده يعتقد أن المتاع لا يمكن أن يزيد على ما وصل إليه ، فيوضح الحق سبحانه وتعالى له : لو أنك متمتع بكل ما تستطيع أن تعطيه لك الدنيا فهو بالنسبة لمتاع الآخرة قليل .

وإذا كان غير المتمتع بشيء من متاع الدنيا ينظر إلى مَنْ أعطاه الله سبحانه وتعالى قمة متاع الدنيا ويتساءل : هل هناك متاع أكثر من ذلك؟ إن هذا الإنسان متمتع بكذا وكذا وكأنه يعيش في الجنة ، ولا أعتقد أنه يمكن أن يكون هناك متاع أكثر من هذا . نقول له : لا ، إن ما تحسبه نهاية لما يمكن أن يتمتع به الإنسان هو بالنسبة لمتاع الآخرة قليل .

إذن : فقوله سبحانه { إِلاَّ قَلِيلٌ } ليس مقصوداً به المتعة العادية للدنيا التي يتمتع بها الناس ، ولكن المقصود به متاع القمة الذي لا يصل إليه ولا يحدث إلا لأفراد قليلين في العالم . فقد يعيش إنسان في قصر ضخم ، وحوله المئات من الناس يخدمونه ، وعنده من الأجهزة الإلكترونية وغيرها ما يجعله بمجرد أن يريد شيئاً يضغط على زر صغير فيجد ما يريده أمامه ، وكل شيء حوله يحقق له رغباته ، بل إنه يعيش في درجة الحرارة التي يريدها داخل قصره ، وعنده أفخر أنواع الطعام والشراب ، وإذا أراد أن ينتقل من مكان إلى آخر؛ ضغط على زر فيتحرك به الكرسي إلى المكان الذي يريده وكل مَنْ حوله يطيعونه طاعة عمياء ، فكل رغباته أوامر ، وحياته

تشبه الحلم الجميل .

إذا عاش إنسان في هذا الجو وانبهر بهذه النعم كلها يستوقفه رب العزة سبحانه ويوضح له : لا تنبهر ، فهذا المتاع الذي تعيش فيه بالنسبة للآخرة قليل .

فإذا قرأ الناس أو سمعوا أو شاهدوا ما يعيش فيه هذا الإنسان من متعة وانبهروا بها ، يوضح لهم الله : لا تنبهروا ولا يأخذكم العجب ، فكل هذا الذي ترونه أمامكم بالنسبة لمتاع الآخرة قليل .

إذن : فقوله سبحانه { إِلاَّ قَلِيلٌ } يدل على أن فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تحب القليل من النعم بل تريد الكثير ، ولهذا نجد الحق سبحانه وتعالى يُنفِّر عباده من أن تفتنهم نعم الدنيا مهما بلغت ، فيوضح لهم : لا تظنوا أن هذه النعم كثيرة ، بل إنها نعم قليلة بالنسبة لما ينتظركم في الآخرة ، فإذا كان الإنسان بفطرته يحب كثرة النعم ، ففي هذه الحالة لن تفتنه نعم الدنيا ، بل سوف يطلب نعم الآخرة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لو أن ابن آدم أعطي وادياً ملآن من ذهب أحبَّ إليه ثانياً ، ولو أعطي ثانياً أحب إليه ثالثاً »

أي : أن الإنسان الذي امتلك واديين يريد أن يحتفظ بالواديين كما هما ويطمع في امتلاك الوادي الثالث ، رغم أنه قد لا يعيش لينفق مقدار وادٍ واحد . فالإنسان بطبعه لا يحب القليل من النعم بل يطلب الكثير ، لماذا؟ لأن كثيراً من الناس ينسون الآخرة ، ويعتقدون أن هذه الحياة الدنيا هي كل شيء ، ولهذا تجد الإنسان منهم يريد أن يحتاط لنفسه ، فإذا أخذ ما يكفيه يريد أن يحتاط لأولاده ، فإذا كان عنده ما يكفيه هو وأولاده يريد أن يحتاط لأحفاده .

ولكن المؤمن الحق هو من يعرف أن الحياة الدنيا طريق العبور إلى الآخرة ، وأنها رحلة قصيرة تنتهي ، فلا يهتم بهذا اللون من الاحتياط ، ولكن الذي يحرص على عملية الاحتياط هذه هو من يظن أن الحياة الدنيا هي الغاية من الخلق ، ولا يتنبه إلى أنه وسيلة للآخرة .

إننا نجد أولئك الذين يسرفون على أنفسهم ويتبعون شهواتهم وهم يحاولون أن يأخذوا من الدنيا كل شيء يمكن أن تعطيه لهم حلالاً أو حراماً ، وهذا واضح في سلوكهم الدنيوي .

أما المؤمن فهو كالطالب الذي يَجِدُّ في دروسه ويجتهد ويستيقظ مبكراً ويذهب إلى المدرسة ، ويظل ساهراً ليذاكر ويحرم نفسه من مُتَعٍ كثيرة؛ لأنه بفطنته وذكائه يعرف أن هذا حرمان مؤقت . وهو إنما يفعل ذلك لفترة قصيرة ليستريح بقية العمر ، ويحصل على المركز المرموق والدخل المرتفع إلى آخر ما يمكن أن يعطيه له المستقبل . أما المسرف على نفسه فهو كالطالب الذي لا يذهب إلى المدرسة ويقضي وقته في اللعب والاستمتاع ، وهو بمثل هذا السلوك كان قصير النظر ، وأعطى لنفسه شهوة عاجلة ليظل في معاناة بقية حياته .

إذن : فكل من الطالبين أعطى نفسه ما تريد؛ الأول : أعطى نفسه مستقبلاً مريحاً ممتدّاً ، وصار قمة من قمم المجتمع ، والثاني : أعطى نفسه متعة عاجلة زائلة ، ثم صار بعد سنوات قليلة

صعلوكاً في المجتمع لا يساوي شيئاً .
إذن : فإياك أن تنظر تحت أقدامك فقط؛ لأن العالم لا ينتهي عند موقع وقوف قدميك هاتين ، ولكنه ممتد إلى آفاق بعيدة ، فإذا نظرتَ إلى هذه الآفاق ، فلا يليق بك أن تختار متعة وقتية قليلة .
وقول الحق سبحانه :
{ ياأيها الذين آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفروا فِي سَبِيلِ الله اثاقلتم إِلَى الأرض أَرَضِيتُمْ بالحياوة الدنيا مِنَ الآخرة فَمَا مَتَاعُ الحياوة الدنيا فِي الآخرة إِلاَّ قَلِيلٌ } [التوبة : 38] .
نزل في غزوة تبوك ، وهي أول غزوة للمسلمين مع غير العرب ، وسبقتْها كل المعارك بين المسلمين وبين الكفار والمشركين ، ودارت على أرض الجزيرة العربية معارك مع المشركين في بدر أو في مكة ، أو مع اليهود في مجتمع المدينة ، فقد كانت هذه معارك في محيط الجزيرة العربية ، ولكن غزوة تبوك كانت مع الروم على الحدود الشمالية للجزيرة العربية . وحينما بدأ تجهيز الجيش ليذهب إلى تبوك لمحاربة الروم تثاقل المسلمون . وهنا يبرز استفهام : كيف يحارب المسلمون الروم ، وهم الذين حزنوا حين انتصر الفرس على الروم؟ أيحزن المسلمون لهزيمة الروم ثم يذهبون ليحاربوهم؟
نقول : نعم؛ لأن المواقف الإيمانية ليست مواقف في قالب من حديد ، ولكنها تتكيف تبعاً لمواقف الكفار من الإيمان والإسلام .
ولذلك فإن المؤمن الحق ينفعل للأحداث انفعالاً إيمانياً ، وعلى سبيل المثال ، نجد قلب سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه مملوءاً رقة ورحمة ، بينما قلب سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان مملوءاً قوة وحزماً ، انظر إلى موقف الاثنين عندما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى؛ وارتد عدد من المسلمين عن الإسلام ، ومنعوا الزكاة؛ وقرر أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن يحارب هؤلاء المرتدين؛ لأنهم أنكروا ركناً من أركان الإسلام ، هنا وقف عمر بن الخطاب ضد رأي أبي بكر وقال : يا أبا بكر أنحارب أناساً شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

فقال أبو بكر : أجبار يا عمر في الجاهلية خوّار في الإسلام؟ والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه .
وهكذا انقلبت المواقف؛ فالقوة والشدة ملأت قلب أبي بكر الذي كان مشهوراً بالرقة والرحمة والعطف ، بينما امتلأ قلب عمر باللين ، وهو المشهور بالشدة والقوة . ولو أن عمر هو الذي قال كلمة أبي بكر لقالوا : شدة ألفها الناس من عمر .
ولكن الناس قالوا عن عمر الشديد : « قد لاَنَ قلبه بينما اشتد قلب أبي بكر » هذه هي

المواقف الإيمانية التي تملأ نفس كل مؤمن . فالذي يصنع موقف المؤمن هو إيمانه لا طبعه؛ ولذلك قال الحق في وصفه للمؤمنين : { فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين . . . } [المائدة : 54] .

وكيف يكون الإنسان عزيزاً وذليلاً في الوقت نفسه؟ وكيف يوصف الشخص نفسه بأنه عزيز وذليل؟ وكيف يمكن أن يجتمع النقيضان في شخص واحد؟ لكنك تقرأ ما يطمئنك في قول الحق : { مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ . . . } [الفتح : 29] .

لقد وصف الحق سبحانه المؤمنين بأنهم أشداء ، ووصفهم أيضاً بأنهم رحماء ، ولكي تفهم هذا المعنى عليك أن تعلم أن المواقف الإيمانية هي التي تحدد مشاعر المؤمن ، ولا تحددها طباعه الخاصة والشخصية ، وهو يُكيِّف مواقفه حسب الموقف الإيماني وما يتطلبه ، فهو شديد ورحيم ، وذليل وعزيز .

ونعود إلى غزوة تبوك التي نزلت فيها الآية التي نتناولها بخواطرنا وإلى السؤال : كيف يحارب المسلمون الروم ، وقد حزنوا يوم هزيمة الروم من الفرس؟ ونقول : لقد حزن المسلمون لأن إلحاداً ينكر الألوهية قد انتصر على إيمان مرتبط برسالات السماء؛ ولأن الروم – وهم نصارى – مرتبطون برسالات السماء . ولذلك فهم أقرب إلى قلوب المؤمنين من الكفار ، إذن : فالمسألة قد أُخِذَتْ من ناحية الوجود الإلهي . أما في غزوة تبوك فقد أُخِذَتْ من ناحية قبول المنهج الناسخ ومنع الدعوة له ، ولهذا تحول الموقف في غزوة تبوك إلى عداء إيماني ، وهذا هو السبب الذي أدَّى إلى الحرب .

فإذا نظرنا إلى الغزوة نفسها نجد أن تبوك تبعد عن المدينة بمسافة كبيرة ، ووقت الغزوة كان صيفاً شديد الحرارة ، كما أنها كانت بعد غزوة حنين التي قاتل المؤمنون فيها قتالاً شديداً .

وكان العام عام عسرة ، فلم يكن مع الجيش ما يكفيه من طعام أو خيل أو جمال .

إذن : فقد اجتمعت المشقة في هذه الغزوة؛ مع حرارة الجو؛ وبُعْد المسافة ، وكانت قوى المسلمين مُنْهكَة من غزوة حنين . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد الخروج لغزوة ، لا يخبر عنها أصحابه إلا عندما يصلون إلى مكان القتال؛ إلا هذه الغزوة فقد بيَّنها رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابته قبل أن يغادروا المدينة؛ لكي يستعدوا للمشقة التي تنتظرهم .

وتباطأ المسلمون ، وبعضهم كان يستمتع بالجلوس في ظل البساتين الموجود في المدينة ويأكل من ثمارها . واستطاب – هذا البعض – الثمار والظلال؛ لذلك تباطأوا في الذهاب إلى القتال ، فنزلت هذه الآية ببيان اللوم ، ثم جاءت الآية التي بعدها لتوضح وتُبيّن العقوبة ، فقال الحق : { إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً . . . }

إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)

أي : إن لم تذهبوا إلى القتال فإن الله ينذركم بالعذاب . وإذا أنذر الحق فلا بد أن يتحقق ما أنذر به ، فأنتم إن لم تنفروا مخافة العذاب المظنون ، وهو الإرهاق والتعب ، فما بالكم بالعذاب المحقق إن لم تنفذوا أمر الله بالنَّفْرة إلى القتال؟ وإذا كانت المقارنة بين مشقة السفر والقتال والحر الشديد ، وبين عذاب الله ، فالمؤمن سوف يختار – بلا شك – مشقة الحرب مهما كانت؛ لأن كل فعل إنما يكون بقياس فاعله ، فمظنة العذاب بالحر ، أو مشقة السفر ، وقسوة القتال لا يمكن قياسها بعذاب الله؛ لأن العذاب الذي ينتظر مَنْ يتباطأ أو يفِرُّ من الزحف أكبر من مشقة الاستجابة للزحف مهما كانت مرهقة .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ } إذن : فلا تظنوا أنكم بتباطئكم؛ وعدم رغبتكم في القتال ستضرون الله شيئاً؛ لأن الله قادر على أن يأتي بخلق جديد ، وهو على ذلك قدير ، لذلك يقول : { والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } . وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه : { هَا أَنتُمْ هؤلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ الله فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ والله الغني وَأَنتُمُ الفقرآء وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يكونوا أَمْثَالَكُم } [محمد : 38] . فلا تظنوا أنكم بما معكم من ثراء أو قوة قادرون على عرقلة منهج الله بالبخل أو التخاذل؛ لأنه سبحانه قادر على أن يستبدلكم بقوم غيركم ، يملكون حمية القتال والتضحية في سبيل الله؛ لأنه القادر فوق كل الخلق .

وقوله سبحانه : { والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } هو حيثية للأحكام التي سبقتها من قوله : { إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً } وإن ظن واحد منهم أن هذا كلام نظري ، فالحق سبحانه يضرب لهم المثل العملي من الواقع الذي شاهدوه وعاصروه حينما اجتمع كفار قريش ليقتلوه فنصره الله عليهم ، فقال جل جلاله : { إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ الله إِذْ أَخْرَجَهُ الذين كَفَرُواْ ثَانِيَ اثنين إِذْ هُمَا فِي الغار إِذْ يَقُولُ لصاحبه لاَ تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا . . . }

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40)

ووقف المستشرقون عند قول الحق سبحانه : { إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ الله } وكعادتهم – كمشككين في الإسلام – نجدهم يبذلون جهداً كبيراً في محاولة التصيد لأخطاء يتوهمونها في القرآن الكريم فيقولون : إن مهابة القرآن وقدسيته عندكم أيها المسلمون لا تُمكِّن أذهانكم من

الجراءة اللازمة للبحث في أساليبه؛ لتكتشفوا ما فيه من الخلل . ولكن إن نظرتم إلى القرآن ككتاب عادي لا قداسة له سوف تجدون فيه التضارب والاختلاف .

وخصص المستشرقون باباً كبيراً للبحث في مجال النحو بالقرآن الكريم ، وجاءوا إلى مسألة الشرط والجزاء ، ومن يقرأ نقدهم يتعرف فوراً على حقيقة واضحة هي جهلهم بعمق أسرار اللغة العربية ، ولا يملكون فيها مَلَكة أو حُسْن فهم ، وقالوا : إن أساليب الشرط في اللغة العربية تقتضي وجود جواب لكل شرط ، فإن قلت : إن جاءك زيد فأكرمه ، تجد الإكرام يأتي بعد مجيء زيد ، وإن قلت : إن تذاكر تنجح ، فالنجاح يأتي بعد المذاكرة . إذن : فزمن الجواب متأخر عن زمن الشرط .

وهم قدموا كل تلك المقدمات ليشككونا في القرآن . ونقول لهم : إن كلامكم عن الشرط وجوابه صحيح ، ولكن افهموا الزائد ، فحين نحقق في الأمر نجد أن الجواب سبب في الشرط؛ لأنك حين تقول : إن تذاكر تنجح ، فالطالب إن لم يستحضر امتيازات النجاح فلن يذاكر ، بل لا بد أن يتصور الطالب في ذهنه امتيازات النجاح ليندفع إلى المذاكرة ، إذن : فالجواب سبب دافع في الشرط ، ولكن الشرط سبب في الجواب ولكنه سبب واقع ، فتصُّور النجاح أولاً هو سبيل لبذل الجهد في تحقيق النجاح ، وهكذا تكون الجهة منفكة؛ لأن هذا سبب دافع ، وهذا سبب واقع .

وقوله تعالى : { إِلاَّ تَنصُرُوهُ } فعل مضارع ، زمنه هو الزمن الحالي ، ولكن الحق يتبع المضارع بفعل ماضٍ هو : { فَقَدْ نَصَرَهُ الله } فهل يكون الشرط حاضراً ومستقبلاً ، والجواب ماضياً؟ ونقول : إن المعنى : إلا تنصروه فسينصره الله . بدليل أنه قد نصره قبل ذلك . وهذا ليس جواب شرط ، وإنما دليل الجواب ، فحين يكون دليل الجواب ماضياً ، فهو أدل على الوثوق من حدوث الجواب ، فحين دعاهم الله لينفروا فتثاقلوا ، أوضح لهم سبحانه : أتظنون أن جهادكم هو الذي سينصر محمداً وينصر دعوته؟ لا؛ لأنه سبحانه قادر على نصره ، والدليل على ذلك أن الله قد نصره من قبل في مواطن كثيرة ، وأهم موطن هو النصر في الهجرة ، وقد نصره برجل واحد هو أبو بكر على قريش وكل كفار مكة ، وكذلك نصره في بدر بجنود لم تروها ، إذن : فسابقة النصر من الله لرسوله سابقة ماضية ، وعلى ذلك فليست هي الجواب ، بل هي دليل الجواب .

ونرى في قوله تعالى : { إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ الله } أن نصر الله له ثلاثة أزمنة ، ف { إِذْ } تكررت ثلاث مرات ، فسبحانه يقول : { إِذْ أَخْرَجَهُ الذين كَفَرُواْ ثَانِيَ اثنين إِذْ هُمَا فِي الغار إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا } أي : أننا أمام ثلاثة أزمنة : زمن الإخراج ، وزمن الغار ، والزمن الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : { لاَ تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا } ، وقد

جاء النصر في هذه الأزمنة الثلاثة؛ ساعة الإخراج من مكة ، وساعة دخل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر إلى الغار ، وساعة حديثه مع أبي بكر .

ولسائل أن يسأل : هل أخرج الكفار رسول الله من مكة ، أم أن الله هو الذي أخرجه؟ ونقول : إن عناد قومه وتآمرهم عليه وتعنُّتهم أمام دعوته ، كل ذلك اضطره إلى الخروج ، ولكن الحق أراد بهذا الخروج هدفاً آخر غير الذي أراده الكفار ، فهم أرادوا قتله ، وحين خرج ظنوا أن دعوته سوف تختنق بالعزل عن الناس ، فأخرجه الله لتنساح الدعوة ، وأوضح لهم سبحانه : أنتم تريدون إخراج محمد بتعنتكم معه ، وأنا لن أمكنكم من أن تخرجوه مخذولاً ، وسأخرجه أنا مدعوماً بالأنصار . وقالوا : إن الهجرة توأم البعثة . أي : أن البعثة المحمدية جاءت ومعها الهجرة ، بدليل « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما أخذته أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها إلى ورقة بن نوفل ، بعد ما حدث له في غار حراء ، قال له ورقة : ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك . قال ورقة بن نوفل ذلك لرسول الله قبل أن يتثبت من النبوة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَمُخْرِجيَّ هم؟ قال ورقة بن نوفل : نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عُودِي » .
إذن : فالهجرة كانت مقررة مع تكليف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة ، لماذا؟ لأنه صلى الله عليه وسلم كان أول من أعلن على مسامع سادة قريش رسالة الحق والتوحيد . ففكرة الهجرة مسبقة مع البعثة؛ ولأن البعثة هي الصيحة التي دوَّت في آذان سادة قريش وهم سادة الجزيرة . ولو صاحها في آذان قوم ليسوا من سادة العرب لقالوا : استضعف قوماً فصاح فيهم ، ولكن صيحة البلاغ جاءت في آذان سادة الجزيرة العربية كلها ، فانطلقوا في تعذيب المسلمين ليقضوا على هذه الدعوة . وشاء الله سبحانه وتعالى ألا ينصره بقريش في مكة؛ لأن قريشاً أَلِفَتْ السيادة على العرب ، فإذا جاء رسول لهداية الناس عامة إلى الإسلام ، لقال من أرسِلَ فيهم : لقد تعصبتْ له قريش لتسود الدنيا كما سادت الجزيرة العربية . فأراد الحق سبحانه أن يوضح لنا : لا . لقد كانت الصيحة الأولى في آذان سادة العرب ، ولا بد أن يكون نصر الإسلام والانسياح الديني لا من هذه البلدة بل من بلد آخر؛ حتى لا يقال : إن العصبية لمحمد هي التي خلقت الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن الإيمان برسالة محمد هو الذي خلق العصبية لمحمد صلى الله عليه وسلم .
ويلاحظ في أمر الهجرة أن فعلها « هاجر » . وهذا يدلنا على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يهجر مكة ، وإنما هاجر ، والمهاجرة مفاعلة من جانبين ، فكأن قومه أعنتوه فخرج ، والإخراج نفسه فيه نصر؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وحده من بيته؛ الذي أحاط به شباب أقوياء من كل قبائل العرب ليضربوه ضربة رجل واحد ، وينثر عليهم التراب فتغشى أبصارهم ، وكان أبو بكر رضي الله عنه ينتظره في الخارج ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يثبت لهم أنهم

لن ينالوا من محمد؛ لا بتآمر خفي ، ولا بتساند علني . وهذا نصر من الله .
ويتابع الحق سبحانه : { إِذْ هُمَا فِي الغار } ، ويتأكد في الغار نصر آخر . ذلك أن قصاص الأثر الذي استعانت به قريش واسمه كرز بن علقمة من خزاعة قد تتبع الأثر حتى جاء عند الغار ، وقال : هذه محمد وهو اشبه بالموجود في الكعبة ، أي أشبه بأثر قدم إبراهيم عليه السلام ، ثم قال : هذه قدم أبي بكر أو قدم ابنه وما تجتوزا هذا المكان . وكان قصاص الأثر يتعرف على شكل القدم وأثره على الأرض . وأضاف : إنهما ما تجاوزا هذا المكان ، إلا أن يكونا قد صعدا إلى السماء أو دخلا في جوف الأرض . وبالرغم من هذا التأكيد فإنهم لم يدخلوا الغار ، ولم يفكر أحدهم أن يقلب الحجر أو يفتش عن محمد وصاحبه ، مع أن هذا أول ما كان يجب أن يتبادر إلى الذهن ، فما دامت آثار الأقدام قد انتهت عند مدخل الغار كان يجب أن يفتشوا داخله . لكن أحداً لم يلتفت إلى ذلك .
وجاء واحد منهم وأخذ يبول ، فجاء بعورته قبالة الغار ، وهذا هو السبب في قول أبي بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لأو أن أحدهم نظر تحت قدميه لرآنا .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بفطنة النبوة : لو رأونا ما استقبلونا بعوراتهم وهذا دليل على أن العربي كان يأنف أن تظهر عورته ، أو هي كرامة لمحمد صلى الله عليه وسلم ألا يُريه عورة غيره ، وليأخذها القارىء كما يأخذها ، وهي على كل حال فيض إلهامي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كذلك جعل الحق سبحانه العنكبوت ينسج خيوطه على مدخل الغار ، وجعل الحمام يبني عُشَّاً فيه بيض ، وجعل سراقة بن مالك يقول : لا يمكن أن يكون محمد وصاحبه دخلا الغار ، وإلا لكانا قد حطَّما عُشَّ الحمام ، وهتكا نسيج العنكبوت .
ونحن نعلم أن أوهى البيوت هو بيت العنكبوت ، فالحق سبحانه وتعالى يقول : { وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } [العنكبوت : 41] .
ويظهر الإعجاز الإلهي هنا في : أن الله سبحانه قد صد مجموعة كبيرة من المقاتلين الأقوياء بأوهى البيوت ، وهو بيت العنكبوت ، وقدرة الله تجلَّتْ في أن يجعل خيط العنكبوت أقوى من الفولاذ ، وكذلك شاء الحق أن يبيض الحمام وهو أودع الطيور ، وإنْ أهيجَ هاج .

وهذا نصر ، ثم هناك نصر ثالث نفسي وذاتي ، « فحين قال أبو بكر رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يرد في ثقة بربه : » ما ظنك باثنين الله ثالثهما « .
هذا الرد ينسجم مع سؤال أبي بكر؛ لأن أبا بكر كان يخشى أنهم لو نظروا تحت أقدامهم لرأوا مَنْ في الغار ، وكان الرد الطبيعي أن يقال : » لن يرونا « ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يلفتنا لفتة إيمانية إلى اللازم الأعلى ، فقال : » ما ظنك باثنين الله ثالثهما « ، لأنه

ما دام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر في معية الله ، والله لا تدركه الأبصار؛ فمن في معيته لا تدركه الأبصار .

وتكون كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي تعوَّد أبو بكر منه الصدق في كل ما يقول ، تكون هي الحجة على صدق ما قال ، فعندما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه أسْرى به إلى بيت المقدس وعُرِج به إلى السماء ، قال أبو بكر : إن كان قد قال فقد صدق . فحين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر فيما يحكيه سبحانه : { لاَ تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا } ، فلا بد أن يذهب الحزن عن أبي بكر ، وقد خشي سيدنا أبو بكر حين دخل الغار ووجد ثقوباً ، خشي أن يكون فيها حيات ، أو ثعابين ، فأخذ يمزق ثوبه ويسد به تلك الثقوب؛ حتى لم يَبْقَ من الثوب إلا ما يستر العورة ، فسدَّ الثقوب الباقية بيده وكعبه .

إذن : فأبو بكر يريد أن يفدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه؛ لأنه إن حدث شيء لأبي بكر فهو صحابي ، أما إن حدث مكروه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالدعوة كلها تُهدم .

إذن : فأبو بكر لم يحزن عن ضعف إيمان ، ولكنه حزن خوفاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُصَابَ بمكروه .

ويأتي الحق سبحانه وتعالى فيقول : { لاَ تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا فَأَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا } اختلف العلماء في قوله تعالى { عَلَيْهِ } ، هل المقصود بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أو أن المقصود بها أبو بكر؟ وما دامت السكينة قد نزلت؛ فلا بد أنه نزلت على قلب أصابه الحزن . ولكن العلماء يقولون : إن الضمائر في الآيات تعود على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالحق قال : { إِلاَّ تَنصُرُوهُ } أي محمداً عليه الصلاة والسلام ، وسبحانه يقول : { فَقَدْ نَصَرَهُ الله } أي محمداً صلى الله عليه وسلم ، ويقول أيضاً : { إِذْ أَخْرَجَه } أي محمداً صلى الله عليه وسلم ، فكل الضمائر في الآية عائدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم يأتي قول الله سبحانه وتعالى : { فَأَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ } إذن : فلا بد أن يعود الضمير هنا أيضاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقول : ولكن لماذا لا نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى : { إِذْ يَقُولُ لصاحبه لاَ تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا } وهذا قول رسول الله؛ ولا بد أن قوله يجعل السكينة تنزل على قلب أبي بكر . إذن : فالضمير هنا عائد على أبي بكر .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : { وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا } والعنكبوت والحمام مرئيان ، وأول الجنود غير المرئية هو أنه لم يخطر على بال القوم ولا فكرهم أن ينظروا في الغار ، مع أن آثار الأقدام انتهت إليه . لكن الله طمس على قلوبهم وصرفهم عن هذه الفكرة بالذات ، ولم تخطر على بالهم . ثم جاء حدث آخر حين استطاع سراقة بن مالك وهو من الكفار أن يلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ، وهما في طريقهما إلى المدينة ، وكلما حاول الاقتراب منهما ابتلعت

الأرض قوائم فرسه في الرمال ، وعلى أية حال ما دام الحق سبحانه وتعالى قال : { بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا } وقال في آية أخرى : { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ } [المدثر : 31] .

إذن : فالجنود الذين سخرهم الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ليحفظوه خلال الهجرة لا يعلمهم إلا الله . وكل شيء في هذا الكون من جنود الله؛ فهو سبحانه وتعالى الذي سخر الكافر لخدمة الإيمان ، ألم يكن دليل رسول الله صلى الله عليه وسلم في هجرته من مكة إلى المدينة هو عبد الله بن أريقط ، وكان ما زال على الكفر ، فكأن الله سبحانه وتعالى يسخر له الكافر ليكون دليله في رحلته من مكة إلى المدينة . وهكذا عمل الكافر في خدمة الإيمان ، وفي الوقت نفسه فكل ما رصدتْه قريش من جُعل لمن يدلُّها على مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُغْرِ الدليل الكافر بالخيانة ، بل أدخل الله على قلب الكافر ما يجعله أميناً على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحق سبحانه يقول : { وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الذين كَفَرُواْ السفلى } ، ولقد أراد الكفار القضاء على الدعوة بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو نَفْيه بإخراجه إلى مكان بعيد ، أو سجنه ، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أن الباطل لا يمكن أن يعلو على الحق ، وأن الحق دائماً هو الأعلى ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : { وَجَعَلَ كَلِمَةَ الذين كَفَرُواْ السفلى } ولا يجعل الله كلمة الكفار السفلى إلا إذا كانت في وقت ما في عُلُوٍّ .

وإن كان عُلوها هو علو الزَّبَدِ على الماء الذي قال عنه الحق سبحانه وتعالى : { فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض } [الرعد : 17] .

ولقد ضرب الله هذا المثل فقال : { أَنَزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا } [الرعد : 17] .

أي : أن كل وادٍ أخذ ما قدره الله له من الماء . { فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً } [الرعد : 17] .

وهذا نلاحظه عندما يحدث سيل ، ونجده يأخذ معه القَشَّ والقاذورات التي لها كثافة قليلة؛ لتطفو على سطح الماء ، ولكن أتظل عليه؟ . لا ، بل تُطرد إلى الجوانب بقوة التيار ويبقى الماء نظيفاً .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض } [الرعد : 17] .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى يخبرنا أن كلمة الكفار كانت في عُلُوٍّ كالزَّبَد ، ولكن : لماذا أوجد الله علواً ولو مؤقتاً للكفر؟ أراد الحق ذلك حتى إذا جاء الإسلام وانتصر على الكفر يكون قد انتصر على شيء عال فيجعله أسفل؛ ولذلك جاء الله سبحانه وتعالى بالمقابل وقال : { وَجَعَلَ كَلِمَةَ الذين كَفَرُواْ السفلى وَكَلِمَةُ الله هِيَ العليا } ، فالنسق الأدائي في القرآن كان لا بد أن يتم على أساس؛ لذلك جاء القول : { وَجَعَلَ كَلِمَةَ الذين كَفَرُواْ السفلى وَكَلِمَةُ الله هِيَ العليا } ؛

لأن كلمة الله دائماً وأبداً هي العليا ، وليست كلمة الله عُلْيَا جَعْلاً ، فهي لم تكن في أي وقت من الأوقات إلا وهي العليا . ولهذا لم يعطفها بالنصب؛ لأن كلمة الحق سبحانه وتعالى هي العليا دائماً وأبداً وأزلاً .

وإن كان الكفار قد أرادوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو أن يخرجوه إلى مكان بعيد لا يستطيع فيه أن يمارس دعوته ، أو يحبسوه ، فإنهم لم يظفروا بشيء من هذا؛ لأن الله عزيز لا يُغلَبُ ، وعِزَّته مبنية على الحكمة .

وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفت المؤمنين إلى أن تثاقلهم عن الجهاد في غزوة تبوك لن يضر الدعوة شيئاً؛ لأن الله قد نصر رسوله وهو وحده ، ونصره بجنود لم يَرَوْهَا ، فإذا كان النصر لا يحتاج إلا لكلمة الله ، ولا يتم إلا بإرادة الله ، فلماذا إذن التثاقل؟

ويقول سبحانه بعد ذلك : { انفروا خِفَافاً وَثِقَالاً وجاهدوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ الله . . . }

انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41)

وهكذا يفتح الحق باب الوصول إليه؛ ليهبُّوا إلى نصرة الرسول ويزيل الضباب من أذهانهم ، ويفتح لهم باب الوصول إليه لأنهم خلق الله وعياله ، فهو سبحانه يريد منهم أن يكونوا جميعاً مهديين ، وأن يشاركوا في نُصْرة الدعوة إليه .

والقتال في سبيل الله قد يكون مشقة في ظاهر الأمر ، ولكنه يَهَبُ الدعوة انتشاراً واستقراراً .

وحين يقوم المسلمون بنصر الدعوة إلى الله ، ففي هذا القيام مغفرة وتوبة ، وهو رحمة من الله بهم . ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو القائل :

« الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة » .

ويقول الحق سبحانه وتعالى في حديث قدسي : « قالت السماء : يا ربي إئذن لي أن أسقط كِسَفاً على ابن آدم؛ لأنه طَعِمَ خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب إئذن لي أن أغرِقَ ابن آدم لأنه طَعِم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض مثلهما » .

فماذا قال الحق سبحانه وتعالى؟ قال : « دعوني وعبادي ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إليّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

وهكذا نرى رحمة الله بخلقه .

وبعد أن لام الحق سبحانه المسلمين؛ لأنهم لم يتحمسوا للجهاد ، يفتح أمامهم باب التوبة فقال : { انفروا } أي : اخرجوا للقتال ، وهذا أمر من الله يوقظ به سبحانه الإيمان في قلوب المسلمين ، وفي الوقت نفسه يفتح أمامهم باب التوبة لتباطئهم عن الخروج للقتال في غزوة تبوك . ولذلك

قال : { انفروا خِفَافاً وَثِقَالاً } والنفرة : هي الخروج إلى شيء بمهيج عليه ، والمثال : هو التباعد بين إنسان وصديق له كان بينهما وُدّ ، ثم حدث من هذا الصديق سلوك أو قول يُهيج على الخروج عليه ، فينفر منه الإنسان . والحق سبحانه هنا يأمر : { انفروا } والذي يهيج على النفور هو رفعة دين الله وكلمته ، وحين ترفعون كلمة الله إنما يفتح لكم باب الارتفاع بها فقال : { انفروا خِفَافاً وَثِقَالاً } . والخفيف : هو الصحيح السليم القوي الذي لا تتبعه ولا ترهقه الحركة .

والثقيل : هو المريض أو كبير السن .

والله يريد من الجميع أن يسارعوا إلى القتال؛ لينجوا من العذاب الأليم ، وينالوا توبته ورضاه .

ولكن الصحيح خفيف الحركة يمكنه أن يقاتل ، فماذا يفعل المريض؟ يفعل مثلما فعل سيدنا سعيد بن المسيَّب وكان مريضاً ، إذ قالوا له : إن الله أعفاك من الخروج إلى المعركة في قوله تعالى : { لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ } [الفتح : 17] .

فقال : والله أَكَثِّرُ سواد المسلمين وأحرس متاعهم .

ومن الممكن أن يكون المريض متميزاً بالذكاء وصحة العقل ، ويمكن أن يُسْتشار في مسألة ما . وقد يكون المريض أسْوة في قومه ، فإذا خرج للقتال هاج قومه وخرجوا معه ، ويمكن أن يكون المريض أو الضعيف حافزاً للأقوياء على القتال .

فحين يرى الأقوياء المريض وهو يخرج للقتال؛ فإنهم يخجلون أن يتخلفوا هم .

واختلف العلماء في تفسير قوله تعالى : { انفروا خِفَافاً وَثِقَالاً } فبعضهم قال : إن هذه إشارة إلى ذات الإنسان ، فهناك ذات خفيفة وذات ثقيلة في الوزن لا تستطيع الحركة بسهولة ، وقال آخرون : إن الفرد الواد يمكن أن يكون فيه الوضعان ، وقوله تعالى : { انفروا } هو أمر للجماعة ، و { خِفَافاً } جمع « خفيف » ، و { ثِقَالاً } جمع « ثقيل » ، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة إلى آحاد .

والمعنى : أن ينفر كل واحد من المسلمين سواء كان خفيفاً أم ثقيلاً . وسبق أن ضربنا المثل حينما يدخل الأستاذ على الطلبة ويقول : أخرجوا كتبكم ، ومعنى هذا الأمر أن يُخرج كل تلميذ كتابه ، وإن قلت : اركبوا سياراتكم ، فمعنى ذلك أن يركب كل واحد منكم سيارته .

إذن : فالآية تعني : لينفر كل واحد منكم سواء كان ثقيلاً أم خفيفاً .

ولكن : كيف يكون الإنسان ثقيلاً وخفيفاً في وقت واحد؟ نقول : يكون خفيفاً أي : ذا نشاط للجهاد ، وثقيلاً أي : أنه سيدخل في مشقَّة تجعل المهمة ثقيلة على نفسه . والله سبحانه وتعالى يقول : { كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ } [البقرة : 216] .

والدخول فيما هو مكروه في سبيل الله أمر يرفع درجات الإيمان . إذن : فالآية تحتمل أكثر من معنى ، فهي تحمل المعنى العام : أن يكون البعض خفيفاً والبعض ثقيلاً في ذاته ، أو : أن يجمع

القتال بين الخفة في الحركة والثقل في المشقة ، أو : أن يكون الذي يملك دابة هو الخفيف؛ لأن الدابة تزيل المشقة وأسرع في الطريق ، والثقيل هو من يجاهد ماشياً؛ لأنه سيتحمل طول المسافة . وساعة يشحن الحق سبحانه وتعالى قلوب المؤمنين ، فهو يطلب منهم ما يكلفهم به بقوة ، ثم تتجلى رحمته فيخفف التكليف . ولو جاء الحكم خفيفاً في أول التشريع ، ثم يُصعَّد؛ فإن هذا الأمر يكون صعباً على النفس ، ولكن عندما يأتي الحكم ثقيلاً ، ثم يخفف يكون أقرب إلى النفس ، والمثال في قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : { ياأيها النبي حَرِّضِ المؤمنين عَلَى القتال إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ يغلبوا أَلْفاً مِّنَ الذين كَفَرُواْ } [الأنفال : 65] .

وهنا يعطي الحق مقياساً لقدرة المؤمن بالنسبة للكافر . فالعشرون يغلبون مائتين ، أي : أن النسبة هي واحد من المؤمنين إلى عشرة من الكافرين ، ولذلك فعندما نزلت هذه الآية كان على المؤمن الواحد أن يقتل عشرة من الكافرين ، لكن الحق سبحانه وتعالى قد علم أن هذا الأمر شديد على نفوس المؤمنين بأن يواجه المؤمن الواحد عشرة من الكفار ، فإنه لا يقدر على ذلك إلا أولو العزم ، فقال سبحانه : { الآن خَفَّفَ الله عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً } [الأنفال : 66] .

وما دام هناك ضعف فلا بد أن يُخفف الأمر بالنسبة للمؤمنين في مواجهة الكفار أثناء القتال . ونقل الحق سبحانه وتعالى النسبة من : واحد إلى عشرة ، إلى : واحد إلى اثنين ، فقال سبحانه وتعالى : { الآن خَفَّفَ الله عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يغلبوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ الله والله مَعَ الصابرين } [الأنفال : 66] .

لذلك : مَنْ فَرَّ من قتال اثنين يكون قد فَرَّ من الزحف ، ولكن إن فرّ من مواجهة ثلاثة لا يُحسب فَاراً؛ لأنهم أكثر من النسبة التي قررها الله .

وقول الحق في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها { انفروا خِفَافاً وَثِقَالاً } هو أمر يشمل الجميع على اختلاف أشكالهم ، أي : أنها تحمل أمراً عاماً لكافة المسلمين . ولكن هناك قول آخر في سورة التوبة ، أعفى بعض حالات معينة من المؤمنين الذين أخلصوا قلوبهم لله ، فيقول سبحانه : { لَّيْسَ عَلَى الضعفآء وَلاَ على المرضى وَلاَ عَلَى الذين لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ للَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلاَ عَلَى الذين إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنْفِقُونَ } [التوبة : 91-92] .

أي : ليس على هؤلاء الذين جاءت الآيتان الكريمتان بذكرهم أيُّ حرج في أن يقعدوا عن القتال . وكان هذا هو الاستثناء من القاعدة العامة التي فرضت على كل مؤمن أن يقاتل في سبيل الله ،

وهو ما جاءت به الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

{ انفروا خِفَافاً وَثِقَالاً وجاهدوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ الله } والمال هو الذي يجعلك تُعدُّ السلاح للحرب ، وحين يذهب الجيش إلى القتال لا بد أن يكون مُزوَّدَاً بالسلاح ، وبالمركبات وهي مثل الخيل على زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأيضاً لا بد من الزاد الذي يكفي لأيام القتال ، لذلك جاء الله سبحانه وتعالى بذكر المال أولاً ، ثم بعد ذلك ذكر الأنفس والأرواح ، ومن يملك القوة والمال فعليه أن يجاهد بهما ، ومن يملك عنصراً من الاثنين؛ القوة أو المال ، فعليه أن يجاهد به . فإن كان ضعيفاً فعليه أن يعين بماله القوي القادر على القتال بأن يوفر له الأسلحة والخيول والدروع وغير ذلك من وسائل القتال .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : { وجاهدوا } ، و « جاهد » و « قاتل » مبنية على المفاعلة ، بمعنى : إن قاتلك واحد من الكفار ، فلا بد أن تبذل كل جهدك في قتاله ، و « جاهد » مثل « شارك » ، فهل تقول : شارك زيد ثم تسكت ، أم تقول : شارك زيد عَمْراً ، وقاتل زيد عمراً؟ إذن : فهناك مفاعلة .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول في آية أخرى : { يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ اصبروا وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ واتقوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }

[آل عمران : 200] .

وهذا القول هو أمر بالصبر على القتال . ولكن هَبْ أن عدوك صبر مثلك ، هنا يأتي أمر آخر من الحق سبحانه وتعالى : { وَصَابِرُواْ } أي : اغلبه في الصبر بأن تصبر أكثر منه . وكذلك { وجاهدوا } أي : اغلبوهم في الجهاد ، بأن تجاهدوا أكثر منهم .

ونعود إلى قول الحق سبحانه وتعالى : { وجاهدوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ الله } وسبيل الله هو : الطريق الموصل إلى الغاية التي هي رضا الله والجنة . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ } ، و « ذا » اسم إشارة ويشير إلى المفرد المستفاد من قوله تعالى : { وجاهدوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ } إذن : ف « ذا » تشير إلى الجهاد بالمال والنفس ، و { لَّكُمْ } تشير للخطاب؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يخاطب جماعة .

وبعض من لا يفهم اللغة يقول : { ذلكم } كلمة واحدة خطاباً أو إشارة ، ونقول لهم : لا ، بل هي كلمتان؛ إشارة وخطاب . والإشارة هنا لشيء واحد ، والخطاب لجماعة . ومثال هذا أيضاً قول الحق سبحانه على لسان امرأة العزيز في قصة يوسف عندما جمعت امرأة العزيز النسوة ، وأخرجت يوسف عليهن ، وصارت هناك جماعة من النسوة ، وهناك يوسف – أيضاً – : { فذلكن الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ } [يوسف : 32] .

و « ذا » المقصود بها يوسف ، و « لكُنَّ » هن : النسوة المخَاطَبات .

ومثال آخر أيضاً هو قول الحق سبحانه : { فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ } [القصص : 32] .

و « ذان » إشارة لاثنين ، وهما معجزتان من معجزات موسى عليه السلام؛ العصا واليد البيضاء ، وحرف الكاف للمخاطب وهو موسى عليه السلام .

إذن : فقول الحق : { ذلكم } في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها مكون من كلمتين : الإشارة لواحد والخطاب لجماعة .

وقوله تعالى : { ذلكم خَيْرٌ } . . عن أي خير يتحدث سبحانه؟

إن نفرتم وجاهدتم بأموالكم وأنفسكم فهو خير ، ولا بد أن يكون خيراً من مقابل له . والمقابل له هو القعود عن الجهاد بأموالكم وأنفسكم .

إذن : فالجهاد خير من القعود .

وكلمة { خَيْرٌ } تستعمل في اللغة استعمالين؛ الاستعمال الأول أن يراد بها الخير العام ، كقوله تعالى : { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ } [الزلزلة : 7-8] .

ويكون مقابلها في هذه الحالة هو الشر . ومرة تأتي « خير » بمعنى « أفعل التفضيل » ، كأن تقول : هذا خير من هذا . وفي هذه الحالة يكون كل من الأمرين خيراً ، ولكن أحدهما أفضل من الآخر ، مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوي خَيْرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كُلٍّ خير »

فإن جاءت « خير » دون أن تسبقها « من » فالمراد بها المقابل لها ، وهو « الشر » .

ونجد بعضاً من أساتذة اللغة العربية يقولون : عندما تستخدم كلمة « خير » كأفعل تفضيل لا تقل : « خير » ، بل قل : « الخير » ، ولكن اللفظ المستخدم هنا هو « خير » ، فإن استُعْمِل في أفعل التفضيل فهو يعطي الصفة الزائدة لواحد دون الثاني ، والاثنان مشتركان في الخيرية .

وعلى سبيل المثال « كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد اسمه زيد بن حارثة اشترته خديجة رضي الله عنها ، وأهدته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرف أبو زيد وعمه مكانه فذهبا إلى مكة ليروه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : » فأنت قد علمت ورأيت محبتي لك فاخترني أو اخترهما « . فقال زيد : ما أنا بالذي أختار عليك أحداً ، أي : أنه اختار أن يبقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يذهب مع أهله ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكافئه؛ فألحقه بنفسه وقال : » يا من حضر اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأرثه « وكان التبني مباحاً عند العرب ، وأراد الحق أن يُلغي التبني وأن يطبق رسول الله هذا الإلغاء بنفسه ، فجاء قول الحق سبحانه وتعالى : { مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ولكن رَّسُولَ الله } [

الأحزاب : 40] .

وهكذا أنهى الحق سبحانه وتعالى التبني ، وقال سبحانه وتعالى : { ادعوهم لآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ الله } [الأحزاب : 5] .

و { أَقْسَطُ } يعني » أعدل « ، كأن الحق سبحانه وتعالى لم يَنْف عن رسوله صلى الله عليه وسلم العدل ، ولكنه أنزل ما هو أعدل . إذن : فساعة ترى أَفعل التفضيل؛ فاعلم أنه يعطي الصفة الزائدة ويُبقي الصفة الأصلية . وفي الآية التي نحن بصددها { ذلكم خَيْرٌ } ومقابلها : أن القعود عن الجهاد بالمال والنفس شر .

يقول الحق سبحانه : { ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } إذن : فهناك موازين نعرف بها ما هو خير وما هو شر . . وحينما قال الحق : { إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } فكأن هناك مقدمات للعلم ، فإن لم يكونوا يعلمون؛ فالله يعلمهم ، ذلك أن الذي يجاهد بماله ونفسه يكون قد اقتنع بيقين أنه سوف يحصل من الجهاد على ما هو خير من المال والنفس . وأيضاً : إن قُتل فهو باستشهاده صار أسوة حسنة لمن يأتي بعده . وحين أوضح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من يقاتل صابراً محتسباً يدخل الجنة ، جاء له صحابي في فمه تمرة يمضغها فيقول : أليس بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن أقاتل فيقتلوني؟ فلما أجاب النبي صلى الله عليه وسلم : نعم . استبطأ الصحابي أن يضيع مضغ التمرة وقتاً ، وأن يتأخر عن القتال بسببها ، فرماها من فمه وقاتل حتى استشهد . وكان هذا دليلاً على أنه واثق تمام الثقة أن الاستشهاد يعطيه جزاءً أعلى بكثير مما ترك .

ثم بعد ذلك يعود الحق سبحانه وتعالى إلى الذين يتثاقلون عن الجهاد ليصفي المسائل كلها ، فيقول جل جلاله : { لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ ولكن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشقة . . } .

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (42)

والعَرَضُ هو ما يقابل الجوهر ، والجوهر هو ما لا تطرأ عليه أغيار ، فالصحة عَرَض والمرض؛ لأن كليهما لا يدوم ، إذن فكل ما يتغير يسمى عَرَضٌ حاضر يأكل منها البَرُّ والفاجر .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى : { لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً } أي : لو كان أمراً من متاع سهل التناول ، ومحبباً للنفس؛ وليس فيه مشقة السفر والتضحية بالمال والنفس؛ لأسرعوا إليه . { وَسَفَراً قَاصِداً } ، والقاصد هو المقتصد الذي في الوسط؛ وبعض الناس يسرف في الكسل ، فلا يستنبط الخير من السعي في الأرض ومما خلق الله ، وبعض الناس يسرف في حركة الدنيا ويركض كركض الوحوش في البرية ، ولا يكون له إلا ما قسمه الله . وأمزجة الناس تتراوح ما بين الإسراف

والتقتير ، أما المؤمن فعليه أن يكون من الأمة المقتصدة . والحق هو القائل : { مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ } [المائدة : 66] .

لأن المؤمن لا يأخذه الكسل فيفقد خير الدنيا ، ولا يأخذه الإسراف فينسى الإيمان . إذن : فالحق سبحانه وتعالى يوضح لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه لو كان هناك متاع من متاع الدنيا أو سفر بلا مشقة ولا تعب لاتبعوك ، فهم لم يتبعوك؛ لأنه ليست هناك مغانم دنيوية؛ لأن هناك مشقة ، فالرحلة إلى تبوك ، ومقاتلة الروم ، وهم أصحاب الدولة المتحضرة التي تضع رأسها برأس دولة الفرس ، وهذه أيضاً مشقة ، والعام عُسْر والحر شديد ، ولو أن الأمر سهل مُيسَّر لاتبعوك .

ويتابع سبحانه : { ولكن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشقة } أي : أن المشقة طويلة ، ثم يقول : { وَسَيَحْلِفُونَ بالله لَوِ استطعنا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ } هم إذن لم يتبعوك؛ لأن المسألة ليست عرضاً قريباً ولا سفراً سهلاً ، بل هي رحلة فيها أهوال ، وتضحيات بالمال والنفس ، وحين تعود من القتال سوف يحلفون لك؛ أنهم لو استطاعوا لخرجوا معكم للقتال .

وقد قال الحق ذلك قبل أن تأتي أوان الحلف ، وهذه من علامات النبوة؛ لكي يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم المنافقين مِنْ صادقي الإيمان . وسبحانه وتعالى يفضح غباء المنافقين؛ لذلك قال : { وَسَيَحْلِفُونَ بالله } واستخدام حرف السين هنا يعني أنهم لم يكونوا قد قالوها بعد ، ولكنهم سيقولونها في المستقبل ، ولو أنهم تنبهوا إلى لم يكونوا قد قالوها بعد ، ولكنهم سيقولونها في المستقبل ، ولو أنهم تنبهوا إلى ذلك لامتنعوا عن الحلف . ولقالوا : إن القرآن قال سنحلف ، ولكننا لن نحلف . ولكن الله أعماهم فحلفوا ، وهكذا يأتي خصوم الإسلام ليشهدوا – رغم أنوفهم – للإسلام . ومثال آخر على نفس الأمر؛ عندما حُوّلت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة؛ قال الحق سبحانه وتعالى : { سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ التي كَانُواْ عَلَيْهَا } [البقرة : 142] .

وقوله هنا { سَيَقُولُ } معناها أنهم لم يقولوا بعد ، وإلا ما استخدم فيها حرف السين .

وهذه الآية نزلت في القرآن يتلى ولا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة . . ورغم أنه كان في استطاعتهم ألا يقولوا ذلك القول ، ولو فعلوا لساهموا في التشكيك بمصداقية القرآن ، ولهدموا قضية الدين التي يتمنون هدمها ، ولكنهم مع ذلك قالوا : { مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ } وجاءوا مثبتين ومُصدِّقين للقرآن .

وفي هذه الأيام نجد شيئاً عجيباً؛ نجد من يقول : أنا لا أتبع إلا ما جاء في القرآن ، أما السنة فلستُ مطالباً بالالتزام بها . وتقول لمن يردد هذا الكلام : كم عدد ركعات الصبح وركعات الظهر والعصر والمغرب والعشاء؟ وسوف يرد قائلاً : صلاة الصبح ركعتان ، والظهر أربع ،

والعصر أربع ، والمغرب ثلاث ، والعشاء أربع . ونقول : من أين أتيت بهذا؟ يقول : من السنة . نقول : إذن فلا بد من اتباع السنة حتى تستطيع أن تصلي ، ولن تفهم التطبيق العملي لكثير من الأحكام إلا باتباع السنة .

ويجبر الحق سبحانه هذا الذي يحارب سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدعو إلى عدم الالتزام بها؛ يجبره سبحانه على الاعتراف بضرورة اتباع السنة ، وبهذا يصدق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يوشك الرجل يتكىء على أريكته يُحدَّث بحديثي ، فيقول : بيني وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما كان فيه حراماً حرَّمْناه ، وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله » .

وقد قالوا ذلك القول طَعْناً في الكتاب ، ولكنهم من حيث لا يدرون أكدوا صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم لم يمتلكوا الذكاء؛ لأن الذكاء الذي لا يهدي للإيمان هو لون من الغباء وعَمى البصيرة ، وكذلك كان حال من حلفوا بعدم استطاعتهم الخروج للقتال؛ فقد سبقهم قول الله : { وَسَيَحْلِفُونَ بالله لَوِ استطعنا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ } وجاءوا من بعد ذلك وحلفوا؛ ليؤكدوا صدق القرآن . وهم في حلفهم يدّعون عدم استطاعتهم للقتال ، مع أن لديهم المال والقدرة . ويقول الحق عنهم : { يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ والله يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } وما داموا قد حلفوا بالله كذباً ، فقد أدخلوا أنفسهم في الهلاك ، فهم لم يكتفوا بعدم الجهاد؛ بل كذبوا وفضح الله كذبهم .

ويقول الحق بعد ذلك : { عَفَا الله عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَكَ . . . }

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (43)

وكلمة { عَفَا } تدل على أن هناك أثراً قد مُحي؛ تماماً كما يمشي إنسان في الرمال؛ فتُحْدِث أقدامه أثراً ، ثم تأتي الريح فتملأ مناطق هذا الأثر بالرمال وتزيله . وهي تُطلق في الدين على محو الله سبحانه وتعالى لذنوب عباده فلا يعاقبهم عليها . وما دام الإنسان قد استغفر من ذنبه وقال : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ، فلا يجب أن يحرجه أحد بعد ذلك ، ولا أن يعايره أحد ، فقد استغفر عند من يملك الملك كله ، وهو وحده سبحانه الذي يملك العفو والمغفرة ، فلا يُدْخِلنَّ أحدكم نفسه في هذه المسألة ، ولا يجب أن يحرج إنسان مذنباً ما دام قد استغفر مَنْ يملك العفو ، ومن يسمع مستغفراً عليه أن يقول : عفا الله عنك . ولا أحد يعرف إن كان الله قد عفا عنه أم لا ، فَلْتُعِنْهُ بالدعاء له ، ومن يعاير مذنباً نقول له : تأدب؛ لأنه لم يرتكب الذنب عندك ، ولكنه ارتكبه عند ربه ، وإذا كان من يستغفر من ذنبه لا يُحرج به بين الناس ، فما بالنا بعفو الله سبحانه القادر وحده على العفو .

وهنا يقدم الحق سبحانه العفو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أذن لهم بالقعود عن

القتال ، ثم يأتي القرآن من بعد ذلك ليؤكد أن ما فعله رسول الله بالإذن لهم بالقعود كان صواباً ، فيقول في موضع آخر من نفس السورة : { لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً } [التوبة : 47] .

إذن : فلو أنهم خرجوا لكانوا سبباً في الهزيمة ، لا من أسباب النصر . وصوَّبَ الحق عمل الرسول ، وهو صلى الله عليه وسلم له العصمة .

وهنا نحن أمام عفو من الله ، على الرغم من عدم وجود ذنب يُعفى عنه ، وهنا أيضاً إذن من الرسول لهم بالقعود ، ونزل القرآن ليؤكد صوابه .

وهناك من فهم قول الحق : { لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ } على أنها استفهام استنكاري ، وكأن الحق يقول : كيف أذِنْتَ لهم بالعفو؟

إذن : فرسول الله بين أمرين : بين عفو لا يُذْكَرُ بعده ذنب ، واستفهام يفيد عند البعض الإنكار .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى أيَّد رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : { لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً } [التوبة : 47] .

فكأن الرسول قد هُدِيَ إلى الأمر بفطرته الإيمانية ، وقد أشار القرآن إلى ذلك؛ ليوضح لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوم وفطرته سليمة ، وكان عليه أن يقدم البيان العقلي للناس؛ لأنه الأسوة حتى لا يأتي من بعده واحد من عامة الناس ليفتي في مسألة دينية ويقول : أنا رأيت بفطرتي كذا ، بل لا بد أن يتبين الإنسان ما جاء في القرآن والسنة قبل أن يفتي في أمر من أمور الدين .

وعلى سبيل المثال : اختلف الأمر بين المسلمين في مسألة الفداء لأسرى بدر ونزل القول الحق : { لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [الأنفال : 68] .

وأيَّد الله حكم رسوله وأبقاه . إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم هُدِي إلى الأمر بفطرته الإيمانية ، ولكن هذا الحق لا يباح لغير معصوم .

وقد أباح الحق سبحانه الاستئذان في قوله : { فَإِذَا استأذنوك لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ } [النور : 62] .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : { عَفَا الله عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَكَ الذين صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الكاذبين } وهكذا يتبين لنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أذن لهم بالمقدمات والبحث والفطرة ، ورأى أن الإذن لهؤلاء المتخلفين هو أمر يوافق مراد الحق سبحانه؛ لأنهم لو خرجوا مع جيش المسلمين ما زادوهم إلا خبالاً ، لعدم توافر النية الصادقة في الجهاد؛ لذلك ثبطهم الله ، وأضعف عزيمتهم حتى لا يخرجوا . والعفو هنا جاء في

شكلية الموضوع ، حيث كان يجب التبيُّن قبل الإذن ، فيقول الحق سبحانه :
{ حتى يَتَبَيَّنَ لَكَ الذين صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الكاذبين } أي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو لم يأذن لهم لكانوا قد انكشفوا ، ولكن إذنه لهم أعطاهم ستاراً يسترون به نفاقهم ، فهم قد عقدوا النية على ألا يخرجوا ، ولو فعلوا ذلك لافتُضِحَ أمرهم للمسلمين جميعاً ، فشاء الرسول صلى الله عليه وسلم أن يسترهم .
ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الذين يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر . . . }

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (44)

ويلفتنا سبحانه : أن الذين طلبوا ذلك الإذن بالقعود فضحوا أنفسهم ، فقد استأذنوا بعد مجيء الأمر من الله { انفروا خِفَافاً وَثِقَالاً } ، وكل مؤمن بالله واليوم الآخر – في تلك الظروف – لا يمكن أن يتخلف عن الجهاد في سبيل الله . والمؤمن الحق لن يقدم الأعذار ليتخلف ، حتى وإن كانت عنده أعذار حقيقية ، بل سيحاول إخفاءها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرج معه مجاهداً بل إنه يسرع إلى الجهاد ، حتى ولو كان الله قد أعطاه رخصة بعدم الجهاد .
وهذه الآية – إذن – تحمل التوبيخ للذين استأذنوا ، بل وتحمل أكثر من ذلك ، فالمؤمن إذا دُعِيَ للجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأمر من الله لا يكون تفكيره كالشخص العادي؛ لأن الإنسان في الأمور العادية إذا طُلِبَ منه شيء أدار عقله وفكره؛ هل يفعله أو لا يفعله؟ ولكن المؤمن إذا دُعِي للجهاد في سبيل الله ، ومع رسول الله ، وبأمر من الله؛ لا يدور في عقله الجواب ، ولا تأتي كلمة « لا » على خاطره أبداً ، بل ينطلق في طريقه إلى الجهاد .
وكيف يكون الأمر بالخروج إلى القتال صادراً من الله ، ثم يتحجج هؤلاء بالاستئذان بعدم الخروج؟
إذن : فمجرد الاستئذان دليل على اهتزاز الإيمان في قلوبهم؛ لأن الواحد منهم في هذه الحالة قد أدار المسألة في عقله ، يخرج للجهاد أو لا يخرج ، ثم اتخذ قراراً بالتخلف . والغريب أن هؤلاء استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدم الخروج ، مع أن أمر الجهاد صادر من الله سبحانه وتعالى ، ولم تكن المسألة تحتاج إلى أن يأذن لهم الرسول بالتخلف . إلا أنهم كانوا يبحثون عن عذر يحتمون به .
والمثال من حياتنا اليومية أننا نجد أولاد البلد يسخرون من البخيل الذي لا يكرم ضيفه ويدَّعي أنه سيكرمه ، فتجده ينادي ابنه ويقول له أمام الضيف : انزل إلى السوق وابحث لنا عن خروف نذبحه للضيف ولا تتأخر فنحن منتظرون عودتك . . وما إن يقول الضيف أدباً منه : لا . تجد البخيل يصرف ابنه . ويتخذ من رفض الضيف أدباً منه : لا . تجد البخيل يصرف ابنه . ويتخذ

من رفض الضيف حجة لعدم إكرامه ، وكأنه يريد ذلك ، ولكن الواقع يقول : إنه لا يريده من أول الأمر .

ونعلم جميعاً أن الإنسان لا يستأذن في إكرام ضيوفه . والمثال : هو إبراهيم عليه السلام عندما جاءته الملائكة في هيئة رجال ، وأراد أن يكرمهم فلم يستأذنهم في أن يذبح لهم عجلاً ، بل جاء به إليهم مذبوحاً ومشوياً ، هذا سلوك مَنْ أراد إكرام الضيف بذبيحة فعلاً ، أما مَنْ يريد أن يبحث عن العذر ، فهو يتخذ أساليب مختلفة يتظاهر فيها بالتنفيذ ، بينما هو في حقيقته لا يريد أن يفعل ، مثلما يقال لضيف : أتشرب القهوة أم أنت لا تحبها؟ أو يقال له : هل تريد تناول العشاء أم تحب أن تنام خفيفاً؟ أو يقال : هل تحب أن تنام عندنا أن تنام في الفندق ، وهو أكثر راحةً لك؟

وما دام هناك من سأل الرسول : أأخرج معك للقتال أم أقعد ، فهذا السؤال يدل على التردد ، والإيمان يفترض يقيناً ثابتاً؛ لأن التردد يعني الشك ، وهو الذهاب والرجوع على التوالي ، وهو يعني أن صاحب السؤال متردد؛ لأن طرفي الحكم عنده سواء .

إذن : فالمؤمنون بالله لا يستأذنون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دُعوا إلى الجهاد؛ لأن مجرد الاستئذان في الخروج إلى الجهاد لا يليق بمؤمن .

وقوله تعالى : { والله عَلِيمٌ بالمتقين } أي : أن الله يعلم ما في صدورهم من تقوى ، فهم إنْ خدعوا الناس ، فلن يستطيعوا خداع الله؛ لأنه مُطَّلع على ما تُخفي الصدور .

إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (45)

ثم يُنزل الله حكمه في هؤلاء فيقول :

{ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر وارتابت قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ }

وهكذا أصدر الله حكمه فيمن أقدموا على الاستئذان ، فما دام الإنسان قد تردد بين أن يخرج للجهاد أو لا يخرج ، فهذا يكشف عن اهتزاز إيمانه ، وهذا الاهتزاز يعني وجود شك في نفسه ، فيما أعد الله له في الآخرة؛ لأنه إذا كان واثقاً في داخله يقيناً أنه سيدخل الجنة بلا حساب إنْ استشهد ، ما تردد ثانية واحدة ، ولا أدار الأمر في رأسه هل يذهب أو لا يذهب؟ فما دامت الجن هي الغاية ، فأيُّ طريق مُوصل إليها يكون هو الطريق الذي يتبعه مَنْ في قلبه يقين الإيمان ، وكلما كان الطريق أقصر كان ذلك أدعى إلى فرح الإنسان المؤمن؛ لأنه يريد أن ينتقل من شقاء الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وحتى لو كان يحيا في نعيم في الدنيا ، فهو يعرف أنه نعيم زائل وهو لا يريد هذا النعيم الزائل ، بل يريد النعيم الباقي الذي لا يزول .

والتردد والاستئذان هنا معناهما : أن الشك قد دخل في قلب الإنسان ، ومعنى الشك – كما

نعلم – هو وجود أمرين متساويين في نفسك لا يرجح أحدهما حتى تتبعه . والنسب الكلامية والقضايا العقلية تدور بين أشياء متعددة ، فأنت حين تجزم بحكم فلا بد أن يكون له واقع يؤيده؛ لأنك إن جزمتَ بشيء لا واقع له فهذا جهل ، والجهل –كما نعلم– أن نعتقد أن شيئاً ما هو حقيقة ، وهو غير ذلك ولا واقع له . فإذا أنت على سبيل المثال قلت : إن الأرض مبسوطة ، ثم جاءوا لك بصورة الأرض كروية وأصررت على أنها مبسوطة ، فهذا جهل وإصرار عليه . وفرق بين الجاهل والأمي ، فالأمي الذي لم يكن يعرف أن الأرض كروية ، ثم علم حقيقة العلم وصدقها فهو مذ عرف الواقع صدقه وآمن به . ولكن الجاهل يؤمن بما يخالف الواقع . فإن جئت له بالحقيقة أخذ يجادل فيها مُصراً على رأيه . ولذلك نجد مصيبة الدنيا كلها ليست من الأميين ، ولكن من الجهلة لأن الأمي يحتاج إلى مجهود فكري واحد ، أن تنقل له المعلومة فيصدقها ، أما الجاهل فإقناعه يقتضي مجهودين : الجهد الأول : أن تخرج ما في عقله من معلومات خاطئة ، وأوهام ليست موجودة في الواقع ، والجهد الثاني : أن تقنعه بالحقيقة .

وإذا كان هناك واقع في الحياة تستطيع أن تدلل عليه فهذا هو العلم . فإن لم تستطع التدليل عليه فهذا هو التلقين ، والمثال : أننا حين نُلقن الطفل الصغير أن الله أحد ، وهو لم يبلغ السن التي تستطيع عقلياً أن تدلل له فيها على ذلك . ولكنك قلت له : إن الله أحد ، وجزم بها الطفل ، وهذه حقيقة واقعة ، ولكنه لا يستطيع أن يدلل عليها .

وهو في هذه الحالة يُقلد أباه أو أمه أو مَنْ لقنه هذا الكلام حتى ينضج عقله ويستطيع أن يدلل على ما اعتقده في صغره بالتلقين .

إذن : فالعلم يقتضي أن تؤمن بقضية واقعية عليها دليل ، ولكن إن كنت لم تصل إلى مرحلة الجزم؛ تكون في ذهنك نسبتان؛ وليست نسبة واحدة . فإن لم ترجع نسبة على الأخرى ، فهذا هو الشك . وإن ظننتَ أنت أن إحداهما راجحة فهذا هو الظن ، فإن أخذت بالنسبة غير الراجحة فهذا هو الوهم .

الحق سبحانه وتعالى يقول : { إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر } ولو استقر في قلوبهم الايمان اليقيني بالله واليوم الآخر ، وأن مَردَّهم إلى الله سبحانه وتعالى ، وأنهم سوف يحاسبون على ما قدموا ، واعتبروا أن تضحيتهم بالمال والنفس عمل قليل بالنسبة للجزاء الكبير الذي ينتظرهم في الآخرة ، لو كان الأمر كذلك لنا استأذنوا ، ولكن ما دام الشك قد دخل قلوبهم فمعنى هذا أن هناك ريبة في أمر ملاقات الله في اليوم الآخر . وهل هذا الأمر حقيقة يقينية؟ ولأنهم يرتابون في هذه المسألة فهل يضحون بأموالهم وأنفسهم من أجل لا شيء ، ولذلك يقول عنهم الحق سبحانه وتعالى : { وارتابت قُلُوبُهُمْ } .

إذن : فالارتياب محله القلب ، والعلم أيضاً محله القلب ، ويمر كل من الارتياب والعلم عللعقل؛

لأن العقل هو الذي يُصفَّى مثل تلك المسائل بعد أن يستقبل المحسَّات ويناقش المقدمات والنتائج ، فإن صفَّى العقل هذه الأمور واستقر على الإيمان ، هنا يصبح الإيمان قضية يقينية ثابتة مستقرة في القلب ، ولا تطفو مرة أخرى إلى العقل لتُناقَش من جديد ، ولذلك سمَّوْها عقيدة ، أي عقدت الشيء حتى يستقر في مكانه ولا يتزحزح .

إن الطفل – مثلاً – إنْ قرَّب يده إلى شيء مشتعل فأحس بلسعة النار . هنا يعرف أن النار محرقة ولا يحاول تكرار نفس التجربة ، ولا يناقشها في عقله ليقول : لن تلسعني النار في هذه المرة ، بل تستقر في ذهنه المسألة ، وتنتقل من قضية حسية إلى قضية عقدية لا تخضع للتجربة من جديد ولا يحتاج فيها إلى دليل .

وهنا يقول الحق سبحانه : { وارتابت قُلُوبُهُمْ } ، وفي آية أخرى يقول سبحانه : { خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ } والقلب هو محل القضايا التي انتهت من مرحلة التفكير العقلي ، وصارت قضايا ثابتة لا يبحثها العقل من جديد .

وقوله هنا : { وارتابت قُلُوبُهُمْ } معناه : أن الإيمان عندهم لم يصل إلى المرتبة التي لا يطفو فيها مرة أخرى للتفكير العقلي . . أيؤمن أو لا؟ ، أي : لم يصل إلى مرتبة اليقين ، بل ما زال في مرحلة الشك الذي يعيد القضايا من القلب إلى العقل لمناقشتها من جديد ، ولذلك يصفهم الحق سبحانه وصفاً دقيقاً فيقول : { فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ } أي : أن الإيمان عندهم يتردد بين العقل والقلب ، فينزل إلى القلب ثم يطفو إلى العقل ليُناقَشَ من جديد ، ثم ينزل إلى القلب مرة أخرى ، وهكذا يتردد الأمر بين العقل والقلب ، ولا يستقر في مكان ، وهم بذلك على غير يقين من الآخرة ، وما أعدَّ الله لهم فيها من جزاء . ويشكُّون في لقاء الله في اليوم الآخر . ويدور كل ذلك في نفوسهم ، ولكنه لا يصل إلى مرتبة اليقين .

ويريد الله سبحانه وتعالى أن يوضح لنا الصورة أكثر فيقول : { وَلَوْ أَرَادُواْ الخروج لأَعَدُّواْ لَهُ . . {

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (46)

ففي ترددهم دلالة على أنهم لا يريدون الخروج للجهاد؛ ولو كانوا عازمين بالفعل على ذلك لأعدوا ما يلزمهم للحرب من الزاد الراحلة والسلاح ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا قط؛ لأنهم افتقدوا النية الصادقة للجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .

ولقائل أن يقول : ألم يكن من الجائز أن يعدوا كل شيء للقتال في آخر لحظة؟ نقول : لا ، فالذاهب إلى القتال لا يمكن أن يستعد في آخر لحظة . بل لا بد أن يشغل نفسه بمقدمات الحرب من سلاح وزاد وراحلة وغير ذلك ، ولو لم يشغل نفسه بهذه المسائل قبل الخروج بفترة

وتأكد من صلاحية سلحه للقتال؛ ووجود الطعام الذي سيحمله معه؛ وغير ذلك ، لما استطاع أن يخرج مقاتلاً . فليست المسألة بنت اللحظة . بل كان عدم استعدادهم للقتال يُعَدُّ كشفاً للخميرة المبيَّتة في أعماقهم بألا يخرجوا ، وسبحانه قد اطلع علة نواياهم ، وما تُخْفى صدورهم ، وقد جازاهم بما أخفوا في أنفسهم . لذلك يقول :

{ ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقعدوا مَعَ القاعدين } وسبحانه وتعالى لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، بل الخلق هم الذين في احتياج دائم إليه سبحانه؛ لذلك ثبط هؤلاء عن الخروج ، وكره سبحانه خروجهم للقتال ، و « ثبطهم » أي جعلهم في مكانهم ، ولم يقبل منهم أن يعدوا العدة للقتال كراهية منه سبحانه أن يخرجوا بنشاط إلى القتال . والكره : عملية وجدانية . والتثبيط : عملية نزوعية .

وأضرب هذا المثل دائماً – ولله المثل الأعلى – أنت ترى الوردة ، فتدرك بعينيك جمالها ، فإنْ مددتَ يدك إليها لتقطفها ، هنا يتدخل الشرع ليقول لك : لا؛ لأن هذا نزوع إلى ما لا تملك . وإن أردت أن تحوز وردة مثلها ، فإما أن تشتريها وإما أن تزرع مثلها ، إذن : فالمشرع يتدخل – فقط – في الأعمال النزوعية .

وكراهية الله لنزوعهم تجلَّتْ في تثبيطهم وخذلهم وردِّهم عن الفعل ، وزيَّن لهم في نفوسهم ألا يخرجوا للقتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك لحكمة أرادها الحق سبحانه ، فوافقت ما أذن فيه رسول الله في التخلف ، وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال : { وَقِيلَ اقعدوا مَعَ القاعدين } وإذا كان التثبيط من الله ، فكأنه أوضح لهم : اقعدوا بإذن الله من الإرادة الإلهية . أو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لهم بالقعود والتخلف لمّا استشفَّ تراخيهم ، أو أن الشياطين أوحتْ لهم بالقعود ، فالحق هو القائل سبحانه : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنس والجن يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً } [الأنعام : 112] .

وهكذا نجد أن كلمة : { قِيلَ } قد بُنيتْ لما يُسَمَّ فاعله لإمكان أن يتعدد القائلون ، فالله بتثبيطه لهم كأنه قال لهم : اقعدوا ، والرسول صلى الله عليه وسلم قال لهم : اقعدوا ، والشياطين حينما زينوا لهم القعود؛ كأنهم قالوا لهم : اقعدوا .

وقولهم بعضهم لبعض زيَّن لهم القعود ، وهكذا أعطتنا كلمة واحدة عطاءات متعددة .

وهل ينفي عطاءٌ عطاءً؟ . لا ، بل كلها عطاءات تتناسب مع الموقف .

{ ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقعدوا مَعَ القاعدين } والمقصود بالقاعدين هنا : هم الذين لا يجب عليهم الجهاد من النساء والأطفال والعجائز . فكأنهم قد تخلوا بعدم خروجهم عن رجولتهم التي تفرض عليهم الجهاد . وهذه مسألة ما كان يصح أن يرتضوها لأنفسهم . وفي موقع آخر من نفس السورة قال الحق سبحانه :

{ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الخوالف وَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ } [التوبة : 87] .
وقد كانت الرجولة تفترض فيهم أن يهبوا للقتال ، لكنهم ارتضوا لأنفسهم ، ضعف النساء والأطفال .
ونجد الشاعر العربي عندما أراد أن يستنفر أفراد قبيلته الذين تكاسلوا عن القتال معه ، فقال :
وَمَا أدْرِي ولسْتُ إخَالُ أدْري ... أقوْمٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِسَاءُ
والقوم تُطلَقُ على الرجال دون النساء . ثم يبين لنا الحق حكمة التثبيط ، فإن كان قعودهم من جانب الخير ، فتثبيط الله لهم حكمة ، وإذن الرسول لهم بعدم الخروج حكمة . وإن كانت مسألة قعودهم من وسوسة الشياطين لهم أو وسوسة النفوس ، فقد خدمت وسوسة الشياطين ووسوسة النفوس قضية الإيمان ، وأعانوا على مراد الله ، وهذا هو الغباء الكفرى ، فزينت الوسوسة لهؤلاء المنافقين عدم الخروج للجهاد في سبيل الله؛ لأنهم لو خرجوا لحدث منهم ما قاله الحق سبحانه وتعالى فيهم : { لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً . . }

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47)

والخبال مرض عقلي ينشأ معه اختلال موازين الفكر ، فتقول : فلان مخبول ، أي : أنه يحكم في القضايا بدون عقل ، إذن فقوله تعالى : { مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً } أي : أنهم لن يكونوا إلا مصدراً لبلبلة الأفكار لو خرجوا معكم للقتال ، فلا تستطيعون اتخاذ القرار السليم . فكأنهم عين عليكم ، وضدكم وليسوا معكم ، وقد يكونون من عوامل الهزيمة التي لم يُرِدْهَا الله لكم ، وليسوا من عوامل النصر ، فكأن عدم خروجهم هو دفع لشَر ، كان سيقع لو أنهم خرجوا معكم . وشاء الحق عدم خروجهم حفاظاً على قوة المؤمنين وقدرتهم على الجهاد .
وقوله تعالى : { ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ } أي : أنهم كانوا سيُحْدثون فُرْقة بين صفوف المؤمنين ويُفرّقونهم ، وسيتغلغلون بينهم للإفسَاد؛ لأن الخلال هو الفُرْجة بين الشيئين أو الشخصين ، فيدخل واحد منهم بين فريق من المؤمنين فيفسد ، وآخر يفسد فريقاً آخر ، وهكذا يمشون خلال المؤمنين ليفرقوا بينهم .
ولكن التساؤل : هل كانوا سيخرجون معهم أو فيهم؟ هم كانوا سيدخلون في الفُرج بين المؤمنين ليبلبلوا أفكارهم . ونقول : إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض ، وعندما تسمع كلمة « فيكُم » اعلم أنها تغلغل ظرف ومظروف؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالَى في موضع آخر من القرآن ما يوضح لنا الظرف والمطروف ، قال الحق : { وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل } [طه : 71] .
هل كان فرعون سيصلب السحرة في داخل الجذوع أم على الجذوع؟ وإن كان أهل اللغة قد قالوا

: إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض . فإننا لا نرضى هذا الجواب؛ لأننا إن رضيناه في أساليب البشر ، لا يمكن أن نقبله في أساليب كلام الله؛ لأن هناك معنى « في » الظرفية؛ ومعنى آخر في استخدام حرف « على » . ولو قال الحق سبحانه وتعالى : { وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل } معناه : أن عملية الصَّلْب ستتم بقوة بحيث تدخل أجزاء من جسم المصلوب في المصلوب فيه ، أي : أن جنود فرعون كانوا سَيَدقُّون على أجساد السحرة حتى تدخل في جذوع النخل ، وتصبح هذه الأجساد وجذوع النخل وكأنها قطعو واحدة ، هذه صورة لقسوة الصلب وقوته .

لكن إذا قلنا : على جذوع النخل لكان المعنى أخفَّ ، ولكان الصَّلْب أقل قسوة ، فكأن القرآن الكريم قد استعمل ما يعطينا دقة المعنى . بحيث إذا تغيَّر حرف اختل المعنى . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول في موضع آخر من القرآن الكريم : { وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ } [آل عمران : 113] .

أي : أن سرعتنا في العمل الصالح تنتهي بنا إلى المغفرة ، إذن : فنحن قبل أن نسرع إلى الصالح من الأعمال لم نكن في المغفرة ، وعندما نسارع نصل إليها .

ثم نجد قول الحق سبحانه وتعالى أيضاً : { إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الخيرات } [الأنبياء : 90] ولم يقل : يسارعون إلى الخيرات؛ لأن عملهم الآن خير ، وهم سيسارعون فيه؛ أي سيزيدونه؛ إذن : إنْ سارعتَ إلى شيء كأنه لم يكن في بالك ، ولكنك ستسرع إليه ، ولكن سارعتَ في الخير ، فكأنك في الخير أولاً ثم تزيد في فعل الخير .

وإذا تدبرنا قول الحق سبحانه : { ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ } نجد أن « أوضع » تعنى : أسرع بدرجة بين الإبطاء والسرعة ، فيقال : « أوضعت الدابة؛ أي مشتْ بخُطىً غير بطيئة وغير سريعة في نفس الوقت ، ولو نظرتَ إلى حالة هؤلاء المنافقين لو خرجوا مع المؤمنين للقتال ، لرأيتهم وهو يزينون لهم الفساد ، ويعملون على أن تصاب عقول المقاتلين بالخبل ، ولوجدتَ أن هذا الأمر يتطلب آخر البطء وأول السرعة في الحركة ، كانوا يحتاجون إلى البطء؛ لأنهم كانوا سيهمسون في آذان المؤمنين بتزيين الباطل وهذا يقتضى بُطئاً ، ثم ينتقل الواحد منهم إلى مؤمن ثان ليقوم معه بنفس العملية ، ولا بد أن يسرع إلى التواجد بجانب المؤمن الآخر . إذن : فالحركة هنا تحتاج إلى البطء في الوسوسة؛ وسرعة في الانتقال من مؤمن لآخر . وهذا أدقُّ وصف ينطبق على ما كان سيحدث .

ولكن ما هدف هؤلاء المنافقين من أن يضعوا الخبل في عقول المؤمنين؟ ويُفرّقوهم جماعات؟

الهدف : أن ينالوا من وحدتهم وقوتهم ، ويقول الحق سبحانه وتعالى : { يَبْغُونَكُمُ الفتنة } أي : يطلبون لكم الفتنة؛ لأن الإنسان الشرير حين يرى خيراً يقوم به غيره ، يجد الملكات الإيمانية في

أعماقه تصيبه بنوع من احتقار النفس ، فيحاول التقليل من شأن فاعل الخير بأن يسخر مما يفعله أو أن يستهزئ به ، وهذا أوضح ما يكون في مجالس الخمر ، حين يحس الجالسون في هذه المجالس بالذنب الشديد؛ إن وُجِدَ بينهم إنسان لا يشرب الخمر ، فتجدهم يحاولون أن يُغْرُوه بكل طريقه؛ لكي يرتكب نفس الإثم ، فإذا رفض أخذوا يُعيّرونه ويستهزئون به ، ويسخرون منه ، ويدَّعون أنه لم يبلغ مبلغ الرجال ، وغير ذلك من أساليب السخرية . وأيضاً تجد الكذاب يحاول دفع الناس إلى الكذب ، والسارق يغري الناس بالسرقة ، والمرتشي يحاول نشرة الرشوة بين جميع زملائه ، فإذا وُجِدَ إنسان نزيه وسط هؤلاء الذين يرتكبون هذه الألوان من السلوك السيء؛ فهم يضطهدونه ويسخرون منه .

والمثال : حين يقوم إنسان للصلاة بين عدد من تاركي الصلاة ، تجدهم يحاولون السخرية منه ، فهذا يقول له : خذني على جناحك ، وهذا يقول له مستهزئاً : يجعلنا الله من بركاتك . ويُبيّن لنا القرآن الكريم هذه القضية ليعطينا المناعة الإيمانية فيقول : { إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ * وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ } [المطففين : 29-36]

وهذه الآيات تعطينا صورة لما يحدث عندما يعمُّ الفساد في الأرض ، فالذين سخروا من المؤمنين يضحكون ضحكات ستزول حَتْماً طال الوقت أو قَصُر يتبعها عذاب في الآخرة ، أما أهل الإيمان فهم يخشون الله في الدنيا؛ فيثيبهم الله في الآخرة ، ويضحكون ضحكة خالدة مستمرة .

إذن : فقوله تعالى : { يَبْغُونَكُمُ الفتنة } أي : إنهم من فَرْط حقدهم عليكم وعلى أيمانكم ، يحاولون أن يفتنوكم في دينكم حتى تنزلوا إلى مستواهم ، تماماً كأنماط السلوك التي بيَّناها من قبل .

ثم يبيّن الحق سبحانه وتعالى أن الصف الإيماني لن يكون في مَنَعة مما كان سيفعله هؤلاء المنافقون ، فصحيح أنهم لم يخرجوا مع المؤمنين ، ولكن هناك بين المؤمنين من كان يستمع لهم ، ويقول الحق تبارك وتعالى : { وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ والله عَلِيمٌ بالظالمين } وسمعتُ لفلان ، أي : سمعتْ أذني ما قاله ، وسمعت من فلان ، أي : لصالح شخص آخر ، أي : من يستمع منهم أو من يستمع أخباركم فهو ينقلها إليهم .

إذن : فاللام تأتي بالمعنيين ، فمن المؤمنين من كان سيسمع لهؤلاء المنافقين إليهم أخبار المؤمنين ويعملون لحسابهم ، وهناك من المؤمنين مَنْ سيسمع لهم أولاً ، فإذا أصيبوا بالخبل بدأوا في نقل أخبار المؤمنين إليهم ، وهكذا جاءت « اللام » فاصلة بين « سمعت له » أو « سمعت من غيره لصالحه » ويزيد الله سبحانه هذا الأمر إيضاحاً في قول الحق تبارك وتعالى : { إِنَّآ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ

الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَآ أَرَاكَ الله وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً } [النساء : 105]
فنجد السطحي التفكير يقول : إن هذا تحذير من مخاصمة الخائنين؛ خوفاً من ألاَّ يقدر عليهم ، أو أن يزدادوا في إثمهم بسبب هذه الخصومة . ونقول : إنك لم تفهم المعنى ، فالمعنى الواضح هو : لا تكُنْ لصالح الخائنين خصيماً ، أي : لا تترافع عن الخائنين أو تدافع عنهم .
وقوله تعالى { والله عَلِيمٌ بالظالمين } لأن الذي كان سيسمع ، والذين سيسمع لصالحهم؛ كلاهما ظالم والله عليم بهم .
ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { لَقَدِ ابتغوا الفتنة . . }

لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (48)

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يُذكِّر المؤمنين بالوقائع السابقة التي ارتكبها المنافقون والكفار تجاه الإسلام والمسلمين من : مؤامرات على الإسلام ، ومحاولات للإيقاع بين المسلمين؛ والتآمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وقوله تعالى : { ابتغوا الفتنة مِن قَبْلُ } له صلى الله عليه وسلم دليل على تلك الوقائع السابقة .
أما قوله تعالى { وَقَلَّبُواْ لَكَ الأمور } . فالتقليب : هو جعل أسفل الشيء عاليه ، وعاليه أسفله؛ حتى لا يستتر منه شيء . وهذا مظهر الفاكهة مُنْتقىً بعناية ، فإذا اشتريتَ منه ملأ لك الكيس من الصنف الرديء الذي أخفاه أسفل القفص . وهكذا يأتي لك بالأسفل أو بالشيء الرديء المكشوف عورته . والذي لا يمكن أن تشتريه لو رأيته ويضعه لك .
وهكذا يفعل المنافقون حين يُقلِّبون الأمر على الوجوه المختلفة حتى يصادفوا ما يعطيهم أكبر الشر للمؤمنين دون أن يصابوا هم بشيء . والمثال الواضح : عندما تآمرت قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاءوا من كل قبيلة بشاب ليضربوه ضرب رجل واحد ليضيع دمه بين القبائل .
لكن الحق سبحانه يأتي إلى كل هذه الفتن ويجعلها لصالح المؤمنين ، ولذلك يقول جل جلاله : { حتى جَآءَ الحق وَظَهَرَ أَمْرُ الله وَهُمْ كَارِهُونَ } فالتآمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحاولة قتله جعل الأمور تؤدي إلى هجرته صلى الله عليه وسلم من مكة وخروجه منها مما جعله الله سبحانه وتعالى سبباً في إظهار الحق وانتشار الإسلام؛ لأن الله لا يرسل رسولاً ثم يخذله ، فما دام قد أرسل رسولاً فلا بد أن ينصره ، فأريحوا أنفسكم ، ولا تبغوا الفتنة؛ لأن السابق من الفتن انقلب عليكم وأدَّى إلى خير كثير للمؤمنين .
وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون } [الصافات : 171-173]
وقوله تعالى : { وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون } وهو قضية كونية عقدية ، فإذا رأيتَ قوماً مؤمنين

التحموا بقتال قَوم كافرين وانهزموا ، فاعلم أنهم ليسوا من جنود الله حقّا ، وأن شرطاً من شروط الجندية لله قد اختل . ولذلك علينا أن نحاسب أنفسنا أولاً .

فمثلاً في غزو أُحد ، عندما طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرماة ألا يتركوا أماكنهم فخالفوه ، هنا اختل شرط من شروط الجندية لله وهو طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فماذا كان يحدث للإسلام لو أن هؤلاء الرماة خالفوا رسول الله وانتصروا؟ لو حدث ذلك لَهانَتْ أوامر الرسول عليه الصلاة والسلام على المؤمنين .

ويوم حنين ، حين اعتقد المؤمنون أنهم سينتصرون بكثرتهم وليس بإيمانهم ، وكانت النتيجة أن أصيبوا بهزيمة قاسية أول المعركة؛ لتكون لهم درساً إيمانياً . ولذلك رأيت إيماناً انهزم أمام كفر ، فاعلم أن شرطاً من شروط الجندية الإيمانية قد اختل .

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : { وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ الله وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا استكانوا والله يُحِبُّ الصابرين * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغفر لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصرنا عَلَى القوم الكافرين } [آل عمران : 146-147]

إذن : فأول شيء فعله هؤلاء المقاتلون؛ أنهم عرفوا أن الذنوب يمكن أن تأتي إليهم بالهزيمة ، فاستغفروا الله وتابوا إليه وحاربوا فنصرهم الله ، وإذا حدث لهم ولم ينتصر المؤمنون؛ فمعنى هذا أن هناك خللاً في إيمانهم؛ لأن الله لا يترك قضية قرآنية لتأتي حادثة كونية فتكذبها .

يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ائذن لِّي }

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (49)

هؤلاء هم الذين استأذنوا رسول الله في عدم الخروج للجهاد ، ومنهم من قال هذه العبارة : لا تفتنني بعدم إعطاء الإذن ، ولكن ما موضوع الفتنة؟ هل هو عذاب ، أم سوء ، أم شرك وكفر – والعياذ بالله –؟ إن كل ذلك – وغيره – تجوز فيه الفتنة . والقول : { ائذن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي } ظاهره أنه أمر ، ولكنه هنا ليس أمراً؛ لأن الأمر إذا جاء من الأدنى للأعلى فلا يقال إنه أمر ، بل هو دعاة أو رجاء ، وإن جاء من المساوى يقال : « مساو له » ، أما إن جاء من الأعلى إلى الأدنى؛ فهذا هو ما يقال له أمر ، وكلها طلب للفعل .

وكان الجد بن قيس – وهو من الأنصار – قد جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ائذن لي ولا تفتني؛ لأن رسول الله إن لم يأذن له فسيقع في فتنة مخالفة أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل : إن هذا الأنصاري لم يكن له جَلَدٌ على الحرب وشدائدها . وقيل : إنه كان على وَلَع بحب

النساء وسمع عن جمال بنات الروم ، وخشي أن يُفتنَ بِهنَّ ، خصوصاً أن المعركة ستدور على أرض الروم . ومن المتوقع أن يحصل المقاتلون على سبايا من بنات الروم .

وقوله تعالى : { ائذن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي } أوقعه في الفتنة فعلاً؛ لذاك جاء قول الحق : { أَلا فِي الفتنة سَقَطُواْ } . وكان هذا الأنصاري سميناً ، وشكا من عدم قدرته على السفر الطويل والحر ، فجاء الرد : إن كنتم من الحر والبرد تفرُّون فالنار أحقُّ بالفرار منها؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : { وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين } .

وفي آية أخرى قال سبحانه : { قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } إذن : فجحيم النار أِد قسوة وحرارة من نار القتار ، وحر الدنيا مهما اشتد أهون بكثير من نار الآخرة وهي تحيط بالكافرين .

ويقول الحق بعد ذلك : { إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ . . . }

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (50)

وما يزال الحديث عن المنافقين ، فبعد أن بيَّن الحق سبحانه وتعالى كيف حاول المنافقون الهروب من الحرب لأسباب وأعذار مختلقة ، أراد سبحانه وتعالى أن يزيد الصورة توضيحياً في إظهار الكراهية التي تخفيها قلوب المنافقين بالنسبة للمؤمنين . وهنا يقول سبحانه :

{ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ } والمقصود بالحسنة هنا هيك الانتصار في الحرب ، والنصر في الحرب هو من وجهة نظر المنافقين ينحصر في حصول المؤمنين على الغنائم ، وهذه مسألة تسوء المنافقين وتحزنهم؛ لأن الهمّ الأول للمنافقين هو الدنيا ، وهم يريدون الحصول على أكبر نصيب منها . وبما أنهم لم يخرجوا للجهاد والتمسوا الأعذار غير الصحيحة للهروب من الحرب؛ لذلك فهم يحزنون إذا انتصر المؤمنون؛ لأنهم حينئذ لن يكون لهم حق في الغنائم . وفي هذه الحالة يقولون : يا ليتنا كنا معهم؛ إذن لأصبْنَا الغنائم وأخذنا منها .

أما إذا كانت الدائرة قد دارت على المسلمين وهُزِموا في الحرب؛ فهذه سيئة بالنسبة لكل مؤمن ، ولكن المنافقون يعتبرون الهزيمة لأهل الإيمان حسنة ، وسيقولون لأنفسهم : لقد كنا أكثر رجاجةً في الفكر واحتطْنا للأمر ، ولم نخرج معهم ولذلك نجونا مما أصابهم . والمصيبة في الحرب تكون في : الأرواح ، والرجال والمال ، والعتاد بالإضافة إلى مرارة الهزيمة . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ } وكأنهم قد احتاطوا قبل أن يبدأ القتال فلم يخرجوا ، وهم كمنافقين يمكن أن يفرحوا؟إنْ أصابت المسلمين كارثة أو مصيبة ، وهي هنا الهزيمة في الحرب . وسيقولون : { قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا

مِن قَبْلُ } أي : قاموا بالاحتياط فلم يخرجوا للقتال ، بينما لم يحَتَطْ محمد وصَحْبُه وجيشه . ثم يديرون ظهورهم ليُخْفُوا فرحتهم .

وحين يقول الحق : { إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ } يوضح لنا أن أي نصر للإيمان يحزن المنافقين في نفوسهم ، ويصير هذا القول قرآناً يُتلى ويُتعبد به ويسمعونه بآذانهم ، بالله لو لم تُحزنهم الحسنة التي ينالها المنافقين في نفوسهم ، ويصير هذا القول قرآناً يُتلى ويُتعبد به ويسمعونه بآذانهم ، بالله لو لم تُحزنهم الحسنة التي ينالها المؤمنون ، ألم يكن ذلك دافعاً لأن يقولوا : نحن لم نفرح ولم نحزن؟ بالله حين يفاجئهم القرآن بالكشف عن خبايا نفوسهم بالقرآن؛ ألم يكن ذلك داعياً لهدايتهم؟ لقد عرف محمد صلى الله عليه وسلم الغيب الذي في قلوبهم وفضح ضمائرهم وسرائرهم بعد أن أطلعه الحق على ذلك . ومع هذا أضمروا النفاق في قلوبهم وانتظروا مَسَاءةً تَحل بمحمد صلى الله عليه وسلم وصحبه .

ويرد الحق سبحانه وتعالى عليهم : { قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلاَّ . . . }

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51)

{ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا } الحديث هنا عما يصيب الإنسان أو ما يحدث له ، فإن حدث للإنسان شيء يأتي منه خير ، يكون بالنسبة له حسنة؛ وإن أتى منه شر يكون من وجهة نظره سيئة ، إذن فالإصابة هي التقاء هدف بغاية ، إذا تحقق الهدف وجاء بخير فهو حسنة ، وإن جاء بِشَرٍّ فهو سيئة . والمصائب نوعان : مصيبة للنفس فيها غريم ، ومصيبة ليس فيهاغريم ، فإن اعتدى عليّ واحد بالضرب مثلاً يصبح غريمي ، وتتولد في قلبي حفيظة عليه ، وغيظ منه ، وأرغب في أن أرد عليه وأثأر لنفسي منه ، ولكن إن مرضت مثلاً فمن هو غريمي في المرض؟ لا أحد .

إذن : فالمصائب نوعان؛ نوع لي فيه غريم ، ونوع لا يوجد لي غريم يمتلئ قلبي عليه بالحقد ، ويرغِّبنا الحق سبحانه وتعالى في عدم الحقد والعفو عن مثل هذا الغريم ، فيقول : { والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس والله يُحِبُّ المحسنين } [آل عمران : 134]

وهنا ثلاث مراحل : الأولى كظم الغيظ ، والثانية هي العفو ، والثالثة هي أن تحسن؛ فترتقي إلى مقام من يحبهم الله وهم المحسنون .

وكذلك يقول الحق : { وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور } [الشورى : 43]

أي : من صبر على ما أصابه ، وغفر لغريمه وعدوه ، فالصبر والمغفرة من الأمور التي تحتاج إلى عزم وقوة حتى يطوّع الإنسان نفسه على العفو وعدم الانتقام .

أما المصائب التي ليس للإنسان فيها غريم فهي لا تحتاج إلى ذلك الجهد من النفس ، وإنما تحتاج إلى صبر فقط ، إذ لا حيلة للإنسان فيها . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول في هذا اللون من

المصائب : { واصبر على مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور } [لقمان : 17]
لأن العزم المطلوب هنا أقل ، ولذلك لم تستخدم « لام التوكيد » التي جاءت في قوله تعالى : { وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور } [الشورى : 43]
ولا بد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه عن المشاعر البشرية حين قال : { والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس والله يُحِبُّ المحسنين } [آل عمران : 134]
هذه الآية الكريمة تمثل مراحل ما يحدث في النفس ، فالمطلوب أولاً أن يكظم الإنسان غيظه ، أي أن الغيظ موجود في القلب ، ويتجدد كلما رأى الإنسان غريمه أمامه ، ويحتاج هذا من الإنسان أن يكظم غيظه كلما رآه ، ثم يرتقي المؤمن في انفعاله الإيماني ، فيأتي العفو ، وهذه مرحلة ثانية وهي أن يُخرجَ الغيظ من قلبه ، ويحل بدلاً منه العفو .
ثم تأتي المرحلة الثالثة : { والله يُحِبُّ المحسنين } [آل عمران : 134]
أي : أن هذا إحسان يحبه الله ويجزي عليه ، وهو أن تحسن لمن أساء إليك ، فتنال حب الله ، وهذا من كمال الإيمان؛ لأن العبيد كلهم عيال الله ، واضرب لنفسك المثل – ولله المثل الأعلى – هَبْ أنك دخلت البيت ، ووجدت أحد أولادك قد ضرب الثاني ، فمع من يكون قلبك وأنت رب البيت؟ لا بد أن يكون قلبك مع المضروب ، لذلك تُربّتُ على كتفه وتصالحه ، وقد تعطيه مالاً أو تشتري له شيئاً لترضيه ، أي أنك تحسن إليه .

وما دمنا كلنا عيال الله ، فإن اجترأ عبد على عبد فظلمه فالله يقف في صف المظلوم . إذن فمن أساء إليك إنما يجعل الله إلى جانبك . أفلا يستحق في هذه الحالة أن ترد له هذه التحية بالإحسان إليه؟
إن الولد الظالم يرى أخاه المظلوم وقد انتفع بعطف أبيه ، وقد يحصل الابن المظلوم على شيء يريده ، والظالم في هذه الحالة إنما يحلم أن يكون هو الذي حدث عليه الاعتداء ليحصل على بعض من الخير .
والحق هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يوصينا حين تأتي المصائب أن نرد على الكافرين ونقول :
{ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا } وهكذا تُرَدُّ المسائل كلها إلى حكمة خالق الكون ومُدبِّر أمره؛ فقد يحدث لي شيء أكرهه؛ ولكنه في حقيقة الأمر يكون لصالحي ، فإن ضربني أبي لأنني أهمل مذاكرتي ، أيكون ذلك عقاباً لي أم لصالحي؟
إن أنت نظرت إلى المستقبل والنجاح الذي سوف تحققه في الحياة إن ذاكرت ، فهذا العقاب لصالحك وليس ضدك ، وكذلك لا بد أن نأخذ أحداث الله في كونه بالنسبة للمؤمنين ، فإن هُزموا في معركة ، فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى الخير في دينهم؛ وإلى أنهم لا بد أن

يعرفوا أن النصر له أسباب وهم لم يأخذوا بها؛ فلهذا انهزموا .
ولله المثل الأعلى ، فنحن نجد الأستاذ – وهو يأخذ الكراسات من التلاميذ ليصحح لهم أخطاءهم – يعاقب المخطئ منهم ، وفي هذا تربية للتلاميذ .
إذن : إن رأيتم مصيبة قد نزلت بنا وظننتم أنها تسيئنا فاعلموا أننا نثق فيمن أجراها ، وأنه أجراها لحكمة تأديبية لنا ، وأن كل شيء مكتوب لنا لا علينا ، الذي كتبه وهو الحق سبحانه وتعالى هو القائل : { لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي . . . } [المجادلة : 21]
إذن : فنحن نعلم بإيماننا أن كل ما يصيبنا من الله هو الخير ، وأن هناك أحداثاً تتم للتأديب والتهذيب والتربية ، لنسير على المنهج الصحيح فلا نخرج عنه ، فالإنسان لا يربي إلا من يحب ، أما من لا يحب فهو لا يهتم بتربيته ، فما بالنا بحب الخالق لنا؟ إن الأب إن دخل البيت ووجد في فنائه عدداً من الأولاد يلعبون الورق؛ وبينهم ابنه ، فهو ينفعل على الابن ، ولكن إن دخل البيت ووجد أولاد الجيران يلعبون الورق فقد لا يلتفت إليهم ، فإذا أصابت المسلمين ما يعتبره المنافقون والكافرون مصيبة يفرحون بها ، فهذا من غبائهم؛ لأن كل ما كتبه الله هو لصالح المؤمنين به ، إما أدباً وإما ثواباً وإما ارتقاءً في الحياة ، ولذلك فهو خير ، ومن هنا كانت الآية الكريمة { قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا } وما كتب الله للمؤمنين إنما هو في صالحهم .

ثم يزيد الحق سبحانه وتعالى المعنى تأكيداً؛ فيقول سبحانه : { هُوَ مَوْلاَنَا } وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذي يتولى أمور المؤمنين وهو ناصرهم ، فالمولى الأعلى لا يسيء إلى مَنْ والاه ، ثم يأتي الإيضاح كاملاً في قوله تعالى : { وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون } ؛ لأن الله الذي آمنتَ به هو إله قادر حكيم ، فإذا جرتْ عليك أمور فابحثها؛ إن كانت من فعل نفسك ، هنا عليك أن تلوم نفسك ، أما إن كانت من مجريات الله عليك ، فلا بد أن تفهم أنها تحدث لحكمة .
والحق سبحانه وتعالى قد يعطي الكافر مقومات حياته ، ولكنه يعطي المؤمن مقومات حياته المادية والقيمية معاً . وبهذا المفهوم نعرف أنه إن أصابنا شيء نكرهه ، فليس معنى ذلك أن الله تخلى عنا ، ولكنه يريد أن يؤدبنا أو يلفتنا لأمر ما ، فإنه لو لم يؤدبنا أو يلفتنا لكان قد تخلى عنا حقاً .
والحق سبحانه وتعالى حين يخطئ المؤمن تجده سبحانه يلفته إلى خطئه ، وفي هذه الحالة يعرف المؤمن أن الله لم يتركه؛ لذلك لا يقولن أحد : إن الله تخلى عنا ، فهذا ضعف في الإيمان وبالتالي فإنه ضعف في التوكل . ولكن قل : إن الله حين يؤدبك فهو لا يتخلى عنك ، فساعة تأتي المصيبة اعلم أنه لا يزال مولاك . وما دام مولاك يحاسبك على أي خطأ ويصوِّبه لك ، فثِقْ به سبحانه وتوكل عليه .
وعلى سبيل المثال : لنفترض أن إنساناً اتكل عليك في أمر من الأمور ، ثم أخطأتَ أنت في هذا الأمر ، لا بد أن يأتي لينبهك إلى ما أخطأت فيه ويقترح عليك وسيلة لإصلاح الخطأ ، وفي هذه

الحالة ستجد نفسك ممتلئة بالثقة في هذا الإنسان ، فما بالنا بالله سبحانه وتعالى حين نتوكل عليه ويُصوِّب لنا كل أمر؟

ولكن إياكم أن تنقلوا التوكل من القلوب إلى الجوارح . ولذلك يقال : الجوارح تعمل والقلوب تتوكل . فأنت تحرث الأرض وتضع فيها البذور وترويها ، وهذا من عمل الجوارح لا بد أن تؤديه ، وبعد ذلك تتوكل على الله وتأمل في محصول وفير ينبته الزرع ، فلا تأتي آفة أو ظاهرة جوية مثل مطر غزير أو ريح شديدة؛ فتضيع كل ما عملته ، وبعد إتقانك لعملك يأتي دعاؤك لله سبحانه وتعالى أن يحفظ لك نتائج عملك .

أما الذين لا يعملون بجوارحهم ويعلنون أنهم متوكلون على الله ، فنقول لهم : أنتم كاذبون؛ لأن التوكل ليس من عمل الجوارح بل من عمل القلوب ، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل .

لكن على مَنْ نتوكل؟ إنك حين تتوكل على الحي الذي لا يموت ، فلن يضيع عملك ، أما إن اتكلت على إنسان مثلك حتى وإن كان ذا قوة ، فقد تنقلب قوته ضعفاً ، وقد يُكْرِهُك أو يُذِلُّكَ ، وقد تصيبه كارثة فيموت .

ويُبلِّغ الحق سبحانه رسوله أن يرد على الذين يفرحون في مصائب المسلمين ليكشف لهم أن فرحهم بالمصيبة هو فرح أغبياء . فيأتي قوله الحق : { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلاَّ . . . }

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (52)

وسبحانه وتعالى بهذه الآية إنما يرد على من يحزن إن أصابت الحسنة المؤمنين ، ويفرح إن أصابتهم مصيبة ، فيأتي قول الحق سبحانه ليوضح : إن كل ما يصيب المؤمنين هو لصالحهم . ولذلك قال : { لَّن يُصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا } فلم يكتب سبحانه الأمور علينا ، بل لنا ، و « لنا » تفيد الملكية؛ إما : تأديباً وإما تكفيراً عن ذنوب ، وإما اتجاهاً إلى الحق بعد زيغ الباطل ، وكل ذلك لصالحنا .

وجاء سبحانه بعد ذلك بالقول { فتربصوا } أي : تمهلوا وانتظروا وترقبوا نهايتنا ونهايتكم . أما نهايتكم فاستدامة عذاب في الدنيا وفي الآخرة . وأسباب العذاب مجتمعة لكم في الدنيا ، وأسباب الخير ممتنعة عنكم في الآخرة ، ونتيجة تربصنا لكم أن نرى السوء يصيبكم ، وتربصكم لنا يجعلكم ترون الخير وهو يسعى إلينا ، إذن فنتيجة المقارنة ستكون في صالحنا نحن .

وبعد أن بيَّن الله ذلك يطرأ على خاطر المؤمن سؤال : ألا يصدر من هؤلاء الأقوام فعل خير؟ وألا يأتي إليهم أدنى خير؟ ونحن نعلم أن الحق سبحانه يجزي دائماً على أدنى خير .

ونقول : إن الحق شاء أن يبين لنا بجسم مسألة الخيانة العظمى وهي الكفر والعياذ بالله ، وبيَّن أن كل كافر بالله لا يُقبل منه أي عمل طيب؛ لأن الكفر يُحبطُ أيَّ عمل ، وإن كان لعملهم خير

يفيد الناس ، فالحق يجازيهم مادياً في الدنيا ، ولكن ليس لهم في الآخرة إلا النار ، ويقول : { قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً . . }

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (53)

إذن : فشرط تقبُّل الله لأي عمل إنما يأتي بعد الإيمان بالله ، أما أن تعمل وليس في بالك الله ، فخذ أجرك ممن كان في بالك وأنت تعمل .

لذلك ضرب الله مثلاً بأعمال الذين كفروا في قوله تعالى : { والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحساب } [النور : 39]

ويعطينا الله سبحانه مثلاً آخر في قوله تعالى : { مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ على شَيْءٍ ذلك هُوَ الضلال البعيد } [إبراهيم : 18]

ويقول الحق سبحانه وتعالى : { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ } [الشورى : 20]

وهذا ما يشرح لنا ما استغلق على بعض العلماء فهمه في قول الحق : { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ } [الزلزلة : 7-8]

فقد تساءل بعض من العلماء : أيجزي الحق سبحانه هؤلاء الكفار في الآخرة أم في الدنيا؟ وقد استغلق عليهم الأمر لأن الآية عامة . ونقول : إن الحق يعطي في الدنيا الجزاء لمن عمل للدنيا ، ويعطي في الآخرة لمن عمل للدنيا والآخرة وفي قلبه الله . ولذلك فالذين يحسنون اتخاذ الأسباب المخلوقة لله بمنح الربوبية ينجحون في حياتهم . والذين يتقدمون دنيوياً في زراعة الأرض وانتقاء البذور والعناية بما يعطيهم الله جزاء عملهم في الدنيا ، ولا يبخس منه شيئاً؛ ولكن الحق سبحانه يقول أيضاً : { وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً } [الفرقان : 23]

هذا القول يوضح عطاء الآخرة ، ولذلك فالخير الذي يعمله غير المؤمن لا يُجزى عليه في الآخرة؛ لأنه عَمِلَ وليس في باله الله ، فكيف ينتظر جزاءه ممن لم يؤمن به؟

إن الله سبحانه يجزي مَنْ آمن به وعمل من أجله . ولكن من كفر بالله حبط كل عمله . وهذا أمر طبيعي؛ لأنك ما دُمْتَ قد عملت الخير وليس في بالك الله ، فلا تنتظر جزاءً منه . إن عملتَ للإنسانية أعطتْك الإنسانية ، وإن عملتَ للمجتمع أعطاك المجتمع وصنعوا لك التماثيل وأطلقوا اسمك على الميادين والشوارع ، وأقيمت باسمك المؤسسات ، وتحقق لك الخلود في الدنيا ، وهذا هو جزاؤك . ولكن إن كنت مؤمناً بالله ، راجياً ثوابه تجيء يوم القيامة لتجد يد الله ممدودة لك بالخير الذي قدمته .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا : { قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً } والطَّوْع : هو الفعل الذي تُقبل عليه بإرادتك دون أن تكون مكرهاً ، فكيف لا تجازى على خير فعلته بإرادتك؟
ولا بد لنا أن نفرق بين « طوع » و « طائع » ، وكذلك نفرق بين هذا وبين الفعل الذي تقوم به حين يحملك غيرك ويُكرهك أن تفعله .

والأفعال كلها إما أن تكون بالطواعية وبالإرادة ، وإما أن تكون بالإكراه . ولو كان الحق قد قال : أنفقوا ، طاعة لما قال : { لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ } ؛ لأن الطاعة معناها انصياع عابد لإرادة معبود ، ولكن قوله هنا : { طَوْعاً } يكشف أن ما ينفقونه هو أمر اختياري من عندهم . وكانت أحوال المنافقين كذلك ، فمنهم من قدم أولاده للجهاد ، ومنهم من قدم بعضاً من ماله ، وكانوا يفعلون ذلك طائعين لأنفسهم ويستترون بمثل هذه الأفعال حتى لا يفتضح نفاقهم ، وكان الواحد يتقدم إلى الصف الأول من صفوف الصلاة في المسجد ، ويفعل ذلك طوْعَ إرادته ، خوفاً من افتضاح نفاقه لا طاعة لله ، فطاعة الله هي طاعة عابد لمعبود ، أما مثل تلك الأفعال حين تنبع من طوع النفس فهي للمظهر وليست للعبادة .
{ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً } هل هذا أمر بالإنفاق؟ أو هل يريد منهم أن ينفقوا فعلاً ، خاصة أنه سبحانه لن يتقبل منهم؟ لا ليس هذا أمراً بالإنفاق بل هو تهديد ووعيد . مثلما تقول لإنسان : اصبر ، فذلك ليس أمراً بالصبر ولكن تهديد بمعنى : اصبر فَستَرَى مني هولاً كثيراً . وهذا مثل قوله تعالى : { فاصبروا أَوْ لاَ تَصْبِرُواْ . . } [الطور : 16]
وقوله تعالى : { اعملوا مَا شِئْتُمْ . . } [فصلت : 40]
أي : أنكم إن صبرتم أو لم تصبروا فإن ذلك لن يغير شيئاً من الجزاء الذي سوف تلاقونه ، فالأمر سواء . ولو كان قوله تعالى : { اعملوا مَا شِئْتُمْ } أمراً؛ لكان كل من عمل معصية داخلاً في الطاعة؛ لأن الله أمره أن يفعل ما يشاء . ولكن هذا أمر تمهيدي ، أي : افعلوا ما شئتم فأنتم عائدون إلى الله وسيحاسبكم على ما عملتموه . ولن تستطيعوا الفرار من الله سبحانه .
وقوله تعالى : { أَنفِقُواْ } هو – إذن – أمر تمهيدي؛ لأنه لن يجديكم أن تنفقوا طوعاً أو كرهاً .
وكلمة { كَرْهاً } وردت في القرآن الكريم في أكثر من سورة ، فهي في سورة آل عمران ، وفي سورة النساء ، وفي سورة التوبة ، وفي سورة الأحقاف ، وفي سورة الرعد ، وفي سورة فصلت ، قد ذكرت { كَرْهاً } بفتح الكاف وقرأها بعضهم بضم الكاف . وقال البعض : إن « كَرْهاً » بفتح الكاف و « كُرْهاً » بضم الكاف بمعنى واحد . نقول لهم : لا ، إن المعنى ليس واحداً ، فمثلاً قول الحق سبحانه وتعالى : { حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً . . . } [الأحقاف : 15]
فالكُره هنا ليس للحمل ولا للوضع ، ولكن للمشقة التي تعانيها الحامل أثناء حملها وعند الولادة . فلم يكرهها أحد على هذا الحمل . ولكن البعض يقول : إن الحمل يحدث وليس للمرأة علاج

في أن تحمل ولا أن تضع ، فلا توجد امرأة تقول لنفسها : « سوف أحمل الليلة »؛ لأن الحمل يحدث دون أن تَعيَ هي حدوثه ، فالحمل يحدث باللقاء بين الرجل والمرأة . والمرأة لا تستطيع أن تختار ساعة الحمل ولا أن تختار ساعة الولادة ، ولا تستطيع أن تقول : سألد اليوم أو لن ألد اليوم .

فكل هذا يحدث إكراهاً بغير اختيار منها . ولذلك نقول لمن يقولون أن « كَرْهاً » بفتح الكاف و « كَرْهاً » بضم الكاف بمعنى واحد : لا؛ لأن « الكُرْه » بضم الكاف هو ما لا يريده الإنسان لأن فيه مشقة ، و « الكَره » بفتح الكاف هو ما فيه إكراه من الغير . إذن ف « كَرْهاً » بفتح الكاف تختلف في معناها عن « كُرْهًا » بضم الكاف .

الحق سبحانه وتعالى يقول :

{ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ } أي : لن يقبل الله منكم ما تنفقونه . ولكن ما الفرق؟ لقد كان المنافقون يدفعون الزكاة ويقبلها الرسول منه ولم يرفضها أدباً منه صلى الله عليه وسلم ، فكل عمل يؤدى ثم يذهب إلى الرقيب الأعلى وهو الحق سبحانه وتعالى . ولكن حدث أن واحداً من هؤلاء هو ثعبلة طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو له بالغنى ، فلما دعا له ورزقه الله الرزق الوفير بَخِل عن الزكاة ، وحاول أن يتهرب من دفعها؛ فنزل القول الكريم : { وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ الله لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصالحين * فَلَمَّآ آتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُواْ الله مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ } [التوبة : 75-77]

وعندما نزلت هذه الآيات جاء ثعلبة ليدفع الزكاة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها منه . وعندما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ثعلبة إلى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبل منه الزكاة . وبعد أبي جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلم يقبلها منه . ومات ثعبلة في عهد عثمان . هذا هو عدم القبول .

ولكن هناك في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من دفع الزكاة من المنافقين وقُبلَتْ منه ، ولكن الله لم يتقبلها منه . إذن : فكل عمل قد يُقبل من فاعله ، ولكن الله سبحانه وتعالى قد يتقبله أو قد لا يتقبله . إذن فالآية معناها : أنه الله لن يتقبل من هؤلاء المنافقين إنفاقهم في الخير ولو تقبله البشر .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى السبب في ذلك فيقول :

{ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ } وكما قلنا : إن كلمة الفاسق مأخوذة من « فسقت الرُّطَبَة » أي انفصلت القشرة عن الثمرة . وقشرة البلح مخلوقة لتحفظ الثمر . وعلمنا أن المعاني في التكليف الشرعي قد أُخذت من الأمور الحسّية؛ ولهذا تجد أن الدين سياج يمنع الإنسان من أن يخرج على

حدود الله ويحفظه من المعصية ، والإنسان حين ينفصل عن الدين إنما يصبح كالثمرة التي انفصلت عن سياجها .

فالذي يشرب الخمر أو يرتكب الجرائم أو الزنا يُعاقب على معصيته ، أما إن كان الإنسان منافقاً بعيداً عن الإيمان بالله فطاعته لا تقبل . وهَبْ أن الإنسان مؤمن بالله ولكنه ضعيف أمام معصية ما ، هنا نقول : لا شيء يجور على شيء ، إن له ثوابَ إيمانه وعليه عقاب معصيته .

إذن : فالفسق في هذه الآية الكريمة ليس هو الخروج عن مطلق الطاعة . ولكنه فسق من نوع خاص؛ لأن هناك فسقاً محدوداً وهو أن يخرج الإنسان عن مجرد تكليف . ولكن الفسق الكبير هو أن يكفر الإنسان بالله . ولذلك جاءت الآية الكريمة التالية { وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ . . }

وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (54)

إذن : فالفسق نوعان : فسق خاص . وقد يقول البعض : إنك إن ارتكبت معصية فصلاتك وزكاتك وكل عباداتك لا تنفعك .

ونقول : لا فما دامت القمة سليمة؛ إيماناً بالله وإيماناً بالرسول عليه الصلاة والسلام وتصديقاً بالمنهج ، فلكل عمل عبادي ثوابه ، ولكل ذنب عقابه؛ لأن الحق سبحانه مطلق العدالة والرحمة ، ولا يمكن أن يضع كل الشرور في ميزان الإنسان . فمن كان عنده خصلة من خير فسوف يأخذ جائزتها وثوابها ، ومن كان عنده خصلة من شر فسوف ينال عقابها .

وقوله الحق هنا { وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَبِرَسُولِهِ } ، هذا القول الكريم هو حيثية للحكم بعدم قبول نفقاتهم ، وفي هذا تحديد لعموم الفسق وهو الكفر ، لا في خصوص الفسق ، وحدد الحق ثلاث أشياء منعت التقبل منهم : الكفر بالله ورسوله وهو كفر القمة ، ثم قيامهم إلى الصلاة وهم كسالى ، ثم الإنفاق بكراهية .

ونفعهم المنع على أنه رَدُّ الفعل إلى ما ينقض العمل أو ينافيه؛ كأن يريد إنسان القيام فتُعده ، أي أنك رددت إرادة القيام إلى القعود ، وهو ما ينافيه ، أو أن يحاول إنسان ضرب آخر فتمنع يده ، فتكون بذلك قد منعت غيره من أن يعتدى عليه . إذن فالمنع مرة يأتي للفاعل ومرة للمفعول . فأنت حين تمنع زيداً من الضرب تكون قد منعت الفاعل ، وحين تمنع عنه الضرب تكون قد منعت المفعول ، وكل فلسفة الحياة قائمة على المنع ، الذي يوجزه الفعل ورد الفعل ، تجد ذلك في الإنسان وفي الزمان وفي المكان .

وإذا بحثت هذه المسألة في الإنسان تجد أن حياته تقوم على التنفس والطعام والشراب ، والتنفس هو الأمر الذي لا يصبر الإنسان على التوقف عنه ، فإن لم تأخذ الشهيق انتهت حياتك ، وإن

كتمت الزفير انتهت حياتك . وإذا منعت الهواء من الدخول إلى الرئتين يموت الإنسان ، وإذا منعت خروج الهواء من الرئتين يموت الإنسان أيضاً .

وحركة العالم كله مبنية على الفعل وما يناقضه . فإذا حاول إنسان أن يضرب شخصاً آخر وأمسكتَ يده ، وقلت له : سيأتي أبناؤه أو إخوته أو عائلته ويضربونك ، حينئذ يمتنع عن الفعل خوفاً من رد الفعل . والعالم كله لا يمكن أن يعيش في سلام إلا إذا كان هناك خوف من رد الفعل؛ القوى يواجه قوياً ، والكل خائف من رَدِّ فعل اعتدائه على الآخر . ولكن إذا واجه قوى ضعيفاً ، تجد القوى يفتك بالضعيف .

وهكذا العالم كله ، فالكون إما ساكن وإما متحرك . وتجد الكون المتحرك فيه قوى متوازية تعيش في سلام خوفاً من رد الفعل . وكذلك تجد العالم الساكن؛ فالعمارة الشاهقة تستمد ثباتها وسكونها من أن الهواء لا يأتي من جهة واحدة ، ولكن من جهات متعددة تجعل الضغط متوازناً على كل أجناب العمارة ، ولكن لو فرَّغْتَ الهواء من ناحية وجعلته يهب من ناحية أخرى لتحطمت العمارة ، تماماً كما تُفرِّغُ الهواء من إناء مغلق فيتحطم .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

{ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَبِرَسُولِهِ } لا يعني أن ألسنتهم لم تنطق بالشهادة ، لا ، فقد شهد المنافقون قولاً ، ولكن هناك فرق بين قولة اللسان وتصديق الجنان؛ فالإيمان محله القلب ، والمنافقون جمعوا بين لسان يشهد وقلب ينكر ، فأعطاهم الرسول حق شهادة اللسان ، فلم يتعرض لهم ولم يأسرهم ولم يقتلهم ، وأعطاهم نفس الحقوق المادية المساوية لحقوق المؤمنين ، وكل ذلك احتراماً لكلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » التي نطقوا بها؛ ولأن باطنهم قبيح ، فالحق سبحانه يجازيهم بمثل ما في باطنهم ، ويعاقبهم ، فلا يأخذون ثواباً على ما يفعلونه ظاهراً وينكرونه باطناً . وهكذا كان التعامل معهم منطقياً ومناسباً . فما داموا قد أعطوا ظاهراً ، فقد أعطاهم الله حقوقاً ظاهرة؛ ولأنهم لم يعطوا باطناً طيباً ، فلم يُعْطِهم الله غيباً من ثوابه وغيباً من جنته وعاقبهم بناره .

ونأتي إلى السبب الثاني في قوله تعالى : { وَلاَ يَأْتُونَ الصلاوة إِلاَّ وَهُمْ كسالى } والكسل : هو التراخي في أداء المهمة . إذن فهم يصلون رياءً ، فإن كانوا مع المؤمنين ونُودي للصلاة قاموا متثاقلين . وإن كانوا حيث لا يراهم المؤمنون فهم لا يؤدون الصلاة . إذن فسلكوهم مليء بالازدواج والتناقض .

والسبب الثالث : { وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ } والنفقة هي بذل ما عندك من فضل ما أعطاه الله لك؛ سواء أكان ذلك مالاً أم علماً أم جاهاً أم قوة ، وهذا ما يحقق التوازن في المجتمع؛ لأن كل مجتمع به أعراض كثيرة ، تجد القوي والضعيف ، الغني والفقير ، العالم والجاهل ، الصحيح والمريض . ولو أن كل إنسان تحرك في حياته على قدر حاجته فقط لهلك الضعفاء والمرضى

والعاجزون والفقراء . ولكن لابد أن يعمل كل إنسان على قدر طاقته ، وليس على قدر حاجته ، ولابد أن يأخذ من ناتج عمله على قدر حاجته ومن يعول ، فأنت تأخذ حاجتك من ثمرة طاقتك ، ثم تفيء على غيرك بفضل الله عليك ، خصوصاً على هؤلاء الذين لا يقدرون على الحركة في الحياة ، فالصحيح يعطي المريض من قوته ما يعينه على الحياة . والغني يعطي الفقير من ماله ما يعينه على الحياة . والقادر على الحركة يعطي من لا يقدر عليها ، هذا هو المجتمع المتكافل .

ومثل هذا السلوك هو لصالح الجميع؛ لأن الغني اليوم قد يكون فقيراً غداً ، والقوى اليوم قد يكون ضعيفاً غداً ، فلو أحس الإنسان بأنه يعيش في مجتمع متكافل فهو لن يخشى الأحداث والأغيار . وهذا هو التأمين الصحيح للقادر والغني ويشعر فيه كل إنسان بالتضامن والتكافل ، فلا ينشغل الفقير خوفاً من الأحداث المتغيرة ، وإن مات فلن يجوع عياله ، وإن افتقر الغني فسوف يجد المساندة ، وإن مرض الصحيح فسوف يجد العلاج .

إذن : فالنفقة أمر ضروري لسلامة المجتمع ، ونجد أن السوق توصف بأنها نافقة ، وهي التي يتم فيها بيع كل من السلع وشراؤها . فمن أراد أن يبيع باع ، ومن أراد أن يشتري اشترى ، إذن فالحركة فيها متكافئة . وأنت حين تذهب إلى السوق لتبيع أو تشتري ، فإما أن تأخذ مالاً نقدياً مقابل ما بِعْتَ ، وإما أن تدفع مالاً ثمناً لما اشتريت . وقديماً كان الإنسان يبادل السلعة بسلعة أخرى . وبعد اختراع النقود أصبح الإنسان يشتري السلع بثمن ، ومن ينفق ماله ويقدمه عند الله ، فالحق سبحانه يأتي له بكل خير .

وقد أراد الحق سبحانه للمنافقين العذاب الباطني في الدنيا ، والعذاب الواقع أمام الكل في الآخرة ، وبيّن لهم أن إنفاقهم طَوْعاً أو كَرْهاً لن يأتي لهم بالخير .

ولكن من ينظر إلى المنافقين قد يجد أنهم يستمتعون بالمال والولد . ولا يلتفت الإنسان الناظر إليهم إلى أن المال والولد هما أدوات عذابه . وقد يقول إنسان : إن الله قد قال : { المال والبنون زِينَةُ الحياوة الدنيا . . } [الكهف : 46]

ونقول لمن يقول ذلك : أكمل الآية : { والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً } [الكهف : 46]

والحق سبحانه وتعالى يقول : { إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ . . } [التغابن : 15]

والله يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفي طي هذا الخطاب خطابٌ لجميع المسلمين ، وهنا يقول الحق سبحانه : { فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ . . }

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (55)

وإياكم أن تروا واحداً من هؤلاء ممن رزقهم الله المال والولد ثم تقولون : كيف يكون عذابهم في الدنيا وهم يملكون المال والولد؟ ومثل هذا التعجب يعني استحسان المال والولد ، والظن أن فيهما الخير كله ، لكنك إن نظرت بعمق إلى المال والولد وكل حطام الدنيا فستجده لا يستحق الإعجاب ، وإياك أن تغتر بشيء يمكن أن يتركك ، ويمكن أن يكون سبباً في عذابك ، فالمال والولد قد يجعلان الإنسان ملتفتاً إلى النعمة ويلهيانه عن المنعم . وإن لم يلتفت الإنسان إلى المنعم لا يذكره . وإن لم يذكر الله أهمل منهجه .

والمال والولد في الحياة الدنيا قد يكونان سببين في أن يخاف الإنسان ترك الدنيا . فإن لم يكن لك إيمان بما عند الله في الآخرة ، فقد تخاف أن يتركك المال أو الولد . والذي لا يؤمن باليوم الآخر؛ فالدنيا هي كل زمنه؛ وإن فاتها كان ذلك مصيبة له ، وإن فاتته كان ذلك مصيبة عليه . وإن آمن الإنسان بالله واليوم الآخر لقال : لئن فاتتني الدنيا فلي عند الله خير منها . ويريد الحق سبحانه أن يمنع عن المؤمنين به فتنة النعمة التي تُلْهِي عن المنعم ، فيقول سبحانه :

{ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ } والآية الكريمة تدلُّنا على أن للمال وحده إعجاباً ، وللأولاد وحدهم إعجاباً ، فمن عنده مال معجب بما عنده . ومن ليس عنده مال وعنده أولاد معجب بهم أيضاً . فإذا اجتمع الاثنان معاً يكون الإعجاب أكبر وأشمل . والحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن اجتماع المال والولد يجب ألا يثير الإعجاب في نفوسنا ، بل إن سياق الآية يحذرنا من أن نعجب بمن عنده المال وحده ، أو بمن عنده الأولاد وحدهم ، لذلك كرر الحق سبحانه وتعالى كلمة : { لا } فقال : { فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ } .

وأفهمنا الحق سبحانه وتعالى أنه إذا أمد الكافر أو المنافق بالمال والولد؛ فلذلك ليس رفعة من شأنه ، وإنما ليعذبه بهما في الدنيا والآخرة . فقال : { إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا } ، واللام هنا في « لِيُعَذِّبَهُمْ » هي لام تدخل على الفعل واسمها « لام العاقبة » . وهي تعني أننا ربما نقوم بالفعل لهدف معين ، ولكن قد تكون عاقبته شيئاً آخر تماماً غير الذي قصدناه ، بل ربما تكون عكس الذي قصدناه .

وعندما نقرأ القرآن نجد قول الحق سبحانه وتعالى : { فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً . . . } [القصص : 8]

هل التقط آل فرعون موسى عليه السلام ليكون لهم عدواً؟ أم ليكون قرة عين لهم؟

هم قد التقطوه ليكون قرة عين لهم ، ولكن الذي حدث كان عكس ما قصدوه ساعةَ قيامهم بفعل الالتقاط ، فبدلاً من أن يصبح موسى قرة عين ، أصبح عدواً لفرعون بل كان سبباً في زوال مُلْكه ، إذن هذه هي لام العاقبة .

والله سبحانه وتعالى أعطى لبعض الكفار أموالاً وأولاداً ، وهذا في ظاهره رفعة في الدنيا ، ولكنهم بدلاً من أن يستخدموا هذه النعمة في التقرب إلى الله ألهتهم عن الإيمان بالله ، ووصل بهم الأمر إلى أن يدخلهم الحق في العذاب . ولم يُرِد الحق العذاب لهم ، ولكنهم بحركتهم وفتنتهم بالمال والولد استحقوا أن يدخلوا في العذاب . والعمل غير الشرعي في تنمية المال أو إرضاء الأولاد هو الذي أوصلهم إلى العذاب .

{ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياوة الدنيا } وأول ألوان العذاب : أن تلهيهم تلك النعمة عن المنعم . وتبعدهم عن منهج الله فيصيرون في عداء مع المؤمنين بمنهج الله ، ويخافون إعلان هذا العداء؛ لذلك حينما كان يرسل الرسول صلى الله عليه وسلم في طلب واحد من المنافقين أو اليهود كانوا يرتعدون ويتساءلون : هل اكتشف الرسول أمرنا أم كشف الله لنا بعض خبايانا؟ وكانوا في خوف أن يفتضح في خوف أن يفتضح أمرهم ، فيعاملهم معاملة المشركين ويشردهم .

وثانياً : كانوا يخافون من أن يدخل الرسول صلى الله عليه وسلم في حرب؛ لأنهم ما داموا قد أعلنوا الإيمان فهم مطالبون ببذل المال ، وأن يذهب أولادهم الذين بلغوا سن القتال مع جيش المسلمين ، وكانوا يقولون بينهم وبين أنفسهم : ما لنا نبذل المال ونضحي بالأولاد في سبيل ما لا نؤمن به . وهم بمشاعرهم تلك يختلفون عن مشاعر المؤمنين الذين يُلبُّون نداء رسول الله طمعاً في الجنة أو النصر . وهذا لون من ألوان العذاب .

وهناك لون آخر من العذاب : عندما يخرج هؤلاء المنافقون إلى إحدى الغزوات ، فهم يخافون على أنفسهم من القتل أو الأذى بالأسر أو سبي النساء ، فيكونون في عذاب نفسي طوال الرحلة إلى الغزوة وفي أثناء الحرب .

ولون ثالث من ألوان العذاب : أن عابد المال يجمع المال من حرام ومن حلال ، لا يهمه من أين جاء المال؟ ولكن يهمه أن يأتي ، والذي يكسب حلالاً يكون واضح الحركة في الحياة ، والذي يكسب حراماً هو لص يخاف أن ينكشف أمام الناس ، ويعيش في عذاب أليم دائم من أن يأتي يوم يكشف الله ستره فيعرف الناس أنه ارتشى ، أو أنه اختلس ، أو أنه زَوّرَ وَزيَّف . أو أنه فعل شيئاً يُحقّره في أعين الناس أو يُعرّضه للعقوبة؛ كأن يكون قد تاجر في المخدرات أو في الأعراض . أو في غير ذلك ، وخوفه من انكشاف أمره يجعله يعيش في عذاب دائم وصراع مستمر .

وإذا أردنا أن نعرف الفرق بين الحلال والحرام نضرب هذا المثل : أنت إن أعجبك شيء في بيت جارك ، وطلبته منه وأعطاك إياه ، فأنت لا تخشى أن يعرف الناس ما حدث . ولكن إذا أعجبك شيء في بيت جارك وأردت أن تسرقه ، فأنت لا تأتي في النهار ولا أمام الناس ، بل تأتي ليلاً وتحرص على ألا يراك أحد .

ولا تدخل من باب الشفقة ، بل تظل تدور وتخطط لتجد منفذاً تدخل منه دون أن يراك أحد . وتضع خطة للسرقة . وتدخل المنزل على أطراف أصابعك وأنت ترتعد . فإذا شعرت وأنت تنفذ الخطة بصوت أقدام تنزعج وتجري لتختبئ وتأخذ الشيء وتكون حريصاً على إخفائه وإن رآه أحد عندك انزعجت ، وكل هذا عذاب يمر به كل من يجمع المال الحرام ، إذن فجمع المال الحرام عذاب .

وكل من يربي أولاده من مال حرام لا يبارك الله لهم فيهم ، فإما أن ينشأ الواحد منهم عذاباً لأبيه في تربيته فيرسب في الامتحانات . ويُتلف المال في الإنفاق بلا وعي . فكلما أعطيته أكثر احتاج إلى المزيد من المال أكثر . ومثل هذا الابن لا يطيع أباه . ويكون العذاب الأكبر حينما ينشأ أحد أبناء هذا الإنسان ويكون الابن مؤمناً إيماناً صادقاً بالله ، فيرفض أن يأكل أو يلبس من مال أبيه ، أو أن يناقشه من أين جاء بهذا المال ويسمع منه ما يكره ، ويتمرد دائماً عليه .

وفي عهد رسول الله صلى الله عليه سلم كان أبو عامر عدواً لله ورسوله . وكان ابنه حنظلة مؤمناً ، وكلما رأى أبو عامر ابنه كان قلبه يغلي بالغيظ ، وعندما نودي للقتال ، وسمع حنظلة نداء الجهاد بعد أن فرغ من الاستمتاع مع زوجته فلم يصبر إلى أن يغتسل من الجنابة ، بل سارع إلى الحرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشهد في المعركة ولكن كيف عرف الصحابة قصة حنظلة ، مع أن هذه المسألة تكون سراً بين الرجل وزوجته لا يعرفه أحد؟ لقد عرف المؤمنون بخبر حنظلة حين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإشراقات الله أن الملائكة تنزل من السماء وتُغسِّل حنظلة . ولما كان الشهيد لا يُغسل ، فقد عرف الرسول أن هذا ليس غُسْلاً من الشهادة ، وإنما هو غُسْل حتى لا يُقْبِلَ الشهيد على الله وهو جُنُب ، رأى الرسول صلى الله عليه وسلم ما حدث لحنظلة ، وعندما عاد إلى المدينة بعث إلى زوجة حنظلة وسألها : ماذا حدث ساعة ساعة خروج حنظلة إلى المعركة؟ فقالت أنه سمع نداء القتال ، خرج بدون غُسْل . وتأمل كيف نزلت الملائكة لتغسل شهيداً هو ابن عدو الله ورسوله . وكيف يكون هذا غَيْظاً في قلب الأب .

وقصة أخرى : سيدنا عبدالله بن عبدالله بي أبيّ؛ والده عبدالله بن أبيّ كان زعيم المنافقين في المدينة ، وهو الذي انسحب يوم أحد ومعه ثلث المقاتلين من المعركة . ويسمع عبدالله أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يطلبون منه الإذن بقتل والده ابن أبيّ ، انظروا إلى الإيمان . فها هو الابن يذهب إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ويقول له : يا رسول الله إن كنتَ آمراً بقتل أبي فأمرني بقتله؛ حتى لا ألقي قاتله من المسلمين وفي قلبي غِلٌّ عليه .

وعندما يسمع الأب أن ابنه يطلب أن يكون قاتله ، أليس هذا عذاباً في قلبه؟ وهكذا نرى أن الأموال والأولاد الذين كان من المفروض أن يكونوا نعمة يصبحون نقمة ، أليس هذا عذاباً في الدنيا؟

ولكن غير المؤمنين لا يلتفتون إلى واهب النعمة ، ولا إلى الجزاء الذي ينتظرهم في الآخرة ، ولا ينتبهون إلى حكمة الخلق التي تؤكد أن الإنسان خليفة الله في الأرض ، وأن الله قد أعدَّ الأرض بكل ما فيها من إمكانات ومن خيرات لتكون في خدمة هذا الخليفة ، أي : أنه أقبل على عالم كامل من كل شيء؛ معداً له إعداداً فوق قدراته وطاقاته .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في حديث قدسي : « خلقتُ الأشياء من أجلك ، وخلقتُك من أجلي ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له »

أي : لا تشتغل بالنعمة عن المنعم ، تماماً كما يدخل الإنسان إلى وليمة كبيرة ، فيجد المائدة مُعدَّة بكل ألوان الطعام ، وصاحب المائدة واقف فلا يحييه ولا يسلم عيه ويذهب مباشرة إلى الطعام ، فيُحسُّ الناس أن هذا الإنسان جاحد بكرم الضيافة . بينما نجد رجلاً آخر يدخل فيسلم على صاحب الوليمة ويشكره على كرمه ويشيد به ، الأول : انشغل بالنعمة ، والثاني : لم يُنْسه انشغاله بالنعمة أن يشكر مَنْ أعدها له .

ومثال آخر : إن الصحة هي من أثمن النعم . أما المرض فإنه أقسى ما يمكن أن يصاب به الإنسان؛ لأن الصحة هي التي تجعل الإنسان يتمتع بنعم الحياة ، أما المرض فيحرمه هذه النعمة . ولذلك فعندما يمرض الإنسان يعوضه الله بأنه بدلاً من أن يكون في معيّة النعمة ، يكون في معيّة المنعم وهو الله سبحانه . ولذلك يقول في حديث قدسي :

« عبدي فلان مرض فلم تَعُدْني . فيقول له : يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟ فيقول له : أما علمْتَ أنك لو عُدته لوجدتني عنده »

قولوا لي بالله : أيضيق أي مريض عندما يعرف أن الصحة كانت نعمة من الله وفارقته ، ولكن المرض جعله مع المنعم ، وهو الله سبحانه وتعالى؟ لا ، بل إن ذلك يخفف عنه وطأة المرض ، ويجعله يشعر أن الأنْسَ بالله يخفف عنه الآلام . لكنك للأسف تجد الإنسان غير منطقي مع نفسه ، فالعالم خُلق من أجل الإنسان . والإنسان خُلق ليعبد الله . ولكنك تجده لا يلتفت لما خُلق من أجله ، بل يلتفت للأشياء التي خُلقت له . وقد كان من المنطقي أن ينشغل بما خُلق من أجله .

وإذا أخذنا مثلاً منطق الإنسان مع الزمن ، نجد أن الزمن إما أن يكون حاضراً أو ماضياً أو مستقبلاً . فإذا أردنا أن نذهب إلى ما لا نهاية نقول : إن الزمن حاضر وأزلي وأبدي .

والأزلي : هو القديم بلا بداية . والأبد : هو المستقبل بلا نهاية . والحاضر : هو ما نعيش فيه . والوجود الذي تراه أمامك خلقه الحق سبحانه واجبُ الوجود وبكلمة « كن » جاء كل « ممكن الوجود »؛ لأن كل وجود يحتاج إلى مُوجد هو وجزد ممكن ، وسيأتي له عدم . أما الوجود غير المحتاج إلى موجد فهو وجود لا ينتهي . أي : أن واجب الوجود هو وجود الله وحده سبحانه

وتعالى . ولذلك فهو وجود أزلي قديم بلا نهاية ، وأبد باقٍ بلا نهاية . وبذلك فهو يخرج عن الزمن .

نأتي بعد ذلك إلى المخلوقات الممكنة ، أي التي لها مُوجدٌ ، وهي كل ما في الكون ما عدا الله سبحانه وتعالى ، ومنها هذه الدنيا التي يعبدها بعض الناس من دون الله ، هذه الدنيا ليس لها أزل ولا أبد ، فالدنيا لم توجد إلا عندما خلق الله السماوات والأرض ، أي ليس لها وجود بلا نهاية . ولكن كان وجودها ببداية . إذن فهي ليست أزلاً ، وهي ليست أبداً لأنها تنتهي بيوم القيامة . ولذلك لا يجتمع في قلب المؤمن حب الله وحب الدنيا؛ لأن الله أزل وأبد ، والدنيا لا أزل ولا أبد ، بل عمر الدنيا بالنسبة للإنسان هي بمقدار عمره فيها . وقبل ميلاده لا علاقة له بها ، وبعد الموت لا علاقة له بها . وحتى إذا أخذنا الدنيا غي عمومها فإن لها بداية ونهاية ، فكيف يمكن أن يجتمع في قلب المؤمن حب من لا بداية له ولا نهاية ، وحب من له بداية ونهاية؟ لا يجتمعان .

ولذلك قال شيخنا الزمخشري رضي الله عنه : ما دام هذا الكون فيه وجود ، يكون الوجود : إما واجباً ، وإما ممكناً . والوجود الواجب لله وحده . والوجود الممكن هو كل ما عدا الله ، ولا يوجد أزل ولا أبد إلا للحق سبحانه وتعالى .

فإذا قلنا : إن هناك وجوداً فيه أزل وليس فيه أبد ، نقول : إن هذا ممتنع عقلاً؛ لأن الذي لا تكون له بداية لا تكون له نهاية . أي : يكون دائم الوجود .

إذن : فيبقى أن يكون الوجود له أبد وليس له أزل ، أي : له بداية وليس له نهاية . ونقول : إن هذا يجتمع في اثنتين؛ الآخرة والإنسان؛ الإنسان له بداية وهي تاريخ خَلْقه ، وليس له نهاية؛ لأنه بعد أن يموت يُبعَثُ مرة أخرى ، إما أن يخلد في النعيم ، وإما أن يُعذَّبَ قليلاً ، ويدخل الجنة وإمّا يخلد – والعياذ بالله – في النار .

وكذلك الآخرة لم يأت زمنها بعد . إذن فهي لم تبدأ بعد ، ولكنها متى بدأت فليس لها نهاية؛ لأن هناك حياة أبدية في الجنة أو في النار . إذن : فالإنسان والآخرة اشتركا في شيء واحد ، ولا بد أن يربط الإنسان نفسه بالآخرة؛ فالذي يأخذ الدنيا إنما أخذ شيئاً له بداية ونهاية ، ولكن الذي يطبق منهج الله ويعبده عن حب واختيار أخذ مَنْ لا بداية له ولا نهاية له .

والذي عمل للآخرة ، عمل لما لا نهاية له أو للذي سيخلد فيه ، وتكون فيه حياته الحقيقية . ولذلك حين نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : { وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } [العنكبوت : 64] .

نعرف أن الحياة الحقيقية هي في الآخرة وليست الدنيا؛ لأن الغايات في أي شيء يجب أن تكون متساوية ، فمثلاً : إذا أردنا أن نصنع كُرْسياً . فالغرض من الكرسي أن نجلس عليه . إذن : فكل الكراسي مهما اختلَفت أشكالها وألوانها لها غاية واحدة وهي أن نجلس عليها . والإنسان غايته

لابد أن تكون متساوية . وما دُمْنَا أفراداً لجنس واحد فلا بد أن تكون لنا غاية واحدة : ما هي؟ أهي الصحة؟ بعضنا مريض . أهي القدرة؟ بعضنا عاجز . أهي طول العمر؟ بعضنا عمره في الدنيا ساعات .

وإذا استعرضنا كل ما في الدنيا فلا نجد شيئاً نتفق فيه إلا الموت ، وفيما عدا ذلك فنحن نختلف . إذن فلا بد أن نلتفت في حياتنا الدنيا من أول يوم إلى أننا سوف نموت ونلقى الله ، وعلينا أن نعد العدة لذلك ، وكلنا سائرون إلى هذه النهاية .

والحق سبحانه وتعالى يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها { فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياوة الدنيا } لم يقف عز وجل عند هذا الحد ، بل قال سبحانه : { وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ }

و { تَزْهَقَ } أي تخرج بصعوبة ، لماذا؟ لأن عابد الدنيا عمل من أجلها فقط . ولم يعمل شيئاً من أجل الآخرة ، فعندما يأتي له الموت ، يجد أنه لم يقدم شيئاً لآخرته ، وأن ما ينتظره هو العذاب ، ولذلك يكره أن يترك نعيم الدنيا إلى عذاب الآخرة . أما صاحب الأعمال الطيبة عندما يأتي له الموت فهو يستبشر؛ لأن الذي ينتظره خير يفوق كل الذي سيتركه . كمثل إنسان يعيش في كوخ صغير ثم ينتقل إلى قصر فاخر ، أإلا يكون سعيداً؟ وكذلك المؤمن عندما يأتيه الموت يصبح كالذي ينتقل من كوخ صغير إلى قصر فاخر . أما صاحب الدنيا فمثل الذي يؤخذ من قصر إلى نار محرقة ، ولذلك فهو يكره ساعة الموت .

والمؤمن يفرح حين ينتقل من الدنيا الفانية إلى الحياة الخالدة الباقية ، ومن النعمة إلى المنعم ، ومن الحياة بالأسباب إلى الحياة مع المسبِّب ، فنحن في الدنيا لا بد أن نأخذ بالأسباب إلى الحياة مع المسبِّب ، فنحن في الدنيا لابد أن نأخذ بالأسباب لنصنع ما نريد ، والمثال : أنك إنْ أردت أن تأكل فلا بد من أن تطهو الطعام أو أن يُعدّه لك غيرك ، وإنْ أردتَ أن تلبس فلا بد لك ممن يصنع لك القماش ويحيك الثوب . ووراء كل نتيجة توجد سلسلة طويلة من الأسباب . فهناك الذي يزرع ، والذي يحصد ، والذي ينقل إلى المطحن أو إلى المصنع ، والذي يطحن الدقيق أو ينسج القماش ، أما في الاخرة فلا توجد أسباب ، بل بمجرد أن يخطر الشيء على بالك تجده أمامك ، أليست هذه حياةَ نعيمٍ؟

إذن : فالذي تنفرج أساريره ساعة الموت هو المؤمن ، والذي ينقبض وجهه ويتشنج عندما يأتيه مَلَكُ الموت هو الكافر والعاصي؛ لأنه سينتقل من نعيم حتى ولو كان نسبيا إلى عذاب رهيب .

وقد قيل للإمام علي رضي الله عنه : يا إمام ، أريد أن أعرف نفسي أأنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة؟ فقال الإمام عليّ : الله أرحم من أن يجعل جواب هذا السؤال عندي وجعل السؤال عندك أنت ، إن كنت تحب من يدخل عليك وهو يريد أن يأخذ منك أكثر مما تحب من يدخل

عليك وهو يريد أن يعطيك هدية تكون من أهل الآخرة .
أي : إذا دخل عليك إنسان يطلب صدقة أو مالاً فاستقبلته بترحاب وتحية وتعطيه وأنت مسرور تكون من أهل الآخرة؛ لأنك تعرف أنه أخذ منك في الفانية ما يحمله لك أجراً في الآخرة التي تعمل من أجلها ، ولذلك تحبه . أما إن كنت تحب من جاء يعطيك هدية أكثر ممن جاء يسألك تكون من أهل الدنيا؛ لأنه معطي الهدية يزيدك في دنياك . وما دُمْتَ تفرح بذلك أكثر من فرحك بالذي يزيد آخرتك فأنت من أهل الدنيا .
ويقال : إن فلاناً أحسن الله خاتمته لأنهم دخلوا عليه لحظة الموت فوجدوا وجهه أبيض وملامحه سمحة مستريحة . نقول : إن هذا صحيح ، فهذه لحظة لا يكذب الإنسان فيها على نفسه . ونحن نعلم أن الإنسان حين يشتد عليه المرض فهو يتشبث بالأمل في أن ينال الشفاء على يد طبيب بارع . لكن الأمر يختلف ساعة الاحتضار حين يعلم الإنسان أن الموت يتخلله وأنه ميت لا محالة ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : { فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم } [الواقعة : 83]
ويرى ما كان محجوباً عنه في الدنيا . حينئذ يستعرض أعماله . فإنْ رأى شريط الحياة حُلْواً منيراً ، ابتسم وانفرجتْ أساريره فيُقبَضُ على هذا الوضع . أما من امتلأت حياته بالسوء والمعاصي فوجهه يسوَدّ وتنقبض أساريره فيُقبض على هذا الوضع . وهذا ما نسميه الخاتمة ، فلحظة الاحتضار فيها يقين بالموت ، تماماً كساعة الامتحان حيث تجد التلميذ الخائب مصفر الوجه مرتعداً ومتشنجاً ، أما التلميذ المجتهد فيكون مُبتسماً مُنْفرجَ الأسارير .
وفي ساعة الاحتضار يخلو الذهن من أي شيء إلا صحيفة عمله ، فهي التي تبقى وفي بؤرة شعوره ، وبؤرة الشعور هي المكان الذي إن استقر فيه شيء فإنه لا يُنسَى أبداً . فإذا عرف طالب قبل الامتحان بفترة قصيرة ، أن هناك سؤالاً سيأتي في جزء معين من الكتاب وأمسك هذا الجزء وقرأه مرة واحدة تجد أنه وهو يقرؤه لا يفكر في شيء آخر غيره ، ومجرد قراءته مرة تجعله يجيب الإجابة المتميزة؛ لأن بؤرة الشعور مثل آلة التصوير ، تأخذ صورة ما ترى مرة واحدة .

إذن : فساعة الالتقاط هذه حيث لا شيء يشغل الذهن ، تجد أن الشعور لا يتسع إلا لخاطر واحد ، فلا يأتي خاطر إليها إلا إذا تزحزح الخاطر الأول عنها .
ولذلك إذا سمعتَ شيئاً وحفظتَهُ من أول مرة ، فهذا دليل على أن بؤرة شعورك كانت خالية ومستعدة ساعة التقاط هذا الشيء . كذلك عند الموت ساعة الاحتضار لا يجد الميت في بؤرة شعوره خاطراً آخر يناقض أو يزاحم أمر الآخرة ، فإن كانت حياته خيّرة أشرق وجهه وانفرجت أساريره ، وإن كانت حياته سيئة انقبضت أساريره واسودَّ وجهه والعياذ بالله .
وقوله تعالى : { وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } يعطينا معنيين : المعنى الأول : أن النعمة تظل معهم تلهيهم عن الله حتى تأتي ساعة الموت . والمعنى الثاني : أن ساعة الموت تكون شاقة وصعبة

على الكافر والمنافق؛ لأنه يترك الأموال والأولاد ويذهب إلى العذاب .
ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَيَحْلِفُونَ بالله إِنَّهُمْ . . . }

وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56)

لماذا أتى الله بهذه الآية بعد أن حذرنا من أن نُعجَبَ بأموال المنافقين وأولادهم؟ لأن هذه ليست نعمة لهم ولكنها نقمة عليهم ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يشحننا ضد المنافقين وأن يجعلنا نحذر منهم كل الحذر ، ويضرب لنا المثل باليمين ، واليمين لا ينطق بها الإنسان عادة إلا بعد شبهة إنكار . فإذا جئت لإنسان بخبر وصدَّقه فأنت لا تضطر لأن تحلف له . ولكن إذا أنكره فأنت تحلف لتزيل شبهة الإنكار من نفسه ، ولذلك فأنت حين تروي الخبر لأول مرة لا تحلف ، فإن أنكره سامعك حلفْتَ .
ولكن لماذا يحلف المنافقون دون سابق إنكار؟
إنهم يسمعون القرآن الذي ينزل من السماء مملوءاً بالغضب عليهم ، وهم يشعرون في داخل صدورهم أن كل مسلم في قلبه شك من ناحية تصرفاتهم ، فيبدأون كلامهم بالحلف حتى يصدِّقهم المؤمنون ، والمؤمنون قد متَّعهم الله بمناعة إيمانية ، في صدورهم؛ فلا يصدقون ما يقوله المنافقون ، حتى يأخذوا حِذْرهم ويكونوا بمنجاة مما يدبره هؤلاء المنافقون من أذى ، ولذلك حذر سبحانه وتعالى المؤمنين من تصديق كلام المنافقين حتى ولو حلفوا .
ولو لم يُعط الله المؤمنين هذه المناعة الإيمانية لصدَّقوا قول المنافقين بقداسة اليمين . وبماذا حلف المنافقون؟ لقد حلفوا بأنهم من المؤمنين والحقيقة أنهم في مظاهر التشريع يفعلون كما يفعل المؤمنون ، ولكن قلوبهم ليس فيها يقين أو صدق .
وما داموا على غير يقين وغير صدق ، فلماذا يحلفون؟ نقول : إن هذا هو تناقض الذات ، وأنت تجد المؤمن غيرَ متناقض مع نفسه؛ لأنه مؤمن بقلبه ومؤمن بذاته ، ومؤمن بجوارحه ، ولا توجد مَلَكَاتٌ تتناقض فيه ، والكافر أيضاً غير متناقض مع نفسه؛ لأنه يعلن صراحة أنه لا يؤمن بالله ولا برسوله ، فليس هناك تناقض بين ظاهره وباطنه ، صحيح أن فيه ملكة واحدة ، ولكنها فاسدة ، ولكن ليس فيه تناقض بين ما يفعله ظاهراً وما في قلبه .
أما المنافق فتتناقض ملكاته . فهو يقول بلسانه : « أنا مؤمن وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » . لكن قلبه يناقض ما يقوله ، فلا يشهد بوحدانية الألوهية لله ، ولا يصدق رسالة رسوله صلى الله عليه وسلم .
ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة « المنافقون » : { إِذَا جَآءَكَ المنافقون قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ } [المنافقون : 1]
كيف يقول الحق سبحانه وتعالى { إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ } ، مع أنهم شهدوا بما شهد به الله ،

وهو أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله؟ نقول : إن الحق أراد أن يفضحهم ، فهم قد شهدوا بألسنتهم فقط ولكن قلوبهم منكرة . وفضح الله ما في قلوبهم وأوضح أن ألسنتهم تكذب؛ لأنها لا تنقل صدق ما في قلوبهم .

إذن : فالمنافق يعيش في تناقض مع نفسه ، وهو شر من الكافر؛ لأن الكافر يعلن عداءه للدين فهو عدو ظاهر لك فتأخذ حذرك منه . أما المنافق فهو يتظاهر بالإيمان ، فتأمن له ويكون إيذاؤه أكبر ، وقدرته على الغَدْرِ أشد . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : { إِنَّ المنافقين فِي الدرك الأسفل مِنَ النار . . } [النساء : 145]

ونحن نعلم أن تناقض الذات هو الذي يتعب الدنيا كلها ، ويبين لنا المتنبي هذه القضية ، ويشرح كيف أنها أتعبُ شيء في الوجود ، فيقول :

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيا علَى الحرّ أنْ يَرَى ... عَدوّا له مَا مِنْ صَداقته بُدُّ

هذا هو تناقض الملكَاتِ حين تجد عدواً لك ، وتحكم عليك الظروف أن تصادقه . وفي ذلك يقول شاعر آخر :

عَلَى الذَّمِّ بِتْناَ مُجْمِعينَ وحالُنَا ... مِنَ الخوْفِ حَالُ المجْمِعين عَلىَ الحمْدِ

وشاعر ثالث يريد أن يصور التناقض في المجتمع الذي يجعل الناس يمجدون هذا وهم كارهون له ، فيقول :

كَفَانَا هَواناً مِنْ تناقُضِ ذَاتِنا ... متى تَصْدُق الأقوالُ بالألسُنِ الخُوَّفِ

إذن : فالمنافقون يحلفون بألسنتهم بأنهم من المؤمنين ، وهم كذلك في ظاهر التشريع ، ولكنهم ليسوا منكم في حقيقتهم ، فهم في قلوبهم ليسوا منكم .

ويكمل الحق سبحانه وتعالى الصورة بقوله :

{ وَيَحْلِفُونَ بالله إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ولكنهم قَوْمٌ يَفْرَقُونَ } والفَرَق معناه : الخوف ، أي أنهم في فزع دائم ، ويخافون أن يُفتضَحَ أمرهم فيعزلهم مجتمع الإسلام ويحاربهم محاربته للكفار . ويشرِّدهم ويأخذ أموالهم ويَسْبي نساءهم وأولادهم . إذن : فالخوف هو الذي جعلهم يحلفون كذباً وخوفاً من افتضاح أمرهم؛ ولذلك قال الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم عنهم : { وَلَوْ نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القول . . . } [محمد : 30]

وفي هذا القول دعوة لفحص ما يقوله أهل النفاق ، حتى وإنْ بَدا القول على ألسنتهم جميلاً .

ثم يقول الحق جل وعلا : { لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئاً . . }

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57)

والملجأ : هو ما نلجأ إليه ليحمينا من الأذى مثل الحصون ، وكذلك المغارة وهي الكهف في الجبل . والمدَّخَل : هو شيء يشبه النفق تحت الأرض تدخل فيه بمشقة والتواء ، إذن : فهناك ثلاثة ملاجئ يفِرُّون إليها إنْ وُجدوا في المعركة؛ لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم . وهم يتمنَّوْن الذهاب إلى مكان بعيد؛ ليسبُّوا الإسلام على ما هم فيه من مشقة القتال ، وهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك أمام المسلمين؛ لذلك تجدهم في حالة بحث عن مكان لا يسمعهم فيه أحد .

{ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئاً أَوْ مغارات أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ } فالكلام إذن عن المنافقين الذين ذكر الحق أوصافهم ، وعهودهم التي نقضوها ، وحَلِفهم كذباً ، وما يعيشه كل منهم من تناقض مَلَكاته ، ذلك التناقض الذي يورثه الشقاء؛ لأن كل واحد منهم يُظْهِرُ غير ما يبطن ويخاف من انكشاف أمره . فيظل مضطرباً لأن ما بداخله يتناقض مع واقع حياته .

إن هذه الحالة هي عكس حالة المؤمن الذي يعيش حياة منسجمة؛ لأن ما في قلبه هو ما يحكيه لسانه ، فضلاً عن انسجامه بالإيمان مع الكون الذي يعيش فيه ، وكذلك فحالة المنافق تختلف عن حالة الكفر ، فالكافر قد أعلن الكفر الذي في قلبه بلسانه . أما المنافق فله قلب يكفر ولسان ينطق كذباً بالإيمان . ولذلك فهو في تعب مستمر من أن ينكشف أمره ، أو يعرف المؤمنون ما في قلبه؛ لأنه يُكِنّ الحقد لمنهج الله وإن كان يعلن الحب ظاهراً .

والإنسان إذا اضطر أن يمدح من يعاديه وأن يتظاهر له بالحب ، فإن هذا السلوك يمثل ثقلاً نفسياً رهيباً يحمله على ظهره ، وهكذا نرى أن المنافقين يُتعبون أنفسهم قبل أن يُتعبوا المجتمع ، تماماً كالرجل البخيل الذي يتظاهر بأنه كريم ، وكلما أنفق قرشاً ليؤكد هذا التظاهر فإن هذا القرش يذبحه في نفسه ويسبب له آلاماً رهيبة . وحتى يرتاح الإنسان مع الدنيا لا بد أن يرتاح مع نفسه أولاً ويتوافق مع نفسه .

ومن هنا نجد المنافقين حين يريدون أن يُنفِّثوا عما في صدورهم ، فهم يَختَلُّون ببعضهم بعضاً بعيداً عن أعين وآذان المسلمين؛ ليُظهروا ما في نفوسهم من حقد وغِلّ وكراهية لهذا الدين ، ويبحثون عن ملجأ يكونون آمنين فيه ، أو مغارة في الجبل بعيداً عن الناس حتى لا يسمعهم أحد ، أو مُدَّخلاً وهو المكان الضيق الذي لا تستطيع أن تدخل فيه إلا بصعوبة . هم إذن يبحثون عن مكان يغيبون فيه عن سمع المؤمنين وأنظارهم ليُخرِجوا الكراهية المحبوسة في صدورهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئاً أَوْ مغارات أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ } و { وَلَّوْاْ } أي : انطلقوا إليه وقد شغلهم الإسراع للذهاب إلى المكان عن أي شيء آخر ، { وَهُمْ يَجْمَحُونَ } والجماح هو أن تفقد السيطرة على الفرس الذي تركبه ، فلا تقدر على كَبْح جماحه أو التحكم فيه ، فينطلق

بسرعة ، وحين يقال هذا عن الإنسان فهو يعني الانطلاق بسرعة إلى المكان الذي يقصد إليه ولا يستطيع أحدٌ منعه ، وإنْ تعرض له أحد دفعه بعيداً لينطلق في طريقه بسرعة .

والآية هنا تعطينا صورة دقيقة لحالة المنافقين في أي معركة . فبمجرد بَدْءِ القتال تجدهم لا يتجهون إلى الحرب ، ولا إلى منازلة العدو ، ولا يطلبون الاستشهاد ، ولكنهم في هذه اللحظة التي يبدأ فيها القتال يبحثون عن مكان آمن يهربون إليه ، أو مغارة يختبئون فيها ، أو مُدَّخل في الأرض ينحشرون فيه بصعوبة ليحميهم من القتال . فإذا انتهت المعركة خرجوا لينضموا إلى صفوف المسلمين ، ذلك أنهم لا يؤمنون . فكيف يقاتلون في سبيل دين لا يؤمنون به؟ ولذلك كنت تجدهم في المدينة إذا نودي للجهاد فهم أول من يحاول الهروب ويذهبون للقاء النبي صلى الله عليه وسلم طالبين التخلف عن المعركة ، ويقول الواحد منهم : { ائذن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي . . . } [التوبة : 49]

وفي الصدقة يحاولون التشكيك في توزيع الصدقة وكيف يتم؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى عنهم : { وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي . . . }

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (58)

وإذا جلسوا مع بعضهم البعض تجدهم يحاولون النَّيْل من رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرض إيذائه ولمزه ، ويقول الله سبحانه وتعالى عنهم : { وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النبي وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بالله وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ والذين يُؤْذُونَ رَسُولَ الله لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [التوبة : 61]

هذه بعض صفات المنافقين التي يفضحهم الله بها بكشفها للمؤمنين . وقد جاء الحق سبحانه لنا بمزيد من الكشف لقبائحهم وفضائحهم . فقال فيهم : { وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ } [التوبة : 58]

كلنا أيضاً نقرأ قول الله سبحانه : { وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ } [الهمزة : 1]

فما هي الهُمَزة وما هي اللُّمَزة؟

« الهمزة » : هو من يعيب في الآخرين عيباً خفياً ويسخر منهم خفية ، ويكون ذلك بإشارة من عينه أو بأي حركة من جوارحه ، ومثال هذا : حين تكون هناك مجموعة من الناس جالسين ، ويحاول أحدهم النَّيْل من أحد الحضور خفية ، فيغمز بطرف عينه لإنسان آخر ، أو يكون باللسان هَمْساً في أذن إنسان أو بأي طريقة أخرى ، المهم أن يُشَار إلى العيب بطريقة خفية لا يلحظها معظم الحاضرين .

أما اللُّمَزة العيَّابون في غيرهم في حضورهم . فهناك القوي الذي يكشف العيوبَ بشجاعة وصراحة وهو اللَّماز ، أما الضعيف فهو يعيب خفية وهو الهمَّاز . واللمزة تطلق على من يعيب كثيراً في الناس .

وهمزة لمزة ، من صيغة المبالغة « فُعَلَة » وتدل على كثرة فعل الشيء . فتقول « فلان أكَلة » – بضمة على الألف – أي : يأكل كثيراً . وفلان ضُحَكة – بضمة على الضاد – أي : كثير الضحك .

إذن : فاللّمزة هي كثرة العيب في الغير ، وهي تدل على ضعف من يقول بها ، ولو لم يكن ضعيفاً لقال ما يريد بصراحة .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات } واللمز كما عرفنا هو البحث عن العيب ، وهو هنا مظروف في شيء هو الصدقات . وكان بعض من المنافقين يغتابون تشريع الصدقة ، وكانوا يعيبون أن يتعب الغني ويشقى في الحصول على المال ثم يأخذ الفقير المال بلا تعب ، فهل يعيبون التشريع نفسه؟ أم يعيبون كمية الصدقات المفروضة عليهم ويرونها كثيرة؟ أم يعيبون حثَّ الله للناس على الصدقة؟ أم يعيبون الطريقة التي يتم بها صرف الصدقة للفقراء ، وأن بعضهم يُعطَى كثيراً وبعضهم يُعْطى قليلاً؟ لقد كانوا يعيبون في كل الأمور أو بعضها .

إذن : فاللمز إما أن يكون في التشريع ، وإما أن يكون في كمية الصدقات أو في طريقة الصرف ، والحادثة التي وقعت ونزلت فيها هذه الآية الكريمة كانت في مصارف الصدقة ، فقد قام حرقوص بن زهير ، وهو رأس الخوارج ، وهو ابن ذي الخويصرة ، وقال : اعدل يا محمد .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويلك! ومَنْ يعدل إنْ لم أعدل؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل . فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله إئذن لي فيه أضرب عنقه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« دعه ، فإنه له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم . يقرأون القرآن لا يتجاوز تراقيهم . يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية . يُنظَر إلى نَصْله فلا يوجد فيه شيء ، ثم يُنظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء ، ثم يُنْظر إلى نَضيّه وهو قدحه فلا يوجد فيه شيء ، ثم يُنظر في قُذَذِه فلا يوجد فيه شيء . سبق الفرْثَ والدم . آيتُهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة . أو مثل البضعة تَدرْدَرُ ، يخرجون على حين فُرْقة من الناس »

قال أبو سعيد الخدري : فأشهد أنِّي سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشهد أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قاتلهم وأنا معه . فأمر بذلك الرجل – أي الرجل الأسود – فالتُمس فوُجد فأتِي به ، حتى نظرتُ إليه على نَعْتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نعت .

ويقول الحق سبحانه موضحاً حال هؤلاء { وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا

رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ } أي : أن هؤلاء الناس إن أعْطوا من الصدقة كانوا راضين مهلِّلين ، وإن لم يُعْطَوْا منها ملأ قلوبهم السخط ، وبدأوا باللَّمْز . إذن : فالكمية المعطاة لهم من الصدقة كانت هي أساس اللمز .

ومثل هذا قد حدث في غزوة حنين . فقد وزع رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم على قريش وأهل مكة ، ولم يُعْطِ الأنصار شيئاً .

فلما لم يُدخل صلى الله عليه وسلم الأنصار في هذه القسمة ، استاء بعضهم من ذلك ، فجمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم :

« ألا ترضون أن يرجع الناس بالشاة والبعير ، وترجعون أنتم برسول الله؟ المحيا محياكم والممات مماتكم ، ولو سلك الناس شِعْباً وسلك الأنصار شِعْباً لسلكتُ شِعْبَ الأنصار » وهنا بكى الأنصار ، وعرفوا أنهم سيعودون بما هو أكبر كثيراً من الغنائم؛ سيعودون بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد يعطي رسول الله صلى الله عليه حَديثَ عَهْدٍ بالإسلام شيئاً من الصدقة ليربطه بهذا الدين ، وقد يعطى لتأليف القلوب ، وقد يعطي لفقير تأبى عزة نفسه أن يعترف أمام الناس بحاجته .

ولذلك كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ملاحظة في توزيع الصدقات والغنائم ، قد لا يلحظها أحد . وكان الواجب على المسلمين أن يقبلوا عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن سلوكه هو الحكم ، ولا بد أن نقبله .

ففي الحديبية مثلاً حيث حدث عهد بين رسول الله صلى الله عليه وبين كفار قريش بألا يتعرض أحد منهم للآخر مدة عشرة أعوام ، هذا الصلح أثار غضب عدد من المؤمنين وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنرضى بالدنية في ديننا؟ أي : كيف نعطيهم هذه العهود وهي مجحفة بالنسبة لنا؟ حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انفعل وأراد أن يقسو في الكلام وقال لرسول الله عليه الصلاة والسلام : ألستَ على حق يا رسول الله؟ فقال أبو بكر : الزم غرزك يا عمر – أي اعرف مكانك – إنه رسول الله . وبعد أن مرت فترة من الزمن وعرف المسلمون الحكمة من صلح الحديبية ، وما أتاحه هذا الصلح للإسلام من انتشار وقوة أدت إلى فتح مكة ، قال أبو بكر رضي الله عنه : ما كان نصر في الإسلام أعظم من نصر الحديبية .

ولكن المسلمين في هذا الوقت لم يُحِطْ فكرهم بما بين محمد وربه؛ لأن العباد دائماً يعجَلُون ، والله لا يعجل عجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد .

وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُهدِّئ نفوس المؤمنين ، وقبل أن يصلوا إلى المدينة عائدين بعد صلح الحديبية ، نزل قوله تعالى : { هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام والهدي مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ

بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ الله فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً } [الفتح : 25]

وهكذا أطلع الله المؤمنين على عِلَّة قبول صلح الحديبية وعدم القتال مع المشركين في هذا الوقت وذلك المكان ، فقد كان هناك مؤمنون في مكة يكتمون إيمانهم ويعيشون في مجتمع المشركين الذين يمكنهم البطش بهؤلاء المسلمين لو علموا بوجودهم . كما أن المسلمين القادمين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرفون هؤلاء المؤمنين ، فإذا قامت المعركة فقد يقتل المسلم مسلماً ، لأن الذين قدموا من المدينة لو دخلوا مع أهل مكة في قتال فقد يقتلون بعضاً من إخوانهم في الإيمان الموجودين في مكة ، فهم لا يعرفونهم . ولو كان المؤمنون في ناحية والكفار في ناحية لعذَّب الحقُّ الكفار بأيدي المؤمنين عذاباً أليماً .

إذن : فقد علم رسول الله من ربه سراً ولم يُعْلِنْه إلا لوقته ، رغم تعجُّل من كانوا معه صلى الله عليه وسلم .

ومثل هذا يحدث في حياتنا ، قد نجد مؤمناً يدعو الله ولا تجاب دعوته وعلى هذا المؤمن ألا يحزن ، بل عليه أن يعلم أنه قد يكون في عدم الإجابة خير لا يعلمه . وأن من رحمة الله أنه يُجبْ هذه الدعوة ، مثلما تحمي ابنك الشاب من أن يحمل سلاحاً؛ خوفاً من أن يتهور في أي مشاجرة ويقتل أحداً ، رغم أن السلاح معه حمتية له ، ولكنه أسلوب حماية قد يحمل الضرر ، وقد يؤدي إلى عواقب وخيمة .

وحين تدعو الله ولا يجيب دعاءك ، فَثِقْ أنه سبحانه يحميك من نفسك؛ لأنك لا تعلم والله سبحانه وتعالى يعلَم . فقد تدعو بشيء تحسبُه خيراً والله سبحانك يعلم أنه شر . إذن : فعدم إجابة هذه الدعوة هو عين الإجابة لها .

الحق سبحانه وتعالى يقول :

{ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ }

والسخط هو : عدم الرضا في القلب ، ثم يتعدى ذلك إلى اللسان ، مثلما قال حرقوص بن زهير لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اعدل يا محمد . أي : أنه سخط بقلبه أولاً ، ثم أساء بلسانه ثانياً .

وساعة يعرض الحق سبحانه لنا الداء في المجتمع الإيماني فهو جل وعلا يعطي الدواء الذي يحمي المجتمع من هذا الداء ، وهؤلاء الناس كانوا يعيبون تشريع الصدقة ، رغم أنهم إنْ أعطوا منها رضوا ، وإن لم يُعطوا سخطوا ، إذن : فموازينهم مُختلة ، وليست موازين حق ثابت ، بل هي موازين هوى النفس ، لكن موازين الحق لا تتبع ولا تتوقف على هوى النفس ، بل هي موازين ثابتة يعدل فيها الإنسان حتى مع ألدِّ أعدائه .

ولكن هؤلاء الناس تختلف انفعالاتهم باختلاف مصلحتهم ، إذا أَخَذُوا رضُوا ، وإذا مُنِعُوا سخِطوا؛ لأن ميزانهم هو المصلحة الخاصة البعيدة عن كل عدل .

وهنا يأتي الحق سبحانه وتعالى بالعلاج فيقول جل جلاله : { وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ آتَاهُمُ الله . . . }

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (59)

كيف يقول الحق سبحانه وتعالى : { مَآ آتَاهُمُ } مع أنهم لم يأخذوا شيئاً ، بل إنهم قد سخطوا؛ لأنهم لم يأخذوا شيئاً .

نقول : إن الله يريد أن يلفتهم إلى أن له عطاء في المنح وعطاء في المنع . فعطاء الحق سبحانه لمن أخذ ، وحرمان الحق سبحانه للبعض ، كل ذلك فيه عطاء من الحق جل وعلا ، ولكن الناس لا يلتفتون إلى ذلك . ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين منع الغنائم عن الأنصار في حنين أخذوا المعية مع رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام ، وهذا أكبر وأسْمَى من الغنائم ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« المحيا محياكم ، والممات مماتكم . لو سلك الناس شِعْباً وسلك الأنصار شِعْباً لَسلكْتُ شِعْب الأنصار »

وبذلك أخذوا ما هو أكبر وأهم وأعظم من الغنائم . إذن فقد يكون في المنع إيتاء .

الحق سبحانه وتعالى يقول : { مَآ آتَاهُمُ الله وَرَسُولُهُ } وهو عز وجل المشرّع ، والرسول عليه الصلاة والسلام هو المبلّغ والمنفِّذ ، فإذا ما رَضُوا بقسمة الله ، فالرِّضاء عمل قلبي كان عليهم أن يترجموه بكلام نزوعي هو : { وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله } فكأن الرضا عمل القلب ، والتعبير عن الرضا عمل اللسان ، وما داموا قد احتسبوا الأمر عند الله ، فالله هو الذي يرعى ، وفي عطائه خير وفي منعه خير . ولذلك نجد الطيبين من الناس إن غُلِبُوا على أمرهم يقولون : إن لنا رباً ، أي : إياك أن تفهم أنك حينَ منعتني أو أخذت حقي بأن اعتديت عليّ ستمضي بهذا الفعل دون عقاب؛ لأن لي رباً يغار عليّ ، وسبحانه سيعوِّضني أكثر مما أخذت ، ويجعل ما أخذته مني قَسْراً؛ نقمة عليك .

ولذلك فأهم ما يجب أن يحرص عليه المؤمن ليس هو الصلة بالنعمة ولكن الصلة بالمنعم . وفي أن الله هو القادر على أن يعوِّض أي شيء يفوت .

ويوضح لنا سبحانه الصورة أكثر فيقول : { سَيُؤْتِينَا الله مِن فَضْلِهِ } أي سيعوضنا عنها بخير منها . وعطاء الله دائماً فضل؛ لأنه يعطي الإنسان قبل أن يكون قادراً على عبادته ، حتى وهو في بطن أمه لا يقدر على شيء ، فإذا كنت في الدنيا قد فكرت بالعقل الذي خلقك لك الله ، وعملت بالطاقة التي خلقها لك الله ، وفي الأرض التي خلقها الله ، فإنك في بطن أمك لم تكن

قادراً على أي شيء . وحين تخرج وتنمو وتكبر فأنت تحيا في كون مليء بنعم الله ، لم تخلق فيه شيئاً ، ولم تُوجد فيه خيراً . وإنما جئت إلى الكون وهو كامل النعم ، فلا أنت أوجدت الأرض ولا صنعتَ الشمس ، بل إن نعمة واحدة من نعم الله ، فلا أنت أوجدت الأرض ولا صنعتَ الشمس ، بل إن نعمة واحدة من نعم الله ، وهي المطر؛ إن توقفت هلك كل من في الأرض .

ونلمس أثر ذلك حين تأتي مواسم الجفاف في أي منطقة من العالم ، ونرى كيف يهلك كل شيء؛ الزرع والإنسان والحيوان .

والحق سبحانه وتعالى قد خلقنا في عالم أغيار ، فالقادر اليوم قد يصبح غير قادر غداً ، والصحيح اليوم قد يصبح مريضاً معلولاً غداً ، والقوي يضعف ، حتى نعرف أن ما نملكه من قدرة وقوة ليست أموراً ذاتية فينا ، ولكنها منحة من الله؛ يأخذها وقتما يشاء ، ونرى القوى الذي كان يفتك بيده ويؤذي بها غيره ويُذِلُّ اناس بها . نراه وقد أصيبت يده ، فلا تصل إليها الأوامر من المخ فتُشَل . إذن : فقدرة أي إنسان ليست ذاتية فيه ، بل هي من فضل الله سبحانه وتعالى ، وكل شيء في الكون هو من فضل الله .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

{ سَيُؤْتِينَا الله مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّآ إِلَى الله رَاغِبُونَ } ويقال : رغب في كذا أي أراده ، ويقال : رغب عن كذا ، أي ترك هذا الأمر . ويقال : رغب إلى كذا أي سار في الطريق نحوه . وهنا قال الحق : { إِنَّآ إِلَى الله رَاغِبُونَ } وما دُمْنا إلى الله راغبين ، كان يجب ألا نعزل عطاء الدنيا عن عطاء الآخرة ، فالدنيا ليست كل شيء عندك؛ ما دُمْت راغباً إلى الله الذي سيعطيك نعيماً لا حدود له في الآخرة . ولذلك فرغبتنا في الله كان يجب ألا تجعلنا نسخط على نعيم فاتنا في الدنيا؛ لأن هناك نعيماً بلا حدود ينتظرنا في الآخرة .

وأراد الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك أن يبين مصارف الصدقة حتى يعرف هؤلاء الراغبون في متاع الدنيا هذه المصارف ويتعرفوا إلى حقيقة الأمر ، وليتبينوا هل هم يستحقون الصدقة أم لا ، فقال جل جلاله : { إِنَّمَا الصدقات لِلْفُقَرَآءِ . . . . }

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60)

وعندما تسمع كلمة { إِنَّمَا } فافهم أنه يُرَادُ بها القصر ، فإن قلتَ « إنما الرجل زيد ، أي : أنك قصرت الرجولة على زيد . وإن قلتَ : إنما الكريم حاتم ، تكون قد قصرت الكرم على حاتم .

وقول الحق سبحانه وتعالى : { إِنَّمَا الصدقات } معناها : أن الصدقات محصورة في هؤلاء ولا تتعداهم .

فمن هم هؤلاء الذين حصر الحق سبحانه وتعالى فيهم الصدقة؟ وما المراد هنا بالصدقة؟ هل هي صدقة التطوع أو الزكاة؟

نقول : ما دام الحق سبحانه وتعالى قد حدد لها مصارف فهي الزكاة ، ولسائل أن يسأل : لماذا لم يَقُل الحق سبحانه وتعالى الزكاة وقال الصدقة؟

ونقول : ألا ترى – في المجتمعات غير الإيمانية الملحدة – أن من الناس مَنْ يكفرون في إنشاء مؤسسات اجتماعية لرعاية الفقراء؟ إن عطف الإنسان على أخيه الإنسان هو أمر غريزي خلقه الله فينا جميعاً ، ولذلك كان يجب أن نفهم أن الزكاة صدقة ، ولو لم يشرعها الله لكان يجب أن يقدمها الإنسان لأخيه الإنسان . وحوادث الكون كلها تدل على صدق وصف الحق سبحانه وتعالى للزكاة بأنها صدقة؛ لأنها تأتي تطوعاً من غير المؤمن وغير الملتزم بالتشريع ، ويحس القادر بالسعادة وهو يعطي لغير القادر ، وعي غريزة وضعها الله في خلقه ليخفف من الشقاء في الكون .

وهنا يقول الحق : { إِنَّمَا الصدقات لِلْفُقَرَآءِ والمساكين } وقد احتار العلماء في ذلك ، فقال بعضهم : إن الفقير هو الذي لا يجد شيئاً فهو مُعدم . والمسكين هو من يملك شيئاً ولكنه لا يكفيه ، وعلى هذا يكون المسكين أحسن حالاً من الفقير ، واستندوا في ذلك إلى نص قرآني في قوله تعالى : { أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البحر . . . } [الكهف : 79] وما دام هؤلاء المساكين يملكون سفينة إذن فعندهم شيء يملكونه . ولكن العائد الذي تأتي به السفينة لا يكفيهم .

ولكن بعض العلماء قالوا عكس ذلك ، ورأوا أن المسكين هو مَنْ لا يملك شيئاً مطلقاً ، والفقير هو الذي يجد الكفاف . وعلى هذا يكون الفقير أحسن حالاً من المسكين ، ولا أعتقد أن الدخول في هذا الجدل له فائدة؛ لأن الله أعطى الاثنين . . الفقير والمسكين . وكلمة » فقير « معناها الذي أتعبت الحياة فَقَار ظهره أي فقرات ظهره ، وحاله يغني للتعبير عنه ، والمسكين هو الذي أذهلته المسكنة .

ثم يأتي بعد ذلك : { والعاملين عَلَيْهَا } أي : الذين يقومون بجمع الصدقات ويأخذونها ممن يعطيها ويضعونها في بيت المال ، ونلاحظ هنا أن { والعاملين عَلَيْهَا } جاءت مطلقة؛ فلم تحدد هل يستحق الصدقة مَنْ كان يجمعها وهو فقير ، أو مَنْ كان يجمعها وهو غير محتاج . ونقول : إن جمع الصدقة عمل ، ولو قلنا : إن غير المحتاج ويعمل في جمع الصدقة لا يجب أن يأخذ أجراً ، هنا يصبح عمله لوناً من التفضل ، وما دام العمل تفضُّلاً فلن يكون بنفس الكفاءة التي يعمل بها ، إذا كان العمل بالأجر .

وأيضاً حتى لا يُحرَم المجتمع من جامع صدقة ذكي نشيط؛ لأنه غير محتاج ، ولكن نعطيه أجراً ليكون مسئولاً عن عمله ، والمسئولية لا تأتي إلا إذا ارتبطت بالأجر .

والعامل على جمع الصدقة إنما يعمل لصالح الدولة الإيمانية ، فهو يجمع الصدقات ويعطيها للحاكم أو الوالي الذي يوزعها . وفي هذا مصلحة لمجتمع المسلمين كله . خصوصاً إن كانت الصدقة توزع من بيت المال فلا يتعالى أحد على أحد ، ولا يذلك أحد أمام أحد ، وفي هذا حفظ لكرتمة المؤمنين؛ لأن من يأخذ من غير بيت المال سيعاني من انكساره يده السُّفْلى .

ومن يعطي لغير بيت المال قد يكون في عطائه لون من تعالى صاحب اليد العليا ، وكذلك فإن أولاد الفقير لن يروا أباهم وهو ذاهب إلى رجل غني ليأخذ منه الصدقة ويُصَاب بالذلة والانكسار . ولا يرى أولاد الغني هذا الفقير وهو يأتي إلى أبيهم ليأخذ منه الصدقة؛ فَيتعالَوْنَ على أبناء الفقير . فإن أخذ الفقراء الصدقة من بيت المال ، كان ذلك صيانة لكرامة الجميع ، وإن حدث خلال بين غني وفقير فلن يقول الغني للفقير : أنا أعطيك كذا وكذا ، أو يقول أولاد الغني لأولاد الفقير : لولا أبونا لَمُتُمْ جوعاً .

إذن : فقد أراد الحق سبحانه بهذا النظام أن يمنع طغيان المعطي ، ويمنع – أيضاً – ذلة السؤال ، فالكل يذهب إلى بيت المال ليأخذ أو يعطي . وحين يذهب الفقير ليأخذ من بيت المال بأمر من الوالي فلا غضاضة؛ لأن كل المحكومين تحت ولايته مسؤولون منه .

ثم يأتي الحق إلى فئة أخرى فيقول : { والمؤلفة قُلُوبُهُمْ } وهم من يريد الإسلام أن يستميلهم ، أو على الأقل أن يكفوا آذاهم عن المسلمين . وكان المسلمون في الزمن الأول للإسلام ضعافاً لا يقدرون على حماية أنفسهم . وعندما أعز الله دولة المسلمين بالقوة والعزة والمكانة ، منع الخليفة عمر بن الخطاب إعطاء المؤلفة قلوبهم نصيباً من الزكاة؛ لأنه لم يجد أن قوة الإسلام تحتاج أحداً غير صحيحي الإيمان؛ لذلك لم يدخلهم عمر بن الخطاب في فئات الزكاة .

وقول الحق سبحانه : { والمؤلفة قُلُوبُهُمْ } يثير سؤالاً : هل يُؤلَّف القلب؟ . نقول : نعم ، فالإحسان يؤلف قلب الإنسان السَّوي ، وكذلك يؤلف جوارح الإنسان غير السوي ، فلا يعتدى على من أحسن إليه باللسان أو باليد .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَفِي الرقاب } ومعناها العبيد الذين أُسروا في حرب مشروعة . وكانت تصفية الرق من أهداف الإسلام؛ لذلك جعل من مصارف الزكاة تحرير العبيد . وبعض من الناس يدَّعون أن الإسلام جاء بالرق وأقره . ونقول : لم يأت الإسلام بالرق؛ لأن الرق كان موجوداً قبيل البعثة المحمدية ، وجاء الإسلام بالعتق ليصفى الرق ، فجعل من فَكِّ الرقبة كفارة لبعض الذنوب .

وجعل من مصارف الزكاة عتق العبيد . وقد نزل القرآن وقت أن كانت منابع الرق متعددة .
وكان من المعتاد في تلك الأيام أن المدين الذي يعجز عن سداد ما عليه من دَيْن ، فالدائن يأخذه أو يأخذ أحد أبنائه كعبد له .
وإذا فُعلَتْ جناية ، فالجاني يأخذ العفو من المجني عليه مقابل أن يعطيه أحد أولاده عبداً . وإذا سُرِق شيء فإن السارق لا يعاقب ، بل يعطي أحد أولاده عبداً للمسروق منه . وكان الأقوياء يستعبدون الضعفاء؛ فيخطفون نساءهم وأولادهم بالقوة ويبيعونهم في سوق الرقيق ، وهكذا كانت منابع الرق في العالم متعددة ، ولا يوجد إلا مصرف واحد هو إرادة السيد؛ إن شاء حرر وإن شاء لم يحرر .
وقد كان الرق موجوداً في أوروبا وفي آسيا وفي أفريقيا ووُجِد أيضاً في أمريكا . إذن : كانت هناك منابع متعددة للرق؛ ومصرف واحد هو إرادة السيد ، وقد كان الرق يتزايد ، وجاء الإسلام والعالمُ غارق في الرق ، لماذا؟
لأن الرق في ذلك الوقت كان يشبه حوضاً تصب فيه صنابير متعددة ، وليس له إلا بالوعة واحدة . ولم يعالج الإسلام المسألة طفرة واحدة ، شأن معظم تشريعات الله ، ولكنه عالجها على مراحل ، تماماً كتحريم الخمر حين بدأ التحريم بالمنع عند الصلاة ، فقال الحق سبحانه وتعالى : { تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنْتُمْ سكارى حتى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ . . . } [النساء : 43]
ثم حرمها تحرمياً قاطعاً .
وحين جاء الإسلام ليعالج قضية الرق ويحرر الإنسان من العبودية ، بدأ بإغلاق مصادر الرق . وجعل المصدر الوحيد هو الحرب الإيمانية المشروعة من ولي الأمر . أما كل الوسائل والألوان الأخرى من أبواب الرق ، كأن يتم استعباد أحد كعقوبة جنائية أو لعجزه عن تسديد دَيْن أو غير ذلك ، فقد أغلقها الإسلام بالتحريم . أما ناحية المصرف فلم يجعله مصرفاً واحداً هو إرادة السيد ، بل جعله مصارف متعددة؛ فالذي يرتكب ذنباً يعرف أن الله لن يغفر له إلا إذا أعتق رقبة ، ومن حلف يميناً ويريد أن يتحلل منها؛ يعتق رقبة . فإذا لم يفعل هذا كله وأراد أن يحسن إحساناً يزيد من أجره عند الله؛ أعتق رقبة .
وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { فَلاَ اقتحم العقبة * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا العقبة * فَكُّ رَقَبَةٍ } [البلد : 11-13]
وهكذا جعل الإسلام مصارف كثيرة لتصفية الرق حتى ينتهي في سنوات قليلة ، ثم وضع بعد ذلك ما يُنْهي الرق فعلاً ، وإن لم يُنْهِه شكلاً .
فإذا كان عند أي سيد لون من الإصرار على أن يستبقي عبده ، فلا بد أن يُلبسه مما يلبس ، ويُطعمه مما يَطْعم ، فإن كلَّفه بعينه . وهكذا أصبح الفارق متلاشياً بين السيد وعبده .
وحين ألغتْ بعض الدول الإسلامية الرقَّ بالقانون ، ذهب الرقيق إلى أسيادهم وقالوا : دعونا

نعش معكم كما كنا . وهم قد فعلوا ذلك لأن حياتهم مع أسيادهم كانت طيبة . وهكذا ألغى الإسلام فوارق الرق كلها ، وأصبحت مسألة شكلية لا تساوي شيئاً .

ولكن بعض الناس يتساءل : وماذا عن قول الحق سبحانه وتعالى : { وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . . . } [النساء : 36]

نقول : افهم عن الله ، فهذا أمر لا يسري إلا إذا كانت المرأة المملوكة مشتركة في الحرب ، أي : كانت تحارب مع الرجل ثم وقعت في الأسْر ، والذي يسري على الرجل في الأسر يسري عليها ، ثم من أي مصدر ستعيش وهي في بلد عدوة لها؛ إنَّ تركها في المجتمع فيه خطورة على المجتمع وعليها . كما أن لهذه المرأة عاطفة سوف تُكْبتُ ، فأوصى الإسلام السيد بأنه إذا أحب هذه الأمةَ فلها أن تستمتع كما تستمتع زوجة السيد ، وإن أنجبت أصبحت زوجة حرة وأولادها أحراراً ، وفي هذا تصفية للرق .

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن لون آخر من مستحقي الزكاة : { والغارمين } والغارم : هو من استدان في غير معصية ، ثم عجز عن الوفاء بِدَيْنه . ولم يمهله صاحب الدَّيْن كما أمر الله في قوله تعالى : { فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ . . . } [البقرة : 280]

ولم يسامحه ولم يتنازل عن دَيْنه ، وفي هذه الحالة يقوم بيت المال بسداد هذا الدَّيْن . لكن لماذا هذا التشريع؟

لقد شاء الحق إعطاء الغارم الذي لا يجد ما يسد به دَيْنه حتى لا يجعل الناس ينقلبون عن الكرم وعن أقراض الذي يمر بعسر ، وبذلك يبقى اليُسْر في المجتمع ، وتبقى نجدة الناس للناس في ساعة العسرة ، فلا يمتنع أحد عن إعطاء إنسان في عسرة؛ لأنه يعلم أنه إن لم يدفع فسيقوم بيت المال بالسداد من الزكاة . أو : أن الغارم هو الذي أراد أن يصلح بين طرفين ، كأن يكون هناك شخصان مختلفان على مبلغ من المال ، فيقوم هو بفضِّ الخلاف ودَفْع المبلغ ، ثم تسوء حالته؛ لأنه غرم هذا المال بنخوة إيمانية ، فنقول له : خذ من بيت المال حتى يشيع في النفوس تصفية الخلافات وإشاعة الحب بين الناس . إذن : فالغارم هو المستدين في غير معصية ولا يقدر على سداد الدين ، أو المتحمّل لتكلفة إصلاح ذات البَيْن بين طرفين ، وهو مستحق لهذا اللون من المال .

ويقول الحق سبحانه : { وَفِي سَبِيلِ الله } . يقول جمهور الفقهاء : إنها تنطبق على الجهاد؛ لأن الذي يضحي بماله مجاهداً في سبيل الله ، لو لم يعلم أن الجهاد باب يدخله الجنة لما ضَحَّى بماله ، وعندما تضحي بالمال أو النفس في سبيل الله يكون هذا من يقين الإيمان . فلو لم تكن على ثقة أنك إذا استشهدت دخلت الجنة ما حاربت . ولو لم تكن على ثقة بأنك إذا أنفقتَ المال جهاداً في سبيل الله دخلتَ الجنة ما ما أنفقت .

والإسلام يهدف إلى أمرين : دين يبلَّغ ومنهج يُحقَّق ، والمجاهد في سبيل الله أسوة لغيره من المؤمنين . والأسوة في الإسلام هي التي تُقوّيه وتُثبّته في النفوس؛ لأنها الإعلام الحقيقي بأن ما تعطيه من نفسك أو مالك لله ستجازى عنه بأضعاف أضعاف ما أعطيت .

{ وَفِي سَبِيلِ الله } أيضاً كل ما يتعلق بمصارف البر مثل : بناء المساجد والمدارس والمستشفيات . ثم يقول سبحانه موضحاً لمصرف جديد من مصارف الصدقة والزكاة : { وابن السبيل } ، ونحن نعلم أن كل إنسان ينسب إلى بلده . فهذا دمنهوري وهذا طنطاوي ، إلى آخره حسب البلد الذي هو منه . ولكن لنفرض أن إنساناً مشى في الطريق في غير بلده فإلى من تنسبه وأنت لا تعرف بلده؟ تنسبه إلى الطريق فيصبح : ابْن السَّبِيلِ؛ لأن السبيل هو الطريق . وهذا الإنسان الغريب عن بلده لا بد أن تعينه حتى يصل إلى بلده ، وإنْ وجد الإنسان مَنْ يعينه في هذه الحالة ، فسوف يشجع ذلك سفر الشباب إلى الدول الأخرى لطلب الرزق ، وأيضاً هناك من يسافر ليزداد خبرة أو يسافر للسياحة ، وهناك من يسافر للتجارة ، وقد يكون غنياً ولكنه قد يفقد ماله في الطريق . ويريد الحق سبحانه أن يكفل عباده وهم غرباء من أي مفاجأة قد تجعلهم في عسر ، فالذين سافروا للسياحة مثلاً ثم أصيبوا بكارثة أوجب الحق مساعدتهم ، والذين سافروا طلباً للرزق ولم يُوفَّقوا أوجب الله سبحانه وتعالى مساعدتهم؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يسيروا في الأرض ليروا آياته ، وليبتغوا الرزق ، إذن : فابن السبيل هو كل غريب صادفته ظروف صعبة ، ولا يجد ما يعود به إلى بلده .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَرِيضَةً مِّنَ الله } أي : أن كل من حدد الله سبحانه وتعالى استحقاقه للصدقة إنما يستحقها بفرض من الله ، فالصدقة فريضة للفقراء ، فريضة للمساكين ، فريضة للعاملين عليها ، والمؤلَّفة قلوبهم وفي الرِّقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله : { والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ } ، والله هو واجب الوجود وخالقه ، خلق الإنسان وكرَّمه فجعله خليفة في الأرض . وقبل أن يخلق سبحانه الإنسان أعدَّ له الكون الذي يعيش فيه؛ الأرض والشمس والقمر والسماء والكواكب والنجوم . ثم جاء الإنسان إلى الكون؛ ليجد كل شيء قد أعدَّ لخدمته خاضعاً له ، فلا يوجد جنس من الأجناس يتأبى عن خدمة الإنسان ، فلا الأرض إذا زُرعَتْ رفضت إنبات الزرع ، ولا الحيوان الذي سخره الله جل جلاله لخدمة الإنسان يتأبى عليه؛ فالحمار تُحمِّله السباخ والقاذورات فلا يرفض ، وتنظفه وتجعله مَطيَّة تنقلك من مكان إلى آخر فلا يتأبى عليك .

وما دام سبحانه الذي خلق ، فهو أدرى بمن خلق ، وبما يصلحه وما يفسده – ولله المثل الأعلى – نحن نعرف أن المهندس الذي يصمم آلة إنما يضع لها قانون صيانتها . فما بالنا بخالق الإنسان المتعدد المشاعر والأطوار؟ إن خلق الإنسان لا يقتضي علماً فقط ، ولكنه يقتضي أيضاً حكمة؛

لأنك قد تعلم ، ولكنك لا تستخدم العلم فيما تفعل ، كأن تعلم قانون صيانة آلة معينة ثم لا تطبقه وتحاول أن تأتي بقانون من عندك؛ لذلك فلا بد مع العلم من حكمة لتضع الشيء في موضعه السليم .

ولذلك قال الحق سبحانه : { والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ } .

ونحن نعلم أن الصدقات تقتضي مُتصدِّقاً وهو المعطي ، ومُتصدِّقاً عليه وهو مستحق الصدقة أو بالذي يأخذها ، ومُتصدَّقاً به وهو الشيء الذي تتصدق به ، إذن فهناك ثلاثة عناصر : المتصدِّق ، والمتصدَّق عليه ، والمتصدَّق به .

قد يتساءل بعض الناس : لماذا خلق الله الإنسان الخليفة في الأرض وجعل بعضهم قادراً وبعضهم عاجزاً ، وهذا يعطي وهذا يأخذ ، ولماذا لم يجعل الكل قادرين؟

نقول : إن مفارقات التقابل في الأشياء تجعلها تتكامل ، فهناك ليل وهناك نهار ، فهل الليل ضد النهار؟ لا؛ لأن الليل مُكمِّل للنهار ، والنهار مُكمِّل لليل . ولو لم يُخْلَقا معاً متكاملين؛ لاختلَّ التوازن في الكون .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلاَ تُبْصِرُونَ } [القصص : 72]

إذن : فالإنسان يحتاج إلى ضوء النهار للحركة والعمل ، ويحتاج إلى ظُلْمة وسكون الليل للنوم ، وإن لم يَنَمِ الإنسان ويسترِحْ فهو لا يستطيع مواصلة العمل . وهكذا نرى الليل والنهار متكاملين وليسا متضادين . كذلك الرجل والمرأة . وقد لا يفهم بعض الناس أن الرجل والمرأة متكاملان ، ويقولون : لا بد أن تساوي المرأةُ الرجلَ ، ونقول : إنكم تعتقدون أن المرأة والرجل جنسان مختلفان ، ولكنهما جنس واحد مخلوق من نوعين ، وكل نوع له مهمة وله خاصية . وللإنسان المكوَّن من الرجال والنساء مهمة وخصائص يشتركون فيها ، ويتضح لنا ذلك عندما نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الليل : { والليل إِذَا يغشى * والنهار إِذَا تجلى * وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى } [الليل : 1-3]

كأن الذكر والأنثى ، مثل الليل والنهار متساندان متكاملان ، فلا تجعلهما أعداء بل انظر إلى التكامل بينهما ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى } [الليل : 4]

أي : كُلٌّ له مهمة في الحياة ، واقتضتْ حكمته سبحانه في خلق الكون أن يجعل كل شيء يخدم الإنسان؛ الجماد يخدم الإنسان ، وكذلك النبات ، وكذلك الحيوان ، حتى يكون الإنسان مستنجياً لمنهج الله ولعبادته . وكذلك اقتضتْ الحكمة أيضاً أن يخلق الله سبحانه وتعالى أشياء لا تستجيب للإنسان؛ حتى يعرف الناس أن هذا الكون ليس مُذلَّلاً بقدراتهم هم ، بل بقدرة الله

سبحانه وتعالى؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول : {كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى } [العلق : 6-7]

فتجد مثلاً الجمل بضخامته ينقاد لطفل صغير ، بينما الثعبان الصغير على دِقَّة حجمه لا يجرؤ الإنسان أن يقترب منه .

وفي الوقت نفسه ، فإن هذه الحكمة تقتضي أن يحس الإنسان أن قدراته وقوته موهوبة له من الله سبحانه وتعالى ، وأنها ليست من ذات الإنسان .

ولذلك يخلق الله أناساً ضعافاً لا يقدرون على الكسب ، ليلفت أنظارنا إلى أن قوة القوى هي هبة من الله ، وليست في ذاتية الإنسان ، وإلا لو كانت ذاتية في الإنسان ما وُجد عاجز . ولا بد أن يفهم كل قوي أن قوته هبة من الله يمكن أن تسلب منه فيصبح ضعيفاً مثل من يراهم أمامه من ضعاف البشر .

والضعيف غير القادر على العمل ، والأعمى غير القادر على الكسب ، والكسيح غير القادر على السير ، كل هؤلاء موجودون في الكون ليلفتوا الأصحاء والأقوياء إلى أن الصحة والقوة من الله ، فلا يغتر الأصحاء والأقوياء بأنفسهم ويرتكبوا المعاصي ، بل عليهم أن يخافوا الله ، فسبحانه الذي أعطى يستطيع أن يأخذ .

كما اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن ينقسك الأرزاق بيننا لتسير حركة الكون . وإلا لو أصبحنا كلنا ميسورين ، فمن الذي يقوم بتنظيف الشارع؟ ومن الذي يقوم بتسليك البالوعات؟ ومن الذي يحمل الطوب والأسمنت على كتفيه للبناء؟ وإن كنا جميعاً نملك المال فلن يرضى أحد أن يقوم بالأعمال البسيطة والمزعجة والمرهقة ، وشاء الله أن يربط هذه الأعمال بالرزق ، بحيث يقوم بها بعضنا ليحصل على قوت أولاده ، وإلا لما أمسك أحد بمكنسة لتنظيف الطريق ، وما عمل أحد في إصلاح المجاري؛ لذلك قد ترى مَنْ يقومون بهذه الأعمال سعداء عندما تُسَدُّ المجاري ، أو يحتاج الطريق إلى نظافة؛ لأن رزقهم يأتي من هذا العمل .

ولكن أيبقى هذا الحال على ما هو عليه؟ لا؛ لأن الأيام تُتداوَلُ بين الناس ، وكل واحد له عُرْس وله مَأتم . وتأتي أيام تكون فيها هذه الأعمال اليدوية هي مصدر الرزق الوفير ، وهي التي يملك أصحابها سعة الرزق ، أكثر من الذين درسوا في الجامعات وأهّلوا للمناصب ، لكنهم أقل دخلاً وأقل رزقاً .

وهكذا نعلم أن الكون يحتاج إلى المواهب المتعددة التي تتكامل فيه ، فأنت إذا أردت أن تبني بيتاً تحتاج إلى مهندس ومقاول ونجار وحداد وبنَّاء إلى غير ذلك ، ولا يمكن لإنسان أن يملك هذه المواهب كلها في وقت واحد . فلا بد أن تتكامل وأن يرتبط هذا التكامل بالرزق ولقمة العيش . بل وتجد أن الإنسان قد يتخصص في عمل ويتقنه بينما يحتاج هو لبعض من وقته ليقوم بمثل هذا

العمل لبيته فلا يجد ، ولذلك يقال : « باب النجار مخلّع »؛ لأن الأبواب الأخرى التي يصنعها مرتبطة برزقه وهو يحاول أن يحسن صناعتها ، أما بابه هو فلا رزق له فيه ، ولذلك قد يكسل عن صيانته .

ولا بد أن يعرف الإنسان أنه ليس أصيلاً في الكون ، بل مستخلف فيه؛ لأن الفساد ينشأ دائماً حين يعتبر الإنسان نفسه أصيلاً في الكون . وإياك أن تفهم أن المعْطى مُفضَّل على الآخذ ، أو أن الآخذ مُفضَّل على المُعطي ، بل هما متبادلان ، فالإيمان نصفان : نصف شكر ونصف صبر .

إما أنك في نعمة فتشكر . وإما أنك في محنة فتصبر . وعندما نتأمل الغني المستخلَف في النعمة تجد أنه قد أخذ النصف الذي يخصه كشاكر ، وحُرِمَ من النصف الآخر الإيماني وهو الصبر؛ ولذلك يأتي الإسلام له بتشريع يأخذ منه بعضاً من ماله الذي حصل عليه بعرقه وعمله ويعطيه لغير القادر على العمل ، وبذلك يحصل على جزء من الصبر؛ لأنه يعطي بعضاً من فائدته عمله للعاجز عن العمل ، ويكون الفقير قد أخذ نصف الشكر ونصف الصبر . فقد صبر على فقره ، وجاء له المال بلا تعب فشكر الله على نعمته . وهكذا نجد أن الاثنين إذا طبَّقا منهج الله أخذا نصف الصبر ونصف الشكر .

وعلى العاجز عن الكسب ألا يغضب؛ لأن الله سبحانه وتعالى يعطيه الرزق بلا تعب . بل إنك قد تجد الغني وهو يبحث عن مصارف الزكاة ويسال عن الفقراء ليعطيهم .

وكثيراً ما نرى إنساناً عزيزاً في أزمة ، ونجد من أصدقائه من يقترض ليعطيه . والله سبحانه وتعالى قال : { مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً والله يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [البقرة : 245]

ومع أن المال مال الله فقد احترم سبحانه عمل الإنسان الذي يأتيه بالمال ، وطلب منه أن يعطي بعضاً منه أخاه المحتاج؛ ابتغاء مرضاة الله ، واعتبر سبحانه وتعالى هذا العمل إقراضاً له جل جلاله ، وكأن الذي يعطي المال للمحتاج يقرض الله ، ولله المثل الأعلى؛ كالأب الذي يعطي مصروفاً لأولاده ، فيضعه كل منهم في حصالته ، ثم تأتي للأب أزمة مالية ، فيستأذن أولاده حتى يأخذ ما في حصالاتهم ، رغم أن مال الأولاد هو من مال الأب ، ورغم ذلك نجد الأب قد احترم ما وهبه من المال لأولاده؛ فاعتبره مالهم . كذلك الحق سبحانه وتعالى احترم عمل الإنسان ، فاعتبر المال ماله ، وطلب منه أن يقرضه .

وفي هذا مَيْزة للغني والفقير ، فالغني يأخذ ميزة وشرف أنه أعطى لله ، والفقير أخذ ميزة؛ لأن الله سبحانه وتعالى اقترض من أجله .

وجعل الله الزكاة من أركان الإسلام ، وجعل هذا الركن لمصلحة الفقير . فالغني ليس له ركن في إيمان الفقير ، ولكن الفقير له ركل من إيمان الغني . والغني حين يعطي جزءاً من ماله فهو يستغني

عن هذا الجزء . وهناك فرق بين أن تستغني عن الشيء وتستغني بالشيء . والحق سبحانه وتعالى مستغن عن الكون وما فيه ، فكأنه أعطى الغني صفة من صفات الحق؛ لأن الله مستغن عن مال الدنيا كله ، والمال ليس سلعة مفيدة فائدة مباشرة للإنسان .

والمثال الذي أقوله دائماً ، يوضح ذلك : لنفرض أن رجلاً عنده جبل من ذهب وتاه في صحراء لا يجد فيها لقمة خبز أو شربة ماء ، فما هي فائدة جبل الذهب هذا؟ إنه لا يساوي شيئاً .

إذن : فالمال ليس غاية في حد ذاته ، ولكنه وسيلة . وعندما يمنع الغني ماله عن الفقير يكون قد جعل المال غاية فلا ينفعه . أما إذا أعطى الغني بعضاً من المال للفقير؛ فهو قد أعاد إلى المال وظيفته في أنه وسيلة من وسائل الحياة . وأنت تشتري بالمال ما تعتقد أنه ينفعك؛ فعليك أن توظفه في أكمل ما ينفعك؛ وهو رضا الله سبحانه وتعالى وثوابه .

واحترم الحق سبحانه حركة الحياة في العمل؛ حتى يعمل كل إنسان على قدر طاقته ، وليس على قدر حاجته؛ لأن الإنسان إذا عمل على قدر حاجته فقط لما وُجِد فائض من مال للزكاة .

ولذلك سمى الحق سبحانه وتعالى المال الذي يكسبه الإنسان في الدنيا مال الإنسان ، حتى يعمل كل منا على قدر طاقته؛ لأن المال ماله . وعندما يزيد ما عندك من مال على حاجتك فأنت لا تحب أن يفارقك المال الزائد ، وفي الوقت نفسه تحرص على أن تنفقه فيما ينفعك ، فيرشدك الحق إلى إنفاق بعض المال في خير ما ينفعك ، وهو أن تعمل لآخرتك .

إذن : فأنت محتاج إلى التصدق ببعض من المال الزائد لِتحسُنَ آخرتك . والفقير محتاج إلى بعض من المال الزائد عن حاجتك ليَعيش . فكلاكما يحتاج الآخر ، ولكن الله سبحانه وتعالى احترم عمل الإنسان ، فجعل له النصيب الأكبر مما يكسب ، وللفقير نصيب أقل .

وعلى سبيل المثال : إن عثر الإنسان على كنز فزكاته عشرون في المائة ، وإذا زرع الإنسان وروى وحصد فزكاته هي عشرة في المائة ، أما إذا كان رزق الإنسان من عمل يومي كالتجارة ، فالزكاة هي اثنان ونصف في المائة؛ ذلك أنه كلما كثرت حركة الإنسان في عمله قلَّتْ الزكاة . وكلما قَلَّ عمل الإنسام فيما يكسب؛ زادت الزكاة؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يشجع العامل على العمل . والمجتمع هو المستفيد بالعمل وإن لم يقصد صاحبه ذلك .

فالذي يبني عمارة – مثلاً – إنما يفتح باب العمل لمن يحضر الرمال ، ولمن يحضر الطوب والأسمنت والحديد ، وهو يدفع لوسائل نقل هذه المواد إلى موقع البناء ، ويدفع أجوراً لمن قاموا بصناعة وتركيب الأدوات الصحية ، والكهرباء ، وغير ذلك وقد لا يستفيد صاحب العمارة منها لانتهاء أجله .

إذن : فالمجتمع كله يستفيد من بناء العمارة ، حتى ولو لم يكن في بال صاحبها أن يفيد المجتمع ، ويعتقد بعض الناس أن العمل وحده هو الذي يأتي بالمال ، وينسون أن الله هو الذي ييسره لهم ،

ويُمَكّنُهم منه . ويلفتنا سبحانه إلى ذلك حين تأتي آفات تتلف الزرع وتُضَيّعُ تعب من قاموا بالحرث والبذر والسَّقْي؛ لعلنا نلتفت إلى أن كل شيء يتم بإرادة الله ، وليس بالأسباب وحدها . وسبحانه وتعالى حين يقضي بذلك ، يلفتنا أيضاً لفتة فيبارك في زرع في بلد آخر أو مكان آخر ، فإذا هلك محصول القمح في دولة ، كانت هناك دولة أخرى يزيد فيها محصول القمح ، فيشتري هؤلاء من هؤلاء ، أو ترسل الدول التي جاءها محصول وفير إلى الدول التي هلك فيها الزرع كمعونة أو إغاثة ، وبذلك تتعامل سبل الحياة .

ولا بد لنا أن نتذكر دائماً أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أعطانا القدرة ، ولا أحد يستطيع أن يعطي القدرة للإنسان غير الله تبارك وتعالى . فالقدرة المطلقة هي لله سبحانه وتعالى ، وسبحانه يُمرِّر بعضاً من أثر قدرته إلى خلقه ، فنجد إنساناً يستطيع بقدراته أن يُعِين إنساناً آخر في حَمْل شيء ثقيل لا يستطيع صاحبه أن يحمله .

وفَرْقٌ بين أن تتبرع أنت بأثر قوتك؛ وبين أن تهَبَ الغير هذه القوة . فالبشر يعطي أثر القوة ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يهب القوة لمن يشاء .

المال – إذن – لا ينفع بذاته ، وإنما هو يُحضر الشيء النافع للإنسان ، فإذا احتجت إلى طعام أو شراب أو ملابس أو سيارة أو غير ذلك اشتريتها بالمال . إذن : فالمال هو وسيلة البشر للحصول على احتياجاتهم . ولذلك يعتز به الإنسان . والمثال : أن الأبناء الذين يأخذون المصروف كل شهر من الأب ، تجدهم يحرصون على لقاء الأب في أول الشهر ، وقد لا يلتفتون إليه باقي الأيام . أما إذا كان المصروف في كل يوم فتجد الأولاد يحرصون على لقاء أبيهم في كل يوم .

والحق سبحانه وتعالى هو خالق النفس البشرية ، يعلم ما في صدور الناس؛ ولذلك يُلفت القادر إلى ضرورة أن يُخرِجَ بعضاً من ماله للعاجز عن الكسب .

ونحن نعيش في عالم أغيار ، ومن الممكن ان يصبح القادر اليوم عاجزاً غداً . ولذلك نجد القادر يمتلئ بالقلق إذا رأى عاجزاً . وهنا يتذكر نعمة الله عليه؛ فيسرع ليدفع بعضاً من ماله إلى العاجز؛ وهو راض ، خوفاً من أن يحدث له مثل ما حدث لهذا العاجز . ويقول الحق : { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا . . . } [التوبة : 103]

إذن : فالصدقة تطهر الإنسان من الغفلة التي قد تصيبه ، وتُزكّي الإنسان أيضاً ، وشاء سبحانه أن تكون الزكاة نموّاً وزيادة وإن بدت في ظاهرها على أنها نقص . فالمائة جنيه تصبح سبعة وتسعين ونصفاً بعد إخراج الزكاة ، وهي عكس الربا الذي قد تصبح فيه المائة مائتين ، وظاهر الربا أنه زيادة ، ولكنه يمحق كل خير ، وظاهرة الزكاة أنها نقص ، ولكنها في حقيقتها نماء .

والنماء أن يترقى الشيء في مراتب الكمال؛ فينمو طهارة ، وينمو تزكية ، وينمو بالزيادة والبركة .

والإنسان يحتاج إلى المال ليحصل على ضروريات الحياة وكمالياتها؛ فيطمئن إلى حاضره ومستقبله .

لكن لنفرض أن المال دام لك طول العمر ، وأنت تعرف أن العمر مهما طال ، قصير . ولا بد أن يأتي يوم تفارق فيه هذا المال بالموت . في هذه اللحظة يكون ما كنزت من المال قد صار إلى ورثتك ، ولا يصحبك منه إلى آخرتك إلا ما أنفقت في سبيل الله ، أي : أن ما أنفقت هو ما يبقى لك في عالم الخلود لا يفارقك ولا تفارقه .

وشاء الحق أن يضاعف لك الجزاء والثواب .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول ابن آدم : مالي مالي . . وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت؟ »

إذن : فالذي يحب ماله عليه أن يصحب معه هذا المال لمدة أطول ، وأن يتعدى به مجرد الوجود في الدنيا ، وأن يصل به إلى دار الخلود . ومن يعشق المال – إذا أراد أن يبقيه – فلينفقه في الصدقة .

« ولنا الأسوة الحسنة في رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جاءته شاة كهدية ، فقال للسيدة عائشة رضي الله عنها : » تصدقي بلحمها « . وكانت السيدة عائشة رضوان الله عليها تعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب لحم الكتف ، فتصدقت بلحم الشاة كلها ، وأبقَتْ قطعة من لحم الكتف لرسول الله عليه الصلاة والسلام . وعندما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سألها : ماذا فعلت بلحم الشاة؟ قالت : تصدقت بها كلها وأبقيت كتفها . فقال : » بل قولي أبقيتها كلها إلا كتفها «

وذلك لأن ما تصدقت به السيدة عائشة هو الباقي . وما أبقته لهما هو الذي سيفني . وهكذا سمي رسول الله صلى الله عليه وسلم الأشياء بحقيقة مسمياتها .

فالذي يحب صحبة ماله في الدنيا والآخرة ، عليه أن يقدم بعضاً منه صدقة للفقير والمحتاج ، ليبارك الله له في الدنيا ، ويجزيه خير الثواب في الآخرة . وقد سأل رجل الإمام عليا رضي الله عنه : أريد أن أعرف : هل أنا من أهل الآخرة؟ . قال الإمام علي كرم الله وجهه : الجواب عندك أنت ، لا عندي ، انظر إذا دخل عليك من يعطيك ، ودخل عليك من يطلب منك ، أيهما ترحب به وتقابله ببشاشة؛ أيهما تحب؟ إن كنت تحب من يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة ، وإن كنت تحب من يعطيك فأنت من أهل الدنيا؛ لأن من يأخذ منك يحمل حسناتك إلى الآخرة ، وأما من يعطيك فيزيدك من الدنيا ولا يعطي آخرتك شيئاً .

ونقول للذي يحب المال : اجعل حبك للمال يبقيه لك فترة أطول من عمر الدنيا؛ فالدنيا ليست هي المقاس ، ودنياك قدر عمرك فيها . أما الآخرة فأنت خالد فيها ، فتصدق ببعض مالك يكن

لك خيراً في الآخرة .
ويذيل الحق الآية بقوله : { والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ } أي : أنه سبحانه وتعالى يضع الأشياء في موضعها عن علم وحكمة مصداقاً لقوله تعالى : { أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير } [الملك : 14]
وأما الحكمة فيدير بها الحق سبحانه حياة كل الناس ، وكلهم عبيد لله ، ولا فرق بين غني وفقير .

وشاء الحق أن يجعل التفرقة فقط في الدنيا؛ لأن العالم لا يحتاج إلى أفراد مكررين ، ولا يمكن أن تستقيم الحياة إن كنا كلنا أطباء أو كلنا مهندسين أو كلنا قضاة؛ لذلك شاء سبحانه أن تتوزع المواهب على قدر ضروريات الحياة ، فنبغ كل واحد منا في شيء؛ أنا أتقن شيئاً ولا أعرف الباقي ، وغيري يتقن شيئاً آخر ولا يعرف الباقي . فأكون في حاجة إلى عمل غيري ، وغيري يحتاج عملي ، وبذلك يصير الرباط بيننا رباط حاجة ورباط رزق ، لا رباط تفضل وتطوع .
إذن : فالحكمة اقتضت أن يوزع سبحانه وتعالى المواهب على الخَلق بقدر ما تتطلب الخلافة في الأرض من حركات الحياة؛ فأعطى هذا زاوية من نبوغ ، وأعطى الآخر زاوية أخرى من النبوغ ، ومن مجموع هذه الزوايا يتكون المجتمع ، وسبق أن قلنا : إن مجموع كل إنسان يساوي مجموع الآخر ، ولكن الناس لا تنظر إلا للمال ، ولا يلتفتون إلى ما هو أهم من المال ، كالصحة ، والأخلاق ، وراحة البال ، وسعادة الأولاد وتوفيقهم ، ثم البركة في الرزق وغير ذلك .
إنك لو وضعتَ لكل هذه الأشياء رقماً من عشرة مثلاً؛ تجد أن مجموع كل إنسان في النهاية يتساوى مع مجموع أي إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى . وإن رأى إنسان عاجز غيره ممن يملكون المال ولا يخرجون منه زكاة أو صدقة ، فماذا يكون موقفه؟ لابد أنه سيتمنى زوال النعمة عن هؤلاء . ولكن إن عادت نعمة القادر الغني على من لا نعمة عنده ، فهذا يجعل العاجز الفقير مُحِبّاً لدوام النعمة عند صاحبها؛ لأنه إن حُرِم الغني القوة ، حُرِم العاجز من آثارها؛ ولذلك فعندما يعطي الغني للفقير ، فهو يدعو لَه بالبركة ، وحين يبارك الله في تلك النعمة سيعود على الفقير بعض منها .
وإن لم يأخذ الفقير المحتاج صدقة من الغني ، فقد يأخذها تلصُّصاً بأن يتحايل عليه ليسرقه أو ينهبه ، أو ربما دفعه الحقد والحسد إلى ان يقتله أو يتآمر على قتله .
إذن : فالزكاة في المجتمع تدفع شروراً كثيرة عن صاحبها . وهي ضرورة من ضروريات الحياة .
ولذلك رأيناه القادرين في المجتمعات التي لا ترمن بدين وهم يتطوعون لإقامات المؤسسات الاجتماعية لرعاية غير القادرين لدقع شرور العاجزين عن مجتمعاتهم؛ لذلك تجد في معظم دول العالم من يحاول تخصيص جزء من المال لكفالة العجزة والمتعطلين ليعيشوا حياة الكفاف ، وبذلك يأمن المجتمع شرورهم .

على أن قول الحق سبحانه وتعالى : { إِنَّمَا الصدقات لِلْفُقَرَآءِ والمساكين والعاملين عَلَيْهَا والمؤلفة قُلُوبُهُمْ وَفِي الرقاب والغارمين وَفِي سَبِيلِ الله وابن السبيل } معناه : أن الصدقات قد فرضت لهؤلاء ، والذي فرضها هوالحق سبحانه بقوله : { فَرِيضَةً مِّنَ الله } .
وقد تُفرَض الصدقات من البشر كضريبة اجتماعية ، أو غير ذلك ، لدفع الشرر عن المجتمع ، ولكن هذا لا يحدث إلا بعد أن تقعأحداث جسام يشقى بها مجتمع القادرين من مجتمع العاجزين ، ويخرج من يقول : لكي تأمنوا شرهم لابد أن نعطيهم حاجاتهم حتى يستقيم الأمر .

وهكذا نجد أن تشريعات البشر لا تأتي إلا بعد أن يشقى المجتمع لفترة طويلة من وضع موجود ، ولكن الحق سبحانه وتعالى رحمة منه بخليفته في الأرض جاء بالتشريع من أول الخلق ، بل من قبل الخلق؛ حتى يرتب للإنسان حياة سعيدة خالية من الشقاء . ولذلك شرع الدين ورتَّبَ أحكامه لينزل إلى البشر؛ فيكون منهجاً لهم يحميهم من شرور قاسية قبل أن تقع .
وشاء الحق سبحانه أن يجعل « سورة براءة » فاضحة كاشفة للمنافقين؛ لذلك كان من بين أسمائها : « السورة الحافرة »؛ لأن المنافق ربما يستر كفره ، ويفضح الله هذا الكفر بأن يحفر عليه ليخرجه – ولله المثل الأعلى – فالإنسان يحفر الأرض ليكشف المخبوء فيها ، وهذه السورة ذكرت من صفات المنافقين الكثير .
فقد قال الحق : { وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ائذن لِّي . . . } [التوبة : 49]
وقال عز وجل : { وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ الله . . . } [التوبة : 75]
وقال سبحانه : { وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات . . . } [التوبة : 58]
ولذلك يسمونها « مَنَاهِم التوبة » . وهنا يبين الحق صورة جديدة للمنافقين وتصرفاتهم فيقول : { وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النبي . . . }

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (61)

ونعلم أن الإيذاء لرسول الله صلى الله جاء بعد النبوة ، وكان بعض الكفار يقولون ما حكاه القرآن على ألسنتهم : { اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال : 32]
وهذا دعاء مَنْ لا عقل له ، ولو كانوا يعقلون لقالوا : إن كان هذا الحق من عندك فَاهْدنا يا رب إليه ، أو اجعلنا نؤمن به . ولكنهم من فَرْط حقدهم وضلالهم ، تمنَّوا العذاب على الإيمان بالحق . وهذا يكشف لنا تفاهة عقول الكفار .
وهنا يقول الحق سبحانه :

{ وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النبي } والذين يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم هم السادة ، وهم أصحاب النفوذ الذين يخافون ان يذهب منهج هذا النبي بنفوذهم؛ وثرواتهم؛ وما أخذوه ظلماً من الضعفاء . والضعفاء – كما نعلم – هم أول من دخل إلى دين الإسلام؛ لأنهم أحسوا أن هذا الدين يحميهم من بطش الأغنياء واستغلالهم ونفوذهم . وشاء الحق أن يبدل خوف الضعفاء قوة وأمناً ، وشاء سبحانه أن يضم إلى الإيمان عدداً من الأغنياء؛ ومن رجال القمة مثل : أبي بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وعمر بن الخطاب وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين ، حتى لا يقول أقوياء قريش مثلما قال قوم نوح لنبيهم : { وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا . . . } [هود : 27]

وهكذا كان الإيذاء له صلى الله عليه وسلم بعد الرسالة ، أما قبل الرسالة فكان في نظر الجميع هو : الأمين والصادق والمؤتمن .

ومن العجيب أنهم ، بعد أن نزل الوحي ، كانوا لا يستأمنون أحداً مثلما يستأمنون محمداً صلى الله عليه وسلم . فإذا كان هناك شيء ثمين عند الكافرين المعارضين ، ذهبوا إلى رسول الله ليحفظوا هذه الأشياء الثمينة عنده . وهذا التناقض لا يفسره إلا وثوقهم في أخلاقه صلى الله عليه وسلم . ورغم ذلك كانوا في غيظ وكَمَدٍ؛ لأن القرآن قد نزل عليه . والحق هو القائل ما جاء على ألسنتهم : { وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31]

وهم بذلك قد اعترفوا بألسنتهم بعظمة القرآن ، بعد أن اعترفوا بسلوكهم بأمانة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم اعترضوا على اختيار الحق سبحانه له ، وتمنوا لو كان هذا القرآن قد نزل على أحدهم عظمائهم . ورد الحق سبحانه عليهم : { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياوة الدنيا . . . } [الزخرف : 32]

وفي هذا دعوة لأن يتأدبوا مع الله سبحانه ، فهو لم يوكلهم في اختيار من ينزل عليه رحمته ، ورسالته ، ولكنه سبحانه هو الذي يختار . وهو الذي قسم بين العباد معيشتهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة . وإذا كان لأحد نعمة من مال أو جاه أو مجد ، أو غير ذلك ، فهذا ليس من قدرات البشر أو من ذواتهم ، ولكنه نعمة من الله .

وهنا يقول الحق سبحانه : { وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النبي } إذن : فالإيذاء سببه أنه صلى الله عليه وسلم جاء بدعوة الخير ، ولا يجيء رسول بدعوة الخير إلا إذا كان الشر قد عم المجتمع . وحين يعم الشر في المجتمع فهناك مستفيدون منه ، فإذا أتى رسول الله بالخير أسرع جنود الشر ليؤذوا صاحب رسالة الخير ، إذن : فمن الطبيعي أن يكون للنبي أعداء .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلّ نِبِيّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنس والجن يُوحِي

بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً . . . } [الأنعام : 112]

بل إن كل من يحمل من العلماء رسالة رسول الله ليبلغها إلى الأجيال التالية ، إن لم يكن له أعداء ، أنقض ذلك من حظه في ميراث النبوة ، وكل من له أعداء ويقوم بهداية الناس إلى منهج الله ، نقول له : لا تنزعج ، واطمئن؛ لأن معنى وجود من يعاديك ، أن فيك أثراً من آثار النبوة .

وتمثَّل إيذاء المنافقين له صلى الله عليه وسلم في عدة صور؛ منها قولهم : { وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ } .

وللإنسان – كما نعلم – وسائل إدراك متعددة : فالأذن وسيلة إدراك ، والعين وسيلة إدراك ، والجوارح كلها وسائل إدراك . وكل إنسان له ملكات متعددة ، منها ملكات إدراكية وملكات نفسية ، ولملكات الإدراكية هي التي يدرك بها الأشياء مثل : السمع والبصر والشم والذوق . أما الملكات النفسية فهذه يوصف بها الناس . وعلى سبيل المثال : نحن نسمي الجاسوس عيناً؛ لأنه يتجسس وينقل ما يراه إلى غيره . ونسمي الرجل الذي يسمع كل حدث « أُذُن » ، ونسمي اللص الذي يتعدَّى على ماله غيره صاحب اليد الطويلة وهكذا .

إذن : كل جارحة لها حاسة ، والنظر والسمع والشم واللمس والذوق كلها من وسائل الإدراك الحسية التي تتكون منهالخمائر المعنوية ، ثم تصبح عقائد ، فوسائل الإدراك هذه تتلقى من العالم الحسي ما يعطيه لها من معلومات ، وتخزنها لتتصرف بعد ذلك على أساسها ، وتكون في مجموعها هي ما يعلمه الإنسان؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يمتنُّ على خَلقه ، فيقول : { والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل : 78]

والشكر لا يكون إلا على النعمة ، فكأن وسائل الإدراك هذه مما تسمعه أو تراه ببصرك ، أو تدركه بفؤادك هي من نعم الله التي يجب أن نشكره عليها؛ لأنها أعطتنا العلم الحسي بعد أن كنا لا نعلم شيئاً .

وإذا أطلقَ على الإنسان اسم جارحة من جوارحه ، فاعلم أن هذه الجارحة هي العمدة فيه ، فكأن قول المنافقين وصفاً للرسول { هُوَ أُذُنٌ } هو سَبٌّ للرسول ، وكان الواحد منهم يقول : احذروا أن يبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكشف نفاقهم ويؤذيكم؛ لأن محمداً عليه الصلاة والسلام في رأيهم يُصدِّق كل شي . أرادوا أن يتهموه صلى الله عليه وسلم أنه لا يمحص القول الذي يُنقل إليه ويصدق كل ما يقال له ، كما نقول نحن في العامية « فلان وِدَني » أي : يعطي أذنه لكل ما يقال له .

فيرد عليهم الله : { قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ } ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم يستمع لمنهج السماء ويبلغه للبشر ليهدي أهل الأرض ، إذن : فهو خير للناس كلهم . وحتى إذا أخذنا كلامهم في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصدقهم إن كذبوا عليه ، فهذا خير لهم؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لا

يؤذيهم ، وهو صلى الله عليه وسلم { أُذُنُ خَيْرٍ } لأنه لا يسمع إلا من الله بالوحي . ولذلك قلنا : إن الحكمة من أمية رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أنه لم يستمع من مُسَاو له ، وإنما كان علمه من الله . فإذا كانت الأمية فينا نحن نقيصة؛ فإنها الكمال كله في حق رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ لأنه لم يأخذ إلا من خالقه ، وهو اذن خير؛ لأنه الأذن التي استمعت إلى آخر إرسال ينزل من السماء لهداية الأرض .

فإذا كان المنافقون قد قالوا : { هُوَ أُذُنٌ } فقد قال سبحانه : { قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ } ، وهو خير يعود نفسه على البشرية كلها ، ولكن ليس بالمعنى الذي تعيبونه عليه ، فهو قد يسمع إساءاتكم ، ثم يسمع اعتذاركم فلا يؤذيكم ويعفو عنكم .

وما دام هذا هو سلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلماذا تؤذونه وترهقونه؟

وفي اللغة ما يسمونه « القول بالموجب » ، فإن قال لك واحد شيئاً تصدقه وتقول له : نعم ، ولكن قد تأخذها على مَحْمَل آخر ، فإن كان هناك إنسان يُكثِر الزيارة لإنسان ويقول له : أنا أثقلتُ عليك ، ويرد عليه : أنت أثقلتَ كَاهلي بأياديك ، أي أن أفضالك عليَّ كثيرة . وإن قال لك واحد : « أنا طولت عليك » ، يرد عليه صديقه : لا ، أنت تطولت عليَّ ، أي : أعطيتني نعمة بأنك أسعدتني بمجلسك . إذن : فهو قد وافقه على وما قال ، ولكنه رد عليه بعكس ما قال .

وهم قد عابوا على الرسول أنه أذن ، فكأن أذنه تتحكم في كل تصرفاته ، وإن سمع شيئاً تأثر به . وإن سمع شيئاً ينغصه ينقلب موقفه من النقيض إلى النقيض . وحاولوا أن يدَّعوا أنه يصدق كل ما يسمعه ولا يحتاط تجاه من يبلغه ، وقالوا : إنه صلى الله عليه وسلم { أُذُنٌ } ، وردَّ الحق سبحانه { قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ } وبطبيعة الحال لم يكن قول الحق موافقاً لما قالوه؛ لأن « أُذُن » عندهم غير { أُذُن } التي أقرها الله سبحانه وتعالى .

وقد يقول بعض السطحيين : إن المنافقين قالوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم { هُوَ أُذُنٌ } وهم يقصدون بذلك أنه يسمع ويصدق كل ما يقال له ، وليس من حكمة التمحيص والاختيار . لكن لنلتفت إلى أن الحق قد قال : { أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ } ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسمع إلا من الله ، وما يسمعه من الله أطاعه وطبَّقه ، وما سمعه من الناس؛ عرضه على منهج الله؛ فإن وافق المنهج نفذه ، وإن تعارض مع المنهج رفضه .

إذن : فهو أذن للخير لا يسمع إلا من الله ، ولا يأتي من رسالته إلا الخير لمن اتبعه .

ولكن لماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى : أذن خير للمؤمنين ، وقال : { أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ } ؟؛ لأن خيرية رسول الله قد شملت الجميع ، وتعدَّتْ المؤمنين إلى المنافقين وإلى الكفار . فكان رسول الله صلى الله عليه لا يفضح منافقاً ، إلا إذا فضح الله المنافق بقرآن نزل من السماء .

وعلى سبيل المثال : كان المنافقون يأتون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويعتذرون عن الجهاد في سبيل الله؛ ويطلبون الإذن بالقعود . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم الإذن .
وحين كان المنافقون يأتون إلى الرسول الكريم ويحلفون له كذباً ، كان يصدقهم ، أو على الأرجح لا يفضح كذبهم أمام الناس .
إذن : فالخيرية فيه عليه الصلاة والسلام شملت المنافقين؛ لأن خُلُقَه الكريم أبى أن يفضحهم أمام الناس . أما الكفار فد شملتهم الخيرية أيضاً؛ لأن دعوته لهم إلى الإسلام ، وإصراره صلى الله عليه وسلم على هذه الدعوة ، جعل عدداً من الكفار يسلم ويؤمن ، وأصابهم خير عميم من اعتدائهم لدين الحق . إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى : { قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ } أي : للبشرية كلها .
وهكذا فرق الحق سبحانه وتعالى بين ما يريدونه ، وما يقصده الله جل جلاله . هم قصدوا وصف الرسول أنه أذن سَمَّاعة . والله يقول : إنها أذن خير؛ وهذا ما يسمونه في اللغة – كما قلنا – : « بالقول الموجب » ، أي : أن تتفق مع خصمك فيما قاله ، إلا أنك تحول ما قاله من الشر إلى الخير . والمثال أيضاً فيما يقوله الحق سبحانه وتعالى على ألسنة المنافقين حين قالوا : { لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل . . . } [المنافقون : 8]
كانوا يقصدون أنهم هم الأعز ، أما الأذل فهم المؤمنون . ووافقهم الحق سبحانه وتعالى على ما قالوا؛ نعم سيُخرِج منها الأعزُّ الأذلَّ . ولكنه أراد أن يبين لهم من هو العزيز ومن هو الذليل؛ فقال : { وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ . . . } [المنافقون : 8]
فكأن الحق سبحانه وتعالى يؤكد لهم أن الأعز سيُخرج الأذل ، ولكنهم يحسبون أنفسهم هم الأعزاء؛ فيقول لهم : { وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ } . وهذا ما يسمونه بالقول الموجب ، أي : أن تتفق مع من يقول ، ويقصد أن يوجه كلامه وجهة الشر؛ فتقلب المقصود من الكلام وتوجهه وجهة الخير . وهذا مقصود به هنا أن تزيد من ذلة المخاطب ، فأنت تجعله يعتقد أنك توافقه ، فتنفرج أساريره ويشعر بالسعادة؛ ثم بعد ذلك تنقض ما قاله؛ فيصاب بالذل . تماماً كما يأتي الحارس لسجين يشعر بظمأ شديد ويُلِحُّ في طلب كوب ماء .

فيقول له الحارس : سأحضر لك كوب الماء . وفعلاً يحضر الكوب مليئاً بالماء المثلج ، ويفرح السجين ويظن أنه سينال منه ما يريده ، ولكن ما إن يقرب الحارس الكوب من فم السجين ، حتى يفرغه على الأرض ، فيكون تعذيبه أكبر مما لو رفض منذ البداية إحضار كوب الماء .
وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى أن يزيد ذلة المنافقين ، فوافقهم على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أُذُن » ثم جاء بنقيض ما كانوا يقصدونه فقال :
{ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بالله وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ } وما دام صلى الله عليه وسلم يؤمن بالله فهو يأخذ منهجه من الله سبحانه وتعالى ، ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا

منكم .

إذن : فهناك ثلاثة أدلة على خيرية رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه يؤمن بالله وينفذ منهجه . ثم يؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا . ونلاحظ أن هناك اختلافاً بين قوله تعالى : { يُؤْمِنُ بالله } وبين قوله عز وجل : { وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ } . فبالنسبة للإيمان بالله جاء بالباء في قوله : { بالله } وبالنسبة للمؤمنين جاء باللام في قوله : { لِلْمُؤْمِنِينَ } .

بعض الناس يقولون : إن هذه مترادفات؛ لأن معنى { يُؤْمِنُ بالله } أي : يصدق بوجوده . والمنافقون كفرة بالله ، { وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ } معناها أنه صلى الله عليه وسلم يصدق المؤمنين . أما المنافقون فهو صلى الله عليه وسلم يعرف أنهم كاذبون فلا يصدقهم . ولكنه لا يفضحهم أمام المؤمنين؛ حتى لا يقطع عليهم خط الرجعة إن كانوا ينوون الإيمان فعلاً .

ولو فضحهم صلى الله عليه وسلم أمام المؤمنين لضاعت هيبتهم تماماً . وإن فكر أحدهم في ترك النفاق إلى الإيمان ، لوجد صعوبة شديدة في ذلك؛ لأن أحداً لن يصدقه . ولكن أراد صلى الله عليه وسلم أن يسترهم أمام المؤمنين؛ فجعل باب الإيمان مفتوحاً على مصراعيه؛ لأن صلى الله عليه وسلم إنما جاء رحمة للعالمين ، ولذلك فهو يحرص على أن يبقي باب التوبة وباب الإيمان أمامهم مفتوحاً دائماً مع حفظ كرامتهم .

قول الحق سبحانه وتعالى : { وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ } أي : يصدقهم ، وكلمة الإيمان بالنسبة للناس جاءت في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى حين أعلن السحرة إيمانهم برب موسى وسجدوا؛ قال لهم فرعون : { آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلَّمَكُمُ السحر . . . } [طه : 71]

ومعنى { آمَنتُمْ لَهُ } أي : صدَّقتموه ، ولكن ما هو الفرق بين الباء واللام؟ أنت حين تقول : آمنا بالله . فأنت تعلن أنك قد آمنت بالذات بكل صفات الكمال فيها ، وحين تقول : آمنت للمؤمنين فيما قالوه ، أي صدقتهم لأنهم مؤمنون .

ومادة « آمن » تدور كلها حول الأمن والطمأنينة ، ولكنها تأتي مرة لازمة ومرة متعدية . مثلما تقول : « آمنت الطريق » أي : اطمأننت إلى أنه لن يصيبني فيه شر . ومنها قول يعقوب عليه السلام لبنيه :

{ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَآ أَمِنتُكُمْ على أَخِيهِ مِن قَبْلُ . . . } [يوسف : 64]

أي : أن السابقة هنا أنه آمنهم على يوسف فلم يرعوا الأمانة ، فصار لا يأمنهم على أخي يوسف ، وهذه آمن اللازمة . أما المتعدية فهي التي يتعدد فيها الأمن ، مثل قوله تعالى : { وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ . . . } [قريش : 4]

والخوف متعدد في أشكاله ، فهناك مثلاً خوف من الظلام ، وخوف من العدو ، وخوف من مخاطر الطريق ، إذن : فالأمن هنا شمل أشياء متعددة وقد أدخلهم الحق سبحانه في الأمان

والطمأنينة من أشياء متعددة .

وقوله تعالى : { يُؤْمِنُ بالله } هو إيمان بالذات ، وإيمان بالصفات ، وإيمان بالمنهج ، وإيمات يسع أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها ، فكأن الإيمان هنا قد تعددت جوانبه . أما الإيمان للمؤمنين فهو تصديق لهم وهذا هو الخير الثاني . وقوله سبحانه { وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ } ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم شفيع لهم يوم القيامة ، وقال : « أمتي أمتي » . وهو رحمة لهم في الدنيا؛ لأنه يقودهم إلى الخير الذي يقودهم إلى سعادة الدنيا ثم إلى جنة الآخرة ، ويبعدهم عن الشر والنار؛ فهو صلى الله عليه وسلم رحمة تدفع الضرر وتأتي بالخير ، والرحمة إنما تأتي باتقاء الضرر .

والله سبحانه وتعالى يقول : { شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ . . . } [الإسراء : 82]

الشفاء يعني أن يكون هناك مرض ويشفى الإنسان منه ، والرحمة ألا ياتي المرض ، فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبشر بمنهج إذا اتبعه الناس وآمنوا به؛ كان لهم وقاية فلا يصيبهم شر في الدنيا ولا نار في الآخرة .

ويتساءل بعض الناس : لقد قال الحق سبحانه وتعالى : { وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ } والمنافقون قد آمنوا بألسنتهم فقط فما موقفهم؟ نقول : إن الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنه رحمة فقد احترم كلمة اللسان وصدقهم أمام الناس ، أما الحق سبحانه فينزلهم في جهنم .

ثم يقول سبحانه وتعالى :

{ والذين يُؤْذُونَ رَسُولَ الله لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } .

وإيذاء المنافقين لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن بالمواجهة؛ لأنهم أعلنوا كلمة الإيمان ، وكان الإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافقين في قلوبهم وفيما بينهم في مجالسهم ، ولذلك لم يكن الإيذاء منهم مباشرة قط ، ولكن الآيات بينت أنواع الإيذاء بأنهم يلمزون في الصدقات ، ويقولون : إنه أُذُنُ ، ويحلفون له كذباً ليضللوه ، إلى آخر ما كانوا يفعلون .

ثم يأتي الحق بصورة أخرى من صور المنافقين فيقول سبحانه : { يَحْلِفُونَ بالله لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ . . . }

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62)

ومن العجيب أن سورة التوبة فيها أكبر عدد من لفظ « يحلفون » ، ولم ترد مادة « يحلف » في سورة المائدة إلا مرة واحدة ، وفي سورة النساء مرة ، وفي سورة المجادلة ثلاث مرات ، أما في سورة التوبة فقد جاءت سبع مرات ، وفي سورة القلم جاءت « حلاف » ، حتى إن سورة التوبة سميت « سورة يحلف »؛ لأن فيها أكبر عدد من { يَحْلِفُونَ } في القرآن الكريم .

ويقول الحق سبحانه :

{ يَحْلِفُونَ بالله لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ } وفي هذا إصرار من المنافقين على الحلف كذباً ، وهو ما يوضح

غباءهم وعدم فطنتهم .

وأيضاً يقول الحق : { سَيَحْلِفُونَ بالله لَكُمْ إِذَا انقلبتم إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ . . . } [التوبة : 95]

واستخدام الحق سبحانه وتعالى حرف السين معناه أنهم لم يحلفوا بعد ، ولكنهم سيحلفون بعد فترة ، أي في المستقبل ، أي : أن الآية الكريمة نزلت ولم يحلفوا بعد ، إنما هم سيحلفون بعد نزول الآية الكريمة ، ولو كان عندهم ذرة من ذكاء ما حلفوا ، ولقالوا : إن القرآن قال سنحلف ولكننا لم نحلف . ولكنهم ورغم نزول الآية جاءوا مصدقين للقرآن مثبتين للإيمان وحلفوا . وكلمة « حلف » هي القسم أو اليمين . وحين نتمعن في القرآن نجد أن الحلف لا يطلق إلا على اليمين الكاذبة ، أما القسم فإنه يطلق على اليمين الصادقة واليمين الكاذبة . فمثلاً عندما نقرأ في سورة المائدة : { ذلك كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ . . . } [المائدة : 89]

وما دامت هناك كفارة يمين؛ يكون الحلف كذباً؛ لأن الذي يستوجب الكفارة هو الكذب . وإذا استعرضنا بعد ذلك كل « حلف » في القرآن نجد أنه يقصد بها اليمين الكاذبة؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : { وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ } [القلم : 10]

فالحلف هنا مقصود به القسم الكاذب . ولكن إذا قال الحق سبحانه وتعالى { أَقْسَمُواْ } فقد يكون اليمين صادقاً؛ وقد يكون كاذباً .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { يَحْلِفُونَ بالله لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ } أي : أن هدف الحلف كذباً هو رضاء المؤمنين حتى يطمئنوا للمنافقين ولا يتوقعوا منهم الشر ، ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى بالحقيقة : { والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ } إذن : فهم يحلفون لترضَوْا أنتم عنهم ، أما المؤمن الحق فهو لا يقسم إلا ليرضى الله؛ لأن الإنسان قد يخدع البشر ، وقد يفلت من عدالة الأرض ، ولكنك لا تخدع الله ولا تلفت من عدالته أبداً .

ومن مهام الإيمان أن الإنسان يرعى الله في كل معاملة له مع البشر؛ ويبتغي رضاه ويخاف من غضبه ، ذلك هو المؤمن الحق .

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال : { والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ } وكان القياس اللغوي على حسب كلام البشر أن يقول : والله ورسوله أحق أن ترضوهما . وشاء الحق أن يأتى بها { والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ } ؛ لأن رضا الله ورضا رسوله هو رضا واحد؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يأتي بالقرآن من عنده ، ولكنه وحي من عند الله .

وإرضاء الرسول هو اتباع المنهج الذي فيه رضا الله لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله . . . } [الفتح : 10]

ويقول سبحانه : { قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتبعوني يُحْبِبْكُمُ الله . . . } [آل عمران : 31]

ويقول سبحانه : { مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله . . . } [النساء : 80]
إذن : فلا توجد طاعة لله وطاعة للرسول ، ولا رضا لله ورضا للرسول؛ لأن الرضا منهما رضا واحد .
إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى : { والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ } دليل على اتحاد الرضا من الله ومن رسوله ، فما يُرضي الله يُرضي الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما يُغضب الله يُغضب الرسول .
أو : أن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نتأدب مع ذاته ، في أنه إذا اجتمع أمران لله ولرسوله لا نجعل أحداً مع الله ، وإنما نجعله له سبحانه وهو الواحد . ولذلك فعندما ارتكب رجل ذنباً ، وقالوا له : أعلن توبتك أمام رسول الله ، قال الرجل : إني أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد . فقال له رسول الله : « وقعت على الخير » . انظر إلى عظمة الرسول الكريم الذي يثني على رجل يقول أمامه : إني لا أتوب إلى محمد ، وإنما أتوب إلى الله .
وقول الحق سبحانه : { إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ } أي : إن كان إيمانهم حقيقة ، وليس نفاقاً .
إذن : فنحن لا نطلب الرضا من خلق الله ، ولكن نطلبه من الله . ورضا الله سبحانه وتعالى ورضا المبلّغ عنه رسوله صلى الله عليه وسلم رضا واحد . ولذلك وحَّد الضمير { والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ } ولم يقل يرضوهما .
ثم يقول الحق بعد ذلك : { أَلَمْ يعلموا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ . . . }

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63)

إذا سمعت { أَلَمْ } ، فافهم أن هذا استنكار ، كأن وسائل العلم قد تقدمت ، وكان من الواجب أن تعلم . فإذا قلت لإنسان : ألم تعلم أنه حدث كذا وكذا؟ فمعنى ذلك أنه قد أعلن عن هذا الحدث عدة مرات ، ومع ذلك لم يعلمه . وهذا استنكار لتخلُّف هذا الإنسان عن العلم .
وهنا يستنكر الحق عدم علم المنافقين بقضية أعلنها الله مرات ومرات ، وكان يجب أن يعلموها وألا تزول عن خواطرهم أبداً . وسبق أن قلنا : إن الاستفهام فيه نفي ، والهمزة همزة استفهام . ولم تأت للنفي ، وإذا دخلت همزة الاستفهام على النفي يكون استنكاراً . فإن قلت لإنسان : ألم أكرمك؟ كأنك أكرمته عدة مرات وهو مُنكر لذلك .
وقول الحق سبحانه وتعالى : { أَلَمْ يعلموا } هو إقامة للحجة على أن الحكم قد بلغهم؛ لأنه من الجائز أن يقولوا : إن الحكم لم يبلغنا ، فيوضح لهم الحق : بل بلغكم الحكم وقد أعلمتكم به عدة مرات .
{ أَلَمْ يعلموا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ الله } ما معنى يحادد؟ نجد في الريف أن أهل الريف يضعون علامات من الحديد تفصل بين قطعة أرض وأخرى مجاورة لها ، كعلامة على الشيء الذي يفصل بين حق وحق

ويسمونها حدّاً ، والذين يحادون الله هم الذين يجعلون الله في جانب وهم في جانب ، وبذلك لا يعيشون في معية الله ولا ينعمون بنعمة الإيمان به سبحانه ولا يطبقون منهجه . بل يجعلون حدّاً بينهم وبين ما أمر به الله .

وعندما أراد العلماء تفسير هذه الآية قالوا : { يُحَادِدِ } تعني : يعادي ، وقالوا : بمعنى يشاقق؛ أي : يجعل نفسه في شق والله ورسوله ودينه في شق آخر . أو : يحارب دين الله فيكون هو في وجهة ودين الله في وجهة أخرى . وهناك علاقة بين كلمة « يحارب » وكلمة « حد » ، فحدُّ السيف هو الجزء القاطع منه الذي يفصل أي شيء يقطعه إلى جزءين ، فكأن الذي يحادد هو من يحارب منهج الله ورسوله . فهو لا يكفر بالله فقط ، ولكنه يحمل السلاح ليجعل خلق الله يكفرون أيضاً .

والحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين أن يكونوا دائماً في جانب الإيمان ، وألا يقيموا حدّاً بينهم وبين الإيمان به . والأحكام الشرعية تسمى حدوداً ، أي : أن كل حكم قد وضع ليحدد حدّاً من حدود الله ، تحفظ به الحقوق والأوامر .

ومنهج الله إما أن يكون أوامر ، وإما أن يكون نواهي؛ لأن منهج الدين كلمة في « افعل » و « لاتفعل » ، ويضع الحق سبحانه وتعالى عقاباً لمن يتعدى حدوده سبحانه ، فيقول سبحانه : { تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَقْرَبُوهَا . . . } [البقرة : 187]

ويقول : { تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَعْتَدُوهَا . . . } [البقرة : 229]

ويسأل بعض الناس : ما الفرق بين اللفظين { تَعْتَدُوهَا } و { تَقْرَبُوهَا } .

ونقول إذا كانت هناك أوامر فلا تتعد الأمر ، وإذا كانت هناك نواهٍ فلا تقترب من المنهي عنه .

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى حين نهى آدم وحواء عن الأكل من الشجرة المحرمة لم يقل : لا تأكلا من الشجرة ، بل قال : { فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة . . . } [الأعراف : 19]

وبذلك أباح سبحانه الأكل من كل ثمار الجن ، ولكنه أمر { وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة } لأن القرب من هذه الشجرة إغراء بالمعصية؛ فقد يعجبهما منظر الثمرة . وقد تغريهما رائحتها ، وقد يفتنهما لونها . ولكن عندما لا يقتربان من هذه المغريات كلها فهما يحميان نفسيهما من المعصية .

وعندما تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الخمر قال : { إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه . . . } [المائدة : 90]

والحق لم يقل : لا تشربوا الخمر ، ولكن أمر باجتناب الخمر ، أي : لا تقرب أي مكان فيه خمر؛ لأن وجود الإنسان في مكان فيه خمر قد يوحي إليه بتناولها . وقد يجد من الجالسين من يحاول

إغراء من لا يشرب بأن يتناول ولو جرعة . إذن : فالحق سبحانه يريد أن يبقي النفس المؤمن أن تغرى بالمعصية فتقع فيها .

ويقول سبحانه في أدب الاعتكاف : { وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي المساجد تِلْكَ حُدُودُ الله . . . } [البقرة : 187]

المنهي عنه هو المباشرة ، أي : إن تواجدت الزوجة مع زوجها في المسجد ، فليس في هذا الأمر معصية شرط ألا يباشرها الزوج ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { تِلْكَ حُدُودُ الله } ولم يقل : فلا تفعلوها ، ولكنه قال : { فَلاَ تَقْرَبُوهَا . . . } [البقرة : 187]

إذن : ففيهما نهى الله سبحانه وتعالى عنه؛ مطلوب من المسلم ألا يقرب منه ، أي : لا تكن انت والشيء الذي نهى عنه في مكان واحد ، بل عليك أن تبتعد عن المكان؛ لأن المعصية لها إغراءات ، وما دمت بعيداً عن الإغراءات؛ فأنت تعصم نفسك ، أما إن اقتربت منها فقد تقع فيها .

أما في الأوامر؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى : { فَلاَ تَعْتَدُوهَا } . وعلى سبيل المثال : إن نشأ خلاف بين الزوجين وفشلت كل محاولات الصلح بينهما ، يقول الحق سبحانه : { فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ الله فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افتدت بِهِ تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَعْتَدُوهَا . . . } [البقرة : 229]

إذن : ففي الأوامر يقول الحق : { فَلاَ تَعْتَدُوهَا } ، وفي النواهي يقول سبحانه : { فَلاَ تَقْرَبُوهَا } .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ينذر الحق سبحانه وتعالى الذين يحادون الله ورسوله فيقول :

{ أَلَمْ يعلموا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ الله وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذلك الخزي العظيم } والإنذار هنا يتمثل في أنه يوضح لهم أن ما ينتظرهم ليس هو العذاب الجسدي فقط ، ولكنه عذاب فيه خزي وهوان ، فمثلاً بعض الناس قد يتحمل ويتجلد أمام الألم حتى لا يشمت فيه عدوه؛ لذلك فالعذاب الذي يعدهم الله به في الآخرة ليس أليماً فقط ، ولكن فيه خزي وهوان . ويتمثل الخزي في أن المتكبر في الدنيا يأتي إلى الآخرة ويهان أمام الخلق جميعاً ، ويكفي خزياً أن يكون في النار . والمؤمنون الذين تكبَّر عليهم في الدنيا يعيشون في نعيم الجنة ، وتلك حسرة تصيبه ليس بعدها حسرة .

ثم يفضح الحق سبحانه وتعالى المنافقين فيقول : { يَحْذَرُ المنافقون أَن تُنَزَّلَ . . . }

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (64)

والحذر معناه الاستعداد لدفع خطر أو ضرر متوقع ، وعلى سبيل المثال؛ يقال لمن يسافر في طريق محفوف بالأخطار : خذ حذرك وأنت تسير في هذا الطريق . وهنا قد يصحب المسافر معه رفيقاً ، أو يأخذ معه سلاحاً يدافع به عن نفسه إن قابلته عصابة من قطاع الطرق . إذن : فالحذر هو الإعداد لدفع خطر أو ضرر متوقع .

ولكن إذا كانت السورة تتنزل من عند الله على رسوله فكيف يحذرون ويستعدون لنزول هذه السورة؟

نقول : إن هذا استهزاء بهم؛ لأنهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، ولأن آيات سابقة نزلت تفضح ما يخبئونه في نفوسهم . فهم دائماً خائفون من أن تنزل آية جديدة تفضحهم أمام المسلمين .

الحق سبحانه وتعالى يريدهم أن يعرفوا أنه عليم بما في نفوسهم ، ويخوفهم من أن تنزل آيات تكشفهم ، فهم يخشون أن يخرج ما في بطونهم من كفر يخفونه ، وهو غيب عن المؤمنين . والغيب – كما نعلم – محجوب بزمان ومكان ، وغيب الزمان محجوب بالماضي أو بالمستقبل ، فإن كان هناك حدث قد مضى ولم تشهده ، فهو غيب عنك ما لم تعلمه من كتب التاريخ ، وكذلك إن كان هناك حدث سوف يأتي في المستقبل ، فهو لم يقع بعد ، فهو إذن محجوب بالمستقبل ، أما حجاب المكان فهو حجاب الحاضر ، وعلى سبيل المثال : إن كنا الآن في القاهرة فنحن لا نعلم ما يحدث في الإسكندرية . والله سبحانه وتعالى هتك كل هذه الحجب في القرآن الكريم ، فهتك الحق سبحانه حجاب الماضي في أمثلة كثيرة أخبر بها رسوله صلى الله عليه وسلم ، مثل قوله سبحانه : { وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَآ إلى مُوسَى الأمر وَمَا كنتَ مِنَ الشاهدين } [القصص : 44]

وأيضاً يقول سبحانه : { وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ } [القصص : 45]

فكأن الحق سبحانه وتعالى قد كشف لرسوله من حجب الزمن الماضي ، ما لم يكن يعلمه أحد ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى : { تِلْكَ مِنْ أَنْبَآءِ الغيب نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هذا فاصبر إِنَّ العاقبة لِلْمُتَّقِينَ } [هود : 49]

وكشف الله سبحانه وتعالى – أيضاً – لرسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين حجاب الزمن المستقبل؛ فقال : { سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ . . . } [البقرة : 142]

وهؤلاء السفهاء سمعوا الآية قبل أن يتساءلوا عن تحويل القبلة ، ورغم ذلك تساءلوا عن تحويل قبلة الصلاة . وأيضاً قالوا الحق من أمثلة كشف حجب المستقبل : { سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر } [القمر : 45]

وقد نزلت هذه الآية والمسلمون يلاقون عذاباً شديداً من الكفار ، حتى إن عمر بن الخطاب قال

: أي جمع هذا؟

وعندما حدثت غزوة بدر قال عمر : صدقت ربي : { سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر } .

وكذلك كشف الحق سبحانه وتعالى حجاب المستقبل حين قال :

{ غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ العزيز الرحيم } [الروم : 2-5]

أي : أن الله تبارك وتعالى أعطى نتيجة المعركة بين الروم والفرس قبل أن تحدث بسنوات طويلة ، وحدد الجانب المنتصر وهو الروم ، وكذلك أنبأ سبحانه وتعالى رسوله بما يحدث في أعماق النفس . وما يدور في صدور الخلق ، وساعة ما ينتهك حجاب النفس ، كأنه يوضح لكل إنسان : إن سِرَّك الذاتي مفضوح عند الله ، والمثال على هذا قول الحق سبحانه : { وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ . . . } [المجادلة : 8]

هم قالوا في أنفسهم ، ولو لم يقولوا لعارضوا ما أخبرهم به محمد صلى الله عليه وسلم عمَّا قالوه في أنفسهم وأعلنوا أنه كذب . ولكنهم لم يكذِّبوا رسول الله فيما أبلغ على ظنهم صدق رسول الله .

والمثال هو قول الحق هنا : { يَحْذَرُ المنافقون أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ استهزءوا إِنَّ الله مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ } [التوبة : 64]

وإن كان البعض منهم قد استهزأ قائلاً : لا داعي أن نتكلم حتى لا يُنزل فينا قرآناً ، فالحق يُبلِّغ رسوله أن يرد عليهم : { قُلِ استهزءوا إِنَّ الله مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ } [التوبة : 64] .

وما تحذرون منه أيها المنافقون سيكشفه الله لرسوله وللمؤمنين .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا . . . }

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65)

وإن سألتهم يا رسول الله : ها تناولتم الإسلام بسوء أو عيب في مجالسكم ، فسوف يقولون : كان هذا قد حدث فهو مجرد خوض ولعب ، وكلام مجالس لا قيمة له .

والخوض أن تُدخِلَ نفسك في سائل ، مثل الذي يخوض في الماء أو يخوض في الطينَ ، وقد أطلق على كلِّ خوض ، ثم اقتصر على الخوض في الباطل ، أي : أن المسائلة لم تكن جدية بل كانت مجرد تسلية ولعب .

ويقول الله لرسوله : { قُلْ أبالله وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ } أي : إذا قالوا لك : إن هذا حديث تسلية ولعب؛ فاللعب هو أمر لا فائدة منه إلا قتل الوقت ، أليس عندكم إلا الاستهزاء

بآيات الله ورسوله وأحكام الإسلام تقتلون به الوقت؟ فهل هذه المسائل خوض ولعب؟
ثم يعطيهم الله الحكم : { لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ . . . }

لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (66)

وهل سبق للمنافقين إيمان ثم جاء كفر؟ لا ، ولكن قوله تعالى { قَدْ كَفَرْتُمْ } يعني : أنكم أيها المنافقون قد فضحتم أنفسكم؛ لأنكم كنتم تعلنون الإيمان فقط ، ثم أظهر الحق أن إيمانكم إيمان لسان لا إيمان وجدان .
ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ } انظر إلى رحمة الله ، وكيف أنه – جَلَّ وعلا – لم يوصد باب التوبة أمامهم ، بعد أن كشف ما في نفوسهم ، هنا يعلن له الحق أن الطائفة التي ستتوب توبة صادقة ، والتي لم تشترك في هذا الخوض سيغفر لهم الله . أما الذين بَقَوْا على نفاقهم وإجرامهم – والإجرام هو القطع ، وجرمت الثمرة أي قطعتها ، وسمي إجراماً لأنه قطع حقاً عن باطل – أي الذي قطعوا واقعهم بقلوبهم وسلوكهم عن الإيمان ، فسوف يعذبهم الحق سبحانه .

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (67)

ثم يعود سبحانه وتعالى إلى الأحكام التكليفية ، وعادة تكون الأحكام التكليفية من الله كلها على الذكورة ، وليس فيها على الأنوثة إلا عدد قليل من الآيات مثل قوله تعالى : { ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ . . . } [الحجرات : 11]
وقوله تعالى : { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى . . . } [النحل : 97]
أما باقي الأحكام فتنصبُّ على الذكورة ، وتدخل الإناث في الأحكام لأن الأنوثة مبنية على السِّتْر في الذكورة . ولكنه لا بد هنا من ذكر المنافقين والمنافقات على كل حدة؛ لأن للرجال مجالس ، وللنساء مجالس ، ولكل منهما أفعال وأقوال تختلف عن الآخرين . . ولذلك كان لا بد من النص على المنافقات .
وقوله الحق سبحانه : { بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ } أي : لا يتميز أحد من المنافقين والمنافقات عن الآخر في الخسة والقبح والفضائح ، ويحدد الاله خصالهم في قوله تعالى : { يَأْمُرُونَ بالمنكر وَيَنْهَوْنَ عَنِ المعروف وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ } فهم إن فعل الناس معروفاً ينهونهم عنه ، بل إنهم يشجعونهم على فعل المنكر ، وهم لا ينفقون في سبيل الله إذا طُلِبَ منهم الإنفاق .

ثم يقول الحق سبحانه : { نَسُواْ الله فَنَسِيَهُمْ } وهل يُنْسَى الحق سبحانه وتعالى بالفطرة؟ لا ، ولكن المقصود أنهم نسوا مطلوبات الله وتكاليفه فنساهم الله أي أهملهم ، فمن يبعد عن الله يزده الله بُعْداً ، مصداقاً لقوله تعالى : { فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً . . . } [البقرة : 10] فإن كنت مسروراً من أنك نسيت الله فسيزيدك نسياناً ، ويختم على قلبك فلا يخرج منه الكفر أبداً .

ثم يعطي الحق سبحانه الحكم : { إِنَّ المنافقين هُمُ الْفَاسِقُونَ } وكلمة « منافق » – كما نعرف – مأخوذة من نفقاء اليربوع ، وهو حيوان يشبه الفأر ويسكن في الصحراء ويحفر لنفسه نفقاً في الأرض؛ له بابان ، وإنْ ترصَّد له الصائد عند أحدهما خرج من الثاني ، وهكذا ترى أن المنافق له وجهان . والفسوق معناه الخروج عن منهج الطاعة؛ وهو مأخوذ من « فسق الرطب » أي : انفصلت القشرة عن الثمرة . والقشرة – كما نعلم – مخلوقة لصيانة الثمرة؛ فإذا فسقت عنها تلفت الثمرة . والإنسان إذا فسق خرج عن طاعة الله .

ثم يأتي الله بما أعدَّه للمنافقين فيقول : { وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ والمنافقات . . . }

وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (68)

والوعد للخير والوعيد للشر ، ويقال : « أوعد » في الشر ، وفي بعض الأحيان تستخدم كلمة « وَعَدَ » بدلاً من « أوعد » حتى إذا استمع السامع لها يتوقع خيراً . فإذا جاء الأمر بالعذاب كان ذلك أليماً على النفس . وهذا استهزاء بالمنافقين والكفار ، مثل قوله تعالى : { وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه . . . } [الكهف : 29]

كأن الله أعطاهم وعداً أنهم إن يستغيثوا سيأتيهم الغوث ثم يقلبه عليهم ويجعله ماء يغلي ويشوي وجوههم – والعياذ بالله – ونلحظ أيضاً أن الحق سبحانه قد قدَّم المنافقين والمنافقات على الكفار ، وهذا يؤيده قول الحق سبحانه وتعالى : { إِنَّ المنافقين فِي الدرك الأسفل مِنَ النار وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً } [النساء : 145]

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ والمنافقات والكفار نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ الله وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ }

وهكذا نرى أن المنافقين موقعهم الدرك الأسفل من النار . والكفار موقعهم الدرك الأعلى ، وقد يسأل سائل : كيف يكون ذلك؟

ونقول : إن الكافر بكفره قد أعطانا مناعة؛ فأنه أعلن الكفر فنحن نأخذ حذرنا دائماً منه ، فلا يلحق بنا إلا ضرراً محدوداً ، أما المنافق فهو قد تظاهر بالإيمان فآمناه ، ويستطيع أن يلحق بنا

شرّاً رهيباً؛ لأنه بحكم ما أخذه من أمان منا ، يعرف أسرارنا ومواطن الضعف فينا ، وقد تكون طعنته قاتلة .

والعدو الخفي – كما نعلم – شر من العدو الظاهر؛ لأننا نكون على حذر من العدو الظاهر ، لكننا لا نأخذ الحذر من العدو الخفي ، وهو يعرف ما في نفسي ، ويعرف كل تحركاتي ، ويستطيع أن يغدر بي في أي وقت دون أن أكون منتبهاً لهذا الغدر .

ولذلك إذا أراد قوم أن يكيدوا للإسلام دون أن يسلموا ، فكيدهم يفشل؛ لأنهم وهم على الكفر سيجدون مناعة عند المسلمين من الاستماع إليهم . أما إن احتالوا ودخلوا على الإسلام من داخل المسلمين أنفسهم ، فهم يجنّدون عدداً من ضعاف الإيمان ليطعنوا في هذا الدين ، وتكون طعنات هؤلاء المسلمين بالاسم ، هي القاتلة وهي المؤثرة .

هنا نلاحظ في قول الحق سبحانه وتعالى : { نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا } ولم يقل الحق بالخلود أبداً في النار إلا في ثلاث آيات فقط في القرآن الكريم .

في قوله تعالى : { إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً وَكَانَ ذلك عَلَى الله يَسِيراً } [النساء : 169]

وقوله عز وجل : { إِنَّ الله لَعَنَ الكافرين وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً * خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً لاَّ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً } [الأحزاب : 64–65]

وقوله جل جلاله : { وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً } [الجن : 23]

ولكنه ذكر الخلود في الجنة أبداً مرات كثيرة .

ونقول : إن الجنة هي بُشرى النعيم للمؤمنين . ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يؤنس خلقه بالنعيم الذي ينتظرهم ، ولكن بالنسبة للنار فهي دار عذاب ، وتأبى رحمة الله وهو الخالق الرحيم بعباده ألا يُذكر الخلود في النار متبوعاً بكلمة أبداً في ثلاث آيات؛ حتى لا يظن الكفار أن الله سبحانه وتعالى بقوله : { خَالِدِينَ } دون ذكر الأبدية أنه خلود مؤقت في النار؛ لذلك يُذكّرهم بأنه خلود أبدي .

وفي نفس الوقت تأبى رحمته سبحانه وتعالى أن يكون ذلك في كل آية تُذكَر فيها النار؛ حتى يفتح طريق التوبة والرحمة لكل عاصٍ ، عَلَّه يتوب ويرجع إلى الله .

والحق سبحانه يقول : { فَأَمَّا الذين شَقُواْ فَفِي النار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الذين سُعِدُواْ فَفِي الجنة خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ } [هود : 106–108]

وثار الحديث بين المستشرقين : كيف يقول الحق سبحانه وتعالى عن النار والجنة خالدين فيها أبداً؟ ثم يأتي في هذه الآيات ويستثنى ويقول : { إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ } والاستثناء وارد على المؤمن والكافر؟

ونقول : إن الذين يثيرون هذا الاعتراض لم يفهموا القرآن ولا المنهج ، فالذين سيدخلون النار قسمان : قسم آمن ولكنه عصى وارتكب سيئات؛ فُيعذَّب في النار على قَدْر سيئاته ، ثم يُخرجه الله من النار إلى الجنة لأنه مؤمن ، وقسم آخر كافر أو منافق ، الاثنان يدخلان النار ، ولكن أولهما – وهو المؤمن – يُعذِّب على قَدْر سيئاته . والثاني يبقى خالداً فيها لأنه كفر أو نافق .

إذن : فالمؤمن العاصي لا يخلد في النار؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : { إلا ما شاء ربك } لأنه لن يبقى في النار إلا بقدر سيئاته ، فكأن خلوده في النار من البداية مؤقت وهو لا يبقى خالداً فيها؛ لأن مشيئة الله سبحانه وتعالى تدركه ، فتخرجه من النار إلى الجنة .

أما الكافر والمنافق فهما خالدان في النار لا يخرجان منها ، فكأن هناك من يدخل النار ولا يكون خلوده فيها أبديّاً ، وهذا هو المؤمن العاصي . وهناك من يدخل النار ويخلد فيها أبداً ، وهذا هو الكافر أو المنافق .

وإذا جئنا إلى الجنة ، فهناك من سيدخل فيها خالداً أبداً؛ أي منذ انتهاء الحساب إلى ما لا نهاية . وهذا هو المؤمن الذي غلبت حسناته سيئاته وأدخله الحق الجنة . ولكن هناك من سيدخل الجنة ، ولكن خلوده فيها يكون ناقصاً وهو المؤمن العاصي؛ لأنه يدخل النار أولاً ليجازي بمعاصيه .

إذن : فالمؤمن العاصي خلوده في النار ناقص؛ لأنه لن يبقى فيها أبداً . وكذلك يفتقد الخلود في الجنة فور انتهاء لحظة الحساب؛ لأنه لن يدخل فيها بعد الحساب مباشرة ، بل سيدخل النار أولاً بقدر معاصيه . فقول الحق سبحانه وتعالى : { إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ } ينطبق على عصاة المؤمنين الذين سيأخذون حظهم من العذاب أولاً على قدر سيئاتهم ، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة .

وقول الحق عن خلود المنافقين في النار : { هِيَ حَسْبُهُمْ } أي تكفيهم ، كأن يكون هناك إنسان شرير وأنت تريد أن تؤدبه ، فيأتي إنسان قوي ويقول لك : اتركه لي ، أنا وحدي كفيل أن أؤدبه ، فتقول : هذا حسبه ، أي يكفيه هذا؛ ليتم التأديب المطلوب . كذلك النار ، فسبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنها تكفيهم ، أي : أن ما سيعانونه فيها من ألم وعذاب كافٍ جدّاً لمجازاتهم على ما فعلوه من سيئات .

ثم يقول الحق : { وَلَعَنَهُمُ الله } أي : طردهم من رحمته ومن طاعته فلا يقبل لهم توبة ولا عودة؛ لأن مكان التوبة هو الدنيا . وأما بعد الموت والآخرة ، فلا محل فيهما لتوبة ولا رجوع عن معصية؛ لأن زمان ذلك قد انتهى . لذلك فالعذاب لمن لم يَتُبْ في الدنيا هو عذاب مقيم في

الآخرة .

{ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ } وقد وصف الحق عذاب جهنم مرة بأنه عذاب أليم ، ومرة بأنه عذاب مهين ، ومرة بأنه عذاب مقيم؛ لأنه يريدنا أن نعلم أن كل أنواع العذاب ستصيب أهل جهنم ، فإن كان الإنسان مُتجلِّداً له كبرياء يتحمل الألم الشديد ولا يُظْهِر ما يعاني ، فالعذاب لن يكون أليماً فقط ، ولكنه مهين أيضاً ، والهوان هو إيلام النفس ، وإن كان ذا كبرياء مُتجلِّد فإنه يُجَرُّ على وجهه ويُهَانُ . وبعض الناس قد يتحمل الألم ، ولكن لا يتحمل الإهانة التي تصيبه بعذاب نفسي أكثر من العذاب البدني ، فقد تأتي لكبير قوم وتهينه أمام أتباعه ، أو لأب وتهينه أمام أولاده ، ويكون هذا أكثر إيلاماً لنفسه من أن تضربه .

وقول الحق سبحانه وتعالى : { عَذَابٌ مُّقِيمٌ } أي : عذاب دائم ، فإن كان أليماً يبقى الألم على شدته ولا يخفَّف أبداً ، وإن كان مهيناً تبقى الإهانة مستمرة ولا تزول أبداً . وفي كلتا الحالتين هو عذاب فيه إقامة وفيه دوام واستمرار .

ثم يخاطب الحق سبحانه وتعالى الكفار والمنافقين ، ويقول جل وعلا للخارجين عن منهجه : { كالذين مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ . . . }

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (69)

وهنا يُذكِّرهم سبحانه بمواكب الكفر التي صاحبت الرسل السابقين ، وقد كانت هذه المواكب فيها المنافقون وفيها الكفار ، وسبحانه وتعالى عندما يرسل رسولاً يؤيده ضد أعداء منهج الخير . والحق سبحانه يريدنا أن نتذكر ما حدث للأمم السابقة الذين كانوا أكثر قوة وأكثر أموالاً وأولاداً من أولئك الكفار والمنافقين الذين يواجهون رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولنقرأ قول الحق جل جلاله : { والفجر * وَلَيالٍ عَشْرٍ * والشفع والوتر * والليل إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد * وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد * الذين طَغَوْاْ فِي البلاد * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد } [الفجر : 1-14]

ونحن لم نشهد { إِرَمَ ذَاتِ العماد } التي وصفها الحق سبحانه وتعالى بقوله : { لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد } ، ولكن القرآن أكد لنا أنها وصلت إلى درجة من الحضارة التي لم يصل إليها أحد . وقد يتساءل بعض الناس : أين { إِرَمَ ذَاتِ العماد } من حضارات اليوم؟ . ونقول : إن هناك أسراراً لله في كونه قد أعطاها بعض خلقه ولم يُعْطِها لأحد حتى الآن .

وإذا نظرنا إلى الفراعنة مثلاً نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد وصفهم في القرآن بقوله : { وَفِرْعَوْنَ

ذِى الأوتاد } . والأهرامات أوتاد ، والمسلات أوتاد ، وما زالت علوم حضارة الفراعنة تغيب عن البشر حتى الآن ، فهناك من مظاهر هذه الحضارة ما نعجز عنه حتى الآن ، مثل سير التحنيط وبناء الأهرام؛ فهذه الكتل الحجرية الضخمة التي ارتفعت ويمسك بعضها البعض ، دون أية مواد مثبتة ، وما زال العلم الحديث عاجزاً حتى اليوم عن أن يوجد هرماً مبنيّاً بنفس طريقة قدماء المصريين دون استخدام أي مواد مثبتة ، ومع ذلك فهؤلاء الفراعنة لم يستطيعوا أن يسودوا الكون رغم قوتهم وحضارتهم ، بل أخذهم الله أَخْذَ عزيز مقتدر . وجاءت الرمال فدفنت حضارتهم . ثم شاء الله لنا أن تكشف عن جزء بسيط منها؛ فإذا بهذا الجزء البسيط يبهر الدنيا كلها . وإذا بالعالم كله يأتي ليشاهد حضارة الفراعنة ، ويتعجب من هذا الفن وهذا الرقي في العلم . فإذا كانت هذه هي حضارة آل فرعون ، فما بالك بحضارة إرم ذات العماد التي لم يُخْلَق مثلها في البلاد؟

وهكذا نعلم أن بعض حضارة إرم ذات العماد ما زالت مخفية حتى الآن لا يعلم أحد عنها شيئاً . ومدفونة في باطن الأرض . ولعل الله سبحانه وتعالى قد أبقاها ليكشفها في زمن قادم يزداد فيه بُعْد الناس عن الدين؛ لأن الإنسان كلما تقدم في الحضارة ابتعد عن الإيمان؛ لإحساسه بأنه متمكن في الكون؛ مسيطر عليه؛ حينئذ ربما يكشف الحق سبحانه وتعالى عن حضارة { إِرَمَ ذَاتِ العماد } ليعرف الناس أن ما وصلوا إليه لا يساوي شيئاً مما كشفه الله لهؤلاء القوم .

وإن سأل سائل : أين هي حضارة { إِرَمَ ذَاتِ العماد } ؟ نقول له : إنها في وادي الأحقاف والهبّة الواحدة من الرياح في هذا الوادي تستر قافلة بأكملها؛ أي إذا هبّت ريح ، فإن الرمال لا تداري الطريق وحده؛ ولكنها تداري القافلة كلها ، فكم عاصفة رملية هبّت على المكان الذي كانت تقطنه { إِرَمَ ذَاتِ العماد } فأخفتْ حضارتهم؟ لا بد إذن من حفريات على مستوى عميق جدّاً لنعثر على تلك الحضارة؛ لأننا نعلم ونرى أن كل الكشوف الأثرية تحتاج أن نحفر لها؛ لأن الرمال تتراكم فوق الآثار . بل إننا نرى البيوت القديمة في القرى ، لا بد أن تنزل لها بدرجة أو درجتين لتدخل إليها من الباب؛ لأن العوامل الطبيعية والرصف وغير ذلك تزيد من علو الطريق . فإذا كان هذا هو عمل الرياح العادية في وقت قصير ، فما بالك بالأعاصير في أزمان طويلة؟

وأنت إذا سافرت وأغلقت نوافذ مسكنك إغلاقاً مُحْكماً ، وعُدْتَ بعد شهر واحد تجد الأثاث مغطى بطبقة من التراب ، فإن غبْتَ عاماً وجدت كمية كثيفة من التراب ، هذا بالنسبة لبيت محكم الإغْلاق ، فما بالك بحضارة معرضة لكل هذه الظواهر الطبيعية ، وتُسْتر كل شهر بطبقة جديدة كثيفة من التراب؟

ويقول سبحانه : { كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً } أي : أن حضارتهم أكبر من حضارتنا؛ لأن الحضارة

كلما كانت متقدمة كانت الأمة قوية ، وكلما تأخر شعب حضارياً كان ضعيفاً .
إذن : فالذين من قبلنا كانوا أكثر حضارة وأكثر أموالاً وأولاداً . ولسائل أن يسأل : كيف تكون لهم كثرة أولاد والعالم يزداد عدداً كل عام ، وكيف تكون لهم كثرة أموال ونحن نكشف كنوز الأرض جيلاً بعد جيل؟ نقول : لا تأخذ الكثرة على أنها كثرة عددية ، بل خذها بنسبتها؛ لأنك إذا جئت بمائة شخص ووضعتهم في حجرة ، يقال عنهم : « كثير » . فإذا أخذت كل واحد منهم ووضعتهم في مكان بعيد عن الآخر يكون العدد قليلاً . وكان العالم في الماضي مسكوناً بأماكن محدودة ، بدليل أننا اكتشفنا قارات وأماكن لم يكن يعرفها أحد .
إذن : فالكثرة هنا بالنسبة للحيز ، وهم فس حيزهم الذي يعيشون فيه كانوا كثرة ، وبالأموال التي كانت بين أيديهم بعددهم المحدود كانوا أكثر منكم أموالاً بعددكم الكبير ، أي أن نصيب الفرد كان أكبر ، وكذلك الأولاد .
ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { فاستمتعوا بِخَلاقِهِمْ } والخلاق هو النصيب الذي يصيب الإنسان من أي نعمة ، ويقول سبحانه : { فَمِنَ الناس مَن يَقُولُ رَبَّنَآ آتِنَا فِي الدنيا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلاَقٍ } [البقرة : 200]
أي : ليس له في الآخرة نصيب من نعم الله ، فالذين عملوا للدنيا وحدها ولك يكن في بالهم الله ، يأبى عدل الحق سبحانه وتعالى أن يضيع عليهم نتيجة عملهم ، ولذلك فهو يعطيه لهم في الدنيا ، ولكم من يعمل وفي باله الله يعطيه الله من الدنيا ويُوفِّيه أجره في الآخرة .

ولذلك نجد بعضاً من المؤمنين يسألون : كيف يكون الكفار أحسن حالاً من المؤمنين في الحضارة المادية ، ولماذا يأخذ الكفار من خيرات الأرض ما يكفيهم ويزيد ، لدرجة أنهم في بعض البلاد يُلْقون بالفائض في البحر ، بينما تجد المسلمين يعيشون في حضارة مادية محدودة ، ويستوردون ما يأكلون؟
ولنتذكر الحقيقة الواضحة التي أكررها دائماً لكل مسلم : إياك أن يغيب عنك أن هناك « عطاء للرب » و « عطاء للإله » . فعطاء الرب للجميع؛ لأن الرب هو الذي خلق وربَّى ، وأمدنا بالأقوات ، وسبحانه ليس رب المؤمن فقط . لكنه رب المؤمن والكافر . ولذلك إذا أخذ المؤمن أو الكافر بالأسباب أعطاه الله؛ فالأرض تعطى محصولاً وفيراً لمن يحسن زراعتها وينتقي لها التقاوي ويرعاها ، لا تفرق في ذلك بين مؤمن وكافر ، والكون يعطي كنوزه لمن يبحث عنها ويجتهد ، لا فرق بين مؤمن وكافر ، وهذا عطاء الربوبية .
أما عطاء الألوهية فقد خصَّ الله سبحانه وتعالى به عباده المؤمنين الذين يتبعون منهجه ، هذا عطاء العبادة يجزي به الإنسان في الآخرة ، والذي يأخذ العطاءين هو السعيد ، يأخذ عطاء الربوبية فيستغل أسباب الحياة فيعطيه الله خير الدنيا ، ويأخذ عطاء الألوهية بأن يجعل حياته وفقاً

لمنهج الله ، فيعطيه الله النعيم في الآخرة .
والأسباب في الدنيا لا تفرق بين مؤمن وكافر ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، والمطر ينزل على الطائع والعاصي؛ لأن هذا عطاء ربوبية . من أحسن استخدامه أعطاه بصرف النظر عن الطاعة أو المعصية .
ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً } [الفرقان : 23]
لماذا؟ لأنك عملت للدنيا وحدها . . وكنت تعمل ليقال إنك مخترع أو مكتشف . . أو لتحصل على الأموال والأوسمة . . أو النفوذ والجاه في الدنيا ، ولكنك لم تكن تعمل وفي بالك الله .
وبعض الناس يأتي ليقول لك : هل الذي اكتشف علاجاً لميكروب كان يفتك بالبشر ، أو اكتشف الكهرباء أو اكتشف كذا مما أسعد البشرية كلها ، أيكون هذا كافراً ويُعذَّب في النار؟
نقول له : نعم؛ لأنه فعل هذا وليس في باله الله . . وإنما فعله وفي باله الحصول على المجد أو المال أوالنفوذ في الأرض؛ ولذلك أعطاه الله ، ما عمل من أجله ، فأصبح له ثروة طائلة وتاريخ يدرس في المدارس ، وأعطوه النياشين وأطلقوا اسمه على الشوارع والميادين .
فما دام قد عمل للدنيا فإن الله سبحانه وتعالى يعطيه أجره في الدنيا ، ولكن الذي عمل وفي باله الله يأخذ من الدنيا بالأسباب ، ولكنه يأخذ في الآخرة من المسبب مباشرة؟ فالإنسان قد ارتقى حضارياً ، حتى إنك الآن في بعض الدول المتقدمة تضغط زراً يعطي لك القهوة أو الشاي ، وآخر يعطيك الطعام .

نقول : إن هذا كله متاع الأسباب ، فقبل أن تضغط أنت هذا الزر ، كان هناك بشر أعدّوا لك القهوة أو الطعام ، والآلة أوصلته إليك .
ولكن مهما ارتقى الإنسان تكنولوجيّاً فلن ياتي اليوم الذي يجعل الشيء يخطر ببالك فتجده أمامك . . ولكن في الجنة بمجرد أن يخطر الشيء على بال تجده أمامك؛ لأن عطاء الدنيا عطاء أسباب ، وعطاء الآخرة عطاء مسبب .
فالله سبحانه وتعالى أعطانا الاختيار والأسباب في الدنيا ، ولكن في الآخرة يأتي لك الشيء بلا عمل ، مختلفاً في مذاقه ورائحته عن الدنيا .
إذن : فالذي يعمل وفي باله الأسباب فقط يعطي في الدنيا ، والذي يعمل وفي باله خالق الأسباب يعطي في الحياتين؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : { والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ . . } [النور : 39]
والسراب الذي تمشي له متخيلاً أنه ماء فإنك حين تصل إليه لا تجده شيئاً ، هكذا الكافر يوم القيامة ، يفاجأ بأن الله موجود ، وجد الله سبحانه الذي لم يؤمن به ، ويطلب من الله الأجر فيقال

له : أجرك مما عملت له . وما دمت لم تعمل لله فلا يوجد لك أجر في الآخرة؛ لأن الله هو الذي يجزي في الآخرة .

وهنا يقول الحق سبحانه : { فاستمتعوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ } أي : أنهم أخذوا نصيبهم من الدنيا ، ولكن الآخرة ليس لهم فيها نصيب؛ لأن النصيب في الآخرة يأتي ب « افعل » و « لاتفعل » في التكليف ، فإذا فعلت الاثنين ترتقي ، بدليل أن حضارة المسلمين استمرت ألف سنة حين أخذوا بالأسباب ، ولم ينسوا المسبب . . بل حرسوا الأسباب بقيم المسبب في « افعل » و « لا تفعل »؛ فملكوا الدنيا ألف سنة . ولا توجد حضارة مكثت مثل هذه المدة ، ولئن زالت الحضارة من أمم الإسلام سياسيّاً ، فقد بقي دينهم في نفوسهم ، ولا توجد حضارة عاشت مبادئها بعد زوال الحضارة إلا الإسلام . فقد بقي منارة هادية ، رغم ضعف المسلمين سياسيّاً .

وقول الحق سبحانه : { فاستمتعوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ } أي : خذوا نصيبكم من الدنيا بالأسباب ، ولكن تذكروا أنه استمتاع موقوت بزمن لا يملكه الإنسان؛ لأن عمر الفرد في الدنيا هو بعمر حياته فيها لا بعمر الدنيا نفسها؛ لأن الدنيا لك ولمن يأتي من بعدك . وعمرك فيها له حدود لا تعرف طوله . هل هو شهر أم سنة أم عشر سنين أم مائة عام؟ إذن : عمرك في الدنيا مظنون موقوت ، فعملك لأسباب الدنيا محدودة المدة ، بمقدار عمرك في الدنيا .

وهَبْ أن عمرك طال وصرت من المعمرين فسوف ينتهي حتماً .

ويقول الحق سبحانه : { كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ } أي : أنتم تبعتموه ومشيتم على أثرهم ، وكلما فعلوا إثماً فعلتم إثماً ، وهم خاضوا في الأنبياء ، وأنتم خضتم أيضاً في الأنبياء ، فأنتم شركاء الذين ذهبوا من قبلكم في أنكم أخذتم نصيبكم وحظكم في الدنيا ، ولم تدعوا للآخرة شيئاً . فلكم نصيب فيما فعلوا؛ هذه واحدة . أما الثانية : فقد بدلتم الحق بالباطل . إذن : فأنتم أخذتم المقدمات مثلهم فقادتكم إلى نفس النتائج .

{ أولئك حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدنيا والآخرة } أي : فشلت وضاعت أعمالكم في الدنيا ، كما حبطت أعمال من سبقوكم في الدنيا وكانوا قسمين : قسماً وقف يحارب دعوة الخير حتى قتل ولم يأخذ شيئاً لآخرته فلم يأخذ شيئاً في الآخرة .

فالذين حبطت أعمالهم في الدنيا هم الذين قُتلوا وأسروا وشُردوا وغنمت أموالهم بأيدي المؤمنين ، فكأنهم خسروا الدنيا فلم يأخذوا من متاعها شيئاً ، وأيضاً خسروا الآخرة ، وهذا هو الخسران المبين ، أي الخسران الحيط بطرفي الزمن؛ الدنيا والآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك : { أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الذين مِن . . . }

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70)

وبعد أن ذكر الحق في الآية السابقة القضية العامة في قوله : { كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ } جاء في هذه الآية بالأعلام والأشخاص وهم الرسل ومن عاداهم فقال : { أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِهِمْ } وساعة يقول : { أَلَمْ يَأْتِهِمْ } فهنا همزة الاستفهام ، ولا النفي . والهمزة تنفي هذا النفي ، أي أتاهم نبأ هؤلاء . وحين ينفى النفي في أمر فالمراد إثبات الأمر ، وأنت لا تستفهم الاستفهام الإنكاري ، إلا وأنت واثق من أن الجواب عند من تسأله هو : « نعم » ، فحين تقول لإنسان : أنت تخليت عني في محنتي . فيقول : ألم أزرك في يوم كذا؟ ألم أعطك كذا؟ ألم أصنع مع ابنك كذا؟ فهو واثق أنك لا تستطيع إنكار شيء من هذا لأنه ثابت ثبوتاً حقيقيّاً .

ونلحظ هنا أن الحق جاء بالخطاب للغيبة فقال : { أَلَمْ يَأْتِهِمْ } ولم يقل : « أَلَمْ يَأْتِكمْ » ، فسبحانه يخاطبهم ترقيقاً لهم ، ثم يتكلم عنهم مرة ثانية وكأنهم غائبون . وكأن هذا أيضاً مزيد من حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم في غيبتهم ، فهو صلى الله عليه وسلم حريص على هدايتهم .

{ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِهِمْ } والنبأ : هو الخبر الهام . ونحن لا نقول عن كل خبر : نبأ ، بل نقول عن الخبر الهام فقط إنه نبأ ، والنبأ أصله من النبوة ، والنبوة واضحة ظاهرة وليست مطموسة؛ ولذلك فكل شيء هام ظاهر قد حدث يقال عنه نبأ . وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ النبإِ العظيم * الذي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ } [النبأ : 1-3] ولا يوجد نبأ أعظم من نبأ يوم القيامة .

وقد جاء الحق سبحانه وتعالى بالقضية الأولى التي كان الخطاب فيها مباشراً كقضية عامة ، وجاء بالقضية الثانية التي تكلم فيها عنهم غَيْباً كقضية خاصة .

ثم حدد الحق سبحانه المقصود بالذين من قبلهم ، وهم قوم نوح الذين أغرقهم الله بالطوفان . وكان قوم نوح كلما مروا عليه وهو يصنع السفينة سخروا منه ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى ردّاً على من سخروا من نوح : { إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ } [هود : 38]

أي أنتم يا من تسخرون من نوح عليه السلام جاهلون بالغيب ، ولكن الله أعلم نوحاً وقومه بما يكون ، ولذلك فالسخرية الحقيقية هي من أولئك الذين رفضوا الإيمان ، ولم يعلموا بما أعده الله لهم .

ثم ذكر الحق بعد ذلك عاداً وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين وهم قوم شعيب ، والمؤتفكات أي قوم لوط . ومعنى المؤتفك أي المنقلب . وقد جعل لله عاليها سافلها . ويقول الحق سبحانه :

{ والمؤتفكة أهوى * فَغَشَّاهَا مَا غشى } [النجم : 53-54]
أي : كانت عالية فأنزلها للهاوية . والإفك هو الصرف عن الحقيقة ، كما قالوا لإبراهيم :

{ قالوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين } [الأحقاف : 22]
أي : لتصرفنا عنهم .
ما قصة هؤلاء الأنبياء وأقوامهم؟ يقول الحق سبحانه وتعالى : { أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبينات فَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } أي أن قوم نوح وقوم إبراهيم وغيرهم أتتهم رسالات السماء ولم تأتهم الرسالة كمنهج فقط ، بل جاءتهم معجزات تثبت صدق بلاغ الرسل عن ربهم ، فكأنه لا حجة لهم أن ينصرفوا عن منهج السماء أو أن يكذبوا به؛ لأن كل منهج مُؤيَّد بمعجزة تثبت صدق الرسول في رسالته . وقد تتابع هؤلاء الرسل على البشر ليهدوهم إلى منهج السماء ، ويبينوا لهم طريق الحق . وكان تعدد الرسالات في أول الخلق؛ لأن العالم كان منعزلاً عن بعضه البعض ، حتى إن أقواماً عاشوا على الأرض في زمن واحد وأماكن متفرقة؛ ولم يعلم أحد منهم عن الآخر شيئاً ، ولكن العالم الآن اتصل ببعضه البعض ، بحيث إذا وقعت الحادثة في مكان ، نراها عن طريق الأقمار الصناعية في ثوان ، وربما في نفس الوقت الذي تحدث فيه؛ إن كان الحادث مُعدًّا له مسبقاً ، وقد رأى العالم كله أول إنسان ينزل فوق سطح القمر في نفس اللحظة التي نزل فيها .
وعندما كان العالم يعيش في انعزال ، كانت كل بيئة لها لون من المعصية والفساد ، فكان الرسول يأتي ليحارب هذا اللون من المعصية والفساد الموجود في في بيئة معينة ، ولا يوجد هذا اللون من المعصية والفساد في بيئة أخرى .
ولكن عندما توحد العالم توحدت الداءات؛ فالداء يظهر في أمريكا مثلاً ، وبعد فترة قصيرة جدّاً يظهر في أوروبا أو في مصر . ولذلك كان لا بد أن يأتي رسول واحد؛ لأن الداءات أصبحت واحدة ، واقتضى الأمر وحدة المعالجة؛ لذلك كانت رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالة عامة لكل الأزمان وكل الأمكنة .
وحين يقول سبحانه : { أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبينات } فالبينات هي الشيء الذي يبين لك ما هو الحق ، والمعجزات التي صاحبت الرسالات السماوية بيَّنت وأكَّدتْ أن الرسول مُبلِّغ عن ربه ، وكانت المعجزة واضحة تماماً ليراها كل قوم رؤية تسمح باستيعابها . ولذلك كان كل رسول يأتي بآية يُجمع الكل على أنها معجزة . فأنت قد تأتي بشيء عجيب ، ولكن لا يُجمع الناس على أنها معجزة ، فعندما اختُرع الفانوس السحري ، قال بعض الناس : إنه شيء عجيب . وبعضهم قال : إنه خداع نظر . ولكن معجزات الرسل لا بد أن تستوعبها كل مستويات العقول ، يستوعبها المتعلم والذي لم يقرأ حرفاً في حياته؛ لأن الدين دين فطرة يخاطب أكبر العقول وأكثرها علماً كما

يخاطب عقل البدوي الذي يقضي حياته كلها في الصحراء؛ لا يعرف شيئاً ولم يَعِش حضارة ولم يدرس علماً .

إذن : فالمعجزات لا بد أن تكون واضحة لكل المستويات؛ حتى لا يكون هناك عذر لأحد .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { فَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ } ، وهذا دليل على أن الحق سبحانه وتعالى يحاسبهم على قدر استيعابهم للمعجزة ، فكأن كل العقول قد فهمت وأيقنت أن هناك معجزة . والذين استقبلوا المعجزة بالكفر ظلموا أنفسهم؛ لأنهم بعد أن استوعبوا المعجزة ، وتحققوا أنها خَرْقٌ لقوانين الكون ولا يمكن أن يأتي به إلا الله سبحانه وتعالى ، ولكنهم رغم ذلك رفضوا الإيمان .

ويقول الحق عنهم : { فَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } والظلم أنك تأخذ حقّاً وتنقله إلى الباطل . ولكن الحقوق مختلفة ، فأيُّ حق ذلك الذي نقلته إلى الباطل؟ إنه حق الوجود الأعلى الإيمان به وعبادته .

وكيف يظلم الإنسان نفسه؟ يظلم الإنسان نفسه حين تُزيِّن له النفس شهوة فيرتكبها؛ ليأخذ لذة عاجلة ويحرمها من نعيم دائم . وهناك من يظلم نفسه بظلم غيره ، مثل شاهد الزور؛ هذا الذي ينصر صاحب باطل على صاحب حق . ومن يشهد الزور يسقط حتى في عين ذلك الذي شهد له . فإن جاء ليشهد أمامه في قضية ، فهو لا يقبل شهادته وينظر إليه باحتقار ، وكان يجب على من يطلب من إنسان شهادة زور أن يضربه؛ لأنه يريد أن يسقطه في نظر الناس ، وفي نظر هذا الذي شهد من أجله؛ لأن شاهد الزور حين أعان إنساناً على خَصْمِه ، فالكل ينظر إلى مثل الشاهد بالاحتقار .

ويقول الحق بعد ذلك : { والمؤمنون والمؤمنات . . }

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71)

جاءت هذه الآية بعد آية سابقة وُصِفَ فيها المنافقون في قوله تعالى : { المنافقون والمنافقات بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ . . . } [التوبة : 67]

فناسب أن يقابلهم بالمؤمنين والمؤمنات ، وتلك مناسبة الضد بالضد؛ لأن قياس الضد إلى ضده يُظهر الأمرين معاً . والمثال قول الشاعر حين يمدح محبوبته فيقول :

فالوَجْهُ مثْلُ الصبح مُبيضٌ ... والشَّعْر مثل الليل مُسْودُّ

ضِدَّان لما استجمعا حَسُنَا ... والضِّدُّ يُظهِر حُسْن الضِّدُّ

وبعد أن ذكر الحق فضائح المنافقين ومعايبهم ، وحنثهم فيما يحلفون ، وخلفهم فيها يعاهدون ،

أراد أن يجعل تقابلاً بينهم وبين المؤمنين والمؤمنات . لكن التقابل هنا اختلف في شيء؛ لأنه سبحانه قال في المنافقين :

{ المنافقون والمنافقات بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ } ، وحين تكلم عن المؤمنين قال : { والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ } فالمنافقون والمنافقات وصفهم الحق { بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ } أي أنهم كلهم متشابهون وسلوكهم مبني على التقليد والاتباع ، فهم يقلدون بعضهم بعضاً . وبما أنهم قد أقاموا عقيدتهم على الشر ، فكلهم شر ، ولا يوجد بينهم من ينصحهم بالخير أو يحاول رَدَّهم عن النفاق ، بل هم يمضون في تيار الشر إلى آخر مدى .

أما المؤمن فعقيدته مبنية على الاقتناع وعلى الخير . فإن وُجد في مؤمن شر؛ فَوليُّه من المؤمنين يبعده عن الشر ويعيده إلى طريق الخير؛ ذلك لأن النفس البشرية لها أغيار متعددة ، ولا يسلك كل مؤمن السلوك الملتزم تمام الالتزام بمنهج الله في كل شيء . بل هناك خصلة ضعف في كل نفس بشرية . فإن وُجِدَ في المؤمن ضعف فأولياؤه من المؤمنين يُبيّنون له نقطة ضعفه ويُبصّرونه وينصحون له ، ويُرد في نقطة ضعفه ، والمؤمن أيضاً يُنبّه غيره ويبصّرونه وينصحون له ، ويُرد في نقطة ضعفه ، والمؤمن أيضاً يُنبّه غيره ويبصّره ، وهكذا نجد أنه في المجتمع المؤمن ، كل واحد يرد الآخر في نقطة ضعفه ، والمؤمن أيضاً يُنبّه غيره ويبصّره ، وهكذا نجد أنه في المجمتع المؤمن ، كل واحد يرد الآخر في نقطة ضعفه ، وكل منهم ينصح الآخر ويعظه ، ليكتمل إيمان الجميع ، ومَنْ يقصر في شيء يجد القريب منه؛ وهو يسد الثغرة الطارئة في سلوكه . أما المنافقون فيصفهم الحق { بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ } أي : أنهم جميعاً من بعض ، فلا يتناهَوْنَ عن منكر فعلوه ، ولا يوجد بينهم ناصح .

وقول الحق سبحانه وتعالى : { والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ } لم يبين لنا من المولى ومن المَوَالي ، فكل مؤمن وهو ولي وهو موال؛ لأن الولاية مأخوذة من « يليه » ، أي صار قريباً ، وضدها عاداهُ أي بَعُدَ عنه وتركه . إذن : فالموالاة ضدها العداوة . وفائدة القرب أن يكون الولي نصير أخيه المؤمن في الأمر الذي هو ضعيف فيه .

فإذا كنت ضعيفاً في أمر ما ، فأخي المؤمن ينصرني فيه . وما دام أخي المؤمن ينصرني في أمر ما ، فإن صار هو ضعيفاً في شيء أنصره أنا فيه ، فنتفاعل ونتكامل ويصبح كل منا ولياً ومُوَالَى .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر } [العصر : 1-3]

ولو قيل : « وصَّوْا » لكان هناك أناس يوصون وأناس يتواصون ، لكن الحق قال : { وَتَوَاصَوْاْ } ومعناها أن كل مؤمن عليه أن يوصي أخاه المؤمن . فإن كان عندي نقطة ضعف فأنت توصيني وتقول : اعدل عن هذا ولا تفعله فأنت مؤمن . وإن كانت فيك نقطة ضعف أقول لك : لا

تفعل هذا فأنت مؤمن .

إذن : فكل واحد منا مُوص ومُوصىً . كذلك الولاية فأنت وليي ، أي قريب مني تنصرني في ضعفي ، وأنا وليُّك ، أي قريب منك ، أنصرك في ضعفك لأننا أبناء أغيار؟ وكل واحد منا فيه نقطة ضعف تختلف عن نقطة ضعف الآخر .

والوَلاية تكون أيضاً في الحق ، فقد أميل إلى الباطل في نقطة فيقول لي أخي المؤمن : اعدل . وقد يميل هو إلى الباطل فأقول له : اعدل . وهكذا يتكامل الإيمان ، ولذلك تجد كلمة الوَلاية بمعنى القرب والنصرة في قول الحق في ذاته : { هُنَالِكَ الولاية لِلَّهِ الحق . . . } [الكهف : 44]

أي : أن النصر الحقيقي والقرب الحقيقي لله؛ لأننا نعيش في عالم أغيار ، فقد تطلب النصر عندي فتكون قوتي قد ذهبت ، أو يكون مالي قد فنى ، أو يكون نفوذي قد انتهى ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو وحده القوي دائماً ، والغني دائماً ، الذي يُغيِّر ولا يتغير ، وعندما ينصرك الله فهذا هو النصر الحقيقي الدائم الذي لا نصر الأغيار .

وتجد الحق سبحانه وتعالى يقول : { ألا إِنَّ أَوْلِيَآءَ الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } [يونس : 62]

أي : أن الحق سبحانه وتعالى جعل أولياء لله .

وكذلك يقول تبارك وتعالى : { الله وَلِيُّ الذين آمَنُواْ . . . } [البقرة : 257]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى مرة يكون موالياً . ومرة يكون مُوَالىً ، فإن واليت الله بطاعتك يواليك سبحانه بنصره . ويقول تعالى : { إِن تَنصُرُواْ الله يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } [محمد : 7]

أي : إذا تقربت إلى الطاعة بطاعته ونصرة منهجه ، فهو يقرب منك في أزماتك وينصرك ويُثبِّت أقدامك .

إذن : فالولاية في الأصل هي القرب والتناصر ، وما دام هناك تناصر فلا بد أن تكون هناك نقطة ضعف في مؤمن ، ونقطة قوة في مؤمن آخر ، ولكن مَن الذي سيكون في ضعف دائماً ، أو في قوة دائماً؟ لا أحد . إذن : فكل واحد يَنصر ، وكل واحد يُنصر .

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : { أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ } ولم يعين البعض؛ فكل واحد صالح لأن يكون ناصراً ومنصوراً .

ولكي يتضح المعنى اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياوة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً . . . } [الزخرف : 32]

وشاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل منكم السادة والعبيد ، ويجعل منكم الأغنياء والفقراء ، وذلك في أمور الدنيا ، فإن كنتم تريدون أن تُقسموا أمور الدين ، فاقسموا أولاً معايشكم؛ لأن

الحق سبحانه وتعالى هو الذي قسمها بينكم ، وحياتكم في الدنيا تتبع قوانين الأسباب ، ومن السهل عليكم أن تقسموها بدلاً من أن تأتوا لتقسموا رحمة الله التي هي حق لله سبحانه وتعالى وحده .

ونلاحظ في قول الحق سبحانه وتعالى : { وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ } أن البعض مرفوع والبعض الآخر مرفوع عليه ، وما دامت كلمة { بَعْضٍ } مبهمة ، فإن كلاً منا مرفوع عليه . ولا يوجد واحد من البشر مرفوع على الجميع ، بحيث يكون وحده مجموعة متكاملة من المواهب . ولكن كلاّ منا متميز في ناحية أخرى ، حتى يكون التلاحم في الكون تلاحم ضرورة حياة وليس تفضلاً؛ ولذلك فإن الإنسان المؤمن إذا كان فاعلاً مرفوعاً عليه في شيء فلا بد أن يسأل نفسه : في أي الأشياء أنا مرفوع فيه؟ وفي أي الأشياء الناس أحسن مني؟

ونقول له : أنت تتقن عملاً معيناً ولذلك أنت مرفوع فيه ، ولكن في باقي الأشياء لا تعلم شيئاً ، فأنت مرفوع عليك . إذن : فأنا في الشيء الذي لا أجيده مرفوع عليّ ، وفي الشيء الذي أجيده مرفوع على الناس؛ ولذلك تجد كل واحد في كون الله مرفوعاً مرة ومرفوعاً عليه مرة ، وهذا هو معنى : { وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ } .

ولكن الآفة أننا لا ننظر في الرفعة إلا في مجال واحد؛ هذا غني وهذا فقير ، ولكننا لا ننظر إلى الصحة ، أو العلم ، أو الأولاد ، أو صلاح الزوجة أو البركة في الحياة ، وزوايا كثيرة ، وبعضنا إذا أخذ درجة عالية في زاوية ، فإنه قد يأخذ صفراً في زاوية أخرى . ومجموع كل إنسان في نهاية الأمر يساوي مجموع أي إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى . فإن رأيت واحداً متفوقاً عليك في شيء . فإياك أن تحسده ولكن اسأل نفسك في أي مجال أنت تتفوق عليه ، وستجد هناك مجالات وزوايا أخرى تكون فيها أفضل من غيرك .

إذن : فكل منا مرفوع ومرفوع عليه ، ولا بد أن نفهم أن كل صاحب موهبة يفيد المجتمع بموهبته ، وربما كان نفعه للمجتمع خيراً من نفعه لنفسه . انظر إلى النجار مثلاً يجده يتقن عمل الأبواب والنوافذ للناس ، أما لنفسه فلا يتقنها ، لماذا؟ لأن الباب الذي يصنعه لنفسه هو الباب الوحيد الذي لا يتقاضى عليه أجراً .

ولقد ضربنا مثلاً باليد اليمنى واليد اليسرى ، فعند غالبية الناس تجد أن اليد اليمنى تؤدي الأعمال بسهولة ، واليسرى تزاولها ببطء وتعثر ، فإذا أردت أن تقص أظافر يديك مثلاً ، فأنت تمسك المقص بيمينك وتقص أظافر اليد اليسرى بسهولة ، ثم تمسك المقص بشمالك وتتعثر في قَصِّ أظافر اليد اليمنى .

وهكذا نرى أنه لا يوجد إنسان يستمتع بالمواهب المكتملة . بل هو يتقن شيئاً ولا يتقن أشياء ، ولكن مجموع مواهب كل إنسان ، تساوي مجموع مواهب كل إنسان آخر .

والعدل الإلهي يتدخل هنا ، فنجد – على سبيل المثال – الرجل الغني الذي يأكل خبزاً من الدقيق الأبيض الفاخر ، يم يأتي عليه وقت من الأوقات لا يستطيع أن يأكل إلا الدقيق الأسود أو السّن . وتجد من يسرف في الطعام؛ لا بد أن يأتي عليه وقت ويحرمه الأطباء من الطعام؛ لأنه أخذ منه أكثر من حقه . وتكون صحته في أن يُحرم . والحق سبحانه وتعالى وضع نظاماً كونياً يتساند فيه الجميع؛ لكي يلتحم الجميع . فأنت تحتاج لي فيما أتقنه وأنا أحتاج إليك فيما تتقنه ، وهكذا يتساند الناس ويتكون المجتمع السليم .

ولذلك يقال : الناس بخير ما تباينوا؛ لأنهم لو لم يختلفوا وأصبحوا أصحاب موهبة واحدة أو عمل واحد لفسد الكون ، كأن نكون كلنا قضاة مثلاً ، فمن الذي يعالج المريض؟ ومن الذي يحفر الأرض؟ ومن الذي يحمل الطوب؟ ومن الذي ينظف الطريق؟ إننا لو تشابهنا في الموهبة أو الثراء أو العمل فلن نجد أحداً يقوم بهذه الأعمال؛ لأننا لو كنا كلنا أطباء أو مهندسين أو صيادلة أو قضاة أو مشرعين لما استطعنا أن نعيش ، بل لا بد أن نختلف لأكون أنا محتاجاً لك وأنت محتاج لي . وبذلك يتماسك المجتمع ، وتُقضَى مصالح الكون بسبب الحاجة ، وليس بالتفضل بين الناس .

ويصف الحق سبحانه المؤمنين بأنهم : { يَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر } فإذا فعل مؤمن منكراً؛ جاء أخوه المؤمن فنهاه عنه ، وإذا لم يفعل معروفاً جاء أخوه المؤمن وأمره بالمعروف وكل واحد منا ناهٍ عن منكر ، ومنهي عن منكر .

وأنت لا يمكن أن تأمر بمعروف وأنت تفعل عكسه ، أو أنت بعيد عنه ، فلا يمكن أن تكون في يدك كأس من الخمر؛ ثم تطلب من إنسان آخر يمسك كأس خمر أن يحطم الكأس التي في يده ، لا يمكن إذن أن تنهي عن منكر وأنت تفعله؛ والذي يأمر بمعروف لا بد أن يكون فاعله ، والذي ينهى عن المنكر لا بد أن يكون بعيداً عنه . فكل مؤمن آمر ومأمور بالمعروف . وناهٍ عن المنكر .

ويضيف الحق وصفاً للمؤمنين : { وَيُقِيمُونَ الصلاوة وَيُؤْتُونَ الزكاوة } وإقامة الصلاة هي إعلان الولاء للخالق الأعلى ، ومن له ديمومة لا نهاية لها . والمؤمنون أولياء بعض ، ولكن مَنْ وليُّهم جميعاً؟ إنه الله سبحانه وتعالى ، ولا بد أن يلتحموا بمنهج الولي الأعلى الذي لا نستغني عنه يوماً .

والله سبحانه وتعالى حين وصف المؤمنين أولياء بعض ، قال لنا : { إِن تَنصُرُواْ الله يَنصُرْكُمْ . . . } [محمد : 7]

إذن : فلا بد أن نتجه جميعاً إلى الوالي الكبير . فهو سبحانه فوق أسبابنا ، وفوق قوتنا وهو الذي ينصرنا إنْ عزَّتْ ولاية الأفراد المؤمنين لبعضهم البعض ، فنلجأ للولي الكبير . وما دامت الولاية لله الحق ، فلا بد أن نستديم في ولائنا له سبحانه وتعالى .

واستدامة الولاء لا تكون إلا بالصلاة . وساعة تسمع المؤذن يقول : « الله أكبر » تسرع إلى الصلاة . لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى – وهو ربك وصانعك ووليك – قد دعاك إلى الصلاة ، فلا بد أن تجيب الدعوة .

فإذا أحببت أن تزيد على الصلوات الخمس وتكون في معية الله دائماً فافعل ، بعد أن تكون قد أدَّيْتَ ما فرضه سبحانه عليك من خمس صلوات في اليوم الواحد ، وحين تُعْرَض الصنعة على صانعها خمس مرات كل يوم ففي هذا صلاح الإنسان . وأنت إنْ جئتَ بأي آلة وجعلتَ المهندس الذي صنعها يراها كل يوم خمس مرات فلن تعطب أبداً .

كذلك الإنسان وهو صنعة الله ، إذا عرض نفسه على الله خمس مرات كل يوم فإن العطب لا يدخل إلى نفسه . والصانع من البشر حين تعرض عليه الآلة فيصلحها بماديات ، سواء كان باكتشاف نقص في الوصلات الكهربية أو كسر في أي شيء ، فالمادة تصلح بالمادة ، ولكن الله سبحانه غيب ، ولذلك فهو يصلحنا بالغيب ، فلا تعرف ماذا فعل بك وأنت واقف أمامه تصلي . لكنك تشعر بلا شك أن شيئاً فيك قد انصلح .

ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر – أي كان هذا الأمر فوق طاقته – قام إلى الصلاة؛ لأن أسبابه لم تستطع أن تفعل شيئاً فيتجه إلى المسبب ، ويقف بين يديه؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الذي يملك الحل . ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يقول لبلال : أرحنا بها يا بلال كأن الراحة بها ، أي اجعل ملكاتنا تعتدل بالصلاة .

لذلك كان لا بد أن يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَيُقِيمُونَ الصلاوة } لأن الصلاة استدامة الولاء لله ، والحق تبارك وتعالى يريدنا أن نكون موصولين به سبحانه ، وهذه الصلة تتم بالصلاة فرضاً خمس مرات في اليوم ، وترك سبحانه الباب مفتوحاً لتطوعك ، فلا تترك ساعة تستطيع أن تكون فيها بين يدي الله إلا فعلت .

ولكي تعرف الفرق بين سيادة الله وسيادة البشر ، فإنك إذا ضعفت أِسبابك أمام شيء ، فإنك تطلب أن تقابل من هو أعلى منك مركزاً ، فهو يملك أسباباً لقضاء حاجتك ، فإذا طلبت مقابلته قد يقول نعم ، وقد يقول لا . . فإذا قال نعم ، يسألك عم ستتكلم فيه . . فإذا قلت : إنك ستتكلم في كذا ، حدد لك الساعة واليوم والمكان ومدة المقابلة .

ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يفعل هذا . أنت تذهب له في أي وقت تشاء ، وفي أي مكان تشاء ، وتتكلم فيما تريد ، وهو سبحانه لا ينهي المقابلة أبداً ، أنت الذي تنهي المقابلة مع ربك .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يمل الله حتى تملوا » .

والحق جل جلاله لا يشغله شيء عن شيء؛ ولذلك فهو يقابل كل عباده في وقت واحد ، ويستمع إليهم في وقت واحد ، ويُجيبهم إلى ما يطلبون في وقت واحد .

ويقول سبحانه : { وَيُقِيمُونَ الصلاوة وَيُؤْتُونَ الزكاوة } والصلاة تأتي مع الزكاة باستمرار؛ لأن في الصلاة استدامة ولاء لله المعطي ، وفي الزكاة استبقاء حياة من يستحق أن تعطيه ، فأنت تعطيه لتستبقي له حياته فيواصل الولاء لله معك؛ لأنه لا ولاء إلا بحياة ، وأنت تساعده على استبقاء هذه الحياة؛ ولأن الزكاة إعطاء مال للفقير ، والمال يأتي بالعمل ، والعمل يحتاج إلى وقت ، إذن : فأنت ضحيت بجزء من وقتك لتتصدق به ، وفي الصلاة ضحيت بوقتك في أوقات محددة .

وفي الأوقات التي تعمل فيها هناك استدامة الولاء ، بأن تخصص جزءاً من أثر هذا الوقت للزكاة ، فلا يكون كل وقتك للعمل ، وإنما يكون وقتك فيه عمل وفيه عبادة ، فحين تخصص جزءاً من مالك الذي سيأتيك من العمل للزكاة تكون قد زكَّيت الوقت بالصلان ، وزكيت المال بالعطاء .

ويقول الحق : { وَيُقِيمُونَ الصلاوة وَيُؤْتُونَ الزكاوة وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ } . وقد ذكر الحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . وهذه كلها طاعة لله بإقامة أركان الإسلام ، فلماذا يقول سبحانه : { وَيُطِيعُونَ الله } ؟

نقول : الله سبحانه ينبهنا إلى أن أركان الإسلام الخمسة وهي : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليع سبيلاً ، هذه الأركان ليست هي كل الإسلام . بل هي القواعد التي بُني عليها الإسلام؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بني الإسلام على خمس » . إذن : فهذه هي الأعمدة أو الأسس التي بُني عليها الإسلام . ولكن الإسلام هو كل حركة في الحياة تصلح ولا تفسد ، وتسعد ولا تشقي ، ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن نفهم أن الإسلام ليس فقط بالأسس التي وضعت ، ولكن لا بد من طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فيما أمرنا به في كل حركة الحياة .

وحركات الحياة كلها متكاملة ، وإذا نظرت للشيء الذي تستفيد به تجده وليد حركات متعاقبة ممن سبقوك حتى آدم عليه السلام ، فإذا أخذنا أبسط الأشياء وهي وضع خميرة في عجينة الخبز؛ وكيف عرفنا هذا؟ نجد أننا أخذناها جيلاً عن جيل . والذي بدأها ألهمه الله بحادث يقع أو بخطأ يتم إلى أن وصل إلى قيمة وضع الخميرة في العجين ليكسب الخبز طعماً ، ومعظم مبتكرات الحياة قد أتت بالصدفة أو نتيجة أخطاء . فالبنسلين – على سبيل المثال – اكتُشِف نتيجة خطأ .

وقاعدة أرشميدس التي بنيت عليها نظريات الغواصات اكتشفت نتيجة ملاحظة ألهمها الله لأرشميدس . وحين يأتي ميلاد كشف جديد للبشرية ، فسبحانه يهدي خلقه إلى هذا الكشف ولو كان بخطأ يقع منهم .

ومثال آخر : ما الذي جعلك تفهم أن اللحم حين ينضج على النار أو يُشوى يكون طعمه أحلى؟ ما الذي جعلك تطهو بعض أنواع الخضراوات ولا تطهو أنواعاً أخرى .

كل هذا هدانا إليه الله .

{ الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى } [الأعلى : 2-3]

إذن : فكل ما ننتفع به في حركة الحياة ، قد أتانا من أجيال مضت؛ ولذلك من يأتي ليقول : سأنقطع للعبادة صلاة وصوماً؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز : { وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات : 56]

نقول : سنوافقك على انقطاعك للصلاة والصوم فقط . ولكنك لكي تصلي؛ أنت تحتاج إلى طعام يعطيك القوة والقدرة لتصلي وإلا فسيستحيل عيلك أداء الصلاة . هَبْ أنك ستأكل رغيفاً من الخبز فقط ، من أين تأتي بهذا الرغيف؟ من البقال . ومن أين أتى به البقال؟ من المخبز . ومن أين جاء المخبز بالدقيق؟ من المطحن . ومن أين جاء المطحن بالقمح؟ من مخزن الغلال . ومن أين جاء المخزن بالقمح؟ من المزارع . والمزارع أتى بمحاريث وآلات من المصانع لكي يحرث الأرض ، وجاء بآلات لكي يسقي .

إذن : فأنت لا تستطيع الانقطاع للعبادة إلا إذا استنفدْتَ بحركة غيرك ، وكل عمل ذكرت فيه الله هو عبادة ، وكل حركة في الحياة تعينك على أداء العبادة هي عبادة .

ومثال آخر : لكي تصلي لا بد أن تستر عورتك في الصلاة ، إذن : فأنت تحتاج إلى قماش تأتي به من التاجر ، والتاجر أتى به من مصنع النسيج ، ومصنع النسيج أتى به من مصنع الغزل ، ومصنع الغزل أتى بالقطن من المحلج ، والمحلج جاء به من الحقل ، والحقل جُنِّدَتْ له معامل الدنيا ليعطيك أوفر محصول ، ويقي القطن مكن الآفات . كل هذه من حركات الحياة التي مكَّنتْكَ أن تستر عورتك في الصلاة ، وكل منها عبادة .

إذن : كان من الضروري أن يقول { وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ } . بعد { وَيُقِيمُونَ الصلاوة وَيُؤْتُونَ الزكاوة } . . . فبعد أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة عليهم أن يطيعوا الله في الإسلام الذي بني على هذه الأركان .

ثم يقول الحق : { أولئك سَيَرْحَمُهُمُ الله } وأولئك إشارة إلى كل المؤمنين والمؤمنات الذين هم أولياء بعض ، والذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ، والذين يؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، هؤلاء سيرحمهم الله . وأيهما أبلغ : أن يقال أولئك يرحمهم الله ، أو يقال سيرحمهم الله؟

الأبلغ أن يقال : { سَيَرْحَمُهُمُ الله } لأن السين تهتك ستار الزمن؛ وبذلك يحيا المؤمن دائماً في رحمة الله التي لا تنقطع .

ولذلك حكى الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين الذين يعملون الصالحات فقال : { سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً } [مريم : 96]

أي أن الود سيكون مستمرّاً ، حتى لمن استمع إلى هذه الآية ثم مات ، إنه أيضاً ينتفع بود الله .

وأيضاً قال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم : { وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى } [الضحى : 5]

ولم يقل : يعطيك ربك ، بل جاء ب { وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ } لترى عطاء الحق مستمرّاً .

وأنت حين تهدد أحداً لا تقل له : أنا أنتقم منك ، بل تقول : سأنتقم منك ، أي : أن الانتقام سيستمر مع الزمن .

وقول الحق سبحانه وتعالى : { سَيَرْحَمُهُمُ الله } تعطي أن صفة الرحمة في حق الله سبحانه أعلى من صفة الرحمة في المخلوق؛ لأن التراحم من الخلق على قدر الأسباب ، أما الرحمة من الحق سبحانه فتكون بصفات الكمال التي لا تتناهى ولا تنتهي . ومن الرحمة ألا يقع داء ، والشفاء أن يوجد داء فيشفى؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ . . . } [الإسراء : 82]

والاثنان يؤديان إلى سلامة المجتمع من الأمراض الاجتماعية التي تُشْقي الإنسان ، وهناك سلامة من أول الأمر . وهناك سلامة ليست من أول الأمر . ومن عنده خصلة سيئة – وهي داء – يشفيه منها القرآن ، أما الرحمة فهي ألا يأتي داء ابتداء ، ولذلك فالرحمة ممتدة .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ } ومعنى عزيز : أنه غالب على أمره ، وما يريده يقع؛ ولا يُغلب . ولكن إياك أن تفهم أن ذلك عن جبروت ظالم ، لا؛ لأنه سبحانه لا يظلم أحداً ، ولأنه عزيز بحكمة . وهناك عزيز بلا حكمة ، تغريه عزته أن يطغى . لكن الله عزيز حكيم ، وعزته ليس فيها ظلم ولا طغيان ، ولكنها بحكمة إلهية .

ويأتي بعد ذلك وعد الله للمؤمنين والمؤمنات بالجزاء والنعيم في الآخرة ، فيقول الله سبحانه وتعالى : { وَعَدَ الله المؤمنين . . . }

وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72)

والوعد : بشارة بخير يأتي زمانه بعد الكلام . والوعيد : إنذار بسوء يأتي بعد الكلام

الوعد يشجع السامع على أن يبذل جهده ويعمل؛ حتى يتحقق له الخير الذي وُعِد به . والوعيد يعطي السامع فرصة أن يمتنع عما يغضب الله فلا يناله عذاب الله .

على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال :

{ وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ والمنافقات } ثم ذكر العذاب الذي ينتظرهم ، وبعد ذلك قال :

{ وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات } ثم وصف النعيم الذي ينتظرهم ، مع أن الشائع في اللغة أن الوعد يكون بالخير والوعيد يكون بالشر ، فكان من المناسب في عرف البشر أن يقول الحق

سبحانه وتعالى : « أوعد الله المنافقين »؛ لأن الذي سيأتي بعد ذلك عذاب ونار وشر ، وأن يقول في المؤمنين : وَعَدَ اللهُ لأن الذي سيأتي بعد ذلك جنة ونعيم وخير .

ولكن الأسلوب جاء مخالفاً للعرف البشري ، فجاء بكلمة « وعد » ، وهي تقال دائماً للخير في حديثه سبحانه وتعالى عن المنافقين والمؤمنين ، واستخدام وعد بالنسبة للمؤمنين والمؤمنات موافق للنطق البشري؛ لأنه وعد بخير .

ولكن بالنسبة للمنافقين فقد جاء الحق سبحانه وتعالى بكلمة « وعد » مكان « أوعد » .

فالذي يتكلم هنا هو الحق سبحانه ، فلا تَقِسْ كلام الله على كلام البشر؛ لأن البشر يفوتهم في كلامهم ملاحظَ ، ولكنها لا تفوت ولا تخفى على الله ، والبشر يتفاوتون في الأداء وأساليبه ولكن الحق أسلوبه واحد .

فلماذا جاء سبحانه – إذن – بكلمة « وعد » بدلاً من « أوعد »؟ نقول : إن الحق سبحانه وتعالى بعد أن عرَّف المنافقين والمنافقات ، ثم تكلم عن جزائهم إن إصرُّوا على نفاقهم ، كان ذلك تحذيراً حتى لا يصروا على النفاق مخافة العذاب الذي ينتظرهم؛ عَلَّهم يقلعون عن النفاق وينصرفون إلى الخير من الإيمان .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى حين حذرهم بالوعيد نصحهم ، كما تقول لمن يهمل في دروسه : سترسب إذا أهمات دروسك . فتكون بذلك قد خدمت إقباله على المذاكرة . أوصلته بالوعيد إلى أن يتجنب الأمر الذي أوعد به؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : { يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 35–36]

هل الشواظ من النار نعمة حتى يقول الحق سبحانه وتعالى : { فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } أي : فبأي نعم ربك تكذب؟ نقول : نعم إنه نعمة؛ لأن الحق سبحانه وتعالى حين يوضح لك : إن خالفت هذا فستذهب إلى النار ، يكون قد قدم لك العظة والنصيحة ، والعظة والنصيحة نعمة؛ لأنه يجعلك تتجنب طريق النار وتختار طريق الجنة .

إذن : فحين يحذر الله المنافقين والمنافقات بالمصير الذي ينتظرهم ، يكون هذا خيراً ونعمة؛ لأنهم إذا اتعظوا وأقلعوا عن النفاق إلى الإيمان فهم ينجون أنفسهم من عذاب النار ، وفي هذا خير عميم .

ولذلك استخدم الحق سبحانه وتعالى كلمة « وعد » ولم يستخدم « أوعد » ، وتكون الكلمة مؤدية للمعنى الذي أراده الله .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات } والوعد كما قلنا بشارة بخير مستقبلي ، والوعيد إنذار بشرٍّ يأتي في المستقبل ، والوعد والإيعاد هما ميزان الوجو دنيا وآخرة؛ لأنك إن وعدت من يلتزم بمنهج الله خيراً ، استحسن الناس جميعاً أن يصلوا إلى الخير باتباعهم

المنهج ، وإن أوعدتهم بشر إن خالفوا منهج الله؛ نفر الناس من المخالفة والمعصية خوفاً من العذاب وتجنبوا الشر . فإن صدق وعدك لأهل الخير بالخير ، وصدق وعيدك لأهل الشر بالشر؛ استقام ميزان الحياة .

ولذلك نقول للذي يذاكر : إنك ستنجح ، فإن أتقنت المذاكرة حصلت على المجموع الذي يؤهلك لدخول الكلية التي تختارها ، وإن أهملت دروسك رسبت وفُصِلْتَ من التعليم وضاع مستقبلك . هنا وعد ووعيد . إن وفَّيْتَ ما وعدت ووقيت ما توعدت ، استقام ميزان الحياة . ولكن إذا جئت لإنسان لم يذاكر وأنجحته وأعطيته أعلى الدرجات مخالفاً بذلك وعيدك له ، فأنت تهدم قضية كونية يترتب عليها مصالح الخلق كلهم .

وإن وعدت من يحصل على 90% مثلاً أنه سيدخل كلية الطب ، ثم أخلفت وعدك فدخل كلية الطب من حصل على 70% واستُبعِدَ الحاصل على 90% بسبب تدخل الأهواء تكون أيضاً قد اعتديت على حركة الحياة كلها وتفسد قضية العمل الجاد في حركة الحياة ، وكل من لا يملك القدرة على تنفيذ ما وعد به أو أوعد به ، لا يكون لكلامه وزن في حركة الحياة .

على أنه إذا كان الوعد والوعيد من الحق سبحانه وتعالى فإنه مختلف مع منطق البشر؛ لأننا أهل أغيار ، فقد أعد بخير لا استطيع تنفيذه ، وقد أعد بعقاب ثم أضعف بسبب ظروف معينة فلا أقوى على التنفيذ . إذن : فلكي تستقيم حركة الحياة ، لا بد أن يأتي الوعد والوعيد من القادر دائماً ، القوي دائماً ، الموجود دائماً؛ صاحب الكلمة العليا بحيث لا يوجد شيء يمكن أن يجعله لا يفي بوعده أو لا يُتِمُّ وعيده ، فإذا قرأت سورة المسد تجد الحق سبحانه يقول فيها : { تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سيصلى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وامرأته حَمَّالَةَ الحطب * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ } [المسد : 1-5]

وقد حكم الله سبحانه وتعالى في هذه السورة الكريمة؛ بأن أبا لهب وامرأته سيموتان كافرين وسيدخلان النار ، ولكن كثيراً ممن كانوا كفاراً وقت نزول هذه السورة مثل : خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبي جهل ، وعمرو بن العاص وغيرهم؛ آمنوا وحَسُنَ إسلامهم وجاهدوا في سبيل الله ، فلماذا حكم رسول الله بأن أبا لهب وامرأته لن يؤمنا كما آمن عمرو ، وكما آمن عكرمة ، وكما آمن خالد بن الوليد وغيرهم؟ نقول : إن هذا ليس حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه الحق سبحانه وتعالى ، وإذا حكم الله فإياك أن تشُكَّ في هذا الحكم؛ لأنه لا إله إلا الله وهو على كل شيء قدير .

لذلك جاءت هذه السورة ، وبعدها في المصحف الشريف في سورة الإخلاص : { قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ * الله الصمد } [الإخلاص : 1-2]

وما دام الله أحداً فأمره نافذ حتى في الأمور الاختيارية في الحياة ، فإذا قال الله : { لاَّ مُبَدِّلِ

لِكَلِمَاتِهِ } . وإذا وعد بخير فإنه سيأتي لا محالة ، وإذا أوعد بشرّ فسوف يقع حتماً .
إذن : فلكي تستقيم موازين الحياة ، كان لا بد أن يأتي الوعد والوعيد من الحق سبحانه وتعالى حتى نكون على يقين بأنه سيحدث؛ لأنه لا أحد يشارك الله في مُلْكه ، ولا يوجد قوي إلا الله ، ولا غالب إلا الله؛ لأنه هو الله أحد .
وقد يأتي الحق سبحانه وتعالى بسنة كونية واقعة ، فأنت حين تزرع الأرض وتُحسن حَرْثها ، وريّها ووضع البذور فيها يأتيك المحصول بخير عميم . وإذا أهملت الأرض وتركتها بلا حرث ولا زرع ولا بذور فهي لا تعطيك شيئاً .
إذن : فالسُّنة الكونية هنا أعطت وعداً للذي يجدُّ في زراعة أرضه بالمحصول الوفير ، وأعطتْ وعيداً للذي لا يُقبل على زراعة أرضه بأنه لا يحصل على ثمرة واحدة منها . ولو اختلف الأمر ووجدنا من زرع وحرث وسقي لم يحصل على الثمار ، ومن لم يزرع ولم يفعل شيئاً أعطته الأرض من ثمارها الكثير ، لانقلبت المعايير في الكون ، وما وجدنا أحداً يزرع أرضه .
إذن : فلكي تستقيم سنة الحياة ، إما أن يكون الوعد والوعيد من قادر على التنفيذ لا يضعف ولا يتغير . وإما أن يكون بسنة كونية نراها أمامنا في كل يوم ولا يقع ما هو مخالف لها . فالذي يجتهد ينجح ، والذي لا يذاكر يرسب . سُنة كونية . لو صدقت مع الواقع يعتدل ميزان الحياة . ولو لم تصدق مع الواقع وتدخلت الأهواء لتجعل من لا يذاكر يرسب؛ اختلف حركة الحياة المثمرة الناجحة .
إذن : فميزان الوعد والوعيد هو دولاب حركة الحياة ، فإن اختل هذا الميزان وجاء الوعد مكان الوعيد؛ أي كوفئ الذي لا يعمل وعوقب الذي يعمل فسد الكون . لماذا؟ لأن كل إنسان يجب النفع لنفسه ، ولا يختلف في ذلك مؤمن أو عاصٍ أو كافر ، ولكن العاصي والكافر يحبان نفسيهما حبّاً أحمق؛ فيحققان لها نفعاً قليلاً زمنه محدود؛ بعذاب مستمر زمنه بلا حدود . أما المؤمن فهو إنسان يمتاز بالذكاء وبُعْد النظر؛ لذلك فهو حرم نفسه من متعة عاجلة في زمن محدود ، ليحقق لها متعة أكبر في زمن لا ينتهي .
ولقد ضربنا مثلاً لذلك – ولله المثل الأعلى – فقلنا : هَبْ أن هناك أخوين : أحدهما يستيقظ من النوم مبكراً ، فيصلي ويفطر ويأخذ كتبه ويذهب إلى المدرسة ، ويحسن الإنصات للمدرسين ويعود إلى البيت ليذاكر دروسه .

والآخر يظل نائماً يتمتع بالنوم ، ويقوم عند الضحى ، فيخرج ليتسكع في الشوارع ، وحين تُحدّثه نفسه بأي متعة فهو يحققها بصرف النظر عن منهج الله وقيم الحياة .
إن كلا الأخوين يحب نفسه ، لكن الأول أحب نفسه فأعطاها مشقة محتملة في سنوات الدراسة؛ لتعطيه راحة ومركزاً ومالاً بقية حياته ، أما الأخ الثاني فقد أحب نفسه أيضاً وأعطاها المتعة

العاجلة ولكنه أضاع مستقبله كله ، فلم يَعُدْ يساوي شيئاً في المجتمع .

إذن : فكل منا يحب نفسه ، ولكن مقاييس الحب هي التي تختلف . فمنا مَنْ يأخذ المقياس السليم ، فيحتمل مشقة قليلة ليأخذ نعيماً أبديّاً ، ومنا من يعطي نفسه متعة عابرة ليفقد نعيماً مقيماً .

والعجيب أنك تجد أن هذه هي سنة الحياة الدنيا ، فلا تجد إنساناً ارتاح في حياته إلا إذا كان قد أجهد نفسه في سنواته الأولى؛ ليصل إلى الراحة بقية عمره ، ولا تجد إنساناً فاشلاً عالة على المجتمع إلا إذا كان قد أخذ حظه من الحياة في أولها ليشقى بقية عمره .

لذلك يقال دائماً : إنه لا يوجد من يأخذ حظه من الحياة مرتين أبداً ، فالذي يتعب في أول حياته يرتاح بقية عمره ، والذي يرتاح أول حياته يتعب بقية عمره . والمثل الشائع يقول : من جار على شبابه ، أي : ضيَّعه فيما لا يفيد؛ جارت عليه شيخوخته . والقائمون على الأمر عليهم أن ينبهوا المقبلين على الحياة بالوعد والوعيد حتى يستقيم أمر حياتهم ، وعليهم ألا يُؤجِّلوا الوعد إلى أن تنضج الثمرة . ولا الوعيد إلى أن يحدث الشر ويقع . وعلى كل ولي أمر؛ في أي مكان؛ أن يراقب حركة المقبلين على الحياة من أبنائه أو من يتولى أمرهم ، فيشجع ويعد المجتهد ، ولا ينتظر حتى ينجح ، بل لا بد من الوعد لكي يتم الاجتهاد . ولا بد من الوعيد قبل أن يرسب الابن أو يضيع حياته ، فلا ننتظر حتى يفسد الإنسان ثم بعد ذلك نتوعده؛ لأن الوعد والوعيد هما اللذان يَزِنَانِ حركة الحياة .

ولكن إذا رأينا في مجتمع ما أن الذي يعمل لا يأخذ شيئاً ، والذي لا يعمل يأخذ كل شيء ، نعرف أن مقاييس العمل قد اختلت . وأن المتاعب قد بدأت في المجتمع؛ لأن الذي يعمل حين يجد أن العمل لا يوصله إلى شيء فهو يوجه حركة حياته إلى غير عمله ، فيبذل جهده كله في النفاق والرياء ، وقَلْب الحقائق وإرضاء الذي يملك الأمر . وتكون النتيجة هي فقدان المجتمع لقيمة العمل فيصبح المجتمع بلا عمل منتج ، ويصير مجتمعاً بارعاً في النفاق والرياء وضياع الحق .

وقد وضع الحق سبحانه وتعالى مقياس حركة الحياة في الوعد والوعيد؛ فلا تُعْطِ حافزاً إلا لمستحق ، ولا مكافأة إلا لمجتهد؛ ولكنك إذا بعثرت الحوافز على المنافقين ، والذين يحققون لك أهدافك الشخصية ، كأن يخدموك في بيتك أو يقضوا لك مصالحك الخاصة ، ومنعت الحوافز عن الذي يعمل في جد ، تكون بذلك قد أفسدت حركة الوعد والوعيد؛ فتختل حركة الحياة في المجتمع؛ لأن حركة كل إنسان يتقن العمل ويجيده ، هي حركة تنفع المجتمع كله ، بصرف النظر عن صاحب الحركة نفسه ، فإذا وُجد عامل نشيط أنجز مصالح عشرات الناس ، أو موظف مخلص ارتاح كل من يتعاملون معه ، فإن أضعْتَ أنت هؤلاء ، فكأن المجتمع هو الذي خسر .

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى في سورة الكهف – ومعنى الكهف مغارة في جبل ، والحقائق أيضاً لها كهوف – حين ضرب سبحانه وتعالى مثلاً عن ذي القرنين قال : { وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً } [الكهف : 83] فما هو الذكر الذي يعنيه الله سبحانه وتعالى هنا؟

بعض الناس يحاول أن يُدخلَ نفسه في متاهة بالسؤال عمَّنْ يكون ذو القرنين ، هل هو قورش؟ أو الإسكندر الأكبر أو غيرهما؟ نقول : إن هذا لا يعنينا ، بل ما يعنينا هو أن نلتفت إلى أن ذا القرنين هو إنسان مكَّنه الله في الأرض . وهذا ينطبق على كل إنسان مكَّنه الله في الأرض؛ في أي زمان ، وفي أي مكان . ومهمة من يمكنه الله في الأرض ألا يكتفي بعطاء الله من الأسباب ، بل عليه أن يُولد من الأسباب قوة؛ مصداقاً لقوله تعالى : { إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأرض وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً } [الكهف : 84–85]

مهمته – إذن – أن يثيب من يحسن عمله ، ويعاقب من أساء عمله ، وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى : { قُلْنَا ياذا القرنين إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً * قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَآءً الحسنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً } [الكهف : 86–88]

وأول ما يجب أن يهتم به كل مُمكَّن في الأرض ، بعد توليد الطاقة من الأسباب ، هو معاقبة الظالم لتستقيم الأمور بالضرب على يده . وفي هذا إصلاح لحركة الحياة في الدنيا ، أما في الآخرة فللظالم عذاب آخر ، ذلك أن الذين يعيثون فساداً في الأرض لا يمكن أن نتركهم لعذاب الآخرة؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة . ولو تركناهم؛ ولم نضرب على أيديهم؛ لملأوا الأرض فساداً . والفساد في المجتمع لا يصيب المفسد فقط ، ولكن يكتوي به المجتمع كله .

إذن : فلا بد أن نُعجِّل هم بالعقوبة في الدنيا ، لنحمي المجتمع من الفساد ، ثم يعذبهم الله في الآخرة ، وهو سبحانه لم يؤمنوا به ، ولم يحسبوا حساب لقائه يوم القيامة ، وأما من آمن وأصلح في المجتمع وصلح المجتمع بإيمانه ، فلا بد أن نجازيه خيراً ونشجعه . هذا هو قانون صلاح الكون ، وتلك هي معاييره .

وكما قلنا ، يشترط فيمن يقوم بتنفيذ الوعد والوعيد القدرة الدائمة وعدم التغيير والوجود الدائم ، فإذا كانت القدرة مطلوبة ، فلا يوجد أقدر من الله ، أما التغير فالله يُغير ولا يتغير ، وأما البقاء فلا بقاء ولا دوام لغير الله؛ ولذلك نجد أن المؤمن الحق هو من يعلم أن وعد الله لا تمسُّه الأغيار ، أما وعد البشر فهو عُرْضة للأغيار . لذلك يطلب منك الحق أن تقول : « إن شاء الله » حين تعد بشيء لتكون صادقاً . ويقول سبحانه : { وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله واذكر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عسى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً } [الكهف :

وليس معنى هذا أن نمتنع عن التخطيط ووضع خطط لعام قادم أو لخمس سنوات قادمة ، ولكن قل : إن شاء الله سوف أفعل ذلك غداً ، و : إن شاء الله سأفعل كذا في العام القادم؛ لأن الذي تَعِدُ به ، قد يأتي وقت الوفاء ولا تجد عندك القدرة على أن تفعله .

فإذا قلت – مثلاً – لإنسان : سنتقابل غداً في مسجد السيدة زينب رضي الله عنها ونتكلم في موضوع كذا . هل أملك أن أعيش لغد؟ أو يملك مَنْ وعدته أن يعيش لغد؟ أو أملك أن يظل سبب اللقاء موجوداً؟ يجوز أني كنت سأقابله لأقترض منه عشرة جنيهات ، وجاءني مال في أثناء الليل ، أو غيَّرت رأيي .

إذن : فساعة تقول « سأفعل ذلك غداً » ، قل : « إن شاء الله »؛ لأنك لا تملك شيئاً من أسباب الفعل . فكل فعل إنما يحتاج لفاعل وأنت لا تضمن بقاءك كفاعل .

ويحتاج كل فعل إلى مفعول يقع عليه ، وأنت لا تضمن بقاء المفعول ، وكل فعل يحتاج إلى قوة ليتم ، وأنت لا تضمن بقاء قوتك؛ فيجوز أن تمرض ولا تقدر على الحركة . كذلك يحتاج كل فعل إلى سبب كي تفعله ، وقد يتغير السبب .

إذن : فأنت لا تضمن شيئاً من أسباب الفعل؛ لذلك لا تقل سأفعل ذلك غداً؛ لأن الذي يملك أن يبقيه لغد ، أو يُبقي السبب أو يُبقي القدرة هو الله ، إذن : فكل شيء تقوله لا بد أن نقول : « إن شاء الله »؛ لأنه سبحانه وتعالى وحده الذي يملك عناصر الفعل .

ولكن إذا كان الذي وعد هو الحق سبحانه وتعالى ، فوعده محقق التنفيذ؛ لأنه باق لا يموت ، قادر دائماً لا تضعف قدرته ، فعَّال لما يريد .

وبعد أن تكلم الحق جل جلاله عن المؤمنين والمؤمنات بأنهم أولياء بعض ، وأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، وقد وعد سبحانه بأنه سيرحمهم . فكيف ستكون هذه الرحمة؟

لذلك يقول سبحانه وتعالى : { وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ }

إذن : فالحق سبحانه وتعالى وعد المؤمنين والمؤمنات بالجنة ، والجنة تطلق على البستان والأماكن الجميلة تملؤها الزهور والأشجار ، وهذه عامة للمؤمنين يتمتعون بها جميعاً ، ثم يأتي قوله تعالى : { وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ } وهذه المساكن زيادة على هذه الجنة ، وهنا وعد من الله لكل مؤمن بجنة خاصة بمفرده يكون له فيها مسكن طيب .

إذن : فعندنا جنات ، وهي لجميع المؤمنين ، ثم مساكن طيبة ، أي مسكن طيب لكل مؤمن ، وما هو الطيب في هذه المساكن؟

لنا أن نلاحظ أن الإنسان يحب الشيوع أولاً ، ثم يحب الانكماش ثانياً ، وإذا أراد أن يملك فهو يريد أن يملك مكاناً متسعاً خاصاً به ، ثم يخصص في هذا المكان مأوى طيباً خاصّاً به .

وقول الحق سبحانه وتعالى : { وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً } أي : ليس فيها ما يسيء أو يضايق ، بل كل ما فيها يملأ النفس بالسرور والبهجة . وكلمة « جنة » هي المكان الذي فيه زروع وخضرة ، وهذه الزروع تسترك وتخفيك عن الأعين ، أو أنها تسترك فلا تحتاج إلى أن تخرج منها؛ لأن فيها كل مقومات حياتك من طعام وشراب . والحق سبحانه وتعالى أطلق لفظ « الجنة » على بساتين الأرض ، فقال : { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ . . . } [البقرة : 266]

ويقول تعالى أيضاً : { إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الجنة . . . } [القلم : 17]

وعندما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا صورة الجنة في الآخرة؛ كيف بيَّنها لنا سبحانه مع أن الجنة فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر؟

نقول : الوجود المعروف في الكون هو الوجود الذي تراه أو تسمعه ، وفي هذه الحالة يكون الوجود أوسع؛ لأنك ستسمع الذي رآه غيرك حين يقصه عليك . إذن : فالسماع أوسع من الرؤية لأنه يأخذ مجالك ومجال غيرك . فأنت إذا قلت : إنك ذهبت إلى نيويورك مثلاً تكون قد رأيت ، فإذا لم تذهب ونقل إليك أحد أصحابك صورة هذه المدينة ، تكون دائرة معلوماتك أوسع؛ لأنك أضفت إلى علمك ما رأيته وما رآه غيرك . وأما الأشياء التي لا تخطر على بال بشر ، فهي أوسع كثيراً مما ترى وتسمع؛ لأنها أشياء فوق الحصر .

والكلمات توضع لمعانٍ معلومة ، فألفاظ اللغة لا بد أن توضع لمعانٍ مرت على العين ، أو مرت على السمع ، أو مرت على الخاطر . فقبل أنّ يخترع التليفزيون لم يكن له اسم ، إذن : فلا يمكن أن يكون هناك اسم ، إلا إذا كان هناك وجود أولاً ، ولكن قبل الوجود لا يكون هناك في اللغة ما يعبر عن شيء غير موجود . ولكن الألفاظ تضاف إلى اللغة بعد وجود الشيء . وهذه مهمة المجامع اللغوية في العالم . فالأشياء توجد أولاً ، ثم تجتمع هذه المجامع لتختار لها أسماء .

ولكن الجنة في الآخرة سيكون فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، فليس عندنا ألفاظ تعبر عما في جنة الآخرة ، فإذا أضفنا إلى ذلك « ولا خطر على قلب بشر » تكون اللغة عاجزة تماماً عن أن تعبر عما في جنة الآخرة .

وسبحانه وتعالى حين يريد أن يعطينا صورة عن الجنة التي وعد بها المتقين فهو يوضح : أنتم لا تستطيعون أن تأخذوا هذه الصورة من لغتكم؛ لأن لغتكم قاصرة فأنتم لم تروا هذه الأشياء ، ولم تسمعوا عنها ولا تستطيع عقولكم أن تستوعب ما في جنة الآخرة؛ لأن فيها ما لم يخطر على قلب بشر . ولذلك فهو سبحانه وتعالى يعطينا فقط مثلاً ليقرب لنا الصورة فلا يقول الجنة ، وإنما يقول : { مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون } [محمد : 15]

أي : أن هذا مثل فقط يقرب الصورة ، ولكنه ليس حقيقة ما هو موجود في الجنة .
وهنا يقول سبحانه : { وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار } و { جَنَّاتٍ } جمع « جنة » . ومادة الجيم والنون هذه مأخوذة من الستر والتغطية . اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الليل رَأَى كَوْكَباً قَالَ هذا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفلين } [الأنعام : 76]
يعني : ستر وأظلم ، والجنون ستر العقل . والجنة تستر من فيها؛ لأن أشجارها كبرت ونمت وترعرعت . بحيث يكون من يسير فيها مستوراً بأغصان الشجر وأوراقه؛ فلا يراه أحد . ويكون مستوراً في كل مطلوبات حياته . فلا يحتاج أن يخرج منها؛ لأن فيها كل مطلوبات الحياة من الماء والطعام والمكان يجلس أو يتريض فيه ، وغيرها من النعم التي أنعم الله بها عليه .
فإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد وعد المؤمنين والمؤمنات جنات ، فإن المؤمنين جماعة ، والمؤمنات جماعة ، والموعود به جنات جمع ، وتقابل الجمع بالجمع يقتضي القسمة لآحاد ، فيكون المعنى : أن الله وعد كل مؤمن جنة ، ووعد كل مؤمنة جنة ، والأفراد ستتكرر .
إذن : فالموعود به جنات لا بد أن تتكرر ، فإذا قسمناها عرفنا نصيب كل مؤمن ومؤمنة ، تماماً مثلما يقول الأستاذ لتلاميذه ، أخرجوا كتبكم . و « أخرجوا » أمر لجماعة ، وكتبكم جمع ، أيك أن يخرج كل تلميذ كتابه . وقول المعلم « أمسكوا أقلامكم » يعني : أن يمسك كل تلميذ قلمه .
إذن : فقول الحق سبحانه { وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ } أي : أن لكل واحد جنة .
ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول في سورة الرحمن : { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ } [الرحمن : 46]
وهنا لا بد أن ننتبه لمعطيات الألفاظ في سياقها ومقامها؛ فسورة الرحمن لا تتكلم عن الإنس فقط ، وإنما تتكلم عن الإنس والجن . فسبحانه وتعالى يقول : { خَلَقَ الإنسان مِن صَلْصَالٍ كالفخار * وَخَلَقَ الجآن مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ } [الرحمن : 14-15]
وكذلك قوله جل جلاله : { سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثقلان } [الرحمن : 31]
إذن : فيكون للإنس جنة وللجن جنة؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ } [الرحمن : 46]
من خاف مقام ربه من الإنس له جنة ، ومن خاف مقام ربه من الجن له جنة .
ويمكن أن يكون المعنى أن لكل واحد جنتين؛ لأن الحق سبحانه وتعالى علم أزلاً ما سيصير إليه من أمر عباده من التقوى أو الفجور ، ولكنه تبارك وتعالى لم يخلق للمتقين جنات تكفيهم وحدهم ، أو يخلق للكفار ناراً تكفيهم وحدهم ، بل خلق لكل واحد من خلقه إلى أن تقوم الساعة جنة ، ولكل واحد من خلقه إلى أن تقوم الساعة ناراً ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة؛ بقيت الجنات التي

خلقت ولم يدخلها أحد؛ لأن أصحابها من أهل النار ، فيقوم الحق بتوزيعه على المؤمنين أصحاب الجنة؛ مصداقاً لقوله تعالى : { وَتِلْكَ الجنة التي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [الزخرف : 72] أي : أنها لم تكن مخلوقة لكم ، ولكنكم ورثتموها؛ لأن أصحابها من أهل النار .

ونزيد الأمر هنا توضيحاً ، فالقرآن الكريم له أسلوب مميز؛ لأن الذي يتكلم هو الله سبحانه وتعالى . ولذلك فإن كل لفظ من ألفاظ القرآن الكريم يأتي مطابقاً للمعنى تماماً . وفي اللغة ، قبل أن تتكلم لا بد أن تكون عالماً بمعنى اللفظ . وأن يكون محدثك أيضاً عارفاً معناه حتى يستطيع أن يفهمك . فإذا قلت لإنسان مثلاً : أحضر لي كوباً من الماء لأشرب ، فلا بد أن يكون عارفاً لمعنى الماء ومعنى الكوب ، وإلا فإنه لن يفهم .

إذن : فبالتخاطب توجد المعاني أولاً ثم توجد لها الألفاظ؛ ولذلك قبل أن يتم اختراع التليفزيون لم يكن المعنى موجوداً ، وعندما اخترع وفهمنا معناه وضع له الاسم . فإذا وجدت لفظاً في اللغة ، فاعلم أن المعنى قد وجد أولاً قبل أن يوضع اللفظ أو الاسم ، ولعل هذا هو أكبر دليل لغوي ضد من ينكرون وجود الواجد الأعلى .

نقول لهم : إن الله موجود في كل لغة؛ وبما أن المعنى في اللغة يوجد أولاً . فوجود الله سبحانه وتعالى سابق لمعرفتنا باسمه سبحانه وتعالى؛ لأن الاسم لا يمكن أن يوجد إلا بعد أن يوجد المعنى ، وما دمت قد نطقت بالاسم ، فهذا دليل على أن الله موجود . إذن : فقولك : إن الله غير موجود باطل؛ لأنك ما دمت قلت : « الله » ، ووجد لفظ الجلالة في لغتك؛ فلا بد أن الله سبحانه وتعالى موجود قبل وجود لفظ الجلالة . والكفر طرأ على اللفظ ، فحاول أن يستره؛ ولذلك سمى الكفر ستراً لوجود الله والستر لا يكون إلا لموجود .

إذن : فبالتخاطب توجد المعاني أولاً ثم توجد لها الألفاظ؛ ولذلك قبل أن يتم اختراع التليفزيون لم يكن المعنى موجوداً ، وعند اخترع وفهمنا معناه وضع له الاسم . فإذا وجدت لفظاً في اللغة ، فعلم أن المعنى قد وجد أولاً قبل أن يوضع اللفظ أو الاسم ، ولعل هذا هو أكبر دليل لغوي ضد من ينكرون وجود الواجد الأعلى .

نقول لهم : إن الله موجود في كل لغة؛ وبما أن المعنى في اللغة يوجد أولاً . فوجود الله سبحانه وتعالى سابق لمعرفتنا باسمه سبحانه وتعالى؛ لأن الاسم لا يمكن أن يوجد إلا بعد أن يوجد المعنى ، وما دمت قد نطقت بالاسم ، فهذا دليل على أن الله موجود . إذن : فقولك : إن الله غير موجود باطل؛ لأنك ما دمت قلت : « الله » ، ووجد لفظ الجلالة في لغتك؛ فلا بد أن الله سبحانه وتعالى موجود قبل وجود لفظ الجلالة . والكفر طرأ على اللفظ ، فحاول أن يستره؛ ولذلك سمى الكفر ستراً لوجود الله . والستر لا يكون إلا لموجود .

إذن : فالذي كفر ، ستر موجوداً؛ فأعطى دليل الإيمان؛ لأنك أيها الكافر – والعياذ بالله –

تعرف لفظ الله في لغتك ، ولو لم يكن الله موجوداً ما وُجد لفظ « الله » سبحانه وتعالى في اللغة .
إذن : فوجود الله سابق لمعرفتنا اسم الله ، ومحاولة ستر ذلك بالكفر إنما هي دليل على وجود الله ، لأنك لا تستر إلا ما هو موجود .
ولفظ الجنة في القرآن الكريم أطلق على معان كثيرة ، في قوله تعالى : { إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الجنة إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ } [القلم : 17]
وقوله جل جلاله : { جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ . . . } [الكهف : 32]
إذن : فالجنة أطلقت في القرآن على المكان الذي فيه زروع وثمار وأشجار ، فهو يحجب من دخله ، أو يمنع الإنسان بالخير الذي في داخله من الحاجة للخروج إلى مكان آخر؛ لأن فيه كل مقومات الحياة . وحين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبشرنا بشيء في الآخرة ، لا بد أن يشبهه لنا بشيء نفهم معناه في الدنيا؛ لأن اللغة مكونة من ألفاظ وأسماء سبقتها مَعَانٍ حتى نستطيع أن نفهمها ، ولذلك إياك أن تفهم أن جنة الدنيا هي جنة الآخرة؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يستخدم اللفظ الذي تفهم أنت معناه . ولكن جنة الآخرة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .
ولكن من أين نأتي بالألفاظ التي يمكن أن تعبر لنا عن ذلك؟ إن اللفظ لا يوجد إلا إذا كان المعنى موجوداً أولاً ، ومن يستطيع أن يأتي بلفظ لم تره عين ، ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر؟ مستحيل؛ لأن المعنى غير موجود .
ولذلك ينبهنا الحق سبحانه إلى هذه النقطة ، ويوضح لنا أنه يعطينا معنى تقريبيّاً حتى نستطيع أن نفهمه؛ فيقول سبحانه وتعالى : { مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون . . . } [محمد : 15]
أي : أنها ليست هي ، ولكنه مثل فقط؛ يقرب المعنى إلى ذهنك . خذ صورة من المجتمع الذي تعيش فيه ، أنت تحتاج إلى مسكن لتسكن وتستريح فيه من عناء الحياة . وهناك من عنده مسكن من حجرة واحدة ، فإذا ترقى يكون المسكن من حجرة وصالة أو حجرتين وصالة ، ثم بعد ذلك يزداد الرقي ، فيبحث عن شقة واسعة ، فإذا ارتقى كان له مسكن خاص (فيلا) ، فإذا ارتقى جعل حول مسكنه حديقة ، وهكذا يزداد الرقي .

إذن : فالمسألة لم تَعُدْ مكاناً تأوي إليه فقط ، بل ترتقي في الإيواء كلما ارتقيت في الحياة . فتتحقق لك المتعة في الإيواء ، وهذا موضوع آخر .
ولهذا يقول الحق سبحانه : { وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً } أي : هناك جنات وهناك مساكن؛ لأن الإنسان يحب في بعض الأوقات أن يجلس بمفرده وحوله المتعة التي تخصه ، وفي أحيان أخرى يحب أن يجلس مع الناس في مكان جميل؛ مثلما يحدث في الأعياد والمناسبات ، عندما نخرج إلى الحدائق

والبساتين ، ونجلس معاً ، فكأن الجنات هي للرفاهية الزائدة؛ عندما تحب أن تجتمع مع الناس؛ أتمتع بها أنا وأنت وغيرنا . أما المساكن فهي للخصوصية . فيكون لكل واحد مكان خاص يجلس فيه ويتمتع بما حوله .

إذن : فالجنات صورة من البساتين ، ولكنها ليست مصنوعة بالأسباب ، بل هي من صناعة المسبب جل وعلا .

ونحن حينما نذهب إلى بيت إنسان ثري ، قد نجد أن للبيت حديقة؛ يشرف عليها بستاني متمكن من عمله؛ ويقوم بتنسيق الزهور والأشجار بشكل يناسب ثراء المالك . ويكون إعجابنا في هذه الحالة بالحديقة إعجاباً كبيراً ، بحيث نجلس فيها ، ونكره أن نغادرها ، فإذا كان هذا هو ما يحدث بقدرات البشر ، فكيف بهذه الحقائق التي صُنعت بقدرة الله سبحانه وتعالى؟ وكيف يكون جمالها وحلاوتها والمتعة فيها؟

إن الذي وعدنا بهذه الجنات هو الحق سبحانه وتعالى . وهو قادر على أن ينفذ ما وعدنا به ، من جنات فيها من الكماليات والرفاهية مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . وجعل هذه الجنات واسعة شاسعة ، فيها زروع وأزهار وأشكال؛ تسرُّ العين بجمالها ، وتمتع اللمس بنعومتها؛ وتملأ الأنوف برائحتها الزكية . ومن ميزات جمالها أن الأنهار تجري من خلالها ، ولكنها لا تجري من فوقها بل تجري من تحتها ، ومنابعها من مكان آخر ، أو تحتها ، ومنابعها ذاتية ، أي ينبع من نفس المكان . وكأن كل نهر ينبع من تحت جنة خاصة به . وإذا أردت أن تعرف جمال هذه الأنهار؛ فهو جمال قد صنعه الحق سبحانه وتعالى .

وإذا كنا في حياتنا نرى أن لكل نهر شاطئين ، فإن أنهار الجنة تجري من غير شواطئ؛ وإنما يمسكها الذي أمسك السماء أن تقع على الأرض ، ثم تجد الأنهار قد تشترك في المجرى؛ نهر اللبن ، ونهر العسل ، ونهر الماء ، ونهر الخمر ، وكلها تجري في مجرى واحد ولكنها لا تختلط ببعضها البعض ، فكل منها منفصل؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو الصانع وتبارك من صنع .

ويعطينا سبحانه وتعالى بعد كل ذلك ، ميزة الخلود في هذه الجنات فيقول : { خَالِدِينَ فِيهَا } ونحن نعلم أن المتعة في الدنيا قد توجد للإنسان ، ولكنها لا توجد خالدة أبداً؛ فقد تزول عنك النعمة وتذهب المتعة؛ كأن تصاب بكارثة مالية مثلاً أو تخسر خسارة كبيرة في تجارتك أو غير ذلك ، وقد تزول أنت عن النعمة بالموت .

ولكنك في جنات الآخرة تستمتع بقدر ما فيها من كمال وجمال ، ويزيدك الله فيها بأن يعطيك الخلود ، فلا تفارق النعمة ولا تفارقك؛ لأنه ليس هناك أغيار ، وليس هناك موت .

وكل إنسان في الدنيا يتمتع على قدر قدراته ، وتصورات الخلق لأنواع النعيم تختلف باختلاف بيئاتها ومقاماتها ، فقد تكون من الفلاحين؛ وكل متعتك أن تجلس على مصطبة أمام بيتك ، وقد

يكون عند إنسان آخر بيت فيه صالون كبير ، والثالث له بيت فيه عدة صالونات ، فكل واحد على قدر إمكاناته في الدنيا ، ولكننا في الآخرة نتمتع كلنا على قدر قدرات الحق سبحانه وتعالى ، ويكون متاعنا بقدرة لا تفوقها قدرة ، ويكون الجزاء بقدر ما فعلْتَ من خير في الدنيا ، واتبعت منهج الله .

إذن : فأنت الذي تحدد المساحة التي لك في الجنة ، وتحدد المسكن وأنواع النعيم بقدر عملك .

ثم ما الذي يهددك في نعيم الدنيا؟

الذي يهدد الناس في الدنيا أحد شيئين : إما أن تزول عنهم النعمة فيفتقروا ، وإما أن يزولوا هم عن النعمة بالموت . ولكن نعمة الآخرة ليس فيها هذا التهديد . إنها النعمة الخالدة وأهل الجنة فيها خالدون . لذلك يقال : يا أهل الجنة ، خلود بلا موت ونعيم بلا بؤس .

ولقد زاد الحق تبارك وتعالى في وصف الخلود فقال { خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً } والخلود بقاء طويل جداً ، والأبدية لا تنتهي . وسبحانه حين تكلم عن الخلود استثنى فيه ، فقال سبحانه وتعالى : { وَأَمَّا الذين سُعِدُواْ فَفِي الجنة خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ . . . } [هود : 108]

أيُّ سماء وأيُّ أرض تلك التي تحدَّث عنها الحق سبحانه وتعالى؟ هل هي السماء التي نراها؟ إننا نعلم أن الأرض التي نعيش عليها ستبدل وأن السموات ستمور . ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يتحدث عن السموات والأرض بالنسبة للآخرة . فهو يتحدث عن السموات والأرض المبدلتين؛ مصداقاً لقوله تبارك وتعالى : { يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسموات وَبَرَزُواْ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ } [إبراهيم : 48]

إذن : فما دامت السموات والأرض ستتبدل ، فالله سبحانه وتعالى يحدثنا عن السموات والأرض في الآخرة؛ غير حديثه عن السموات والأرض في الدنيا . ولكن بعض السطحيين يقول : إن القرآن يتحدث عن بقاء المؤمنين في الجنة ما دامت السموات والأرض؛ ثم يقول : { إِذَا الشمس كُوِّرَتْ * وَإِذَا النجوم انكدرت * وَإِذَا الجبال سُيِّرَتْ } [التكوير : 1-3]

فكأن هذه الأرض التي نعيش فيها ، والسماء التي تظلنا ستُدمَّر يوم القيامة ، فلماذا يقول الحق : { خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض . . . } [هود : 108]

فأين هو الخلود إذن؟

نقول لهؤلاء : اقرأوا القرآن كله لتعرفوا أن الحق سبحانه وتعالى قال :

{ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسموات . . . } [إبراهيم : 48]

إذن : فهذه الأرض هي أرض معاش وما فوقها من سماء هي سماء معاش؛ ستتبدل بأرض مَعَاد؛ لأن الأرض التي نعيش عليها فيها مقومات الحياة بالأسباب ، تزرع وتحصد وتصنع ، أما في

الآخرة فحياتك كلها بدون أسباب منك؛ ولذلك ساعة يخطر الشيء على بالك تجده أمامك دون أن تتحرك أو تحرث أو تزرع أو تتحمل أي مشقة . أما هنا في هذه الدنيا ، الأرض أرض المعاش تنعم فيها وتأخذ منها بقدر إمكاناتك ، ولكن أرض المعاد تأخذ منها بإمكانات الحق سبحانه وتعالى . ومهما ارتقت الدنيا وارتقت أسبابها ، لا يمكن أن تصل إلى أنك يخطر على بالك الشيء فتجده أمامك . وسبحانه يقول : { خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ } فكأنه استثنى بعض الناس من الخلود .

{ فَأَمَّا الذين شَقُواْ فَفِي النار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ . . . } [هود : 106-107]

أي : أن الجنة والنار لهما خطان ، وبمجرد أن يحاسب الإنسان ، إما إلى الجنة وإما إلى النار ، فإن كان الذي يحاسب من الكفار أو المنافقين ، يكون بدء خلوده من أول لحظة دخل فيها النار ويبقى فيها خالداً . وأما إن كان الذي يُحاسب مؤمناً عاصياً ، فهو يدخل النار على قدر ما عمل من السيئات ، ثم بعد ذلك يدخل الجنة .

إذن : فالذي دخل النار أولاً حالتان : حالة أبدية وهم المنافقون والكفار ، وحالة مؤقتة وهم عصاة المؤمنين ، والخلود في النار بالنسبة لعصاة المؤمنين ناقص من الآخر ، أما الذين عملوا الصالحات فهم يدخلون الجنة ابتداء وخلوداً ، أما عصاة المؤمنين فلا يدخلون إلا بعد أن يناولوا جزاءهم من العقاب . وبذلك يكون خلود عصاة المؤمنين في الجنة ناقصاً من البداية؛ لأنهم لم يدخلوها بعد الحساب مباشرة ، وخلودهم في النار ناقص من الآخر؛ لأنهم لم يخلدوا فيها :

ويقول سبحانه : { وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ } أي : أن مساكن المؤمنين في الجنة ستكون أيضاً جنات خاصة بها ، وكلمة { عَدْنٍ } ؛ مادتها العين والدال والنون معناها الإقامة . و « عَدَنَ في المكان » ، أي أقام فيه . إذن : فهي جنات إقامة؛ لأن هناك فارقاً بين أن تسكن في فندق مثلاً ، أو في مكان مؤقت ، وبين أن تقيم خالداً .

وحين يعطي الحق سبحانه للمؤمن بُشْرى بأشياء ، فهو يريد دائماً ألا ننسى أنها منسوبة إلى قدرته سبحانه ، والشيء يتناسب مع قدرة صاحبه أو فاعله . فالرجل الفقير حين يبني مسكناً يكون المسكن متواضعاً؛ مجرد حوائط تستر الإنسان ، أما صاحب الإمكانات الضخمة فيبني قصراً كبيراً ، فإن كان واجد الوجود الأعلى هو الذي صنع ، فكل شيء إنما يتم على مقتضى قدرته وإمكاناته؛ فهو الذي يمسك الأمور كلها ، ويأتي تنفيذه لأي شيء وفق ما يريد .

إذن : فالخلود في جنات عدن خلود دائم ، وهي جنات يعلو فيها التنعيم لدرجة من علوها لا يحب الإنسان أن يتركها أبداً؛ لأنها أعلى مراتب الجنة ولا يوجد أحسن منها . والإنسان حينما يكون بمكان فإنه لا ينتقل منه إلا إذا زهد ما فيه ، فلو كان في جنات عدن مما يُزْهَدُ فيه بعد فترة

ما وصفها الله بهذا الوصف .

ولكي يصل الإنسان إلى النعيم لابد من موجد لهذا النعيم وهو الله سبحانه وتعالى ، وما يتمتع الإنسان به وهو الجنة ، والمُنْعَمُ عليهم بالنعمة ، وهم المؤمنون والمؤمنات . ومن أطاع الله طمعاً في الحصول على نعيم الله في الآخرة ، يأخذ هذا النعيم . والذي أطاع الله لذات الله ، ولأنه سبحانه وتعالى يستحق أن يعبد لذاته ويطاع ، يكون في الآخرة مع التعظيم والتكريم والمحبة واللقاء بالمُنْعِم .

إذن : فكل إنسان لما عمل له ، فإذا زادت عبادتك عما فرض الله عليك ، وأحببت أن تكون دائماً في لقاء مع الله ، بأن تقوم الليل وتتهجد ، وتقرأ القرآن وتصلي والناس نيام ، وتتقن العمل الذي ترتقي به حياتك وحياة غيرك ، وتفعل ذلك محبة في الله الذي يستحق التعظيم ، فأنت تستحق المنزلة الأعلى ، وهي أن تكون في معيَّة الله . ويقول سبحانه : { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } [القيامة : 22-23]

والحق سبحانه وتعالى يتجلى على أهل الجنة فترات ، ويتجلى على أهل محبوبية ذاته دائماً ، وعندما يتجلى الحق سبحانه على أهل الجنة ويقول : « يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك . فيقول : هل رضيتم؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك . فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً »

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن تحدث عن المتعة والنعيم والجنات التي تجري من تحتها الأنهار ، والمساكن الطيبة التي في جنات عدن . أوضح سبحانه أن هناك شيئاً أكبر من هذا كله ، وهو رضوان الله في قوله تعالى :

{ وَرِضْوَانٌ مِّنَ الله أَكْبَرُ ذلك هُوَ الفوز العظيم } فالذي عمل للجنة يعطيه الله الجنة ، والذي عمل لذات الله يعيش في معية الله سبحانه .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله :

{ ذلك هُوَ الفوز العظيم } فما هو المقصود بالفوز العظيم؟ لقد تقدمت أشياء كثيرة؛ تقدمت جنات تجري من تحتها الأنهار ، وجنات عدن ، ومساكن طيبة ، ورضوان الله ، فأيها هو الفوز العظيم؟

نقول : كلها فوز عظيم ، فالذي فاز بالنعيم الأول في الجنة أخذ فوزاً عظيماً ، والذي فاز بالمساكن الطيبة في جنات عدن أخذ فوزاً عظيماً ، والذي أخذ رضوان الله يكون قد أخذ الفوز الكبير والعظيم .

ونلحظ أن القرآن حين يعرض منهج الله ، فهو لا يتحدث عن الجزاء في باب منفصل ، والمنهج في باب منفصل ، بل يجمع بين المنهج والجزاء بين الوعد والوعيد؛ لأنه ساعة يصف لي الجنة وما

فيها من نعيم ، لابد أن ينبهني إلى المنهج الذي يوصلني إليها . وحين يعطيني صورة من المنزلة العالية التي تنتظر المؤمن في الآخرة ، لا بد أن ينبهني – أيضاً – إلى العذاب الذي ينتظر المنافق والكافر؛ حتى أتجنب الطريق الذي يؤدي بي إلى النار والعياذ بالله .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى بعد أن حدثنا عن جنته ورضوانه يقول : { ياأيها النبي جَاهِدِ . . } .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73)

إذن : فيعد ان ذكر الحق لنا الجنة وما فيها ، وما يجعل النفس مشتاقة إلى الجنة ، فهو يُذكِّرنا بما يجب علينا أن نفعله لخدمة منهج الله – ولله المثل الأعلى – مثلما تقول لابنك : عندما تتخرج طبيباً ستكون لك عيادة كبيرة ثم مستشفى ، وترتقي معه فيما ينتظره من مستقبل كبير ، وتُذكِّره بضرورة أن يجتهد في المذاكرة حتى يصل إلى ما يتمناه . وبذلك تكون قد حبَّبته في الغاية التي سيصل إليها ، ثم انتقلت لتحببه في الوسيلة التي ستوصله إلى هذه الغاية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ ياأيها النبي جَاهِدِ الكفار والمنافقين واغلظ عَلَيْهِمْ } والحق جَلَّ وعلا يخص رسوله صلى الله عليه وسلم بالتكريم والتعظيم ، فلم يُناده باسمه . بل قال : { ياأيها النبي } وفي مواقع أخرى يناديه : { ياأيها الرسول } .

ولكن النداء من الحق لباقي الأنبياء ، يكون مثل قوله تعالى : { وَقُلْنَا يَآءَادَمُ اسكن أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنة . . . } [البقرة : 35]

وقوله تعالى : { قِيلَ يانوح اهبط بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ . . . } [هود : 48]

ونادى الحق إبراهيم : { ياإبراهيم * قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيآ . . . } [الصافات : 104–105]

ونادى الحق موسى : { ياموسى * إني أَنَاْ رَبُّكَ . . . } [طه : 11–12]

وخاطب الحق سيدنا عيسى : { ياعيسى ابن مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله . . . } [المائدة : 116]

فكل رسول ناداه الحق سبحانه وتعالى باسمه ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ناداه بقوله { ياأيها النبي } ، و { ياأيها الرسول } تكريماً للرسول عليه الصلاة والسلام ، ورفعاً لمقامه عند ربه .

وهنا يطلب الحق من رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجاهد الكفار والمنافقين .

ونحن نعلم أن السماء لا تتدخل لإرسال رسول إلا فسد المجتمع فساداً عامّاً . ونعلم أن النفس الإنسانية فيها قد فُطِرتْ على محبة الخير ، فإن لم يحكمها هواها فهي تفعل الخير وتحبه ، فإن حكمها هواها ستر عنها الخير وفتح الهوى للنفس أبواب الشر . وقد يطيع الإنسان هواه في أمر

من الأمور ، ثم يفيق؛ فتلومه نفسه على ما فعل ، هذه هي النفس اللوامة ، التي تلوم صاحبها على الشر ، وتدفعه إلى الخير . ولكن هناك نفس تتوقف فيها ملكات الخير فتفعل الشر ، ولا تندم عليه ، ثم ترتقي النفس في الشر فتصبح أمَّارة بالسوء ، وتأبى ألا نكتفي بفعل الشر ، بل تأمر به الناس وتُحبِّبه لهم . إذن : فمراحل النفس البشرية كثيرة ، فهناك النفس التي تطمئن لمنهج الله وتطيعه . وهذه هي النفس المطمئنة؛ التي يقول فيها الحق : { يأأيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فادخلي فِي عِبَادِي * وادخلي جَنَّتِي } [الفجر : 27-30]

وإذا وُجدت النفس المطمئنة والنفس اللوامة ، فاعلم أن المجتمع بخير؛ لأن النفس المطمئنة تطيع ، وتأمر بالطاعة ، والنفس اللوامة تلوم صاحبها على الشر ، ولكل مؤمن نقطة ضعف ، فإذا ضعف مؤمن ، يسرع له أخوه المؤمن ليلومه على ضعفه ، ويصحح له مساره؛ ولأن نقط الضعف مختلفة ، نجد أن المجتمع يستقيم كلما وُجد من يلتفت النظر إلى المنكر وينهى عنه ، وهؤلاء هم الذين يقول الحق عنهم :

{ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر } [العصر : 3]

ولكن عندما تصدأ النفوس جميعاً ، ولا يصبح هناك من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، بل تجد من ينهى عن المعروف ويأمر بالمنكر ، حينئذ لا بد أن يتدخل الحق سبحانه ليعيد للحق مكانه في الدنيا .

إذن : فرب العزة لا يتدخل في حالة وجود نفوس مطمئنة تطبق منهج الله وتأمر بطاعته ، أو وجود نفوس لوامة ، سواء في ذات النفس البشرية أو في المجتمع تراجع من يرتكب الإثم وتلومه ، ولكن إذا عَمَّ الفساد في المجتمع ، ولم يصبح هناك من ينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف ، وأصبح أهل الخير فيه عاجزين عن أن يفعلوا شيئاً ، جاءت الرسل لتعيد منهج الحق لينظم حياة هذا المجتمع .

وحين يأتي الرسول فهو يعلم أنه ما أُرسل إلا بعد أن عَمَّ الشر في الكون ، وأن أهل الفساد هم الأغلبية ، وهم أصحاب النفوذ والسلطان ، وينتفعون بالفساد والانحراف المستشري في المجتمع . وهؤلاء إذا سمعوا بصيحة الحق؛ فلن يقفوا متفرجين ، بل سيحاربون كل من يحمل منهج الحق إليهم . ولا بد للرسول من أن يصمد أمامهم ، وأن يجاهدهم .

و « جاهد » من « فاعل » ، مثل « شارك » ، فأنت تشارك فلاناً ، ومثل : « قاتل » فأنت تقاتل فلاناً ، إذن : فلابد أن تحدث مفاعلة بين الرسول ومن ابتعوه ، وبين أئمة الكفر والفساد في المجتمع .

ولابد أن يستعد الرسول والمؤمنون بمنهجه لتحمُّل الإيذاء من غير المؤمنين بالمنهج؛ لأن الكفار منتفعون بالفساد ، ولكي يستمر هذا الانتفاع ، لابد أن يقف الكفار ضد حَمَلَة منهج الحق ،

وأن يقاوموهم ليضمنوا لأنفسهم استمرار الميزات التي يعطيها الباطل لهم . وينبه الله سبحانه وتعالى لرسوله إلى حقيقة هؤلاء الكفار المنتفعين بالفساد ، وأنهم سيحاربونه . ولذلك لم يقل سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : اتحد معهم ، ولكنه قال : { جَاهِدِ الكفار والمنافقين } ، أي : اصمد أمامهم في المعركة ، وجاءت الكثير من الآيات التي أمر فيها الله رسوله والمؤمنين بالصبر على الجهاد ، والجهاد يقتضي المواجهة ، لذلك قال سبحانه : { اصبروا } .

ولكن لنفرض أن عدوِّي صبر أيضاً في الحرب ، إن أنا صبرت وعدوي صبر تساوت الكفتان؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { اصبروا وَصَابِرُواْ . . . } [آل عمران : 200]

أي : إن واجهكم عدوكم بالصبر ، فليكن صبركم أقوى منه ، فتغلبوه بالصبر والتحمل ، فقف صابراً في مواجهتهم ومعك المؤمنون برسالتك ، فمعسكر الإيمان لا بد أن يواجه معسكر الكفر والنفاق ، والكافر هو الذي جحد الإيمان بقلبه وأعلن الكفر بلسانه ، أما المنافق فهو من كفر في باطنه ويعلن الإيمان في ظاهره .

وهذا هو الذي يجب أن نحذر منه أشد الحذر؛ لأننا لا نعرفه فنتقي شره مثل الكافر ، فقد يطعنًا المنافق من الخلف ونحن آمنون له مطمئنون إليه ، فتكون طعنته مؤثرة وأليمة .

ويوضح الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم : إن العداوة التي سيواجهها وهو يبشِّر بمنهج الله ستأتيه من اثنين؛ من كافر أو منافق ، أي من مجاهر بعدم الإيمان ، أو ممن كفر بقلبه وتظاهر بالإيمان بلسانه . أما المنافق فإنه عدو صعب؛ لأنه يغشنا فلا نأمنه ، رغم أن النفاق في حد ذاته بالنسبة لمنهج الله هو دليل قوة هذا المنهج؛ لأنه لا ينافَق إلا القوي ، أما الضعيف فلا ينافقه أحد .

ولذلك لم يكن هناك منافقون أثناء وجوده صلى الله عليه وسلم في مكة قبل الهجرة؛ لأن المسلمين كانوا قلة ضعافاً ، وكانوا مُعذَّبين مضطهدين . ولم يكن هناك ما يغري أحداً بنفاقهم؛ لأنه لا توجد استفادة من هذا النفاق ، بل سيتعرض من يتعاطف معهم للتعذيب والاضطهاد . والمنافق في إظهاره غير ما يبطن إنما يحقق لنفسه مصلحة ذاتية .

واختلف الحال بعد أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وظهر المنافقون بعد أن أصبح للإسلام دولة وقوة . والمنافق في هذه الحالة إنما يعلن إيمانه زَيْفاً ، ليستفيد من قوة المسلمين لصالحه . إذن : فالنفاق ظاهرة مرضية في المنافق ، ولكنها دليل قوة للمؤمن الذي ينافقه .

ونلحظ أنه سبحانه وتعالى قد قدَّم في هذه الآية ذكر الكفار على المنافقين . وقدَّم في آيات أخرى المنافقين على الكفار . والصدام – كما نعلم – قد حدث أولاً مع الكفار ، ففي أول

الدعوة لم يوجد هذا الصنف المنافق ، بل كان هناك مؤمنون وكفار ، وجهاد الكفار جاء على مراحل ، وليس على مرحلة واحدة ، وكانت أولى مراحل الجهاد هي الجهاد بالحجة؛ لأن المؤمنين في أول الأمر كانوا قلة ضعيفة لا يملكون قوة يواجهون بها هذا المد الكبير من الكفار . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض قضايا الإيمان بالحجة لإقناع العقل؛ لعل عقولهم تفيق فيؤمنون بمنهج الحق . فيسألهم مثلاً عمَّنْ خلق السموات والأرض؟

وحين يديرها الكافر في عقله لا يجد أن أحداً ادعى – أو يستطيع أن يدعي – أنه خلق السموات والأرض ، فلا يكون جوابهم إلا أن الخالق هو الله سبحانه وتعالى ، لماذا؟ لأن الإنسان في تكوينه قد يدعي أشياء ليست له ، ولكنه لا ينفي أمراً هو صاحبه . فمخترع أي شيء أو صانعه لا يمكن أن ينكر أنه صنع أو اخترع ، بل يجب أن تعرف الدنيا كلها أنه اخترع أو صنع؛ ولهذا فأنت لا تجد شيئاً ينتفع به في الكون مهما كان تافهاً إلا وعرفنا تاريخه ، ومن أين جاء ، ومن الذي طوره . وكذلك اختراع الطائرة ، ومعروف لنا كيف نشأت فكرة الطيران بعباس بن فرناس؛ الذي حاول الطيران بذاته بواسطة أجنحة كبيرة ، وهكذا كانت البداية .

إذن : فكل شيء نافع في الكون معروف من الذي اكتشفه أو صنعه أو اخترعه . فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للصناعات البشرية المحدودة ، فما بالك بالنسبة للكون؟ وحين نسأل : من الذي أوجد الشمس؟ ألا يستحق خالقها أن نعرف من هو ، خصوصاً ونحن نعرف من الذي اخترع مصباح الكهرباء وأوجده في حياتنا؟

وإذا كنا نملأ الدنيا بالحديث عن مخترع مصباح الكهرباء الذي ينير حجرة محدودة لوقت ، وقامت مصانع كبيرة لتنتج هذا الاختراع ، أفلا نستحق أن نعرف من الذي أوجد الشمس التي تنير نصف الكرة الأرضية في نفس اللحظة؟ هذه الشمس التي تشرق منذ ملايين السنين ، ولم تنطفئ مرة واحدة ، ولا احتاجت قطعة غيار طوال هذ العمر الطويل ، ولا بد أن يكون لها صانع؛ تتناسب قوته وقدرته مع ذلك الإعجاز الذي نراه سواء في الضوء ، أو في خصائص هذا الضوء ، أو في دقة الصنع؛ فهي لا تتأخر ثانية ولا تتقدم ثانية عن الظهور ، ولا بد أن يكون صانعها له من القوة ما يتناسب مع عظمة هذا الخلق .

فإذا جاء الرسول وأبلغنا أن الله هو الذي خلق الشمس ، فإما أن يكون صادقاً؛ فنسلم جميعاً بأن الله هو الخالق والموجد . وإما أنه غير صادق ، فنقول : لماذا لم يخرج إذن أحد يدعي أنه هو الذي خلقها .

ولكن دقة وإعجاز الخلق الذي لا يمكن أن تصل إليه قوة بشرية مفردة ، أو قوى بشرية متعددة متعاونة ، جعل القضية محسومة له سبحانه وتعالى . وإلى أن يأتي من يدعي أنه خلق الشمس ، ولن يأتي؛ فقضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى ، ولا يوجد هناك منازع .

ويأتي رسول ليقول : إن خالق الأرض والشمس والسموات والكون هو الحق سبحانه وتعالى ، فلم يَأتِ أحد ويدَّعي أنه قد خلق شيئاً من هذا ، مما يؤكد صحة دعوى الرسول ، مما يؤكد أن من أوجد هذا الكون هو قوة بلا حدود ، وقدرة بلا قيود ، وهو الأحق بالعبادة من هذه الأصنام والآلهة التي يدعونها .

وتمضي الدعوة بالمنطق ليسألهم من الذي خلقهم؟ مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى : { أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخالقون } [الطور : 35]

فإذا كان الجواب : لا هذا ولا هذه ، إذن : فلا بد أن هناك خالقاً وموجداً لنا ، فإذا جاء لنا الرسول وأبلغنا : إن خالق هذا الكون وخالقنا هو الله ، فلا بد أن نصدقه؛ لأنه لم يدَّعِ أحد ولا يستطيع أن يدعي أنه خلق هذا الكون أو خلق نفسه ، تماماً كما نكون قد جلسنا في مكان . وبعد أن انصرفنا ، وُجدَت حافظة نقود ، فجاء صاحب المكان وسأل كل الذين كانوا حاضرين ، فنفوا جميعاً ملكيتهم لحافظة النقود ، عدا واحداً ، حينئذ تكون حافظة النقود ملكه؛ لأنه هو وحده الذي ادعاها ولا يوجد معارض .

وفي خلق السموات والأرض وخلق الإنسان لا يجرؤ بشر أن يعارض الحق سبحانه وتعالى؛ ويدعي أنه خلق . إذن : فالقضية محسومة تماماً لله . هذا هو جهاد الحجة حيث يقتنع العقلاء بالمنطق ، أو يقتنع من يستمع إليه فيفهمه ، فإذا وصلنا إلى أن الحق سبحانه وتعالى هو الخالق والموجد ، يمكننا أن نتساءل : من الذي يضع المنهج للإنسان على الأرض؟ لا بد أن نُقدِّر أن من يضع المنهج للإنسان على الأرض هو خالقه وموجده ، تماماً كما نثق أن صانع أي آلة هو الأقدر على وضع أسلوب عملها ، فهو يعلم ما يصلحها وما يفسدها .

والمثال : أن الإنسان منا يعطي ساعة يده لمن تخصص في إصلاح الساعات ، ويستدعي المتخصص في إصلاح الثلاجة إن أصابها عطب ، ويستدعي الإنسان كل متخصص لإصلاح الآلة التي درس تفاصيلها ، وكل متخصص يعود إلى كتاب التصميم الذي وضعه مَنْ اخترع الآلة ، وبيّن فيه ما يصلحها وما يفسدها ، ولذلك فأنت لن تستدعي نجاراً ليصلح التليفزيون .

إذن : فما دام سبحانه وتعالى قد وضع منهجاً فلا بد أن نتبعه؛ لأنه هو موجد هذا الكون وموجدنا ، ويعلم ما يصلحنا وما يفسدنا .

فإن فشل جهاد الحجة ، يقول الحق سبحانه وتعالى : { واغلظ عَلَيْهِمْ } وبماذا يغلظ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم؟ إنه يغلظ لإيضاح المصير الذي ينتظرهم ، وكل كافر هو عابد للدنيا ويخاف أن تضيع منه الدنيا لأنه لا يؤمن بالآخرة ، فأنذره بالآخرة ، وانذره بالعذاب الذي ينتظره ، وقُلْ له : أنت لست خالداً في الدنيا ، وما ينتظرك في الآخرة هول كبير .

ولكن المؤمن يعرف أن الدنيا وراءها آخرة وجنة؛ ولذلك وجدنا المؤمن الذي يقول لرسول الله

صلى الله عليه وسلم في الحرب : ادع لي يا رسول الله لأستشهد . ويقول آخر : أليس بيني وبين دخول الجنة إلا أن أقاتل هؤلاء فيقتلوني؟ فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، فيلقي الرجل بتمرة كان يأكلها وينطلق إلى المعركة ويستشهد .

هذا هو معنى الإيمان ، ولو لم يكن المؤمن واثقاً تمام الثقة أنه سيذهب إلى نعيم ليس بعده نعيم ، لما انطلق إلى المعركة طالباً الشهادة .

إذن : وهم يُقْدمون على الشهادة بهذه الشجاعة تمتلئ أعماقهم بالإيمان وبأحكام الله فيه ، وتدفعهم القناعة التامة – بأن هناك جنة في الآخرة – إلى الاستشهاد ، وفي المقابل نعرف أن الذي ينتظر الكفار هو النار . وهكذا نفهم قوله الحق : { واغلظ عَلَيْهِمْ } أي : أنذرهم بالعذاب الرهيب الذي ينتظرهم عَلَّهُمْ يفيقون . والشاعر يقول :

أنَاةٌ فإنْ لَمْ تُغْنِ عقّب وَعيداً ... فإنْ لَمْ يُغْنِ أغنَتْ عَزَائِمه

وَمَا هُو إلاَّ السيف أو حَدُّ طَرْفِه ... يقيمُ زباه أخْدعَ كُلِّ مَائِلِ

فَهذا دَوَاءُ الدَّاءِ منْ كُلِّ جَاهِل ... وذَاك دَواءُ الداءِ منْ كُلِّ عَاقِل

فمن آمن بالمنطق آمن ، ومن لا يؤمن نقول له : دع كلمة الحق تُعلَنُ على الناس جميعاً ، وأنت حر في أن تؤمن أو لا تؤمن ، وإنْ أردتَ الحياة في كنف الأمة الإسلامية فأهلاً بك ، ولا يهم أن تؤمن أو لا تؤمن؛ لأن الحق قال :

{ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . . } [الكهف : 29]

واعلم أنه يشترط في كل من يدخل الإسلام أن يكون مقتنعاً بهذا الدين ، ومقتنعاً أيضاً بأنه الدين الحق .

والذي لا يؤمن ، يعيش في كنف الأمة الإسلامية وله حريته الكاملة في اتباع عقيدته ، ولكن منهج الحياة وحركتها لابد أن تسير وفقاً لمنهج الله ، وما دام الإيمان هو الذي يسيطر على حركة الحياة { فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ } ؛ فذلك لا يؤثر في حركة المجتمع المؤمن؛ ما دام المجتمع كله سائراً بالمنهج ، وتسير الحياة كما أرادها الحق سبحانه وتعالى .

والله هو خالق الإنسان ، وهو الذي جعله خليفة في الأرض ، وهو يغار على خلقه ، تماماً كما تأتي لشيء جميل صنعه فنان أو عامل ، وتحطم أنت هذا الشيء أمام صانعه . إن قلب الصانع – في هذه الحالة – يمتلئ بالغضب ، ويسرع بعقابك .

والحق سبحانه وتعالى عندما يرى إنساناً يفسد صنعته في الكون ، ويحاول أن يحطمها ، فسبحانه يغار على صنعته؛ لأن الله خلقنا مختارين ، ولكي يكون الحساب عَدْلاً ، لا بد من البلاغ أولاً ، وأن تصل الدعوة إلى آذان الناس ، فمتى وصلت الدعوة فهذا إتمام لرسالة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم يختار الإنسان من بعد ذلك أن يؤمن أو لا يؤمن ، لذلك طلب الحق من رسوله

صلى الله عليه وسلم أن يجاهد الكفار والمنافقين ، وأن تكون الدعوة أولاً بالبرهان والإقناع . فإن لم يَأْتِ البرهان بنتيجة ، وحاول أحدهم أن يقاوم الدعوة بالسلاح فَليُردع بالسلاح .

لذلك يقول الحق سبحانه : { واغلظ عَلَيْهِمْ } ولا تأخذك بهم رأفة؛ لأن الرأفة قد تغرى بالذنب؛ والمثال : حين يسرق الإنسان ثم تتركه بلا عقاب فقد يغريه ذلك ويغري غيره على السرقة . ولكن تنفيذ العقوبة ولو مرة واحدة ، إنما يمثل رادعاً وحماية للمجتمع كله ، ولذلك نجد أن عقاب القاتل بالقتل أنفى للقتل ، وأنت حين تأتي بالقاتل وتقتله أمام عدد من الناس ، فهذا العمل يمنع أي إنسان أن يفكر في القتل ، أو أن يقتل .

إذن : فنحن بالعقوبة نحمي المجتمع من أن تنتشر فيه الجرائم .

وبعض السطحيين يقول لك : هل مَنْ يسرق تُقطع يده؟ نقول لهم : نعم؛ لأنني لو قطعت يد فرد لمنعت جريمة السرقة في المجتمع ، فليس الهدف أن أقطع يداً . ولكن الهدف هو ألا يسرق أحد ، وأنت حين تأتي بالعقوبة وتتأكد من الجريمة؛ إياك أن تأخذ الرحمة في تنفيذ العقاب . فلو أخذتك الرحمة في هذه اللحظة فأنت تشجع الجريمة . وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { الزانية والزاني فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ الله إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين }

[النور : 2]

ولكن الحوار حول العقوبات في الإسلام لا يتوقف ، ونقول لهؤلاء : هل هناك مجتمع ليس فيه تجريم أو عقوبات؟ وانظر إلى المجتمعات غير الدينية ، ألا توجد بها جرائم وعقوبات؟ إن كل مجتمع إنما يحمي نفسه بتوصيف الأفعال التي تعتبر جرائم ، ويضع لها عقوبات ، ولا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص .

إذن : فكل دولة وكل مجتمع لا بد أن تكون فيه عقوبات ، وإلا أصبحت الحياة فوضى يستحيل معها العيش في أمان . فإذا كان حاكم أي دولة بسيطة قد وضع تجريماً وعقوبات ، وهو يحكم فيما لا يملك ، أفليس لله أن يضع التوصيف لما يرى أنه جرائم ، وأن يُشرِّع العقوبة الملائمة لكل جريمة ، وهو سبحانه يحكم فيما يملك؟ وإذا كان سبحانه قد حكم بقطع يد هو خالقها؛ فهو أراد ذلك ليمنع ملايين الأيدي من أن تمتد إلى مال الغير .

ولذلك يجب ألا تطول الفترة بين تنفيذ العقوبة ووقت وقوع الجريمة؛ لأن الذي يتعب الناس في الدنيا ، هو طول الإجراءات والأخذ والرد ، فينسى النساس الجريمة ، وتأخذهم الشفقة والرحمة بالمجرم ، مع أنه لو وُقِّعتْ العقوبة فور حدوث الجريمة؛ لما طلب أحد الرأفة بالمجرم .

والحق تبارك وتعالى يقول : { ياأيها النبي جَاهِدِ الكفار والمنافقين واغلظ عَلَيْهِمْ } وقد عرفنا كيف يكون الجهاد مع الكافرين ، فماذا يكون الجهاد مع المنافقين وهم الذين يتظاهرون

بالإيمان؟

نقول : إن الجهاد معهم هو توقيع العقاب عليهم ، وقد كان المنافقون يرتكبون الإثم ، ويسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فينكرونه ، فيصفح عنهم ، ويوضح الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم : اغلظ عليهم إذا ارتكبوا إثماً ، وقد وجدنا في سورة التوبة أن المنافقين يحلفون كذباً في كثير من الأمور ، فيذكر الحق سبحانه : { وَيَحْلِفُونَ بالله إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ . . . } [التوبة : 56]

{ يَحْلِفُونَ بالله مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الكفر . . . } [التوبة : 74]

{ يَحْلِفُونَ بالله لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ . . . } [التوبة : 62]

وفي سورة المجادلة يقول سبحانه : { وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ } فكأنما كلما حلفوا صدَّقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعفا عنهم ، ففضحهم الله بأنهم كاذبون ، وطلب من رسوله صلى الله عليه وسلم أن يُغلظ عليهم في العقوبة . ولكن هل غلظة الرسول صلى الله عليه وسلم معهم تعفيهم من عقاب الآخرة؟ نقول : لا لأن الغلظة عليهم في الدنيا لضمان سلامة حركة الحياة ، وليعلم كل منافق أنه مفضوح من الله . ولكن هذا لا يعفي من عذاب الآخرة . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصير } والمصير هو المرجع الأخير لأي شيء ، وكل عقوبة يكون لها مظنة ألا تمتد إلى الفترة المقررة لها ، فالذي عاقب قد يعفو ، وقد يخرج الإنسان قبل انتهاء مدة العقوبة؛ كأن يكون هناك إفراج صحي ، أو بقضاء ثلاثة أرباع المدة أو غير ذلك . ولكن العقوبة للمنافقين تكون بلا خروج ، وفي هذا ترهيب منها؛ لأنك لو علمت يقيناً أن العقوبة أبدية ، فسوف تخشى الإقدام على الجريمة .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى عن الحلف والكذب الذي كان يفعله المنافقون؛ فيقول سبحانه : { يَحْلِفُونَ بالله مَا قَالُواْ . . . }

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (74)

وفي هذه الآية الكريمة يبين لنا الحق سبحانه وتعالى حلقات الحلف بالكذب للمنافقين؛ فهم يحلفون أنهم ما قالوا ، ويجعلون الله عرضة لأيمانهم؛ مع أنهم قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد أن أعلنوا الإسلام بلسانهم ، وإسلامهم إسلامٌ مُدَّعَى .

ولهذه الآية الكريمة قصة وقعت أحداثها في غزوة تبوك التي حارب المسلمون فيها الروم ، وكانت أول قتال بين المسلمين وغير العرب ، حيث دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذه الغزوة في فترة شديدة الحرارة ، وكان كل واحد في هذه الفترة يفضل الجلوس في الأخياف ، أي الحدائق

الصغيرة ، ويجلسون تحت النخيل والشجر في جو رطب ولا يرغبون في القيام من الظل .
وعندما دعا رسول الله للجهاد في سبيل الله ، والذهاب إلى قتال الروم ، تلمَّس المنافقون الأعذار الكاذبة حتى لا يذهبوا للجهاد؛ فظلَّ القرآن ينزل في هؤلاء الذين تخلفوا عن هذه الغزوة شهرين كاملين ، فقال رجل اسمه الجلاس بن سويد : والله إن كان ما يقوله محمد عن الذين تخلفوا عن القتال صِدْقاً فنحن شرٌّ من الحمير . وهنا قال عامر بن قيس الأنصاري : لقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم شر من الحمير . وأنت يا جلاس شر من الحمار . وهنا قام عدد من المنافقين ليفتكوا بعامر بن قيس الأنصاري؛ لأن الجلاس بن سويد كان من سادة قومه . وذهب عامر بن قيس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بما حدث ، فاستدعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن سويد وسأله عن الخبر ، فحلف بالله أن كل ما قاله عامر بن قيس لم يحدث . وتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن حلف بالله . وهنا رفع عامر بن قيس يده إلى السماء ، وقال : اللهم إني أسألك أن تنزل على عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم تصديق الصادق وتكذيب الكاذب . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « آمين » . ولم ينتهوا من الدعاء حتى نزل الوحي بقول الحق جل جلاله : { يَحْلِفُونَ بالله مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الكفر وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ } .
وهكذا حسمت هذه الآية الكريمة الموقف . وأظهرت من هو الصادق ومن هو الكاذب؛ فيما رواه عامر بن قيس وأنكره الجلاس .
ولكن الآية الكريمة تجاوزت ما عُرف من الحادثة إلى ما لم يبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال سبحانه { وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ } ذلك أن الله تبارك وتعالى أراد أن يُعلم المنافقين أن سبحانه يخبر نبيه بما يخفيه المنافقون عنه ، ولو نزلت الآية فقط في حادثة الحلف الكذب ، لقال المنافقون : ما عرف محمد – عليه الصلاة والسلام – إلا ما قاله عامر ، ولكن هناك أشياء لم يسمعها عامر؛ وهم قالوها ، ذلك أن المنافقين كانوا قد تآمروا على حياة النبي صلى الله عليه وسلم واتفقوا على قتله عند عبوره العقبة ، والعقبة هذه هي مجموعة من الصخور العالية التي تعترض الطريق ، فيتحايلون على اجتياز هذه العقبة بأن يعبروها أحياناً من أنفاق منخفضة ، وأحياناً يعبرونها بأن يصعدوا فوقها ثم ينزلوا .

ودبر المنافقون أن يدفعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعلى الصخور ، فيسقط في الوادي ، ولكن حذيفة بن اليمان الذي كان يسير خلف ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنبه للمؤامرة ، فهرب المنافقون ، وهكذا لم ينالوا ما يريدون ، مثلما لم ينالوا ما أرادوه عندما أتى رسول الله صلى الله مهاجراً إلى المدينة ، فقد كانوا يعدّون العُدَّة ليجعلوا عبد الله بن أبيّ ملكاً عليهم ، ولكن مجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُمكنهم من ذلك .

وقيل : إنهم تآمروا على قتل عامر بن قيس؛ لأنه أبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قاله الجلاس بن سويد ، ولكنهم لم يتمكنوا .

وقول الحق سبحانه وتعالى : { وَمَا نقموا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ الله وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ } و { نقموا } تعني : كرهوا ، والغنى – كما نعلم – أمر لا يُكره ، ولكن وروده هنا دليل على فساد طبعهم وعدم الإنصاف في حكمهم؛ لأن الغنى والأمن الذي أصابهم ليس عيباً ولا يولد كراهية . بل كان من الطبيعي أن يولد حباً وتفانياً في الإيمان .

والحق سبحانه وتعالى يوضح لهم : ماذا تعيبون على محمد؟ وماذا تكرهون فيه؟ هل تكرهونه وقد جاءكم بالعزة والغنى؟

وقبل أن يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان الذين كرهوا مجيء الرسول إلى المدينة فقراء لا يملكون شيئاً ، ولكنهم لما نافقوا ودخلوا في الإسلام ، أخذوا من الغنائم ، وأغناهم الله؛ بل إن الجلاس بن سويد لما قُتِل له غلام دفع له رسول الله صلى الله عليه وسلم اثني عشر ألف درهم ديّة . إذن : فقد جاء على يد الرسول صلى الله عليه وسلم الغنى للجميع ، فهل هذا أمر تكرهونه؟ طبعاً لا . ولكنه دليل على فساد طباعكم وعدم إنصافكم في الحكم ، وما دام الله سبحانه وتعالى قد أغناكم بمجيء رسوله؛ ما كان يصح أن يُعاب ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل كان يجب أن يُمدح به ، وأن تتفانوا في الإيمان به ونصرته .

وقول الحق سبحانه وتعالى : { مِن فَضْلِهِ } يلفتنا إلى أسلوب القرآن الكريم . ولقد قال الحق سبحانه وتعالى : { الله وَرَسُولُهُ } وكان قياس كلام البشر أن يقال « الله ورسوله من فضلهما » ، ولكنه قال : { مِن فَضْلِهِ } لأن الله لا يُثنَّى مع أحد ، ولو كان محمد بن عبد الله .

ولذلك عندما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً يخطب ويقول : من أطاع الله ورسوله فقد نجا ، ومن عصاهما فقد هلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بئس خطيب القوم أنت؛ لأن الخطيب جمع جَمْعَ تثنية بين الله ورسوله .

وهنا توقف الخطيب وقال : فماذا أقول يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل ومَنْ يعْص الله ورسوله فقد هلك ، ولا تقل : عصاهما ، لا تجمع مع الله أحداً ولا تُثنِّ مع الله أحداً؛ ولذلك نجد القرآن الكريم لم يَقُلْ « أغناهما الله ورسوله من فضلهما » ، ولكنه قال : { مِن فَضْلِهِ } لأن الفضل واحد . فإن كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فضل؛ فهو من فضل الله .

وعلى أية حال فالله لا يُثنَّى معه أحد؛ ولذلك نجد في القرآن الكريم : { يَحْلِفُونَ بالله لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ } [التوبة : 62]

وهنا نرى أيضاً أن الحق سبحانه قد استخدم صيغة المفرد في الرضا؛ لأن رضا الله سبحانه وتعالى

ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم يتحدان ، ولأنه إذا جاء اسم الله فلا يُثنَّى معه أحد .
وبعد أن فضح الحق سبحانه وتعالى المنافقين وبيّن ما في قلوبهم؛ لم تتخلَّ رحمته عنهم؛ لأنه سبحانه وتعالى رحيم بعباده ، ولذلك فتح لهم باب التوبة فقال : { فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ } ، وفَتْحُ باب التوبة رحمة لحركة الحياة كلها؛ فلو أغلق الله باب التوبة لأصبح كل من ارتكب ذنباً مصيره للنار . وإذا علم الإنسان أن مصيره للعذاب مهما فعل ، فلا بد أن يستشري في الذنب ، ويزداد في الإثم ، ما دام لا فرق بين ذنب واحد وذنوب متعددة . ولكن حين يعلم أن أي إنسان يخطئ أن باب التوبة مفتوح؛ فهو لا يستشري في الإثم ، ثم إن الذي يعاني من الشرور والآثام حقيقة هو المجتمع ككل ، فإذا وُجد لص خطير مثلاً؛ فالذي يعاني من سرقاته هو المجتمع . وإذا وُجد قاتل محترف فالذي يعاني من جرائمه هم الذين سيقتلهم من أفراد المجتمع .
إذن : ففتح باب التوبة رحمة للمجتمع؛ لأنها لا تدفع المجرم إلى الاستشراء في إجرامه . وإذا نظرت إلى الآية الكريمة ، فالله سبحانه وتعالى بعد أن أظهر الحق ، وبيّن للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين أشياء كان المنافقون يخفونها؛ فتح للمنافقين باب التوبة ، وحينئذ قال الجلاس بن سويد زعيم المنافقين : يا رسول الله . لقد عرض الله عليّ التوبة . والله قد قلت ما قاله عامر ، وإن عامراً لَصَادقٌ فيما قاله عني . وتاب الجلاس وحسُن إسلامه .
أما الذين تُعرَض عليهم التوبة ولا يتوبون إلى الله ، فقد قال سبحانه :
{ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ الله عَذَاباً أَلِيماً فِي الدنيا والآخرة وَمَا لَهُمْ فِي الأرض مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ } .
إذن : فجزاء من يرفض التوبة ولا يعترف بخطئه هو العذاب الأليم ، لا في الآخرة فقط ، ولكن في الدنيا والآخرة .

وعذاب الدنيا إما بالقتل وإما بالفضيحة ، وعذاب الآخرة في الدرك الأسفل من النار .
ولكن قول الحق سبحانه وتعالى : { وَمَا لَهُمْ فِي الأرض مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ } قد يفهمه بعض الناس فهماً خاطئاً ، بأن العذاب في الدنيا فقط ، ولكن هناك أرض في الدنيا؛ وأرض في الآخرة هي أرض المعاد؛ مصداقاً لقوله تعالى : { يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسموات . . . } [إبراهيم : 48]
إذن : فكلمة { الأرض } تعطينا صورتين في الدنيا وفي الآخرة .
وقوله تعالى : { وَمَا لَهُمْ فِي الأرض مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ } يوضح لنا أن الوليّ هو القريب منك الذي تفزع إليه عند الشدائد ، ولا تفزع عند الشدائد إلا لمن تطمع أن ينصرك ، أو لمن هو أقوى منك ، أما النصير فهو من تطلب منه النصرة . وقد يكون من البعيدين عنك ولا ترتبط به ولاية ، إذن : فلا الوليّ القريب منك ، ولا الغريب الذي قد تفزع إليه لينصرك يستطيعان أن يفعلا لك شيئاً ، فلا نجاة من عذاب الله لمن كفر أو نافق .

ثم يعرض الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى من صور المنافقين؛ فيقول : { وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ الله لَئِنْ . . . }

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75)

{ وَمِنْهُمْ } أي : من المنافقين الذين عرض الله صوراً كثيرة لهم في هذه السورة الكريمة ، فقال : { وَمِنْهُمْ } ، و { وَمِنْهُمْ } و { وَمِنْهُمْ } ، واختلفت روايات المفسرين والرواة في مدلول قوله تعالى { وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ الله } . فقال بعضهم : إنه ثعلبة بن حاطب ، وقال آخرون : إنه مُعتِّب بن قشير ، وقال رأى ثالث : إنه الجد بن قيس ، وقال قائل رابع : إنه حاطب بن أبي بلتعة . كل هذه خلافات تحتملها الآية الكريمة؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال :

{ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ الله لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصالحين } ولم يقل الحق : « فلما آتيناه من فضلنا بخل به » بحيث ينطبق على حالة واحدة ، ولكن الحق تبارك وتعالى جاء بها بصيغة الجمع فقال سبحانه : { فَلَمَّآ آتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ . . . } [التوبة : 76]

إذن : فهناك جمع . والروايات كلها يمكن أن تكون صحيحة في أن الآية الكريمة نزلت في أفراد متعددين ، وسبحانه يقول : { وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ الله } فكيف يكون للمنافقين عهد مع الله؟ نقول : لقد عُومل هؤلاء المنافقون بظواهر ألسنتهم ، فهم قد أعلنوا إسلامهم ، وكان الواحد منهم يقول : أعاهد الله على كذا وكذا؛ تماماً كما يأتي الواحد منهم للصلاة ويحرص بعضهم على التواجد في الصف الأول للمصلين ، فهل منعه النفاق من الصلاة ظاهراً؟ لم يمنعه أحد ، كذلك عندما يعاهد الله فهو يعاهده بظاهر لسانه .

وقصة الآية : أن رجلاً فقيراً من الأنصار ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إني فقير مملق – أي شديد الفقر – فادع لي الله يا رسول الله أن يوسع عليّ دنياي . وبفطنة النبوة قال صلى الله عليه وسلم : إن قليلاً تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه ، فعاوده وقال : ادع الله لي أن يوسّع عليّ . فدعا له فوسّع الله عليه .

ولسائل أن يسأل : كيف يستجيب الرسول ويدعو لمنافق؟ وإذا كان الرسول قد دعا ترضية له وتأليفاً لقلبه؛ فكيف يجيب الله رسوله في طلب منافق منه؟

ونقول : ربما كان ذلك؛ لأن المنافق أراد أن يجرب : أرسول الله رسول حق ، بحيث إن دعا الله أجيب؟

فلما دعا رسول الله؛ أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُعلم هذا المنافق أنه : نعم هو رسول الله؛ وإن دعا لأي أحد يُجِبْه الله ، فتكون هذه للنبي صلى الله عليه وسلم .

فلما دعا رسول الله لثعلبة ، أو للجد بن قيس ، أو لحاطب بن أبي بلتعة؛ استجاب الله لدعاء رسوله؛ وأعطى مَنْ سأل الدعاء مالاً وفيراً ، وقالوا : ولقد تكاثر مال ثعلبة ، وكانت ثروته من

الأغنام قد تناسلت حتى ضاقت بها شعَاب المدينة؛ فهرب بها إلى شعاب الجبال ، وإلى الصحراء الواسعة ، فامتلأت ، فشغلته أمواله أول ما شغلته عن صلاة الجماعة ، وأصبح لا يذهب للصلاة إلا في يوم الجمعة؛ فلما كثرت كثرة فاحشة؛ شغلته أيضاً عن صلاة الجمعة .

وفي ذلك دليل صدق لتنبؤ رسول الله له . إذن : فكل الأمر إنما جاء تأييداً لمنطق الرسول معهم؛ حتى يُسفِّههم في أنهم نافقوا في الإسلام .

وبعد ذلك سأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إنه في الشعاب شغله ماله . فقال : يا ويح ثعلبة . وأرسل إليه عامل الصدقة؛ لأن ثعلبة قد عاهد الله وقال : { لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ } فذهب عامل الصدقة إليه ، فلما قال له : هات ما كتب الله عليك من الصدقة من مالك . قال : أهي أخت الجزية؟ وذكَّره عامل الصدقة : أنت الذي عاهدت ، ومن ضمن عهدك أنك إن أوتيت تصدقت وكنت من الصالحين ، فما لك لا توفي بالعهد . ورد ثعلبة على عامل الصدقة : اذهب حتى أرى رأيي .

إذن : هو قد عاهد الله ، ودعا رسول الله ، واستجاب الله له ، وكثرت أمواله ، وبعد ذلك صدَّقَ الله نبيه في قوله : « قليل تؤدي شكره ، خير من كثير لا تطيقه » ، فلما عاد عامل الصدقة إلى رسول الله بردِّ ثعلبة . قال صلى الله عليه وسلم : ويح ثعلبة . فلما علم ثعلبة أن قرآناً قد نزل فيه ، انزعج انزعاجاً شديداً ، وأسرع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرض عليه الزكاة . فلم يقبلها رسول الله منه ، فأخذ يتردد عليه للقبول ، فلم يقبلها رسول الله منه . لقد أراد صلى الله عليه وسلم بذلك أن يثبت أن الله وفقراء الله في غنى عن مالك يا ثعلبة .

فلما انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى جاء ثعلبة بالصدقات المؤخرة عليه كلها إلى أبي بكر ، فقال أبو بكر : ما كان لرسول الله أن يمتنع عنها ثم يأخذها أبو بكر .

لما توفي أبو بكر جاء إلى عمر ، فقال عمر مقالة أبي بكر . وجاء لعثمان ، إلا أنه قبل أن يصل إليه كان قد هلك في عهد عثمان .

{ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ } ، وكلمة { لَئِنْ } قَسَم ، والقَسَم هو صورة العهد ، فكأنه قال : أقسم بالله إن أتاني الله مالاً لأفعلنَّ كذا . وقد فهمنا أنها قَسَم من وجود اللام في جواب القَسَم { لَنَصَّدَّقَنَّ } و « الصدقة » هي الصدقة الواجبة أي الزكاة ، و { لَنَكُونَنَّ مِنَ الصالحين } أي : نزيد في التطوعات ، والمروءة ، والأريحية ، وكل ما يدل على الصلاح .

ويقول الحق بعد ذلك : { فَلَمَّآ آتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ . . . }

فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76)

ولله عطاءان : عطاء الأسباب ، وعطاء التفضل . و « عطاء الأسباب » يتمثل في أن يَجدَّ الإنسان في أي عمل من الأعمال؛ فيعطيه الله ثمرة عمله؛ مؤمناً كان أو كافراً؛ طائعاً أو عاصياً؛ لأن الإنسان قد أخذ الأسباب وأتقنها ، ولذلك تجد بعضاً من الكافرين بالله وهم يعيشون في سعة؛ لأنهم يحسنون الأسباب ، وما داموا قد أحسنوا الأسباب ، وهم عبيد الله أيضاً ، وسبحانه هو الذي استدعاهم للوجود ، فضمن لهم أن تستجيب لهم الأسباب ، ولا تضِنّ عليهم؛ فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، وعلى الطائع والعاصي ، والمطر ينزل على الأرض . وكذلك كل شيء في الأرض تستجيب عناصره لما يزرعون أو لما يفعلون ، إذن فهذا عطاء الأسباب .

ولكن الحق سبحانه يستر عطاء الفضل في عطاء الأسباب ، كمن يسير في طريق مجهول فيجد كنزاً ، أو أن ثمار محصوله لا يأتي عليها ريح أو إعصار يقلل من ناتج المحصول . ويبارك له الحق سبحانه في بيع محصوله ، ويبارك له في رزقه منه ، فلا يصرفه فيما يضيع ويذهب ماله . وهذا كله اسمه عطاء الفضل . وعطاء الأسباب عَامٌّ للناس جميعاً . أما عطاء الفضل فهو خاص بأولياء الله الذين أخلصوا عملهم لله طاعة وامتثالاً .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

{ فَلَمَّآ آتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ } دليل على أن الرزق الذي جاءهم لم يخضع للأسباب وحدها . بل زاد عما تعطيه الأسباب بفضل من الله . فالتكاثر الذي حدث في أغنام ثعلبة لم يكن تكاثراً بالأسباب فقط ، بل فيه بركة جعلت البطن الواحدة من الشاة تأتي بأكثر من وليد ، والعشب الذي ترعاه يُدِرّ كمية كبيرة من اللبن .

{ فَلَمَّآ آتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ } ما هو البخل؟ هناك في اللغة أسماء للامتناع عن العطاء ، فهناك بُخْل ، وشُح ، وكزازة ، وكلها أسماء للامتناع عن عطاء شيء ، لكن منازل العطاء والبخل تختلف؛ بمعنى أن هناك إنساناً لا يعطي إلا من سأله؛ تلك منزلة ، وإنساناً آخر لا يعطي كل من سأله ، بل يعطي من سأله بأسباب تثير عواطفه نحوه ، كأن يقول : ولدي مريض ، أو احترق بيتي ، فالسائل هنا لا يسأل فقط ، ولكنه يجيء بعلة السؤال مثيرة للعواطف . وهناك من يعطي بغير سؤال .

هي إذن : ثلاث مراحل للعطاء؛ واحد يعطي من يراه هكذا؛ مظنة أن حالته رقيقة من غير أن يسأل ، وهذه منزلة من منازل القرب من الله ، ينير الله بها بصائر قوم لتكون يدهم هي يد الله عند خلق الله . بل إن هناك أناساً يعاتبون أنفسهم إذا جاء إنسان فسألهم صدقة أو معونة؛ كالرجل الذي ذهب فطرق الباب ، فخرج إليه صاحب البيت فسأله عما يريد ، فطلب السائل منه مالاً فدخل صاحب البيت بيته وأخذ شيئاً من مال وأعطاه للسائل ، فعلمت امرأته أنه جاء يسأله مالاً فأعطاه ، ولكن الزوج الذي أعطى مالاً رجع يبكي .

فقالت له : وما يبكيك وقد أجبْتَهُ إلى مطلبه؟ فقال : يبكيني أنني تركته ليسألني ، أي : أنه يبكي لأنه لم يملك فِطْنَةً تجعله يستشفُّ مسائل الناس من حوله ليعطي المحتاجين بغير سؤال .

إذن : فواحد يعطي عن مسألة؛ تلك مرتبة ، وهناك من يعطي من غير مسألة ، بل يعطي عن فضل عنده ، أي : يملك الكثير ويعطي منه . وثالث : يعطي نصف ما عنده؛ يقاسمه فيما يملك ، أو يعطي أكثر ما عنده حسب ما ينقدح في ذهنه من حاجة الإنسان المعطي .

هي إذن ثلاث مراحل : رجل يعطي من غير سؤال ، ورجل يعطي بسؤال فيه أسباب مثيرة ومُهيِّجة للعاطفة ، ورجل يعطي بمجرد السؤال .

فمن هو البخيل؟

أفظع درجة للبخل؛ أن يبخل الرجل على من يسأله مسألة مُسبِّبة بأحداث تهيج العواطف ، ومع ذلك لا يرق قلبه ، هذا هو البخيل . { فَلَمَّآ آتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ } واحد من هؤلاء لم يبخل فقط ، بل انصرف عن الذي يسأله ، مثل الذي انصرف عن العامل الذي جاء يأخذ الصدقة ، وقد كان عليه – مثلاً – أن يُجلس العامل ، ويقدم له التحية الواجبة؛ ثم يقول له سنرى رأينا ، ولكنه تولَّى وأعرض عنه .

ويأتي الحق هنا بعقاب من يسلك مثل هذا السلوك فيقول : { فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إلى . . . }

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (77)

وقوله سبحانه : { فَأَعْقَبَهُمْ } أي : جعل العاقبة لهذا التصرف؛ أن جعل في قلوبهم النفاق { إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ } أي : إلى يوم القيامة . وما دام الله قد قال هذا فمعناه أن الذي عمل مثل هذا العمل ، وسئل الصدقة فمنعها وبخل وتولى وأعرض ، فهذا إعلام من الله أن هذا الإنسان لا يموت على إيمان أبداً . ولم يمت واحد من هؤلاء على الإيمان ، وقد كان هذا العقاب بسبب أنهم أخلفوا الله ما وعدوه فقال سبحانه : { بِمَآ أَخْلَفُواْ الله مَا وَعَدُوهُ } وكذلك جاءهم العقاب بسبب أنهم : { كَانُواْ يَكْذِبُونَ } فكأن الواحد منهم قد كذب كلمة العهد أولاً ، وكذب ثانياً في أنه قال : أهي أخت الجزية؟ مع أنه يعرف أن الزكاة عن المال هي ركن من أركان الإسلام .

ويقول الحق بعد ذلك : { أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ الله يَعْلَمُ . . . }

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (78)

والعلم هنا مقصود به معرفة الخبر الذي لم يكن معروفاً قبل ذلك ، وقوله سبحانه : { أَلَمْ يَعْلَمُواْ } فيه همزة الاستفهام؛ ولم النافية مثل قول الحق سبحانه : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ

الفيل } [الفيل : 1]

ونحن نعرف أن الإخبار بين المتكلم والمخاطب له عدة صور : الصورة الأولى؛ ان يخبر المتكلم المخاطب بما عنده ، وهذا « خبر » . والصورة الثانية : أن لا يخبر المتكلم مخاطبة بالخبر ، بل يجعل المتكلم نفسه يقو الخبر ، مثل قول أحد المحسنين : ألم أحسن إليك؟ وكان في استطاعته أن يقول « أنا أحسنت إليك » ، فيكون خبراً من جهته ، لكنه يريد أن يعطي للخبر قوة ، فجعل الكلام من المسْتَفهَم منه ، وكأن عرض الأمر مَعْرِض السؤال في معرض النفي؛ ثقة في أن المخاطَب لن يجد إلا جواباً واحداً هو : نعم أحسنت إليّ .

إذن : فالخبر إما أن يكون خبراً مجرداً عن النفي ، أو خبراً معه النفي ، أو خبراً معه الاستفهام .

وأقوى أنواع الإخبار : الخبر الموجود معه النفي ، والموجود مع النفي الاستفهام؛ لأن الخبر على الصورة الأولى يكون من المتكلم ، والخبر من المتكلم قابل لأن يكون صادقاً وأن يكون كاذباً .

ولكن الاستفهام يقتضي جواباً من المخاطَب ، ولا يجيب المخاطَب إلا بما كان في نفس المتكلم؛ ولو كان المتكلم يعلم أن المخاطَب قد ينكر فلن يسأله . أو يقول لإنسان : أنا راضي ذمتك ، وهذا القول يعني أن قائله علم أنه لا حق غير هذا ، ومن يدير الكلام في عقله لن يجد إلا أن ما يسمعه هو الحق .

{ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ الله يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ } وما هو السر؟ وما هي النحوى؟ السر : هو ما تكتمه في نفسك ولا تطلع عليه أحداً ، فليس السر هو ما تُسِرُّ به للغير؛ لأن هذه هي النجوى ، وأصل النجوى البُعْد .

ويقال : فلان بنجوة عن كذا ، أي : بعيد عن كذا . وأصل النجوى أيضاً المكان المرتفع في الجبل ، فكأن المرتفع بالجبل بعيد عن مستوى سطح الأرض . وحين يرغب إنسان أن يكلم أحداً بكلام لا يسمعه غيرهما؛ فهو يستأذنه في الابتعاد عن بقية الجلوس ليتكلم معه كما يريد ، أو يُخفض من صوته فلا يسمعه سوى الإنسان الذي يريد أن يهمس له بكلمة ، ولا يسمعها أحد آخر ، ولذلك سموها المناجاة؛ وهي كلام لا يسمعه القريب؛ لأنك خفضت صوتك خَفْضاً يخفي على القريب ، فكأنه صار بعيداً .

إذن : فالسر : هو ما احتفظت به في نفسك ، والنجوى : هو ما أسررت به للغير بحيث لا يعلمه من يجالسك .

والذين منعوا الصدقة ، لا بد أنهم اتفقوا على ذلك فيما بينهم ، وأنهم تكلموا في هذا الأمر – منع الصدقة – بعد أن صاروا أغنياء ولهم أموال كثيرة ، وتمردوا على منطق الإسلام مع أنهم كانوا حريصين دائماً أن يظهروا في إسلامهم مظهراً يفوق المسلمين الحقيقيين ، فكانوا دائماً في الصفوف الأولى للصلاة كي يستروا نفاقهم .

وحين يوضح الحق سبحانه وتعالى أنهم أسرّوا في نفوسهم كلاماً؛ فهذا الإسرار في النفس حين يُخبر به الله؛ هو هتك لحجاب المكان والزمان معاً ، وأعلم سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بما دار في هذا الإسرار ، كما هتك له من قبل حجب الزمان الماضي . وذلك في الأمور التي لم يشهدها ، ولم يسمعها من معلم ، ولم يقرأها في كتاب لأنه أمّي ، فأخبر رسول الله عن أكثر من أمر لم يشهده ولم يسمعه ولم يقرأه .

إذن : من أين جاء بذلك؟ أعلمه به الحق سبحانه الذي يعلم خُبْأة السموات والأرض ، وهتك له أيضاً حجاب الزمن المستقبل؛ فعلم صلى الله عليه وسلم الأحداث قبل أن تقع ، وأعلمه إياها مَنْ ملكَ ناصية الزمان ، وملك ناصية المكان ، وملك ناصية الأحداث . وهذا هو هَتْكُ حجاب الزمن المستقبل ، وهتك سبحانه لرسوله حجاب المكان ، فكان صلى الله عليه وسلم يخبرهم عن شيء في نفوسهم ، فقد أوحى له الحق : { وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ . . . } [المجادلة : 8]

بالله عندما يسمع الرجل من هؤلاء لما قاله في نفسه ، ويخبره رسول الله بما قال ، فمن اذلي هتك الحجاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

إن الذي هتك الحجاب لرسول الله هو من يعلم السرّ وأخفى؛ فلا توجد حجب غائبة عن الله؛ لأن حجب الغيب إنما تكون على البشر؛ حجاب ماضٍ ، وحجاب مستقبل ، وحجاب مكان ، وحجاب زمان .

{ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ الله يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ الله عَلاَّمُ الغيوب } أي : أن علم الله ليس مقصوراً على معرفة أمورهم هم ، بل علم الله سرّهم ونجواهم؛ لأن صفته القيومية ، وأنه علام الغيوب؛ يعلم غيب هذا ، وغيب هذا ، وغيب هذا ، وجاءت المبالغة من تكرار علم غيب كل أحد .

إذن : { عَلاَّمُ الغيوب } تعني أنه يعلم حتى ما حاولْتَ كتمه وستره ، فقد قال سبحانه : { إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السماوات أَوْ فِي الأرض يَأْتِ بِهَا الله . . . } [لقمان : 16]

إذن : فعلم الحق جل جلاله لا يغيب عنه شيء .

ثم ينقلنا الحق سبحانه وتعالى إلى صورة أخرى من صور المنافقين وما يفعلونه بالمؤمنين . . فقال جل جلاله : { الذين يَلْمِزُونَ المطوعين . . . }

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (79)

واللمز : معناه العيب ، ولكن بطريق خفي ، كإشارة بالعين أو باليد أو بالفم أو بغير ذلك . إذن : فهناك مجموعة من المنافقين يعيبون في المطوّعين لجمع الزكاة من المؤمنين ، ومن هؤلاء المنافقين من يعيب بالقول ، ومن يعيب بالفعل ، ومن يعيب بالإشارة ، والمطوّعون هم الذين يتطوعون بشيء زائد من جنس ما فرض الله .

فالله فرض مثلاً خمس صلوات ، وهناك من يصلي خمس صلوات أخرى تطوعاً ، وفرض الحق الزكاة اثنين ونصفاً بالمائة ، وهناك من يصرف عشرة بالمائة تطوعاً ، وفرض الحق صيام شهر رمضان ، وهناك من يصوم فوق كل ذلك اثنين وخميس . وهذا ما نسميه دخول المؤمن في مقام الإحسان؛ بان تتقرب إلى الله بما يزيد على ما فرضه الله عليك ، من جنس ما فرضه الله .

وأنت إذ أديت المفروض تكون قد التزمت بالمنهج ، وقد سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فرائض الإسلام ثم قال : لا ازيد ولا أنقص ، فقال الرسول الكريم : « أفلح إن صدق »

والزيادة على ما فرضه الله ، ومن جنس ما فُرِضَ يكون له ملحظان : الأول : أن العبد يشهد لربه بالرحمة؛ لأنه كُلِّفَ دون ما يستحق . والملحظ الثاني : هو أن عمل الطاعة قد خفّف على المؤمن فاستراح بها . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة : « أرحنا بها يا بلال » إذن : فالمطوّع هو الذي يزيد على ما فرض الله عليه من جنس ما فرض الله؛ وهؤلاء هم المحسنون؛ الذين قال الحق عنهم في سورة الذاريات : { إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ * وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لَّلسَّآئِلِ والمحروم } [الذاريات : 15-19]

فالمنهج لا يلزمني بأن أنام قليلاً من الليل وأقضي بقيته في الصلاة ، ولم يلزمني أحد بالاستغفار في الأسحار . ولم يقل الله سبحانه في هذه الآية إن في المال حقاً معلوماً؛ لأن الإنسان المؤمن هنا يعطي بأكثر مما فُرِض . وعندما يتطوع مؤمن ويزيد على ما فرض الله ، أيستحق أن يُذَمَّ ويُعَابَ ويُلْمز؟ أم أنه يستحق أن يُكرَّم ويُقدَّر؟ ولكنّه اختلال موازين المنافقين في الحكم على الأشياء . لذلك اعتبروا الحسنة نقيصة ، تماماً كالذي يُخرج ماله للفقراء ، ونجد من يسخر منه بالقول عنه « إنه أبله » ، مع أن المؤمن حين يتصدق كثيراً؛ فهو يشيع فائدة ماله في المجتمع ، وهو الأكثر ذكاء منهم؛ لأنهم أنفقوا المال على أنفسهم فَأَفْنَوْه ، بينما تصدق هو به فأبقاه .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

{ الذين يَلْمِزُونَ المطوعين مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ } لها واقعة ، فقد هاجر عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة ، وترك أمواله وكل ما يملك في مكة ، وآخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، فجعل لكل رجل من الأنصار رجلاً من المهاجرين يشاركه في ماله .

ولما جاء عبدالرحمن بن عوف قال له أخوه من الأنصار : أقاسمك مالي . قال : بارك الله لك في مالك ، دُلَّني على السوق . وذهب إلى السوق . وبارك الله له في تجارته . فكان يقسم ربحه نصفين نصفاً للصدقة ونصفاً لأهله . وقد جاء عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : يا رسول الله اكتسبت ثمانية آلاف درهم أقرض الله أربعة وأبقي لأهلي أربعة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بارك الله لك فيما أقرضت وفيما أبقيت » .

وحينما مات عبدالرحمن بن عوف أحصوا ثروته ، وحدث خلاف في تقديرها ، وأراد الورثة أن يسترضوا زوجته الرابعة ، وكان اسمها « تماضر » بأن يعطوها ثمانين ألف درهم ، ولما كانت تماضر واحدة من أربع نساء ، والنساء الأربع يرثن ثُمُنَ الثروة ، أي : أن قيمة الثروة كلها على أقل تقدير بلغت مليونين وخمسمائة وستين درهماً . وكان عبدالرحمن لا يتاجر إلا في ماله .

فلما بلغ المنافقين ما تصدق به عبدالرحمن بن عوف قالوا : ما تصدق عبدالرحمن إلا رياء وسمعة . وهل الرياء يطلع عليه الناس أم يعرفه الله وحده؟ وجاء عاصم بن عدي ، وكان صاحب بستان أعطى ثمراً كثيراً ، فجاء بمائة حمْل من التمر وتصدق بها ، فقال المنافقون : والله ما فعل عاصم هذا إلا رياء . وجاء رجل يُدْعَى أبا عقيل الأنصاري إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، لقد بِتُّ ليلتي أعمل ، وأخذت أجري صاعين من التمر ، احتفظت لأهلي بصاعٍ وجئتك بصاع لأتصدق به . قال المنافقون : تصدق بصاعٍ من التمر ، الله ورسوله غني عن صاعك يا أبا عقيل .

هم إذن قد عابوا على عبدالرحمن بن عوف الذي تصدق بالكثير وقالوا هذا رياء ، وعندما جاء عاصم بن عديّ قالوا : يرائي بالتصدق بنصف ثمار حديقته ، وعندما جاء من لا يملك إلا صاع تمر يتصدق به قالوا : الله ورسوله غني عن تمرك ، لقد سخروا ممن أعطى الكثير ، وسخروا ممن أعطى القليل . وكان يجب أن يُمدَح المتصدقون ولا يُسخَر منهم؛ لأن كلاً منهم تصدق على قدر طاقته ، وهم أعطوا منه فضل ما أعطاهم الله؛ قلَّ أو كثُر .

ولذلك فمَنْ يسخر من هؤلاء المؤمنين؛ لابد أن يُلاَمَ على الخُلق السيء الذي تمثل في مقابلة السلوك الإيماني بالسخرية والاستهزاء ، ولذلك كان جزاء الساخرين أن سخر الله منهم ، وجعل لهم عذاباً أليماً . والسخرية هي الاستهزاء بفعل شخص ما . وهؤلاء المنافقون حين يسخرون من المؤمنين ، فسخريتهم لم تتجاوز عدم رضاهم عمَّنْ فعل الخير ، وهم بسخريتهم لهم يستطيعوا إلا الإيذاء المعنوي للمؤمنين المتصدقين ، ولكن حين يسخر الله؛ فهذه أولاً عدالة الجزاء لأنها من جنس ما فعلوا ، ولكن هل سخرية الحق سبحانه وتعالى تقتصر على عدم الرضا أم أن هناك جزاء؟

هناك جزاء من الله .

وإذا كان الجزاء يتفاوت بتفاوت قدرة الساخر . فهناك فارق شاسع بين قدرات الله وقدرات البشر . والذين سخروا من المؤمنين حين تصدقوا بالقليل الذي يملكونه؛ تصدى الله سبحانه وتعالى ليرد عليهم وعلى سخريتهم . ويريد الحق بذلك أن يعطينا صورة عن كيفية دفاعه عن المؤمنين المخلصين في إيمانهم . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الحق تبارك وتعالى ، هو الذي سيعاقب المنافقين ، فالعقاب سيكون أليماً مهيناً .

وقلنا من قبل : إن الذي يخطئ في حق غيره ، فهذا الغير يرد الخطأ بعقاب على حسب قدرته . ولكن إن عفا عنه ، نقول لمن أخطأ : لا تعتبر هذا العفو لصالحك ، بل هو عكس ذلك تماماً؛ لأن الذي يعفو إنما ترك الحكم لله ، وسوف يكون عقابك لا قدر قوة وطاقة مَنْ عفا عنك ، ولكنه ترك عقابك لله ، وسيكون عقابك على قدر قدرات الله .

إذن : فالذي ينتقم ويرد على من أخطأ في حقه ، إنما يأخذ على قدر قوَّته ، وأما الذي يعفو فهو يأخذ على قدر قدرات الله ، وهناك مرتبة أعلى من ذَلك جعلها الله سبحانه وتعالى للمذنب ، والذي وقع الاعتداء عليه؛ لأن الحق سبحانه وتعالى رب الاثنين : فإن أساء إليك إنسان قد ترد عليه الإساءة بطاقتك ، وقد تعفو فيرد الله عليه بقدرته وطاقته .

ولكن خير من ذلك أن تحس أن الذي أساء إليك في حقيقة الأمر قد أحسن إليك ، مع أنه لم يقصد ذلك ، كيف؟ إذا دخلت بيتك ووجدت أحد أبنائك قد ضرب أخاه وأساء إليه ، مع من يكون قلبك وعطفك؟ إن قلبك يكون مع الذي اعتدى عليه وأسيء إليه فتحاول ان ترضيه ، وتأتي إليه بهدية أو تعطيه مبلغاً من المال ، أو غير ذلك من أنواع الإرضاء ، وقيل : من آداب دينك – الإسلام – أن تحسن إلى مَنْ أساء إليك؛ لأنه يقدم معروفاً دون أن يقصد . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يطلب منك أن تعفو عمن أساء إليك . ويقول الحق سبحانه وتعالى : { فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ الله مِنْهُمْ } وإذا سمعت فعلاً من البشر يقابله فعل من الله ، إياك أن تفهم الفعل من الله كما فهمتَ فعل البشر ، فحين يقول سبحانه : { وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ الله . . . } [آل عمران : 54]

وحين يقول : { يُخَادِعُونَ الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ . . . } [النساء : 142]

هنا نجد فعلاً من صنع الله ، وقد نرى من البشر من يفعل نفس الفعل ، لكن نحن المسلمين نأخذ الفعل من الله على غير الفعل من البشر .

وعلى سبيل المثال : إذا جئنا لقول الله : { وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ الله } المكر هو التغلب بالحيلة على الخصم؛ بأن توهمه أنك تفعل له خيراً ، بينما أنت تضمر له الشر ، كأن تحفر حفرة كبيرة مثلاً وتغطيها ببعض الحشائش والزهور ، ثم تطلب من خصمك أن يأتي لك بزهرة ، فيسقط في الحفرة وتتكسر عظامه .

إذن : فأنت قد كِدْتَ له كَيْداً خَفِيّاً . والكيد والمكر لا يَدُلان على القوة؛ إنما يدلان على الضَعف؛ لأن الشجاع القوي هو الذي يجاهر بعدائه؛ لأنه قادر على عدوه ، لكن الضعيف هو الذي يستخدم الحيلة والمكر ليوقع بخصمه . ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول في النساء : { إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ } [يوسف : 28]

وما دام كيدهن عظيماً ، فضعفهن عظيم؛ لأن الضعيف هو من يكيد ، ولكن القوي لا يعجزه طلب خصمه ويقول له : اذهب حيثما شئت ، وسآتي بك عندما أريد ، لا يوجد مكان تهرب فيه مني ، إنما الضعيف إذا تملك من خصمه فإنه يقضي عليه تماماً؛ لأنه يعرف أنها فرصة لن تتكرر .

ولذلك قال الشاعر :

وَضَعِيفَةٌ فإذَا أصَابَتْ فُرْصة ... قتلت كذلِكَ فُرْصَةُ الضُّعفَاءِ

أما القوي فإنه يقدر ويعفو؛ لأنه يعرف أنه يستطيع الإتيان بخصمه وقتما يشاء .

والأصل في المكر هو الشجرة الملتفة الأغصان كأنها مجدولة؛ بحيث لا تستطيع أن تميز الورقة التي تراها من أي فرع نبتت ، فيلتبس عليك الأمر ، كذلك المكر تختلط عليك الأمور بحيث لا تعرف أين الحقيقة . وأنت تمكر بقدر تفكيرك وعقلك ، ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يجازيك بمكرك يكون الجزاء رهيباً؛ لأن مكرك مفضوح عند الله ، ولكنك لا تعرف شيئاً مما أعدَّه الله لك .

ولقد نصر الحق سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في الأمور العلنية في المعارك ، ونصره أيضاً في كل أمر مكروا فيه وبيَّتوه له . وعلى سبيل المثال ، حين وقف الكفار على باب بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلوه في ليلة الهجرة . أوحى له ربه أن : اخرج ولا تَخْشَ مكرهم ، فخرج صلى الله عليه وسلم ليجدهم نياماً وهم واقفون ، أعينهم مفتوحة ولكن لا تبصر . ويخرج صلى الله عليه وسلم من وسطهم . ويأخذ التراب ، ويلقيه عليهم وهو يقول : « شاهت الوجوه » .

وعندما يبتعد صلى الله عليه وسلم عن المكان يستيقظون مرة أخرى ، ويتعجبون كيف أفلت منهم . وقد أراد الحق سبحانه أن يعلموا أنهم لن يستطيعوا النَّيْل من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا بالمعارك المفتوحة ولا بالمكر الخفي .

وقوله تبارك وتعالى : { فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ الله مِنْهُمْ } تعرف منه أن سخرية الله جاءت جزاءً لهم على سخريتهم ، والساخر من البشر لا يتجاوز في فعله أكثر من العيب في غيره . ولكن سخرية الله تتجاوز إلى العذاب . ولذلك قال الحق سبحانه : { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } وهذا هو التميُّز في فعل الله عن فعل البشر ، فالذين سخروا من المؤمنين عابوا عليهم ما فعلوه ، يسخر منهم الحق يوم القيامة أمام خلق جميعاً ، ثم يزيد على ذلك بالعذاب الأليم .

لقد عرفنا من قبل أن هناك عذاباً أليماً ، وهناك عذاب عظيم ، وعذاب مهين ، وكلها صفات للعذاب ، فالعذاب هو الإيلام ، ولكن هناك من يفزعه الألم فيصرخ . وهناك من يحاول أن يتجلد ويتحمل؛ لأن كبرياءه يمنعه أن يصرخ ، وفي هذه الحالة يكون عذابه مهيناً؛ لأنه بكبريائه تحمَّل الألم؛ فيُهَانُ في كبريائه وبذلك يكون عذابه مهيناً .

والعذاب قد يأخذ زمناً طويلاً أو قصيراً ، وهناك عذاب عظيم في الإيلام وعظيم في الإهانة . والعذاب العظيم في الإيلام؛ أي مبالغ فيه من ناحية الألم . والعذاب العظيم في الإهانة مبالغ فيه من ناحية الإهانة . والعذاب العظيم في الوقت مبالغ فيه من ناحية الزمن ، ولذلك يقال عنه « عذاب مقيم » أي : يأخذ الزمن كله لا يتوقف ولا يقل .

ثم يعرض الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى من صور تعامل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المنافقين . ومع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين ، وقد أعلمه سبحانه بأمرهم حين قال : { وَلَوْ نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ . . . } [محمد : 30]

أي : بمجرد نظر رسول الله إليهم ، وكأن على جبهة كل منهم توجد كلمة « منافق » وهو يعرفهم مصداقاً لقوله الحق : { وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القول . . . } [محمد : 30]

وبمجرد أن ينطقوا يعرفهم صلى الله عليه وسلم من طريقة نطقهم . ولكن الله يريد أن يُخرج رسوله إلى المؤمنين به وبرسالته سليم الصدر ، بدون انقباض عن أحد ، حت يتجلى نوره على الجميع ، ولعل شعاعاً من النور يمسُّ منافقاً؛ فيتوب إلى الله ويعود إلى الإيمان الصحيح ، كما حدث لكثير من المنافقين ، فقد أعلن بعضهم التوبة وحَسُنَ إسلامهم .

ونحن نعرف أن رأس المنافقين عبدالله بن أبيّ بن سلول ، كان سيُتوَّج ملكاً على المدينة . وأثناء الإعداد لمهرجان التتويج؛ فوجئوا بوصول رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلى المدينة . وكان هذا من أسباب حقد عبدالله بن أبيّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ضاع منه المُلْك . وكان لعبدالله بن أبيّ ولد أسلم وحَسُن إسلامه اسمه عبدالله بن عبدالله بن أبيّ . وكان من حُسْن إسلام هذا الابن أنه ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ حين علم أنه صلى الله عليه وسلم سيأمر بقتل أبيه؛ لأنه قال في غزوة من الغزوات . { لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل } [المنافقون : 8]

وكان ابن أبيّ يعني ب « الأعز » المنافقين في المدينة؛ وب « الأذل » المسلمين من المهاجرين والأنصار . ورد الله سبحانه بأن صدَّق على قوله أن الأعز سيُخرج الأذل ، فقال الحق سبحانه وتعالى : { وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ . . . } [المنافقون : 8]

فكأن الحق سبحانه وتعالى قد أقر على أن الأعز هو الذي سيخرج الأذل من المدينة ، ولكن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، إذن : فسيخرج المنافقون من المدينة ، وسيبقى فيها المؤمنون ، وتكون لهم العزة .

ولما علم عبدالله بن عبدالله بن أبيّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيأمر بقتل والده عبدالله بن أبيّ ، ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : يا رسول الله إن كنت ولابد آمراً بقتل أبي فأمرني أنا بقتله؛ لأني أخاف أن يقتله أخ مؤمن فأكرهه ، وأنا لا أحب أن أكره مؤمناً . وهكذا نرى قوة وصدق الإيمان ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكرم ذلك المنافق من أجل ابنه فلم يأمر بقتله ، ومن بعد ذلك قال الابن : يا رسول الله استغفر لأبي ، أي : اطلب له من الله المغفرة؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم يعلم أنه قد أرسل رحمة للعالمين؛ لذلك طلب المغفرة لعبدالله بن أبيّ . وحينئذ نزلت الآية الكريمة : { استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ . . . }

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (80)

ووقف العلماء في هذه الآية عند شيء اسمه مفهوم المخالفة؛ لأن الحق سبحانه وتعالى حدد مرات الاستغفار غير المقبول بسبعين مرة ، وقد أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أرسلَ رحمة للعالمين؛ أنه ما دامت مرات الاستغفار قد حُددت بسبعين مرة فلأزيد على السبعين قليلاً وبذلك غلّب الرسول الكريم جانب الرحمة ، وجانب الإكرام لعبدالله بن عبدالله بن أبي الذي أسلم وحَسُنَ إسلامه .

وكانت السبعة دائماً هي نهاية العدد عند العرب ، وعندما يأتي عدد آخر يكون زائداً ، فالأصل في العدد هو مكررات الواحد ، أي : أن الواحد أصل العدد ، يضاف له واحد يكون اثنين ، ويضاف لهما واحد فيكون المجموع ثلاثة ، وتستمر الإضافة حتى يصير العدد سبعة ، وإذا تركنا الواحد جانباً لأنه الأصل ، نجد عندنا ثلاثة أعداد زوجية ، هي : اثنان وأربعة وستة ، وثلاثة أعداد فردية هي : ثلاثة وخمسة وسبعة ، ويكون العدد سبعة جامعاً للمفرد والمثنى والجمع .

ولذلك كانوا إذا أرادوا الزيادة على سبعة فلابد أن يأتوا بحرف العطف . ونجد قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الكهف : { سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بالغيب وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ . . . } [الكهف : 22]

ولم يقل : ثامنهم كلبهم ، بل جاء بواو العطف؛ لأن الثمانية كانت من نوع آخر .

وحين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم « السبعين »؛ قال : نزيد على السبعين ، وبذلك يكون قد احترم قول الله ، واحترم تكريمه لعبدالله بن عبدالله بن أبيّ؛ الذي طلب منه أن يستغفر لأبيه . وهنا قالوا : كيف يغيب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي يقول عن نفسه : « أنا أفصح العرب بيد أنِّي من قريش » ، أن عدد السبعين يُقصد به الكثرة مهما بلغت ، والشاعر القديم يقول :

أسِيئي بِنَا أوْ أحْسِني لاَ مَلُومةَ ... أي : افعلي ما تشائين .

فكأن الحق سبحانه وتعالى في قوله : { استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً } شاء أن ياتي بمضاعفات العدد النهائية وهي السبعون ليحسم الأمر .

وجاء قول الحق سبحانه : { سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ . . . } [المنافقون : 6]

أي : مهما استغفرت بأي عدد من الأعداد فلن يغفر الله لهم .

ونقول : إن الأمر هنا له شقان؛ الشق الأول : أن يغفر الله . والشق الثاني : هو مجاملة رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبدالله بن عبدالله بن أبيّ ، فهو صلى الله عليه وسلم يعلم أن الله لن يغفر للمنافقين . وفي استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو لاحترام طلب الابن ، وأيضاً فالاستغفار من رسول الله كان مجرد مجاملة لعلمه أن الله لن يغفر للمنافقين؛ لأنه صلى الله عليه وسلم يعلم أن استغفاره من أجل منافق لن يقبله الله ، وهناك استغفار تنشأ عنه المغفرة ، واستغفار ينشأ عنه إرضاء عبدالله بن عبدالله بن أبيّ .

ولكن ألا توجد ذاتية للأب؟

نقول : إن التاريخ يقول إن عبدالله بن أبيّ نال حظه من الدنيا ، والحق سبحانه يقول : { إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً } [الكهف : 30]

وجزاء العمل يُعطي للبعض في الدنيا ، ويُعْطي للبعض في الآخرة؛ مصداقاً لقوله تعالى : { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ } [الشورى : 20]

ولقد حدثنا علماء السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أبا لهب يُخَفَّفُ عنه العذاب يوم الاثنين » ، وأبو لهب نزل فيه قول الحق سبحانه وتعالى : { تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سيصلى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ } [المسد : 1-3]

ولماذا يُخَفَّف العذاب عن أبي لهب يوم الاثنين؟ لأن هذا اليوم هو الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سُرَّ أبو لهب بميلاد الرسول الكريم ، فأعتق الجارية التي بشَّرته بميلاد الرسول؛ ومن هنا يُخَفَّف العذابُ عن أبي لهب يوم الاثنين جزاء عمله .

كما أن عبدالله بن أبيّ كان له موقف يحسب له في واقعة الحديبية حين ذهب المسلمون لأداء العمرة ، وصدهم الكفار عن بيت الله الحرام؛ وانتهت بصلح الحديبية وهي أول معاهدة بين الإيمان والكفر ، ورغم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رُدُّوا عن بيت الله الحرام ، فقد فطن أبو بكر لما في يوم الحديبية من عطاءات الله؛ من اعتراف كفار قريش بمحمد وبالمسلمين حين وقعوا معاهدة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتفرغ نبينا الكريم للدعوة في الجزيرة العربية ، وهو آمن من قريش ، وانتشر الإسلام إلى أن نقضت قريش العهد

وتم فتح مكة .

نعود إلى قصة عبد الله بن أبيّ يوم الحديبية : لقد كان الكفار يعلمون أن في نفسه شيئاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم منع تتويج عبدالله بن أبيّ ملكاً على المدينة . وكانوا يعلمون أيضاً أنه أسلم نفاقاً؛ فأرادوا أن يُحدثوا ثغرة في نفوس المسلمين ، فقالوا : محمد وأصحابه لا يدخلون ، ولكننا نسمح لعبدالله بن أبيّ ومن معه بدخول مكة وأداء العمرة فرفض عبدالله بن أبيّ وقال : إن لي في رسول الله أسوة حسنة ، لا أريد أن أذهب للعمرة إلا إذا ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا موقف يُحمد له .

كذلك كان له موقف آخر في غزوة بدر ، حينما أُسر العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان العباس طويل القامة وثيابه تمزقت في المعركة ، فلم يجدوا طويلاً مثله إلا عبدالله بن أبيّ ، فأعطاهم قميصه ليلبسه العباس ، فلم يَنْسَ رسول الله ذلك له .

ومن أجل هذا استغفر له رسول الله ، لكن الحكم الأعلى قد جاء { استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ } فليس المهم فقط هو استغفار رسول الله؛ لأن هناك ممحصات للذنب ، فمن أذنب عليه أن يأتيك أولاً يا رسول الله ، ليستغفر الله ، ثم يسألك أن تستغفر له الله ، حتى يجد الله تواباً رحيماً ، فسبحانه القائل : { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظلموا أَنْفُسَهُمْ جَآءُوكَ فاستغفروا الله واستغفر لَهُمُ الرسول لَوَجَدُواْ الله تَوَّاباً رَّحِيماً } [النساء : 64]

فالذي يريد أن يتوب ويستغفر ، لا يستغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا إذا استغفر مرتكب الذنب أولاً ، فلا بد أن يستغفروا الله من الذنوب أولاً ثم يستغفر لهم الرسول . ولا يستغفر لهم الرسول وهو لا يستغفرون ، وهكذا نعلم أن عبدالله بن أبيّ لم يفطن إلى كيفية الاستغفار ، فقد كان عليه أن يأتي لرسول الله صاغراً ليستغفر الله أمامه ، لا أن يبحث عمن يطلب له الاستغفار .

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى موضحاً سبب عدم غفرانه ، فيقول : { ذلك بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَرَسُولِهِ والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين } وحين ينفي الحق سبحانه وتعالى الهداية عن إنسان ، فليس معنى هذا أن يقول الفاسق : الله لم يَهْدِني فماذا أفعل؟ ويُحمّل المسألة كلها لله . بل نسأل الفاسق : لماذا لم يَهْدِك؟ لأنك فسقت .

إذن : فعدم الهداية من الله لك كان بسبب أنك أخذت طريق الفسق والبعد عن منهج الله ، ومن هنا فالهداية المقصودة في هذه الآية؛ ليست هي الهداية بمعنى الدلالة على طريق الخير؛ لأن الدلالة إلى طريق الخير تأتي من الله للمؤمن والكافر فمنهج الله الذي يبلَّغ للناس كافة ، يريهم طريق الخير ويدلهم عليه . ولكن المقصود هنا هو الهداية الأخرى التي يعطيها الحق لمن دخل في رحاب الإيمان وآمن وحَسُنَ عمله ، وتتمثل في قوله الحق : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ

تَقْوَاهُمْ } [محمد : 17]

إذن : فكل مَنْ مشى في طريق الإيمان أعانه الله عليه . وفي المقابل نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : { إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين } [الأحقاف : 10]

وكذلك قوله سبحانه : { والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين } [التوبة : 37]

وأيضاً قوله الكريم : { والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين } [الصف : 5]

لا نقول أبداً : إن هؤلاء معذورون؛ لأن الله لم يَهْدِهم؛ لأنه سبحانه وتعالى قد هداهم ودَلَّهم جميعاً على طريق الخير ، ولكنهم هم الذين أخذوا طريق الكفر والظلم والفسوق .

واقرأ إن شئت قول الله عز وجل : { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ } [فصلت : 17]

فماذا صنعوا في هدايته لهم : { فاستحبوا العمى عَلَى الهدى } ، أي : أن الحق سبحانه بيَّن لثمود طريق الخير ، ولكنهم اختاروا الضلالة .

إذن : فهداية الدلالة للجميع ، وهداية المعونة للمؤمنين .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى للمنافقين فيقول : { فَرِحَ المخلفون بِمَقْعَدِهِمْ . . . }

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (81)

والفرح هو السرور من فعل تبتهج النفس به . والمخلَّفون هم الذين أخلفهم نفاقهم ، وتركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة وذهب إلى الجهاد . بعد أن جاءوه بالمعاذير الكاذبة التي قالوها ، وقد تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الحق سبحانه قال : { لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً . . . } [التوبة : 47]

ومن لا يريد أن يجاهد في سبيل الله إن أخذته معك كرهاً ، يكون ضدك وليس معك . وسيشيع الأكاذيب بين المؤمنين ، ويحاول أن يخيفهم من الحرب ، وإذا بدأ القتال فهو أول من يهرب من المعركة . ويبحث عن مغارة أو حجر يختفي خلفه . إذن : فهو ليس معك ولكنه ضدك؛ لأنه لن يقاتل معك ، بل ربما أعان عدوك عليك . وفي نفس الوقت هو يضر بالمسلمين ، ويحاول أن يشيع بينهم الرعب بالإشاعات الكاذبة .

ويُبيّن الحق سبحانه وتعالى هنا فطرة رسول الله الإيمانية بأنه أذن لهؤلاء بعدم الخروج للجهاد مع أن عذرهم كاذب؛ فجاء قوله : { فَرِحَ المخلفون بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ الله } والمقعد هو مكان القعود . والقعود رمز للبقاء في أي مكان . والقيام رمز لبداية ترك المكان إلى مكان آخر ، والذين غزوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قاموا واستعدوا للقتال ، أما الذين تخلفوا فقد قعدوا ولم يقوموا رغبة في البقاء في أماكنهم .

ويقول تعالى : { خِلاَفَ رَسُولِ الله } وحين نسمع كلمة { خِلاَفَ } نعرف أن مصدرها خالف

خلافاً؛ ومخالفة؛ كما تقول : قاتل قتالاً ومقاتلة . وهي إما أن تكون مخالفة في الرأي ، كأن تقول : فلان في خلاف مع فلان ، أي : أن لكل منهما رأياً . وإما أن تكون في السير ، كأن تقوم أنت لتغادر المكان؛ ويخالفك زميلك أو من معك فيقعد ، أو تقعد أنت ، فيخالفك هو ويمشي .
والخلاف من ناحية الرأي هون عملية قلبية ، والخلاف من ناحية الحركة يشترك فيها القلب أو الجسد ، وهم حين فرحوا بالقعود بعد قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين للجهاد ، فهذا دليل على أن مسألة القعود هذه صادفت هوى في نفوسهم وارتاحوا لها وبذلك خالفوا شرط الإيمان؛ لأن الذين يحق لهم أن يتخلفوا عن الجهاد قد حددهم القرآن الكريم في قول الحق سبحانه وتعالى : { لَّيْسَ عَلَى الضعفآء وَلاَ على المرضى وَلاَ عَلَى الذين لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ للَّهِ وَرَسُولِهِ . . . } [التوبة : 91]
وقوله : { وَلاَ عَلَى الذين إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ . . . } [التوبة : 92]
أي : أوضحت لهم أنك لا تملك ما يركبون عليه ، ليصلوا معك إلى موقع القتال . وقد بيّن لنا الحق حال هؤلاء الذين لم يخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب هذه الأعذار فقال عنهم :

{ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنْفِقُونَ } [التوبة : 92]
إذن فهؤلاء الذين تخلفوا بأعذار يملؤهم الحزن ، وتفيض أعينهم بالدمع؛ لأنهم حرموا ثواب الجهاد في سبيل الله . أما الذين يفرحون بالتخلف عن الجهاد فهم منافقون .
وقوله سبحانه : { خِلاَفَ رَسُولِ الله } نجد فيه أيضاً أن كلمة { خِلاَفَ } تستعمل أيضاً بمعنى « بعد » ، أي بعد رسول الله ، فما أن ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم للغزوة قعدوا هم بعده ولم يذهبوا . وجلسوا مع الضعيف والمريض وأصحاب الأعذار الحقيقية ، وكذلك الذين لم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم دواب ليركبوها ، هؤلاء هم مَنْ تخلفوا . وبيّن الحق سبحانه سبب تخلف المنافقين فيقول : { وكرهوا أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله } .
أي : انهم كرهوا أن يقاتلوا ، وكرهوا الجهاد . وليت الأمر قد اقتصر على هذا ، بل أرادوا أن يثبّطوا المؤمنين ويُكرّهوهم في القتال في سبيل الله { وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الحر } فهم لم يكتفوا بموقفهم المخزي ، بل أخذوا في تحريض المؤمنين على عدم القتال . وقد كانت هذه الغزوة « غزوة تبوك » في أيام الحر . وكانت المدينة تمتلئ بظلال البساتين وثمارها ، بينما الطريق إلى الحدود مع الروم طويلة . إذن : فهي غزوة كلها مشتقة .
وقال المنافقون للمؤمنين { لاَ تَنفِرُواْ } ، والنفور هو كراهية الوجود لشيء ما . ويقال : فلان نافر من فلان ، أي : يكره وجوده معه في مكان واحد . ويقال : فلان بينه وبين فلان نفور ، أي

: يكرهان وجودهما في مكان واحد . والذي يخرج للحرب كأنه نفر من المكان الذي يجلس فيه ذاهباً إلى مكان القتال . ويكون القتال والتضحية بالمال والنفس في سبيل الله أحب إليه من القعود والراحة .

إذن : فقوله تعالى : { وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الحر } أي : أنهم يريدون أن يعطوا لأنفسهم عذراً لعدم الخروج للجهاد؛ لأن الجو حار وفيه مشقة . ولكنهم أغبياء؛ لأنهم لو خافوا من الحر ومشقته؛ وجلسوا في الظل ومتعته ، لأعطوا لأنفسهم متعة زمنها قصير ليدخلوا إلى مشقة زمانها طويل . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : { قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } فإن كانوا قد اعتقدوا أنهم بهروبهم من الحر قد هربوا من مشقة ، فإن مشقة نار جهنم والخلود فيها أكبر بكثير . والإنسان إن بُشِّر بأشياء تسره عاماً أو أعواماً ، ثم يأتي بعدها أشياء تسوؤه وتعذبه ، فهو بمعرفته بما هو قادم يعاني من الألم ولا يستطيع الاستمتاع بالحاضر؛ لأن الإنسان يحاول دائماً أن يتحمل؛ ليُؤمِّن مستقبله . ولذلك تجد من يعمل ليلاً ونهاراً وهو سعيد ، فإذا سألته كيف تتحمل هذا الشقاء؟ يقول : لأؤمن مستقبلي . إذن : فسرور عام أو أعوام تفسده أيام أو أعوام قادمة فيها سوء وعذاب ، فماذا عن خلودهم في النار؟

ولكن هل قالوا : { لاَ تَنفِرُواْ فِي الحر } في خواطرهم دون أن ينطقوا بهما ، أم قالوها لبعضهم البعض سراً؟ ومن الذي أعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالوه؟ نقول : قد يكون ذلك هو ما دار في خواطرهم .

وشاء الله أن يعلموا أنه سبحانه وتعالى يعلم ما في نفوسهم . وشاء أن يفضح ما في سرائرهم ، لعل هذا يُدخل الخوف في قلوبهم ، من أنه سبحانه مطلع على كل شيء ، فيؤمنوا خوفاً من عذاب النار .

ومثال هذا أن الحق حين أراد أن يمنع المشركين من حج بيته الحرام قال : { إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا . . . } [التوبة : 28]

وكان المشركون حين يذهبون إلى الحج ينعشون اقتصاد مكة ، وكان الخير يأتي من كل مكان إلى مكة في موسم الحج ، بل إنهم كانوا يقولون : إياكم أن تطوفوا بالبيت في ثيابهم عصيتم الله فيها ، وكأن التقوى تملأ نفوسهم! وحقيقة الأمر أنهم كانوا بعيدين عن التقوى لأنهم كانوا يعبدون الأوثان . وكانوا يقولون ذلك حتى يضطر الحجاج أن يخلعوا ثيابهم ويشتروا ثياباً جديدة ليطوفوا بها ومن لا يملك المال يطوف عارياً .

إذن : فقد كان الحج موسماً اقتصادياً مزدهراً لأهل مكة؛ يربحون خلاله ما يكفي معيشتهم طوال العام ، فلما جاء البلاغ من الله سبحانه وتعالى : { إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا } . فالخاطر الذي يأتي في النفس البشرية؛ وكيف سنعيش؟ . هذا هو أول خاطر

ياتي على البال؛ لأنه سؤال عن مقومات الحياة ، والذي خلقهم عليم بما يدور في خواطرهم .
وإن لم يجر على ألسنتهم ، حينئذ جاء قول الحق سبحانه : { وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ الله مِن فَضْلِهِ . . . } [التوبة : 28]
إذن : فالله سبحانه وتعالى قد علم ما يدور في خواطرهم ، فرد عليه قبل أن ينطقوه .
كذلك قول الحق سبحانه : { قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } والفقه هو الفهم الدقيق . فأنت حين تعرف شيئاً بسطحياته تكون قد عرفته ، ولكنك إن عرفته بكل معطياته الخلفية تكون قد فقهته . وأنت إذا ذهبت للجهاد في الحر قد تتعب ، ولكن إذا قعدت عن الجهاد سوف تكون عقوبتك أكبر وتعبك أشد .
إذن : فعلمك بشيء وهو الحر الذي ستواجهه إن خرجت للجهاد ، يجب ألا ينسيك ما غاب عنك ، وهو أن نكوص الإنسان عن الجهاد يدخله ناراً أشد حرارة ، يخلد فيها . ومعنى ذلك أنه لم يفقه؛ لأنه علم شيئاً وغاب عنه أشياء .
ومن هذا المنطق القرآني ، رد الإمام علي كرم الله وجهه على القوم حينما دعاهم إلى الجهاد ضد الخوارج فقال : « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه سيم الخسف » .
ثم يقول بعد ذلك : « إن قلت لكم : اغزوهم في الشتاء ، قلتم : هذا أوان قر وصر . . أي برد شديد . وإن قلت لكم : اغزوهم في الصيف ، قلتم : أنظرنا – أي أمهلنا – حتى ينصرف الحر عنا ، فإذا كنتم في البرد والحر تفرون ، فأنتم والله في النار . يا أشباه الرجال ولا رجال » .
وقول الحق سبحانه وتعالى : { قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } أي : أنهم لو كانوا قد فرحوا وابتهجوا بأنهم لم يجاهدوا في الحر ، فهم سوف يندمون كثيراً على ذلك ، مصداقاً لقوله تعالى : { فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ . . . }

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82)

والضحك هو انفعال غريزي فطري ، يحدث للإنسان عندما يقابل شيئاً يسره ، أو أحداثاً يجد فيها مفارقة لم يكن يتوقعها . أما البكاء فهو انفعال غريزي أيضاً تجاه أحداث تدخل الحزن أو الشجن ، وهو تذكر ما يحزن بالنسبة للإنسان . كلتاهما ظاهرتان فطريتان ، أي أنهما تحدثان بفطرة بشرية واحدة بالنسبة للناس جميعاً ، ولا دخل فيها للجنس أو اللون أو البيئة ، فلا يوجد بكاء روسي وبكاء أمريكي ، أو ضحك روسي وضحك إنجيلزي ، أو ضحك شرقي وضحك غربي . ذلك أن الضحك والبكاء انفعال طبيعي موحد لا تؤثر فيه البيئة ولا الثقافة ولا الجنس .
وقد أسنده الحق تبارك وتعالى لنفسه . فكما قلنا : إن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يحيي ، وهو سبحانه وحده الذي يميت . فهو سبحانه وحده الذي يضحك ، وهو سبحانه وحده الذي

يبكي . مصداقاً لقوله تعالى : { وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى } [النجم : 43-45]

ولذلك فالضحك والبكاء يأتيان بل مقدمات ، لا أقول لنفسي : سأضحك الآن فأضحك ، ولا أقول : سأبكي الآن فأبكي؛ لأن هذا انفعال غريزي لا دخل للإرادة ولا للاختيار فيه . ولكننا أحياناً نلجأ إلى التضاحك أو إلى التباكي وهو مجرد ادعاء بلا حقيقة . ويكون ظاهراً فيه الافتعال . فحين يروي لك إنسان نكتة سخيفة ، والمفروض أنه قالها لتضحك ، ولكنها لا تضحك ، وفي نفس الوقت أنت تريد أن تجامله فتفتعل الضحك ، أي تضحك بافتعال . وكذلك البكاء فيه افتعال أيضاً مثل بكاء النادبة التي تجلس وسط أهل الميت وتبكي . وقد تضع بعض نقط الجلسرين في عينيها لتفتعل الدموع ، وهذا كله افتعال . أما الضحك والبكاء الحقيقي ، فأمران بالفطرة يملكهما الله سبحانه وتعالى وحده .

وقول الحق سبحانه وتعالى : { فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً } جاء بعد قوله : { فَرِحَ المخلفون بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ الله } أي : أنهم فرحوا عندما بَقَوْا هم في المدينة ، وخرج المؤمنون للجهاد . جلسوا في حدائق المدينة وهم فرحون في راحة وسرور يضحكون؛ لأنهم يعتقدون أنهم قد فازوا بعدم اشتراكهم في الجهاد . ولكن هذا الضحك هو لفترة قليلة . وسيأتي بعدها بكاء وندم لفترة طويلة وأبدية ، عندما يدخلون جهنم والعياذ بالله .

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال : { فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً } ولم يقل : سيضحكون قليلاً وسيبكون كثيراً ، لماذا؟

نقول : عندما يُسند الفعل إلى المخلوق الذي يعيش في عالم الأغيار ، والمختار في عدد من أفعاله ، يُحتمل أن يحدث أو يجوز ألا يحدث . ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يقول : { فَلْيَضْحَكُواْ } أي : أمر بالضحك ، ثم يجيء في البكاء ويقول : { وَلْيَبْكُواْ } أي : ابكوا والأمر بالضحك والبكاء هو أمر اختياري من الله سبحانه وتعالى ، تجوز فيه الطاعة وتجوز فيه المعصية؟

إذا كان كذلك ، فهل سيطيع المنافقون أمراً اختيارياً لله؟ ونقول : إن ذلك أمر غير اختياري؛ لأن الحق سبحانه هو وحده الذي يضع في النفس البشرية انفعال الضحك أو انفعال البكاء للأحداث .

وكما بيَّنا فإن الإنسان لا يستطيع الانفعال بالضحك أو البكاء .

والحق حين يقول : { فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً } معناها : أن انفعال الضحك قضاء عليهم لا بد أن يحدث . وإذا قال الحق سبحانه وتعالى : { وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً } فلا بد أن يبكوا؛ لأن انفعال البكاء مكتوب عليهم من الله ، وكما يقولون : إن الذي يضحك أخيراً يضحك كثيراً ، وكذلك الذي يبكي أخيراً يبكي كثيراً .

إذن : فالأمور كلها مرهونة بالخاتمة . فقد يأتي للإنسان حادث يسرّه ، ثم تأتيه ساعة بؤس تمحو هذا السرور كله ، والعكس صحيح . وإذا كان هؤلاء المنافقون قد ضحكوا قليلاً في الدنيا . فعمر كل منهم في الدنيا قليل؛ لأنه حتى وإن عاش في الدنيا ضاحكاً طوال عمره فكم سيضحك؟ أربعين سنة؟ خمسين سنة؟

إن كلاّ منه له في الدنيا مدة محدودة ، فأنت إذا نسبت الحدث إلى الدنيا على إطلاقها فهو قليل . وإذا نسبته إلى عمرك في الدنيا فهو أقل القليل ، ثم تأتي الآخرة بالخلود الطويل الذي لا ينتهي ، ويكون بكاء المنافق فيه طويلاً طويلاً .

ولذلك فلا بد لكل إنسان ان يضع مع المعصية عقوبتها ، ومع الطاعة ثوابها؛ لأن الإنسان قد يرتكب المعصية لإرضاء شهوات نفسه ، وساعة ارتكاب المعصية فهو لا يستحضر العقوبة عليها ، ولو أنه استحضر العقوبة لامتنع عن المعصية . فالسارق لو استحضر ساعة قيامه بالسرقة ، أنه قد يضبط ، وقد يحاكم وتقطع يده ، لو تأكد من هذا فلن يسرق أبداً . ولكنه يقوم بالسرقة لأنه يعتقد أنه سيفلت من العقاب . وما من لص خطط لسرقة وفي باله أنه سيضبط ، بل يكون متأكداً أنه سيسرق ويفلت .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن »

لأنه ساعة يزني لو تخيل أو تأكد أنه سيُلْقى في النار جزاء ما فعل ، فلن يقدم على الزنا أبداً . وكذلك شارب الخمر لا يمكن أن يضع الكأس في فمه . إذا تخيل النار وهو يُعذَّب فيها . ولكن الغفلة عن الإيمان تحدث لحظة ارتكاب المعصية؛ لأن الإيمان يقتضي أن تستحضر العقوبة ساعة تُقدِم على المعصية ، وأن تعلم يقيناً أن كل ما تفعله ستُحاسب عليه في الآخرة ، وسيكون هناك جزاء .

فإذا ضحكت من مطلوبات الإيمان فلابد أن تبكي في الآخرة . فإن فرحت – مثلاً – بترك الصلاة أو الزكاة ، واعتقدت أنك قد غنمت في الدنيا ، فلا بد أن تندم ويصيبك الغمُّ في الآخرة . وإذا تنعمت بمال حرام فلا بد أن تُعذب به في الآخرة . والحق سبحانه يقول : { إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ }

[المطففين : 29–31]

هكذا يعطينا الله عدة صور من السخرية التي يتعرض لها المؤمنون في الدنيا ، وأولى هذه الصور هي ضحك المنافقين والكفار من المؤمنين ، كأن يقول أحدهم لإنسان مؤمن يقوم إلى الصلاة : خذنا على جناحك في الآخرة . ثم بعد ذلك يأتي الغمز واللمز ، ثم إذا ذهب المنافق إلى أهله

أخذ يسخر من الطائعين ويقول : لقد فعلت كذا وكذا لإنسان متدين . وسخرت منه ولمن لم يستطع أن يرد . ويشعر بالسرور وهو يحكي القصة فرحاً بما عمل . وينسى أنه قد ارتكب ثلاثة جرائم : جريمة العمل ، وجريمة الفرح بالعمل ، وجريمة الإخبار بالعمل . فلو أنه سخر من المؤمن ، ثم ندم بعد ذلك ، ربما كانت عقوبته هيّنة . ولكن ما دام قد فرح بذلك تكون له عقوبة أكبر ، فإذا انقلب إلى أهله يروي لهم ما حدث ، وهو فخور مسرور تكون له عقوبة ثالثة .

وليتهم توقفوا عند ذلك بل اتهموا المؤمنين بالضلال؛ مصداقاً لقوله تعالى : { وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ * وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ } [المطففين : 32-33]

أي : أنهم زادوا على كل هذا باتهام المؤمنين بالضلال . هذا ما صنعوه في الدنيا . وهي فانية وعمرها قليل . ثم يأتي سبحانه وتعالى بالمقابل في الآخرة؛ فيقول : { فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ } [المطففين : 34-36]

فكما ضحك الكفار من المؤمنين في الدنيا؛ سيضحك المؤمنون من الكفار في الآخرة ، وسيجلس المؤمنون على الأرائك في الجنة وهم ينظرون إلى الكفار وهو يُعذَّبون في النار ، أي : أن الله جزاهم بمثل عملهم مع الفارق بين قدراتهم المحدودة وقدراته – سبحانه – التي لا حدود لها .

ولم يقل الحق سبحانه وتعالى : « سيضحكون » ككلام خبري ، يجوز أن يحدث أو لا يحدث ، بل جاء به مُؤكداً . وقوله هنا في المنافقين { فَلْيَضْحَكُواْ } . يعني : أن الضحك لابد أن يحدث؛ لأن هذا كلام من الله سبحانه وتعالى .

فقول الحق سبحانه وتعالى : { فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } يعطينا العلة أو السبب في أن ضحكهم سيكون قليلاً ، وبكاءهم سيكون كثيراً؛ لأن هذا جزاء ما فعلوه في الدنيا . لقد فرحوا بالفرار من الجهاد . وسُرّوت بالراحة في المدينة ، فلابد أن يُلاَقوا في الآخرة جزاءهم عن هذا العمل ، كما سَيُثاب المؤمنون على ذهابهم للجهاد في الحرّ .

إذن : فالحق سبحانه لم يظلمهم ، بل أعطاهم جزاء ما عملوه . كما قال : { جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } وكلمة { يَكْسِبُونَ } هنا لها ملحظ لا بد أن نُبيّنه ، فقد كان من الممكن أن يُقال « جزاء ما كانوا يعملون » أو « جزاء ما كانوا يفعلون » ، فلماذا جاء الحق ب { يَكْسِبُونَ } ، وما الفرق بينها وبين « ما يفعلون » و « ما يعملون »؟

نعلم أن لكل جارحة من جوارح الإنسان مجالَ عمل؛ فالأذن تسمع ، والعين ترى ، واليد تمسك ، والقدم تمشي ، والأنف يشُمُّ ، والأنامل تملس .

إذن : فكل عضو له مهمة . فإن كانت المهمة هي النطق باللسان نسميها القول . وإن كانت مهمة من مهام باقي الجوارح عدد اللسان نسميها الفعل . فاللسان وحده أخذ القول ، وكل

الجوارح أخذت الفعل . والقول والفعل معاً نسميهما عملاً .

فإذا قال الحق سبحانه وتعالى : « يفعلون » يكون ذلك مقابل يقولون؛ لأن الإنسان قد يقول بلسانه ولا يفعل بجوارحه . وتوضح ذلك الآية الكريمة : { ياأيها الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ *كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ } [الصف : 2-3]

ولكن إذا اتحد القول والفعل يكون هناك عمل . وكل شيء لا يتسق منطقياً مع قيم المنهج يكون فيه افتعال ، فالكسب عمل ، والاكتساب افتعال الكسب؛ لأن الكسب عمل طبيعي ، والاكتساب هو افتعال الكسب . وسبحانه يقول : { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكتسبت . . . } [البقرة : 286]

لأن الاكتساب بالحرام فيه افتعال يتعب النفس ، ولا يجعلها منسجمة مع جوارحها ، فالرجل مع زوجته في البيت مستقر الجوارح لا يخشى شيئاً . لكنه مع زوجة غيره يهيج جوارحه؛ فيقفل النوافذ ويُطفئ الأنوار . وإنْ دقَّ جرس الباب يصاب بالذعر والهلع؛ لأن ملكات النفس ليست منسجمة مع العمل .

أما إذا اعتادت النفس الإثم مثل من اعتاد الإجرام ، فلا يهيجها الحرام . وفي هذه الحالة تنقلب عملية الاكتساب إلى كسب ، وتعتاد النفس على المعصية وعلى الإثم ، ويصبح جزاؤها عند الله أليماً وعذابها عظيماً .

ويقول الحق سبحانه في هذه الآية : { جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } وكان مقتضى الكلام أن يقال : « جزاء بما كانوا يكسبون » لأن هذه عملية فيها إثم وفيها معصية ، فلا بد أن يكون فيها افتعال ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أن هؤلاء المنافقين قد اعتادوا المعصية ، وعاشوا في الكفر ، فأصبحت العملية سهلة بالنسبة لهم ، ولا تحتاج منهم أي افتعال .

واقرأ قول الحق : { والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ الله . . . } [المائدة : 38]

والسرقة ليست أمراً طبيعياً ، لذلك يقوم بها السارق وخفية ويُبيِّت لها ويفتعل؛ ولذلك كان من المنطقي أن يقال « اكتسبوا » لكن شاء الحق أن نعرف أن السرقة قد أصبحت في دم هؤلاء ، ومن كثرة ما ارتكبوها فهي بالنسبة لهم عملية آلية سهلة . وقد وضع التشريع لها نطاقاً وهو ربع دينار مثلاً . والذي يسرق دون هذا النطاق لا يُطبق عليه حَدُّ قطع اليد . لماذا؟ لأن ربع الدينار في ذلك الوقت كان يكفي لقوت أسرة متوسطة العدد لمدة يوم واحد . فإذا سرق أي إنسان ما يكفي قوت أسرة لمدة يوم واحد ، يقال : ربما فعلها لأن أسرته لا تجد ما تأكله ، فإذا أخذ أكثر من الضرورة ، يكون قد أخذ أكثر مما يحتاج إليه ، وتكون السرقة قد حدثت ويثقام عليه الحد .

ونحن نعلم أن العقل البشري وظيفته الاختيار بين البدائل ، ومفروض أن يُقَدِّر الإنسان العقوبة ويستحضرها ساعة وقوع المعصية ، وأن يستحضر الثواب ساعة القيام بالطاعات ترغيباً للإنسان في الطاعة . ونحن نأتي للطالب المجتهد ونطلب منه أن يُخفِّف من المذاكرة ، لكنه لا يترك الكتاب لأنه استحضر النجاح؛ وما سيحدث بعد النجاح من دخوله الكلية التي يريدها ، أو بعد تخرجه من الجامعة إن كان قد وصل إلى مرحلة التخرج ، وكذلك استحضر نظرة أهله وأساتذته وزملائه إليه ، وهو يستحضر كل ذلك؛ مما يدفعه لقضاء ساعات طويلة في المذاكرة دون أن يشعر بالتعب .

إذن : فالذي يُحبِّبك في الطاعة هو استحضار لذة الثواب القادم . والذي يُكرِّهك في المعصية هو استحضار ألم العقاب الذي لابد أن يحدث .

ولكن هؤلاء المنافقين والكفار قد اعتادوا المعصية والكفر؛ حتى أصبح سلوكهم المخالف للإيمان إنما يحدث منهم دون أن يستحضروا عقوبة المعصية ، فهم يرتكبون المعاصي بغير فعل . ولو قال : « يفعلون » لكان فعلاً لا يشترك فيه اللسان بالقول . ولو قال « يعملون » لكان فعلاً وقولاً فقط . ولو قال « يكتسبون » لفهمنا أن المعصية تثير انفعالاً وتهيجاً في داخلهم؛ لأنهم لم يعتادوها . ولكن جاء قوله تعالى : { يَكْسِبُونَ } ليعطينا المعنى الصحيح في أنهم قد اعتادوا المعصية؛ حتى أصبحوا يفعلونها بلا افتعال .

ويأتي الحق سبحانه وتعالى لِيُرينا حكمه في الدنيا على هؤلاء المنافقين الذي فرحوا بتخلفهم عن الجهاد في سبيل الله ، فيقول : { فَإِن رَّجَعَكَ الله إلى طَآئِفَةٍ . . . }

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (83)

والله سبحانه وتعالى يوضح لرسوله صلى الله عليه وسلم : عندما تنتهي الغزوة وتعود إلى المدينة ، فهناك حكم لابد أن تطبقه مع هؤلاء المنافقين ، الذي تخلفوا وفرحوا بعدم الجهاد .

وقوله : { فَإِن رَّجَعَكَ } كلمة « رجع » من الأفعال ، وكل فعل يجب أن يكون له فاعل ومفعول ، فلا يمكن أن تقول : « ضرب محمد » ثم تسكت؛ لأنه عليك أن تبين من المضروب . ولا يمكن أن تقول « قطف محمد » ، بل لابد أن تقول ماذا قطف؟ وهكذا تحتاج إلى مفعول يقع عليه الفعل . ولكن هناك أفعالاً لا تحتاج إلى مفعول . كأن تقول : « جلس فلان » والفعل الذي يحتاج إلى مفعول اسمه « فعل مُتعَدٍّ » أما الفعل الذي لا يحتاج إلى مفعول فاسمه « فعل لازم » .

إذن : فناك فعل متعد وفعل لازم .

وهنا في هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه : { فَإِن رَّجَعَكَ الله } والحق سبحانه هو الفاعل ، والكاف في { رَّجَعَكَ } هي المفعول به . ولكن لأنها ضمير ملتصق بالفعل يتقدم المفعول على

الفاعل . إذن : { فَإِن رَّجَعَكَ الله } رجع فعل متعد ، والفاعل لفظ الجلالة . والمفعول هو الضمير العائد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أي : أن الله رجعك يا محمد .

ولكن هناك آية في القرآن الكريم تقول : { وَلَمَّا رَجَعَ موسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً . . . } [الأعراف : 150]

في الآية التي نحن بصددها { فَإِن رَّجَعَكَ الله } الفاعل هو الله ، أما في قوله الحق : { وَلَمَّا رَجَعَ موسى } نجد أن موسى هو الفاعل ولا يوجد مفعول به ، إذن ف « رجع » يمكن أن يكون فعلاً لازماً ، كأن تقول : « رجع محمد من الغزوة » . ويمكن أن يكون فعلاً متعدياً كقوله سبحانه : { فَإِن رَّجَعَكَ الله } أي : يا محمد من الغزوة . إذن : فرجع تستعمل لازمة وتستعمل متعدية .

ولكن في قصة سيدنا موسى عليه السلام؛ عندما ألقته أمه في البحر والتقطه آل فرعون؛ ومشت أخته تتبعه؛ ثم حرَّم الله عليه المراضع ليعيده إلى أمه كي يزيل حزنها يقل الحق سبحانه : { إِذْ تمشي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ على مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلاَ تَحْزَنَ . . . } [طه : 40]

ما هو الفرق بين الآيات الثلاث؟ ولماذا استعمل فعل « رجع » لازماً ومتعدياً؟

نقول : إنه في قول الحق سبحانه وتعالى : { وَلَمَّا رَجَعَ موسى إِلى قَوْمِهِ } هنا هيئ لموسى من ذاته أن يرجع ، أي : انه قرار اختياري من موسى ، أما قوله تعالى : { فَرَجَعْنَاكَ إلى أُمِّكَ } ، فموسى في هذه المرحلة؛ كان طفلاً رضيعاً لا يستطيع أن يرجع بذاته ، ولا بد أن يهيئ له الحق طريقة لإرجاعه ، أي : من يحمله ويرجعه .

أما قوله تعالى : { فَإِن رَّجَعَكَ الله إلى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ } فقد كان من الممكن أن يقال : « وإذا رجع إلى طائفة منهم » مثلما قال في موسى عليه السلام : { وَلَمَّا رَجَعَ موسى } ولكن الحق استخدم { رَّجَعَكَ } ليدل على أن زمام محمد عليه الصلاة والسلام في الفعل والترك ليس بيده .

وكأنه سبحانه وتعالى يوضح : إياكم أن تنسبوا الأحداث إلى بشرية محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن محمداً إذا ذهب إلى مكان فالله هو الذي أذهب إليه . وإن عاد من مكان فهو لا يعود إلا إذا أرجعه الله منه . كما كانت هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بإذن من الله ، فقبل أن يأذن الله له بالهجرة ، لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ببشريته يستطيع أن يهاجر . إذن : فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعرف دائماً : أن ذهاب محمد صلى الله عليه وسلم ورجوعه من أي مكان ، ليس ببشرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل بإرادة الحق سبحانه .

ولكن لماذا قال الحق سبحانه وتعالى : { فَإِن رَّجَعَكَ الله إلى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ } وكان من الممكن أن يقول « فإن رجعك الله إليهم » أة : « فإن رجعك الله إلى المدينة »؟ نقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد الحديث هنا عن الطائفة التي حدثت منها المخالفة ، فهناك من بقوا في المدينة رغماً

عنهم ولم يكن لديهم ما ينفقونه أو لم يكن لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحملهم عليه . كذلك المرضى وكبار السن الذين لا يستطيعون قتالاً . وهؤلاء حَسُنَ إسلامهم وقَبِل الله ورسوله أعذارهم .

ولكن الحق سبحانه يتحدث هنا عن الطائفة التي تخلفت عن الجهاد وهي قادرة ، والتي امتنعت عن الخروج ، وهي تملك المال والسلاح وكل مقومات الجهاد ، هذه الطائفة هي التي فرحت بالتخلف عن القتال . أما الطوائف الأخرى؛ فكانت عيونها تفيض بالدمع من الحزن على عدم اشتراكهم في الجهاد .

إذن : فالحق يقصد هنا طائفة المنافقين الذين استمروا على نفاقهم ، فمن تاب منهم قبل نزول هذه الآية قبلت توبته ، ومن مات منهم قبل نزول هذه الآية فإنما حسابه على الله . وبقيت طائفة المنافقين الذي فرحوا وضحكوا عندما بقوا في المدينة ، وكان عقاب الله لهم بأن مسح أسماءهم من ديوان المجاهدين في سبيل الله ، ومنعهم الثواب الكبير للجهاد .

ويقول سبحانه : { فَإِن رَّجَعَكَ الله إلى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فاستأذنوك لِلْخُرُوجِ } فكيف استأذنوا أول الأمر للقعود وتحايلوا عليه ، وكيف يستأذنون الآن للخروج؟ نقول : إنهم عندما رأوا المؤمنين وقد عادوا بالغنائم ، كان ذلك حسرة في قلوبهم؛ لأنهم أهل دنيا . وحينئذ طلبوا الخروج حتى يحصلوا على الغنائم والمغانم الدنيوية . ولكن الحق سبحانه وتعالى طلب من رسوله عليه الصلاة والسلام ألا يأذن لهم بالجهاد مع المسلمين ، فقال : { فَقُلْ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً } أي : أن أسماءكم قد شطبت من ديوان المجاهدين والغزاة ، ولما قرر الحق سبحانه وتعالى ألا يعطيهم شرف الجهاد وثواب الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ يقول الحق سبحانه : { إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بالقعود أَوَّلَ مَرَّةٍ } .

ولكن الحق يقول أيضاً هنا : { فاستأذنوك لِلْخُرُوجِ } وهذا أمر لا يحدث إلا في الغزوات ، فما هو موقفهم إذا حدث اعتداء على المدينة؟ ويبين الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم ألا يقبل قتالاً حتى في هذه الحالة ، فطلب من رسوله عليه الصلاة والسلام أن يعلمهم بذلك ، ويقول لهم : { وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً } إذن : فقد حسمت المسألة ، فلا هم مسموح لهم بالخروج في الغزوات ، ولا بقتال الأعداء إذا هاجموا المدينة؛ لأنهم أُسقطوا تماماً من ديوان المجاهدين ، ولا جهاد لهم داخل المدينة أو خارجها؛ ما داموا قد فرحوا بالقعود ، ورفضوا أن يشتركوا في الجهاد وهم قادرون؛ لذلك حكم الحق أن يبقوا مع الخالفين .

وما معنى خالفين؟ المادة هي « خاء » و « لام » و « فاء » ، فيها « خلف » و « خلاف » و « خلوف » وغير ذلك . و « خالفين » إما أن يكونوا قد تخلفوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإما أن يكونوا خالفوا الرسول بأنهم رفضوا الخروج ، وإما أن يكونوا خلوفاً .

ويقول : صلى الله عليه وسلم في حديث عن الصيام : « الخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك »

والخلوف هو تغير الرائحة ، وتغير الرائحة يدل على فساد الشيء ، فكأنهم أصبحوا فاسدين . ومخالفين تعني فاسدين لأنهم قد خالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ول يقتصر جزاء هؤلاء المتخلفين فقط أن تشطب أسماؤهم من سجلات المجاهدين ، بل هناك جزاء آخر يبينه قول الحق سبحانه وتعالى : { وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ . . . }

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (84)

وصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم على ميت هي رحمة له ، وغفران لذنوبه؛ لأن الصلاة على الميت أن تطلب له الرحمة والمغفرة ، وأن تطلب له من الله أن يُلحقَه بالصالحين . وإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الكلام ، ودعا بهذا الدعاء ، فإن دعوة رسول الله مستجابة من الله . وهكذا حرمهم الله سبحانه وتعالى من رحمة يكون الإنسان في أشد الحاجة إليها حين ينتقل من الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ .

وقول الحق لرسوله : { وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً } معناها نهي عن فعل لم يأت زمنه . وقوله تعالى : { وَلاَ تَقُمْ على قَبْرِهِ } أي : لا تذهب إلى قبره وتطلب له الرحمة ، ولكن الحق سبحانه وتعالى قال : { وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً } مع أن النهي عن المستقبل ، أي : من مات بعد نزول هذه الآيات ، فلماذا لم يقل الحق « يميت » أو « يموتوا » واستخدم الفعل الماضي { مَّاتَ } ؟ . ونقول : لأن الموت عملية حتمية مقررة عند الله ومُقدَّرة ، فموعد الموت مكتوب ومعروف عند الله ، وهو شيء لا يقرره الله مستقبلاً ، بمعنى أن موعد الموت لا يحدد قبل حدوث بليلة أو ليلتين ، ولكن الموعد قد حُدِّد وانتهى الأمر .

أما قوله الحق : { وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم } فهو يدلنا على أن هذا الأمر ليس خاصّاً بسبب ، ولكنه عموم حكم ، فهناك : سبب للحكم ، وهناك عموم حكم . وسبب الحكم مثل الآية التي نزلت في زعيم المنافقين عبدالله ابن أبيّ ، فعندما مرض عبدالله بن أبيّ مرض الموت؛ جاء ابنه عبدالله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطلب منه أن يعطيه قميصه يُكفِّن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه ، فقام رسول الله صلى الله عليه ليصلي عليه ويستغفر له . وذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم مجاملة لابنه عبدالله بن أبيّ الذي أسلم وحَسُن إسلامه .

وعندما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بجوار عبدالله بن أبيّ ، قال له : « أهلك حب يهود » ؛ لأن ابن أبيّ كان يجامل اليهود ويعاونهم ، ونفاقه في الإسلام كان مجاملة لليهود وكان يُظهِر أمام اليهود الكفر ، ويُظهِر أمام المسلمين الإيمان . وهنا قال ابن أبيّ : يا رسول الله ، إنما أرسلت

إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتؤنبني .
فاستغفر له الرسول صلى الله علهي وسلم ، وهنا نزلت الآية الكريمة : { استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ } [التوبة : 80]
وطلب عبدالله بن أبيّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهبه ثوبه لكي يُكفَّن به ، فلما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته ، أرسل له الثوب الأعلى .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يلبس ثوبين؛ ثوباً يلي جسده وثوباً فوقه . فلما جاء ابن أبيّ الثوب الأعلى ، قال : أنا أريد الثوب الذي لامس جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم .
انظر إلى زعيم المنافقين والذي كان يملؤه الكبرياء في حياته ، كبرياء على المؤمنين؛ ها هو ذا يطلب كل هذه الطلبات ساعة احتضاره . فماذا صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أرسل له القميص الذي لامس جسده الشريف . وكان كل هذا إرضاء لابنه عبدالله بن عبدالله بن أبيّ .
ولم يتقبل هذا الفعل عدد المؤمنين ولم يشعروا بالارتياح ، فعندما مات ابن أبيّ جاء ابنه عبدالله ، وطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي عليه .
وعندما هَمَّ النبي أن يصلي عليه ، وقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين الرسول وبين القبلة .
وهنا حسم الحق سبحانه وتعالى الموقف ونزلت الاية الكريمة : { وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً } فقد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي على أبيّ؛ لأنه رسول رحمة للعالمين .
ولكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقف بينه وبين القبلة حتى لا يصلي ، فأنزل الحق قوله : { وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً } وقالوا : تلك من الأمور التي وافق الوحي فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
ومن المسائل التي وافق الوحي فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه تغيير القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام . فقد كان عمر يرجوها ، وكان يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، لو اتخذت مقام إبراهيم مصلّى .
ومن هذه الأمور أيضاً رأى في أسرى بدر ، وأن من الواجب قتلهم ، وكان رأي أبي بكر أن يقوم الأسرى بتعليم المسلمين القراءة والكتابة؛ أو يؤخذ فيهم الفداء ، فنزلت الآية الكريمة : { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أسرى حتى يُثْخِنَ فِي الأرض تُرِيدُونَ عَرَضَ الدنيا والله يُرِيدُ الآخرة } [الأنفال : 67]
بعض الناس يتساءل : كيف يستدرك عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ نقول : لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لن يُخلَّد في أمته؛ لذلك أراد أن يعطيهم الأُسْوة بأنه صلى الله عليه وسلم متى رأى رأياً حسناً نزل عليه . وبعض المستشرقين يقولون : إنكم تقولون دائماً عمر فعل كذا ، ولماذا لا تقولون لنا محمد فعل كذا؟ ونقول : إذا فعل محمد فهو رسول الله ، أما غير

الرسول عندما يفعل فهو دليل على أن الفطرة الإسلامية من الممكن أن ترى شيئاً يتفق مع ما يريده الله .

وبعد أن نزل قول الحق : { وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً } صار الحكم عاماً في ألا يصلى رسول الله على المنافقين . لكن من أراد من الناس أن يصلي فليُصلِّ .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يكرم كل مسلم بالصلاة عليه ، فلما نزلت هذه الآية امتنع عن الصلاة على المنافقين .

كذلك امتنع صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على الميت وعليه دين ، « فكان يسأل أهل الميت : هل عليه دَيْن؟ فإن قالوا : نعم . سأل : هل تريد ما يسده؟ . فإن قالوا : لا ، قال : » صَلُّوا على صاحبكم « ، وامتنع هو عن الصلاة . »

ولكن ما ذنب من عليه دين أن يُحرَم صلاة رسول الله عليه؟ نجد الإجابة في قوله صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومَنْ أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »

فلو كان هذا الميت المدين ينوي سداد دينه لأعانه الله على أن يُسدِّده ، أما إذا ترك ما يفي بهذا الدين من عقارات أو أراض أو أموال في البنوك فلا يكن مديناً .

ويقول الحق سبحانه هنا : { وَلاَ تَقُمْ على قَبْرِهِ } ونحن نعلم أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يذهب إلى قبر حمزة رضي الله عنه ، ويقف على قبور المؤمنين : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين » ومنعه الحق من ذلك العمل على قبور المنافقين . ويعطينا الحق سبحانه العلة في ذلك فيقول : { إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ } وعرفنا كيف كفروا بالله ورسوله ، لكن ماذا عن قوله الحق : { وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ } . فهل ماتوا وهم خارجون عن المنهج؟ نعم ، تماماً مثلما نقول : فسقت الرطبة؛ لأن البلح في نضجه يكون أحمر اللون أو أصفر وتلتصق قشرته به ، فإذا رطب انفصلت القشرة عن البلحة ، بحيث تستطيع أن تنزعها بسهولة ، فكأن منهج الله بالنسبة للمؤمنين لا بد أن يلتصق به كقشرة البلحة الحمراء ، وإذا انفصل عنه مثل قشرة الرطبة يُصَابُ بالفساد .

ولكن هنا نتساءل : أليس الكفر أكبر مرتبة من الفسق؟ لأننا نعلم أنه ليس بعد الكفر ذنب؟ فكيف يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ } مع أنهم كفروا ، والكفر أكبر الذنوب؟

ونقول : إن الكفر هو عدم الإيمان بالله ورسوله وعدم الدخول في الإسلام ، ولكن الفسق هو عدم الالتزام بأية قيم ، ذلك أن الدين قد أوجد في النفوس عامة قيماً معروفة يتبعها حتى الذين كفروا ، فمثلاً عندما أرادوا بناء الكعبة قبل الإسلام ، قالوا : نريد أن نبنيها بمال حلال ، لا

يدخل فيه مال بَغيٍّ . وكانوا في الماضي يُحضرون البغايا ، ويُقيمون لهن الرايات ، ويأخذون من أموالهن . لم يكن الإسلام قد جاء بَعْد ، ولكن كانت هناك قيم من مناهج السماء التي جاءت قبل الإسلام . وجاء الإسلام موافقاً لبعضها .

إذن : فقوله الحق : { كَفَرُواْ بالله وَرَسُولِهِ } ، أي : لم يكونوا مسلمين . { وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ } أي : لم يلتزموا بأية قيم .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا . . . }

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (85)

ونعلم أن الحق قال في آية سابقة : { فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياوة الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } [التوبة : 55]

والنص القرآني إذا ما اتفق مع نص آخر ، نقول : إن الأداء الخاص ومقتضيات الأحوال تختلف ، ومن ينظر إلى خصوصيات ومقتضيات الأحوال يعلم أن هذا تأسيس وليس تكراراً ، فقد تحمل آيتان معنى عامّاً واحداً ، ولكن كل آية تمس خصوصية العطاء ، ولنأخذ مثالاً من قوله الحق : { وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ . . . } [الأنعام : 151]

وقوله تعالى : { وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم . . . } [الإسراء : 31]

وقد ادعى بعض المستشرقين أن في القرآن تكراراً ، وهذا غير صحيح؛ لأنهم ينظرون إلى عموم الآية ولا ينظرون إلى خصوصية العطاء . وخصوصية العطاء في الآية توافق مقتضى كل حال .

ففي قوله سبحانه عن رزق الأولاد لم يلتفتوا إلى صدري الآيتين بل التفتوا إلى عجُز الآيتين ، وذلك من جهلهم بملكة الأداء في البيان العربي .

ولنا أن نسأل هؤلاء المستشرقين الذي يثيرون مثل هذه الأقاويل : هل ترون أن آية من الآيتين أقل بلاغة من الأخرى؟ ولن نجد إجابة عندهم؛ لأنهم لا يعرفون دقة البيان العربي . ونقول لهم : أنتم إن نظرتم إلى عَجُز كل آية وصدرها لوجدتم أن آخر الآية يقتضي أولها ، وإلا لما استقام المعنى ، فالله سبحانه وتعالى لم يَقُلِ في الآيتين : { وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إمْلاَقٍ } وإنما قال : { مِّنْ إمْلاَقٍ } ، وقال : { خَشْيَةَ إِمْلاقٍ } ولم يقل في الآيتين : { نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم } بل قال : { نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم } وقال : { نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ } .

إذن : فبداية الآيتين مختلفة؛ الآية الأولى : { وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إمْلاَقٍ } . والإملاق هو الفقر ، فكأن الفقر موجود فعلاً . وقوله تعالى : { وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ } ، فكأن الفقر غير موجود ، ولكن الإنسان قد يخشى أن يأتي الفقر بمجيء الأولاد .

إذن : فالآية الأولى تخاطب الفقراء فعلاً ، والآية الثانية تخاطب غير الفقراء الذين يخشوْنَ مجيء

الفقر إن رُزِقوا بأولاد؛ والفقير – كما نعلم – يُشغل برزقه أولاً قبل أن يُشغلَ برزق أولاده .
ولذلك يطمئنه الحق سبحانه وتعالى على أن أولاده لن يأخذوا من رزقه شيئاً ، فيقول : { نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ } أي : اطمئن أيها الفقير على رزقك فلن يأخذ أولادك منه شيئاً؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يرزقك أولاً ويرزق أولادك أيضاً .
أما غير الفقير الذي يخشى أن يجيء الولد ومعه الفقر فقد ينشغل بأن المولود الجديد سيأتي ليُحوِّل غناه إلى فقر . ويخاطبه الحق سبحانه وتعالى بقوله : { نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم } أي : أن رزقهم يأتي من عند الله قبل رزقكم أنتم ، فلا تخشوا الفقر وتقتلوا أولادكم؛ لأن الحق سبحانه وتعالى سيرزقهم ، فلن يصيبكم الفقر بسبب الأولاد .

وهكذا نرى أن معنى الآيتين مختلف تماماً وليس هناك تكرار .
كذلك في الآية التي نحن بصددها ، يقول بعض الناس : إن هذه الآية قد رودت في نفس السورة ، نقول لهم : نعم . ولكن هذه لها معنى والأخرى لها معنى آخر؛ فأين الاختلاف في الآيتين؛ حتى نعرف أنهما ليستا مكررتين؟ الآية الأولى تقول : { فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياوة الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } [التوبة : 55]
والآية الثانية التي نحن بصددها تقول : { وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } [التوبة : 85]
أول اختلاف نجده في بداية الآيتين؛ ففي الآية الأولى : { فَلاَ تُعْجِبْك } ، والثانية : { وَلاَ تُعْجِبْكَ } .
ففي الآية الأولى جاء الحق سبحانه وتعالى بالفاء ، والفاء تقتضي الترتيب . إذن : فهذه الآية مترتبة على ما قبلها ، وهي قوله تعالى : { وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصلاوة إِلاَّ وَهُمْ كسالى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ } [التوبة : 54]
فكأن هذه حيثيات كفرهم؛ فهم لا يُصلُّون إلا نفاقاً ، ولا ينفقون مالاً في سبيل الله إلا وهم يكرهون ذلك .
والمتعة في المال أن تنفقه فيما تحب ، فإذا أحببت طعاماً أشتريته ، وإذا أحببت ثوباً ابتعته . وتكون في هذه الحالة مسروراً وأنت تنفق مالك ، ولكن هؤلاء ينفقون المال وهم كارهون .
والمؤمن عندما ينفق ماله في صدقة أو زكاة فهو يفعل ذلك إيماناً منه بأن الله سبحانه وتعالى سيعطيه أضعاف أضعاف الأجر في الدنيا والآخرة . إذن : فحين ينفق المؤمن ماله في الزكاة ، يكون فرحاً لأنه عمل لدنياه ولآخرته .
أما المنافق الذي يضمر الكفر في قلبه ، فهو لا يؤمن بالآخرة ولا يعرف البركة في الرزق ، فكأنه أنفق ماله دون أن يحصل على شيء ، أي : أن المسألة في نظره خسارة في المال ولا شيء غير

ذلك . وإن أنفق الإنسان وهو كاره ، فالمال الموجود لديه هو ذلة وتعب؛ لأنه حصل على المال بعد عمل ومشقة ، ثم ينفقه وهو لا يؤمن بآخرة ولا بجزاء .

ويريد الحق سبحانه أن يلفتنا إلى أن رزقه لهؤلاء الناس هو سبب في شقائهم وإذلالهم في الدنيا فيجعلهم يجمعون المال بعمل وتعب ثم ينفقونه بلا ثواب ، أي : يخسرونه . والواحد منهم يذهب إلى الحرب نفاقاً ، فينفق على سلاحه وراحلته ، ولا يأخذ ثواباً ، ويُربِّي أولاده ثم تأتي الحرب ، فيذهبون نفاقاً للقتال؛ فيموتون دون استشهاد إن كانوا منافقين مثل آبائهم . وهكذا نجد أن كل أموال المنافق الذي يتظاهر بالإسلام ، وهو كافر ، تكون حسرة عليه .

ومن هنا فإياك أيها المؤمن أن تعجبك أموالهم؛ لأنها ذلة لهم في الدنيا؛ فهم يبذلونها نفاقاً؛ فإذا امتنعوا عنا الإنفاق وعن الجهاد وهم يتظاهرون بالإسلام؛ فكأنهم قد أعلنوا أنهم منافقون ، وهكذا نجد إنفاقهم كرهاً هو إذلال لهم ، وإن لم ينفقوا فهذا أمر يفضحهم ، فكأن الأموال والأولاد عذاب لهم ، وهذا أمر لا يقتضي الإعجاب ، وإنما يقتضي الإشفاق عليهم .

ولا تظن أنك حين حذفتهم من ديوان الغُزاة والمجاهدين بعدم الخروج معك وأنهم لن يقاتلوا معك عدوّاً ، أن في أموالهم عوضاً عن الخروج ، فلا تعجبك فإنها عقاب وفضيحة وإذلال لهم .

ولكن في الآية الأولى ، يقول الحق سبحانه :

{ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ } لماذا؟ لأن منهم من له مال يعتز به ، ومنهم من له أولاد كثيرون هم عِزْوته ، ومنهم من له المال والولد .

إذن : فهم مختلفون في أحوالهم؛ لذلك جاء القول : { أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ } لتؤدي المعاني كلها . ولتشمل من عنده مال فقط ، ومن عنده أولاد فقط ، ومن عنده المال والولد .

أما في الآية الثانية التي نحن بصددها :

{ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ }

إذن : فالحقُّ سبحانه وتعالى قد أعطاهم المال والولد للعذاب . ولكن هناك من يقول : ما دام الحق يريد تعذيبهم بالأموال والأولاد ، فهل المال والأولاد علة للعذاب؟ وهل لأفعال الله علة؟ ألا يقول المسلمون : إن أفعال الله لا علة لها؛ ونقول : لقد قالوا مثل ذلك القول في قوله الحق : { وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات : 56]

ولم يلتفتوا إلى أن العلة في الخلق لا تعود إلى الله ، ولكنها علة ترجع للمخلوق؛ لأن في العبادة مصلحة ومنفعة للمخلوق . فسبب الخلق هو العبادة ، وهذا السبب ليس راجعاً إلى الخالق ولا تعود على الله أدنى منفعة ، فلا شيء يزيد في ملكه ولا شيء ينقصه . أو هي لام العاقبة . ومعنى « لام العاقبة » أن تفعل شيئاً فتأتي العاقبة بغير ما قصدت مصداقاً لقوله الحق : { فالتقطه آلُ

فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً . . . } [القصص : 8]

هل التقط آل فرعون موسى ليكون لهم عدوّاً؟ أم التقطوه ليكون لهم قرة عين؟ . لقد التقطوه ليكون قرة عَيْن لهم ، ولكن النهاية جاءت بغير ما قصدوا؛ فأصبح الذي التقطوه ليكون وليّاً ونصيراً لهم هو الذي جاءت على يديه نهايتهم ، ولو كان فرعون يعلم الغيب لما التقط موسى بل لقَتله ، وشاء الحق أن يخفي عنه الغيب ليقوم هو بتربية من سيقضي على مُلكه ، تماماً كما تُدخل ابنك إلى المدرسة فيفشل ، وتنفق عليه فلا يتخرج ، هل أنت أدخلته المدرسة ليخيب؟ طبعاً لا . كذلك قول الحق سبحانه وتعالى : { لِيُعَذِّبَهُمْ } ويريدنا الله أن نفهم أن العذاب ليس هو سبب جمعهم المال ، وإنما السبب هو في ذلك هو حُبُّهم للمال والمتعة ، وكذلك الأولاد ليس الهدف منهم أن يكونوا سبباً في عذاب آبائهم ، بل هم يريدون الأولاد ليس الهدف منهم أن يكونوا سبباً في عذاب آبائهم ، بل هم يريدون الأولاد عِزْوة لهم . ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يعذبهم بالمال والأبناء في الدنيا .

فالمال يجمعه المنافق من حلال ومن حرام ، ثم بعد ذلك إما أن يفارقه المال بكارثة تصيبه ، وإما أن يفارق هو المال بالموت ، وإما أن يكون هذا المال عذاباً له؛ فيعيش مع خشية الفقر وزوال النعمة ، كذلك الأولاد يربيهم ويتعب في تربيتهم ، ثم بعد ذلك إما أن يفارقوه بالموت ، وإما أن يكبروا فاسدين؛ فيكونوا مصدر عذاب لهم .

فكأن قول الحق سبحانه وتعالى :

{ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياة الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } هو كلام من الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين؛ لأن هؤلاء المنافقين قد يعطيهم الله الأموال والأولاد؛ ولكنها ليست خيراً لهم ، بل هي عذاب لهم؛ لأنهم بإبطائهم الكفر وتظاهرهم بالإيمان؛ يفرضون على أنفسهم تكاليف تأخذ جزءاً من أموالهم وأولادهم ، وحينئذ تكون عذاباً لهم لأنهم خسروا كل شيء ولم يكسبوا شيئاً ، فليس لهم أجر على موت أبنائهم إن قتلوا ، ولا أجر الزكاة والصدقة فيما ينفقونه رياء ونفاقاً .

أما الآية الثانية :

{ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } فهي حكم عام على من يعطيهم الله نعمة الدنيا ويكفرون به ، وتكون هذه النعمة عليهم عذاباً ، فهم في خوف من ضياع المال أو فقد الولد؛ لذلك يعانون من العذاب . وهم من خوفهم من الموت وترك النعمة مُعذَّبون ، فهم لا يريدون أن يموتوا لأنهم لا يعتقدون في الآخرة ، ويكون المال والولد حسرة عليهم؛ لأن المؤمن إن مات منه ولد ، علم أن افتقاد الابن إنما يسد طاقة جهنم ، ويقوده إلى رحمة الله ، وله أجر على ذلك ، فإن كان الولد صغيراً كان ذخراً له في الآخرة ، وإن

كان كبيراً فهو يتذكر قول الحق : { والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم . . . } [الطور : 21] وفي هذا سلوى عن افتقاد الولد ، لكن المنافق يحيا في خوف وحسرة . وفي هذا عذاب . ويلفتنا الحق سبحانه إلى أن مال الكافر هو حسرة عليه دائماً فيقول : { إِنَّ الذين كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ الله فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ والذين كفروا إلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ } [الأنفال : 36]

أي أن الله سبحانه وتعالى يعاقب من ينفق لمحاربة دينه بأن يتركه ينفق ، ثم ينصر الله دينه ليجعل ذلك حسرة في نفسه حين يرى المال الذي أنفقه وقد جاء بنتيجة عكسية هي انتصار الدين وانتشاره .

وقول الحق سبحانه وتعالى : { وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } وهذه هي الحسرة الكبرى ، فحين يموت الكافر ولا يجد له رصيداً في الآخرة إلا النار؛ لأنه مات على غير يقين بالجنة وعلى غير يقين بأنه قد قدم شيئاً ، يُلْقَى في النار محسوراً على ما تركه في الدنيا ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل نقرأ قول الله : { وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ . . . } [الأنفال : 50]

وهكذا يذوقون العذاب .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى للمنافقين في قوله : { وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ . . . } .

وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (86)

وهكذا شاء الحق أن يفضح المنافقين ، هؤلاء الذين استمرأوا الاستمتاع بنفس حقوق المؤمنين لمجرد إعلانهم الإسلام ، بينما تبطن قلوبهم الكفر والكيد للمسلمين . وقوله الحق : { وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بالله وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ } هو خطاب للمنافقين يكشف بطلان إيمانهم؛ ولذلك جاء قوله الحق : { أَنْ آمِنُواْ } أي : اجعلوا قلوبكم صادقة مع ألسنتكم ، فالله يريد إيماناً بالقلب واللسان ، فيتفق السلوك مع العقيدة . وقول الحق : { وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ } أي : انفروا للجهاد مع رسول الله ، فهذا هو التعبير العملي عن الإيمان ، ولا تفرحوا بتخلفكم عن القتال في سبيل الله؛ لأن الجهاد والقتال في سبيل الله شرف كبير له ثواب عظيم . وامتناع إنسان عن الجهاد هو تنازل عن خير كبير ، فالحق سبحانه يعطي جزيل الأجر لمن جاهد جهاداً حقيقيّاً .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : { استأذنك أُوْلُواْ الطول مِنْهُمْ } و « استأذن » من مادة استفعل ، وتأتي للطلب ، كأن تقول : « استفهم » أي : طلب أن يفهم ، و « استعلم » أي : طلب أن يعلم . إذن : فقوله : { استأذنك } أي : طلبوا الإذن ، ولأنهم يتظاهرون بالإيمان ويبطنون

الكفر ، تجدهم ساعة النداء للجهاد لا يقفون مع المؤمنين ، وكان من المفروض أن يكونوا بين المجاهدين ، وأن يجدوا في ذلك فرصة لإعلان توبتهم؛ ورجوعهم إلى الحق فيكون جهادهم تكفيراً عما سبقه من نفاق ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل طلبوا الإذن بالقعود .

ومن الذي طلب الإذن؟

إنهم أولو الطَّوْل . و « أولو » معناها أصحاب القوة والقدرة . و « الطَّوْل » هو أن تطول الشيء ، أيك تحاول أن تصل إليه ، فإذا لم تصل يدك إليه؛ يقال : إن هذا الشيء يدك لم تَطُلْه ، أي : لم يكن في متناول يدك .

و { أُوْلُواْ الطول } أي : الذين يملكون مقومات الجهاد من سلامة البدن من الأمراض ووجود القوة ، ولا يعانون من ضعف الشيخوخة ، وأن يكون الإنسان قد بلغ مبلغ الرجولة وليس صبيّاً صغيراً؛ لأن الشيخ الكبير ضعيف لا يقدر على الجهاد ، وكذلك الصبي الصغير لا يملك جَلَداً على الحرب . وأيضاً نجد المريض الذي قد يعوقه مرضه عن الحركة .

أما أولو الطول فهم الذين يملكون كل مقومات الحرب ، من قوة بدنية وسلاح ، والذين لم يبلغوا سن الشيخوخة ، ولا هم صبيان صغار ولا مرضى .

إذن : فعندما تنزل آية فيها الجهاد ، فالذين يستأذنون ليسوا أصحاب أعذار – لأنهم معفون – لكن الاستئذان يأتي من المنافقين الذي تتوافر فيهم كل شروط القتال ، ويستأذنون في القعود وعدم الخروج للقتال . ويقولون ما يخبرنا الحق به : { وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُنْ مَّعَ القاعدين } والقاعد مقابله القائم . والقيام – كما نعلم – هو مقدمة للحركة . فإذا أراد الإنسان أن يمشي ، قام من مكانه أولاً ، ثم بدأ المشي والحركة ، ومن القيام أخذتْ مادة (القوم) أي : الجماعة القائمة على شئونها ، والقوم هم الرجال ، أما النساء فلا يدخلن في القوم ، مصداقاً لقول الحق :

{ ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ . . . } [الحجرات : 11]

إذن : فالقيام يقابله القعود ، والقوم يقابلهم النساء . والقعود هو مقدمة للسكون ، فمتى جلس الإنسان فهناك مقدمة لفترة من السكون ، وقعود المنافقين وتخلفهم واستئذانهم أن يبقوا مع النساء والعجزة والمرضى والصبية هو حَطٌّ من شأنهم .

ولذلك يقول عنهم الحق سبحانه وتعالى : { رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الخوالف . . . } [التوبة : 87]

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (87)

و { الخوالف } ليست جمع « خَالِف » ولكنها جمع « خالفة »؛ لأن « خَالف : لا تجمع على » فواعل « ، وإنما » خالفه « هي التي تُجمَعُ على » فواعل « ، وهم قد ارتضوا لأنفسهم أن يطبق عليهم الحكم الذي يُطبق على النساء .

ولذلك كانوا { لاَ يَفْقَهُونَ } لأنهم ارتضوا لأنفسهم وصفاً لا يليق بالرجال وفرحوا بهذا الوصف دون أن ينتبهوا لما فيه من إهانة لهم؛ لأنهم يهربون من القتال كما تهرب النساء . والمنافق – كما قلنا – له ملكتان : ملكية قولية ، وملكة قلبية . فقول المنافق إعلان بالإيمان ، أما قلبه فهو ممتلئ بالكفر؛ وفي هذه الحالة تتضارب ملكاته .

والله سبحانه وتعالى يوضح لهم : سوف نعاملكم في الدنيا بظاهر كلامكم ، ونعاملكم في الآخرة بباطن قلوبكم ، وسوف نطبع على هذه القلوب؛ فلا يخرج منها كفر ، ولا يدخل إليها إيمان ، ولذلك قال الحق سبحانه هنا { وَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ } .

وقد قال الحق سبحانه : { خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ . . . } [البقرة : 7]

وقال سبحانه : { وَطَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ . . . } [التوبة : 93]

وما دام الكافر قد أعجبه كفر قلبه؛ فالحق سبحانه يختم على قلبه ، بحيث لا يخرج ما فيه من كفر ، ولا يدخل إلى قلبه؛ ما هو خارجه من إيمان ، تماماً كما تختم الشيء بالشمع الأحمر؛ فيظل ما في داخله كما هو ، وما في خارجه كما هو . ويطبع الله على قلبه؛ فيمنع ما فيه من الكفر أن يخرج ، ويمنع ما في خارجه من الإيمان أن يدخل إليه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : { فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ } والفقه هو الفهم ، أي : لا يفهمون ما حُرِموا منه من ثواب ونعيم الآخرة؛ لأنهم قد فرحوا بتخلفهم عن الجهاد ، وهم يحسبون أن هذا خيراً لهم ولكنه شر لهم .

ثم يريد الحق سبحانه أن يضع الطمأنينة في نفوس المؤمنين ، ويطلب منهم ألا يفزعوا؛ لتخلف هؤلاء القادرين عن القتال رغم أنهم أصحاب الطَّوْل الذين يملكون الأموال والأولاد . ويزيل الحق أثر ذلك من نفوس المؤمنين ، فيقول سبحانه : { لكن الرسول والذين . . . }

لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88)

أي : إياكم أن تحزنوا على هؤلاء المنافقين بسب قعودهم عن الجهاد معكم ولا تقولوا : نحن خسرناهم في قتالنا؛ لأن الحق لا يحتاج إليهم ولا إلى جهادهم . وسبحانه القائل : { فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هؤلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ } [الأنعام : 89]

ويقول سبحانه : { فَإِنِ استكبروا فالذين عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بالليل والنهار وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ } [فصلت : 38]

وكذلك يقول الحق سبحانه : { هَا أَنتُمْ هؤلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ الله فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ والله الغني وَأَنتُمُ الفقرآء وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يكونوا أَمْثَالَكُم } [محمد : 38]

وأيضاً نجد قوله الحق : { ياأيها الذين آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ . . . } [المائدة : 54]

إذن : فتخلف بعض أصحاب القوة والمال والجاه عن الجهاد ، يجب ألا يشيع الفزع أو الحزن في نفوس المؤمنين؛ لأن الله معهم ، ولأنهم لهم الخيرات ، أي : لهم كل ما يطلق عليه خير : { وأولئك لَهُمُ الخيرات وأولئك هُمُ المفلحون } والمفلح : هو الفائز الناجي المستفيد بثمرة عمله ، وأصلها فلح الأرض أي : شقها؛ لأن الزراعة تقتضي أن تحرث الأرض أولاً ، وهذه مهمة الإنسان ليخرج الزرع . والحق سبحانه وتعالى يقول : { أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون } [الواقعة : 64]

ونحن حيث نحرث الأرض نهيجها ، وبدلاً من أن تكون صلبة لا يدخلها هواء ولا تتخللها أشعة الشمس ، تصير بعد الحرث مستقبلة للهواء وتتخللها أشعة الشمس؛ فتخلصها من أي ماء راكد في داخلها ، وبذلك يتوافر للأرض الهواء اللازم لنمو جذور النبات؛ لأن إذا وضعت الحَبّ في أرض غير محروثة ، فالزرع لا ينبت؛ لعدم وجود الهواء الذي تتنفس منه الجذور . ولكن إذا حرثت الأرض؛ جعلت أشعة الشمس تتخلل ما هو تحت السطح؛ وتبخر الماء المخزون؛ ليدخل الهواء بدلاً منه؛ فتستطيع جذور النبات أن تنمو . إذن : فكل عمل يؤدي إلى نتيجة طيبة نُسمّيه فَلاحاً . وهو مأخوذ من الأمر الحسّي ، الذي نراه كل يوم وهو الفِلاحة .

وحين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا أمراً معنويّاً ، فهو سبحانه يستحضر لنا صورة محسّة من الذي نراه أمامنا؛ حتى نستطيع أن نُقرّب المعنى إلى الأذهان؛ خصوصاً في الغيبيات التي لا نراها ، فإذا أراد سبحانه أن يقرّبها إلى أذهاننا؛ فهو يضرب لنا الأمثال بأمور حسّية . والإنسان حين يفلح الأرض ويشقها ويبذر فيها الحب ، تعطيه محصولاً وفيرا ً وكذلك فإن كل عمل يؤدي إلى نتيجة طيبة نسميه فلاحاً .

وعندما يحدثنا الحق سبحانه ، فهو يعطينا المثل مما نراه كل يوم؛ ليقرب إلى أذهاننا جزاء الصدقة والزكاة ، ومضاعفته لنا الأجرَ ، فيقول : { مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ . . . }

[البقرة : 261]

فإذا كانت الحبة عندما تضعها في الأرض تنبت سبعمائة حبة ، وإذا كانت الأرض ، وهي مخلوقة لله ، قد أعطتك عن الشيء الواحد سبعمائة ضعف ، فكم يعطي خالق الأرض؟ وكم يضاعف؟

إنها صورة مُحَسّة للجزاء على الصدقة والزكاة . وأنت ساعة تزرع الأرض لا تقول : أنا أنقصت المخزون عندي كيلة من القمح أو إردباً من القمح؛ لأنك تعلم أنك تأخذ مما عندك إردباً من القمح؛ لتزرعه في الأرض . ولكنك لا تنظر إلى الإردب الذي أخذته من المخزون عندك ، بل انظر إلى ما سوف يجيء لك من هذا الإردب ساعة الحصاد ، وكذلك الزكاة : إياك أن تنظر إلى ما سينقص من مالك عندما تؤدي الزكاة ، ولكن انظر إلى كم سيضاعف الله لك من هذا المال .

وقد ضرب الحق مثلاً بشيء مُحِسٍّ يعلمه الجميع ، ومن صورة ما نراه أمامنا لنفهم ما ينتظرنا ، فإذا كانت الأرض – وهي المصدر الأول للاقتيات – تُلقى فيها الحبة الواحدة ، فتعطي لك سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، وإذا كانت الأرض المخلوقة لله تعوضك عما وضعته فيها بسبعمائة ضعف ، فكم يعطيك خالق الأرض؟

إذن : فهو سبحانه قادر أن يضاعف لمن يشاء بغير حساب . ولذلك يبشر الحق سبحانه وتعالى المؤمنين بقوله :

{ وأولئك لَهُمُ الخيرات وأولئك هُمُ المفلحون } وهذا جزاء المؤمنين في الدنيا ، ولكن هناك جزاءاً آخر في الآخرة . وفي هذا يُبشِّرنا الحق سبحانه في قوله : { أَعَدَّ الله لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي . . . }

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89)

وقد عرفنا من قبل أخبار الجنات والأنهار ، وهنا يوضح لنا الحق الخير الذي يخلد فيه المؤمنون .

ولماذا سمى الله سبحانه وتعالى جزاء الآخرة بأنه : { الفوز العظيم } .

ذلك لأن هناك فارقاً بين الخير والفلاح في الدنيا ، والفوز في الآخرة؛ فالدنيا موقوتة بعمرك وتتمتع فيها بقدر أسبابك . إذن : ففيها فوز محدود لا يسمى فوزاً عظيماً . أما الآخرة فالنعمة فيها لا تفارقك ، ولا تفارقها أنت ، فالنعمة خالدة ، وأنت خالد ، وهذه النعمة – في الوقت نفسه – ليست بقدراتك أنت ، بل بقدرات خالقك سبحانه وتعالى ، ولا تحتاج منك أي تعب أو عمل أو اجتهاد ، بل يأتيك الشيء بمجرد أن يخطر على بالك ، وهذا لا يحدث إلا في الآخرة وفي الجنة وهذا هو الفوز العظيم؛ لأنه دائم وبلا نهاية .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَجَآءَ المعذرون مِنَ . . . }

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (90)

والحديث هنا المنافقين الذين كانوا يعيشون حول المدينة وكانوا يُسمَّون « الأعراب » ، وقد تحدثت الآيات السابقة عن منافقي المدينة الذين جاء فيهم قول الحق : { وَمِنْ أَهْلِ المدينة مَرَدُواْ

عَلَى النفاق . . . } [التوبة : 101]

وهنا يأتي الحديث عن المنافقين الذين كانوا يسكنون في البوادي التي حول المدينة وهم الأعراب .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { المعذرون } ، وهناك « مُعْذِرون » و « معتذرون » ، والمعذِّرون هم المعتذرون؛ فالمعتذر جمعه معتذرون بفتحة فوق التاء ، لكن إذا وُضِعَتْ الفتحة فوق العين فالحرف الذي بعدها يُسكّن ، وعندما يُسكّن ما بعد العين ، فهذا يعني أن هناك افتعالاً .

إذن : فالمعذّرون أو المعتذرون هم الذين يريدون أن يتخلفوا عن القتال بأعذار مفتعلة ، وهم أرادوا القعود والسكون ولم يتحركوا للقتال ، وقد فعلوا ذلك دون عذر حقيقي . ويقال : « المعذرون » ، و « المُعَذّر » ، و « أعذره » أي : أذهب عذره ، مثل : « أعجم الكتاب » أي : أذهب عُجْمته .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : { وَجَآءَ المعذرون مِنَ الأعراب لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الذين كَذَبُواْ الله وَرَسُولَهُ } لقد كذبوا الرسول في الإيمان نفسه؛ لأنهم لم يكلفوا أنفسهم حتى مجرد الاعتذار وتخلفوا ، ولو كانوا قد صدقوا في الإيمان لما تقاعسوا عن القتال ، أولا استأذنوا رسول الله في القعود .

ثم يقول الحق : { سَيُصِيبُ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } والكفر – كما نعلم – هو ستر الإيمان . والمنافقون من الإعراب أظهروا الإيمان وكانت قلوبهم تمتلئ بالكفر . ويقول الحق سبحانه وتعالى : { قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ . . . } [الحجرات : 14]

أي أنهم يؤدون أمور الإسلام الظاهرية بينما قلوبهم لم يدخلها الإيمان .

ويعرفنا الحق سبحانه بالجزاء الذي ينتظر هؤلاء المتخلفين من الأعراب فيقول : { سَيُصِيبُ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } وعرفنا من قبل أن وصف العذاب في القرآن إما أن يكون أليماً ، وإما أن يكون مهيناً ، وإما أن يكون عظيماً ، وإما أن يكون مقيماً .

وأراد الحق سبحانه أن يعطي رخصة للذين لا يقدرون على القتال ولهم العذر في أن يتخلفوا عنه؛ فقال : { لَّيْسَ عَلَى الضعفآء . . . }

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (91)

ونحن نعلم أن الضعيف هو من لا يقدر على العمل ، لا بسبب المرض ، بل لكبر سنه ، أو هو صغير السن لا يقدر على الحرب ، وكذلك يعفي الحق المرضى من القتال؛ وهم من أصيبوا بعاهة طارئة تجعلهم غير قادرين على القتال . وكذلك أعفى الله الذين لا يجدون ما ينفقون؛ لأنهم من شدة فقرهم لا يستطيعون شراء دابة تحملهم أو معدات قتال يقاتلون بها .

والنفقة – كما نعلم – هي أن تقدر أن تعول نفسك في الذهاب والإقامة مدة الحرب والعودة .

وكان على كل مجاهد أن يُعِدَّ مطلوبات الحرب . فالله سبحانه قد رفع الحرج عن الذين لا يجدون ما ينفقونه ، وجعل لهم وظيفة أخرى تخدم الجهاد ، فقال سبحانه وتعالى :

{ إِذَا نَصَحُواْ للَّهِ وَرَسُولِهِ } أي : ينصحون ويشجعون أولئك القادرين على الجهاد؛ ليُحَمِّسوهم على القتال ، ثم يكونون في عون أهل المجاهدين ، ويواجهون الإشاعات والأكاذيب التي يطلقها المنافقون في المدينة؛ للنيل من الروح المعنوية للمسلمين فيردون عليها ليُخْرِسوا ألسنة السوء .

ثم يقول الحق : { مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ } والسبيل : هو الطريق ، ومعناها : ما عليهم من إثم أو لوم أو توبيخ أو تعنيف . وكل هذا لا يجد سبيلاً على المحسنين ، ولم يقل الحق : « مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ »؛ لأن السبيل يمر عليهم ولا ينتهي إليهم بلوم؛ لأن هناك فارقاً بين أن يمر عليهم وأن ينتهي إليهم ، فالمرور أمر عادي ، وليس هو الغاية؛ لذلك يوضح الحق أنه لا يوجد سبيل إليهم ولا إلى عتابهم؛ لأنهم أدوا كل ما تطلّبه الجهاد منهم ، ولكنهم لم يذهبوا إلى ميدان القتال؛ لأسباب خارجة عن إراداتهم ، وفعلوا كل ما يتطلّبه الإيمان .

أما إذا كان المجاهد لديه ما ينفقه ، ولكنه لا يملك راحلة يركبها ، فعليه أن يذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلب منه راحلة ، فإذا قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : { لاَ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ } فهذا إذن بالقعود ، وفي هذا يقول الحق سبحانه : { وَلاَ عَلَى الذين إِذَا مَآ . . . }

وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (92)

إذن : فالمعفوْن من الجهاد هم : الضعيف والمريض ، والذي لا يجد قوتاً ، ولا يجد راحلة؛ فيطلبها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول له رسول الله : { لاَ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ } ومن في مثل هذه الحالة يحزن مرتين ولا يفرح؛ الحزن الأول : بسبب عجز المسلمين في ذلك الوقت أن يملكوا ما ينهض بنفقات المقاتلين أو أن يجهزوا لهم وسائل الانتقال إلى ميدان القتال ، والحزن الثاني : بسبب عدم تواجده في ميدان القتال مشاركاً ومجاهداً ، ولا يبقى له إلا مشاركة الاستطاعة بجهاد يختلف عن الجهاد في ميدان القتال .

إنه جهاد حماية القاعدين من إشاعات المنافقين . ذلك أن المنافقين لن يسكتوا عن محاربة الإيمان ، بل سيرجفون بنقل الأخبار الكاذبة إلى أهالي المقاتلين ، وهم من نسميهم في الاصطلاح الحديث « الطابور الخامس » ، وهم من يُثبِّطون همم ومعنويات أهالي المقاتلين . إذن : فمن قعد عن القتال بسبب عذر حقيقي فله جهاد آخر في حماية الجبهة الداخلية من أهالي المقاتلين في مواجهة حرب الإشاعات التي يقودها المنافقون .

وهكذا نجد الجهاد فريضة من فرائض الإسلام ، ومجاهدة غير المسلمين تكون لأمرين : الأمر

الأول : حين يعارض غير المسلمين الدعوة إلى الإيمان ، وأن يقفوا في سبيل الداعي ليسكتوه عن الدعوة إلى الله ، والأمر الثاني : أن ينتشر المسلمون في الأرض ليُعْلوا كلمة الله ، ليس إكراهاً عليها ، فالدين لا إكراه فيه ، والسيف الذي حُمل في الإسلام ، لم يُحمل ليفرض ديناً ، وإنما حُمل ليكفل حرية الاختيار الإنسان في أن يختار الدين الذي يريد اعتناقه بلا إكراه . وتحرير اختيار الإنسان؛ إنما ينشأ بإزاحة العقبات التي تفرض عليه ديناً آخر ، ثم يستقبل الإنسان الأديان كلها ، فيختار بحرية الدين الذي يرتضيه .

إذن : فالإسلام لم يفرض بالسيف ، وإلا فمن الذي فرض الإسلام على الذين سبقوا إليه حين كان ضعيفاً لا يملك أن يحمي من دخل فيه؟!

وما دام الجهاد فريضة بهذا المعنى ، فكل مسلم مكلف بأن يجاهد ، إما فرض عين – إن غلب المؤمنون على أمر مكروه ، وإما فرض كفاية – إن قام به البعض سقط عن الباقين . ولم يعذر الله من الجهاد إلا هذه الطوائف؛ الضعفاء بشيخوخة أو صغَر ، والمرضى أصحاب الداءات ، والذين لا يجدون ما ينفقون ، وهم قسمان : قسم لا يجد ما ينفقه على نفسه ، وقسم لا يجد ما ينفقه على الحرب ، أي : لا يجد أدوات القتال أو الراحلة التي يركبها .

ورفع الحق سبحانه الحرج عن هؤلاء ، ووظَّفهم سبحانه في وظيفة إيمانية تخدم الجهاد بأن يكونوا في عون أهل المجاهدين ، ويقمعوا المرجفين الذين يريدون النيل من الروح المعنوية للمسلمين ، وأن يردوا عليها ، ويخرسوا ألسنة السوء ، هذا بالنسبة للذين لا يجدون ما ينفقونه على أنفسهم خلال الجهاد من طعام وسلاح وغير ذلك .

أما الذي يجد ما ينفق ، ولا يجد الوسيلة التي تنقله إلى ساحة القتال؛ فعليه أن يذهب إلى ولي الأمر ليسأله الراحلة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو قائد الجهاد في حياته ، فإن قال لأحد : ليس عندي ما أنقلك عليه إلى مكان القتال . فهذا إذن بالقعود ، لكنه إذن لا يكفي لرفع الحرج عنه ، بل يجب أن يعلن بوجدانه انفعاله في حب الجهاد ، وحزنه على أنه لم يكن مع الذين يجاهدون .

ولذلك قال الحق : { تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنْفِقُونَ } وكلمة « تفيض أعينهم » توضح ما في قلب هؤلاء المؤمنين . والفيض دائماً للدموع ، والدموع هي ماء حول العين؛ يهيجه الحزن فينزل ، فإذا اشتد الحزن ونفد الدمع وجمدت العين عن البكاء؛ يؤخذ من سائل آخر فيقال : « بكيت دما » .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا شدة حزن المؤمنين على حرمانهم من الجهاد ، فلم يقل سبحانه وتعالى : « فاضت دموعهم » ، ولم يقل : « بكوا دماً بدل الدموع » ، وإنما قال : { وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ } ، فكأن العين ليس فيها ماء ، ولا دم ، ولم يعد إلا أن تفيض العين على الخد ،

وذلك إظهار لشدة الحزن في القلب ، وهذا المجاهد لا لوم عليه ولا ذنب؛ لأنه فعل ما في وسعه وما في طاقته وعبر عن ذلك بحرقة مواجيده على أنه لم يكن من أهل الجهاد .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّمَا السبيل عَلَى . . . }

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (93)

هناك قال سبحانه : { مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ } الذين كانت لهم أعذارهم في التخلف عن الجهاد ، ولكن كانوا محسنين في تخلفهم هذا فقال تعالى : { إِذَا نَصَحُواْ للَّهِ وَرَسُولِهِ } . إذن : فعلى من يكون السبيل؟

وهنا تأتي إجابة الحق سبحانه : { إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ } .

أي : أن طريق الإثم واللوم والتعنيف والتوبيخ إنما يتجه إلى هؤلاء الأغنياء الذين استأذنوا في أن يقعدوا عن القتال ، ونعلم أن الغني إذا أطلق ينصرف إلى غنى المال ، ولكن الغني إذا جاء بالمعنى الخاص ، يكون معناه ما يدل عليه النص . فالذي لا يجد ما ينفقه أعْفيَ . إذن : فمن يجد ما ينفقه فهو غنيّ بطعامه . والضعيف قد أعفيَ ، إذن : فالقويّ غنيّ بقوته . والمريض أعْفيَ ، إذن : فالصحيح غنيّ بصحته ، ومن لا يجد ما ينقله إلى مكان الجهاد قد أعفيَ ، إذن : فمن يملك راحلة فهو غنيّ براحلته .

وعلى ذلك لا تأخذ كلمة « الغنى » على المال فقط ، بل انظر إلى من تنطبق عليه شروط الجهاد؟ إذن : فاللوم والتوبيخ والتعنيف والإثم على الأغنياء بهذه الأشياء ، وطلبوا أن يقعدوا عن الجهاد .

ولسائل أن يقول : ولماذا يستأذنون وهم أغنياء؟

نقول : لأنهم منافقون ، وقد وضعهم نفاقهم في موضع الهوان ، حتى قال الحق سبحانه وتعالى عنهم : { رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الخوالف } ومن يَرضَ أن يكون وضعه مع الخوالف ، فهو يتصف بدناءة النفس وانحطاط الهمة؛ فهم رضوا ان يُعاملوا معاملة النساء ، والخوالف – كما نعلم – جاءت على مراحل ، فهم قالوا : { ذَرْنَا نَكُنْ مَّعَ القاعدين } [التوبة : 86]

وقلنا من قبل : إن القعود مقابل للقيام ، والقيام من صفات الرجولة؛ لأن الرجل قَيِّم على أهله . والقعود للنساء ، والخوالف ليست جمع خالف ، وإنما هي جمع « خالفة » ، ولا يجمع بها إلا النساء ، وكذلك كلمة « القواعد » يقول سبحانه : { والقواعد مِنَ النسآء . . . } [النور : 60]

أي : أنهم ارتضوا لأنفسهم دناءة وخسة؛ فتنازلوا عن مهام الرجال ، وارتضوا أن يكونوا مع النساء هرباً من القتال ، والشاعر يقول :

وَمَا أدْرِي ولسْتُ إخَالُ أدْري ... أقوْمٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نسَاءُ

أي : « القوم » في مقابل « النساء » .

ثم يعلمنا الحق سبحانه وتعالى بعقابهم ، فيقول : { وَطَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } .

وفي الآية السابقة يقول سبحانه : { وَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ . . . } [التوبة : 87]

ما الفرق بين النصين؟

إذا رأيت فعلاً تكليفيّاً مبنيّاً للمجهول ، كقوله تعالى : {كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ . . . } [البقرة : 216]

وقوله سبحانه : {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام . . . } [البقرة : 183]

قد يقول قائل : كان المفروض أن يقال : « كتب الله عليكم القتال » و « كتب الله عليكم الصيام » ، لأنه صار أمراً لازماً مفروضاً ، فكان الأولى أن يقول : كتب الله ، أي أن الذي يفرض هو الله .

رغم أن الحق سبحانه هو الذي يكلف ، إلا أن كل التكليفات تأتي بصيغة المبني للمجهول كقوله تعالى : {كُتِبَ عَلَيْكُمُ القصاص فِي القتلى الحر بِالْحُرِّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى . . . } [البقرة : 178]

وقوله سبحانه : {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت إِن تَرَكَ خَيْراً الوصية لِلْوَالِدَيْنِ والأقربين . . . } [البقرة : 180]

والسبب في ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يكلف كافراً بأي تكليفات إيمانية؛ فسبحانه لم يكلف بأي حكم من أحكام الإيمان إلا من آمن به وأسلم له؛ لذلك فعندما يخاطب سبحانه بالتكليف يقول : { ياأيها الذين آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ . . . } [البقرة : 178]

ومن هذا نعلم أنه سبحانه لم يكتب فرضاً أو مهمة على من لم يؤمن ، والإنسان يدخل في الإيمان باختياره ، فإذا دخل في الإيمان كتب الله عليه . إذن : فالإيمان هو مدخل الفريضة . وما دُمْتَ قد آمنتَ فقد أصبحتَ طرفاً فيما فرضه الحق سبحانه وتعالى عليك؛ لأنك لو لم تؤمن فليست عليك فرائض ، إذن : فأنت الذي ألزمتَ نفسك بحكم الله؛ لأنك آمنت به إلهاً خالقاً معبوداً . وبإيمانك أنت؛ فرض الله عليك ، فأنت طرف في كل فريضة عليك . ورغم أنه سبحانه وتعالى هو الذي فرض ، فقد أحبَّ فيك أنك دخلْتَ في نطاق التكليف بإيمانك؛ فبنى الفعل للمجهول .

وإذا جئنا إلى قوله سبحانه وتعالى : { وَطَبَعَ على قُلُوبِهِمْ } نجد أن الحق يلفتنا هنا إلى أن المنافقين هم الذي جلبوا لأنفسهم هذا الطبع على القلوب؛ لأنهم وضعوا في قلوبهم الكفر ، ثم أخذوا يتحدثون بألسنتهم عن الإيمان ، ويحاولون خداع المؤمنين ، ويخادعون الله؛ فأراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح لهم : ما دمتم قد اخترتم النفاق والكفر في قلوبكم؛ فسنطبع على هذه

القلوب ، ونختم عليها حتى لا يخرج الكفر منها ولا يدخل إليها الإيمان .
فسبحانه وتعالى – إذن – هو الذي طبع على قلوبهم ، ولكن بعد أن ملأوا قلوبهم بالكفر ونافقوا ، وهم الذين تسببوا بهذا الطبع لأنفسهم ، بعد أن بدأوا بالكفر ، فطبع الحق سبحانه وتعالى على قلوبهم بما فيها من مرض ، ولو لم يبدأوا بالكفر لما طبع الله على قلوبهم؛ ولهذا جاء الفعل مبيّناً للمجهول ، فهم مشتركون فيه .
أما الآية التي نحن بصددها فيقول تعالى :
{ وَطَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } وساعة ينسب الطَّبْع إلى الله يكون أقوى طبع على القلوب ، ويأتي الطبع من الله سبحانه وتعالى كحكم نهائي من أن الله قضى عليهم به ، فلا يخرج من قلوبهم ولو كان قدراً ضئيلاً من النفاق ، ولا تغادر قلوبهم ذرة من كفر ، ولا يتسرب إلى قلوبهم ذرة من إيمان؛ لأنهم لا يعلمون قدر الإيمان الحق ، والإنسان قد لا يفهم شيئاً ، أي : لا يفقهه . ولكن قد يفهمه غيره ويعلمه هو عنه .
لذلك فنفي الفقه أو الفهم لا ينفي العلم ، ولكن حين ينفي العلم فهو ينفي الفهم عن الذات ، وينفي الفهم عن الغير ، ولذلك حين يقال : { لاَ يَفْقَهُونَ } أي : لا يفهمون بذواتهم ، ولكن قد يتعلمون العلم من غيرهم .

أما إذا قلنا : { لاَ يَعْلَمُونَ } فالمقصود أنهم يفهمون ولا يتعلمون . إذن : نفي العلم ينسب إلى طبع الله على قلوبهم ، أما نفي الفقه فينسب نسبة عامة للفعل المبني للمجهول .
فعندما نفى الحق سبحانه وتعالى الفقه عنهم بالفعل المبني للمجهول أوضح أنهم بنفاقهم لا يفقهون ، ولكنه سبحانه وتعالى لم يَنْف احتمال أن يعلموا من غيرهم في المستقبل . ولكن عندما قال الحق : { فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } قد نفى عنهم – أيضاً – العلم بذواتهم ، وكذلك نفى قدرتهم على العلم من غيرهم ، وهذه أقوى أثراً ، وبذلك يكون الطبع على قلوبهم أقوى؛ لأنهم رفضوا العلم من ذواتهم ورفضوه من غيرهم .
ولذلك نجد { لاَ يَفْقَهُونَ } في موضع ، ونجد { لاَ يَعْلَمُونَ } في موضع آخر ، وكلٌّ تناسب موقعها الذي قيلت فيه .
ثم يقول سبحانه : { يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ . . . }

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (94)

ومعنى « يعتذر » أي : يبدي عذراً عن شيء يُخرجه من اللوم أو التوبيخ ، ويقال : « اعتذر فلان » أي : فعل شيئاً مظنة أنه ذم ، فيريد أن يعتذر عنه . والحق هنا يقول : { يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ

إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ } وفي آية سابقة يقول مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلم : { فَإِن رَّجَعَكَ الله إلى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ . . . } [التوبة : 83]

وهكذا نلاحظ أنه سبحانه حين نسب الرجوع إلى الصحابة والمجاهدين قال : { رَجَعْتُمْ } ، وعندما نسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : { فَإِن رَّجَعَكَ الله } مما يدلنا على أن زمام محمد صلى الله عليه وسلم بيد ربه وحده ، ولكن زمام أتباعه يكون باختيارهم .

وهنا يقول الحق : { يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ } ويأتي بعدها ذلك الرد الواضح على محاولة المنافقين في الاعتذار : { قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ } ، وفي هذا رد حاسم ، فأنت حين يعتذر إليك إنسان فقد تستمع لعذره ولكنك لا تقبله ، ومجرد استماعك للعذر معناه أن هناك احتمالاً في أن يكون هذا العذر مقبولاً أو مرفوضاً ، ولكن حين ترفض مجرد سماع العذر ، فمعنى ذلك ألاَّ وجه للمعذرة .

والحق سبحانه وتعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : { قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ } فكأنما ساعة أقبل المنافقون على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمرمنين؛ وتهيأوا للاعتذار؛ وقبل أن ينطقوا بالعذر؛ أوضح لهم الرسول عليه الصلاة والسلام : لا تعتذروا ، ورفض مجرد إبدائهم للعذر . ثم فاجأهم بالحكم في قوله تعالى : { لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ } ومادة « آمن » تدور حول عدة معان ، نقول « آمن » أي : اعتقد وصدق مثل قولنا : « آمن بالله » ، ويقال : « آمن بالشيء » أي : صدَّقه ، و « آمن بكذا » أي : صدَّق ما قيل . والحق هو القائل : { فَمَآ آمَنَ لموسى . . } [يونس : 83]

وقال إخوة يوسف لأبيهم : { وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ } [يوسف : 17]

أي : لن تصدقنا . وآمن إذا تعدَّت بالباء فمعناها الاعتقاد ، وإن تعدَّتْ باللام فمعناها التصديق ، وإن تعدت بغير الباء وغير اللام فمعناها إعطاء الأمان ، مثل قوله تعالى : { فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ } [قريش : 3-4]

وتجيء أيضاً « آمن » و « أمن » بمعنى الائتمان ، مثل قول الحق سبحانه وتعالى على لسان يعقوب : { هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَآ أَمِنتُكُمْ على أَخِيهِ مِن قَبْلُ . . . } [يوسف : 64]

إذن : ف « آمن » إن تعدت بالباء فيكون معناها الاعتقاد الإيماني ، وإنْ تعدَّتْ باللام فمعناها التصديق ، وإن تعدَّتْ بنفسها إلى الفعل فهي إعطاء الأمان والسلام والاطمئنان ، وإن تعدت بالمفعول أيضاً؛ فمعناها القدرة على أداء الأمانات ، مصداقاً لقوله الحق : { وَمِنْهُمْ مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً . . . }

[آل عمران : 75]

وفي الآية التي نحن بصددها يقول الحق سبحانه وتعالى : { قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ } أي :

لن نصدقكم . فقد جاء المنافقون ليعتذروا بأعذار كاذبة ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفض مجرد سماع الاعتذار ، وأعلن لهم : لن نصدقكم . ولو امتلك المنافقون ذرة من ذكاء لفهموا أن رب محمد عليه الصلاة والسلام قد أخبره بكل شيء؛ حتى بما في قلوبهم قبل أن ينطقوه ، ولو امتلكوا ذرة من فطنة لرجعوا عن نفاقهم ، ولدخلوا في الإيمان ، ولكنهم لم يستوعبوا الدرس ، فجاء الحق سبحانه وتعالى بالأمر واضحاً في قوله سبحانه : { قَدْ نَبَّأَنَا الله مِنْ أَخْبَارِكُمْ } فكأن المسألة ليست فراسة استنتاج ، ولكنها وحي من الله .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { وَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ } .

ما هو العمل الذي سيراه الله سبحانه وتعالى ورسوله ، بعد أن رفض رسول الله عذرهم ، وأخبرهم بأن الله قد أخبره بما يُخْفونه من كذب في صدورهم؟ فسبحانه العالم بالسرائر كلها ، لقد شاء سبحانه ألا يغلق أمامهم باب المرجع إليه ، وكان يجب من بعد ذلك أن يرتدعوا وأن يتيقنوا أن رب محمد صلى الله عليه وسلم لا تخفى عليه حتى نواياهم . وما دُمْتم قد علمتم صدق محمد صلى الله عليه وسلم في كل ما أبلغكم به ، أصبح عليكم – إذن – أن ترجعوا وتخرجوا من دائرة النفاق لتدخلوا حظيرة الإيمان؛ وتراكم الدنيا من بعد ذلك وقد اختلفت أعمالكم من النفاق إلى الإيمان ، أما إن أصررتم على ما أنتم فيه؛ فمعنى ذلك أنكم لم تستفيدوا من العملية الإعجازية التي أنبأ الله فيها رسوله بكذبكم .

إذن : فقد فتح الله باب التوبة أمامكم رحمة منه سبحانه ، فانتهزوا هذه الفرصة؛ لأنه سبحانه سيرى أعمالكم في المستقبل ، وعلى أساس هذه الرؤية يرتب لكم الجزاء على ما يكون منكم .

ولذلك يقول الحق سبحانه : { ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الغيب والشهادة فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [التوبة : 94]

وما دام سبحانه عالم الغيب ، فمن باب أوْلى أنه عليم بعالم الشهادة . والغيب – كما نعرف – هو ما غاب عنك ، فلم تعرف عنه شيئاً . ولكن إنْ غاب عنك ولم يَغِبْ عن غيرك فهو غَيْبٌ نسبي؛ لأن هناك حجباً منعت عنك العلم ، والمثَال : إن سُرق منك شيء فأنت لا تعرف السارق؛ ولكن السارق نفسه يعرف ، ومن شاركه يعرف . والذي أخفى السارق عنده المسروقات يعرف . والذي ابتاع المسروقات يعرف .

إذن : فهو غيب عنك وليس غيباً على غيرك . أما الغيب المطلق فهو ما غاب عنك وعن غيرك ، وهناك من يلجأ إلى الدجالين ممن يدّعون قراءة الأفكار ، ويسمونهم المنوّمين المغناطيسيين ، ويطلب المنوّم من أي واحد أن يُخرج ما في جيبه من نقود وأن يقوم بعدّها ، ثم يخبره بعددها ، وإن أردت أن تكشف ألاعيبه؛ ضع يدك في جيبك وأخرج كمية من النقود لا تعرف أنت مقدارها ، واسأله عن هذا المقدار فلن يعرف ، لماذا؟ لأنك نقلت المسألة من غيب قد يعرفه غيرك إلى غيب مطلق .

إذن : فالغيب المطلق هو ما غاب عنك عن غيرك ، وهو أيضاً ما لا تكون له مقدمات توصلك إليه ، فأنت إذا أعطيت ابنك تمريناً هندسيّاً ليحله؛ فالحل غيب عنه ساعة يقرأ المسألة ، ثم يستخدم المقدمات والنظريات حتى يصل إلى الحل ، فكأن هناك أشياء لها مقدمات توصل إلى النتائج ، وهذه ليست غيباً؛ لذلك لا يقال لمن اكتشف الكهرباء والذي اكتشف تفتيت الذرة أنهما علما الغيب . فقد كانت هناك مقدمات في الكون أوصلتهما إلى كشف بعض القوانين الموجودة بالفعل ، لكنّنا لم نكُنْ نعرفها .

وفي بعض التدريبات ، نجد من يضع المسألة المطلوب حلّها ، ويضع النتيجة الأخيرة بجانبها؛ لأنه لا يهدف إلى معرفة النتيجة ، ولكنه يهدف لتعليم التلميذ كيف يصل إلى أسلوب الحل الصحيح .

ولذلك إذا أردت أن تحلّ شيئاً في الهندسة مثلاً ، فلا بد لك من معطيات توصلك إلى الحل؛ كأن يُطلب منك – مثلاً – إثبات أن الخطين متوازيان ، وفي هذه الحالة يجب أن تكون كل زاويتين متناظرتين متساويتين ، وكل زاويتين متبادلتين متساويتين . إذن : فانت قد أخذت مقدمات أو معطيات أوصلتك إلى النتيجة ، وكذلك في تساوي ضلعي المثلث أو أضلاعه؛ يكون إثباته بتساوي الزوايا . فهل في هذه الحالة يقال : إنك اهتديت إلى الغيب؟ أم أنك استخدمت مقدمات أوصلتك إلى نتائج؟

وأنت حين تبرهن على صحة النظرية المباشرة ، تقول : إن هذا يساوي هذا حسب النظرية رقم تسعة مثلاً ، وإن هذا مقابل لهذا حسب النظرية الجديدة ، وإذا وصلت في براهينك إلى نظرية رقم واحد فهي النظرية التي لا مقدمات لها ، ولا بد أن تكون بديهية .

وهكذا نجد أن كل علم في هذا الكون بُني على نظريات أو مقدمات بديهية ، ثم تطورت بعد ذلك إلى اكتشاف ما أودعه الله في كونه من أسرار . أما الحق سبحانه وتعالى فهو يقول عن نفسه : { عَالِمِ الغيب والشهادة } أي أنه سبحانه عالم بالغيب المطلق ، الذي لا توجد له مقدمات توصلنا إليه؛ ولذلك لا نستطيع أن نعرف الغيب المطلق؛ لأنه ليس معروفاً عند البعض ، ومجهولاً عند غيرهم ، وليس له مقدمات توصلنا إليه؛ لأنه الغيب الذي ينفرد به الحق عزّ وجلّ .

ونجد الحق سبحانه يقول : { عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ . . } [الجن : 26–27]

فسبحانه عالم الغيب المطلق ، وهو يختلف عن الغيب المستور عن البعض ، ويقول الحق عن مواعيد الكشف عن أسرار الغيب المستور : { وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ . . . } [البقرة : 255]

وحين يشاء الله أن يكشف عن بعض أسرار الغيب فهو يحدد الوقت الذي يشاؤه لذلك ، وكل

شيء في الكون له ميعاد ميلاد؛ مثل : الكهرباء ، والذرة ، والوصول إلى القمر ، وغزو الفضاء ، وهذه كلها أشياء لها مواعيد ميلاد .

ويبحث العلماء عنها باستخدام المقدمات . ولكنهم لا يصلون إلى سر ميلاد أي اكتشاف إلا بإذن الله حين يلفتهم إلى هذا السرّ؛ إما بالبحث العلمي ، وإما أن يتم معرفته صدفة .
وهكذا نجد أن البشر يُحَاطون عِلْماً بهذه الأسرار بعد مقدمات وبإذن من الله .
وما دام الحق سبحانه هو عالم الغيب؛ فيكون سبحانه عالماً بالشهادة من باب أولى ، وقد يظن ظان أنه جلس في مكان معزول مستور ويفعل ما يريد ، فلن يشهده الله؛ لأنه قد يفعل ما يريد دون أن يراه أحد ، لكن ذلك غير حقيقي؛ لأن الحق سبحانه عالم الغيب والشهادة ، فلا يوجد مستور عنه في هذا الكون ، فلا الغيب يغيب عن علمه ، ولا العالم المشهود يغيب عن علمه .
وما دام قد جاء الحق هنا بقوله : { عَالِمِ الغيب والشهادة } فلا بد أن يأتي من بعدها { يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } أي : يخبركم مقدماً بجزاء ما ستفعلونه من خير أو شر حتى لا يقول أحد : إنه لم يكن يعرف ، أو أنه لو علم أن فعله يؤدي إلى الشر لما فعل؛ وحتى يكون كل إنسان شهيداً على نفسه؛ لأن الله أبلغه بالجزاء ، فيكون الجزاء عدلاً لا ظلماً .
ولذلك يقول الحق سبحانه : {كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً } [الإسراء : 14]
فأنت الذي تحكم على نفسك .
ويقول الحق بعد ذلك : { سَيَحْلِفُونَ بالله لَكُمْ . . . }

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (95)

وكلمة { سَيَحْلِفُونَ } فيها سرّ إعجازي من الله؛ لأن حرف « السين » هنا تدلنا على أنهم لم يحلفوا بعد ، أي أن الآية نزلت وقُرئت وسمعها المؤمنون والمنافقون قبل أن يحلف المنافقون ، وآيات القرآن تُتْلى وتُقرأ في الصلاة ، ولا تتغير ولا تتبدل إلى يوم القيامة .
ولو كان للمنافقين قدرة على التدبر لما جاءوا وحلفوا . ولقالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في قرآن يوحي إليه : إننا سنأتي ونحلف ، ونحن لن نأتي ولن نحلف؛ ولكن لأن الله هو القائل وهو الخالق وهو الفاعل ، فقد شاء أن تغيب الفطنة عن أذهانهم ، مثلما قال سبحانه من قبل : { سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ . . . } [البقرة : 142]
وهم قد قالوا ذلك بعد نزول الآية .
والحق سبحانه وتعالى يقول هنا : { سَيَحْلِفُونَ بالله لَكُمْ إِذَا انقلبتم إِلَيْهِمْ } والانقلاب معناه التحول من حال إلى حال . ومعنى الانقلاب في هذه الآية مقصود به العودة إلى المدينة مقر

السلام والأمن بعد الحرب ، فكأن الاعتدال في القتال والانقلاب في العودة إلى المدينة . ولكن لماذا سيحلف المنافقون بالله للمؤمنين؟ يقول الحق سبحانه : { لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ } أي : لتعرضوا عن توبيخهم ولومهم وتعنيفهم؛ لأنهم لم يجاهدوا معكم .

فقال الحق : { فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ } أي أعطوهم مطلوبهم من الإعراض ولكنه لون آخر من الإعراض ، فلا تولموهم ولا توبخوهم ولا تؤثموهم ، بل أعرضوا عنهم إعراض احتقار وإهانة ، لا إعراض صفح ومغفرة؛ جزاءً لهم على ما فعلوا؛ لأن التأنيب والتوبيخ هما من ألوان الجزاء على المخالفة ، ولكنه قد يحمل الأمل في المخالف ليعود إلى الصواب . فأنت إن لم يذهب ابنك إلى المدرسة مثلاً تُوبِّخه وتُعنِّفه ، وأنت تفعل ذلك لأنك تأمل في أن ينصلح حاله ، ولكن إذا استمر على مثل هذه الحال فأنت تهمله ، والإهمال دليل على أنك فقدت الأمل في إصلاحه .

كذلك كان الأمر بالنسبة للمنافقين ، لو أن التوبيخ والإهانة كانت ستجعلهم يفيقون ويعودون إلى حظيرة الإيمان ، فهذا دليل على أن هناك أملاً في الإصلاح ، وهم لن ينصلح حالهم ، وهم في ذلك يختلفون عن المؤمنين ، فالمؤمن إن ارتكب إثماً فهو يستحق العتاب والتوبيخ من إخوته في الإيمان ، وفي هذا إيلام له . والمؤمن عرضة أن تصيبه غفلة فيرتكب إثماً ، فإذا حدث بعد هذا الألم إيلام له من نفسه ، أو بواسطة إخوانه المؤمنين ، فهو يفيق ويشعر بالذنب ، وشعوره بالذنب وصول إلى التوبة .

أما هؤلاء المنافقون فلا ينفع معهم التوبيخ أو الإيلام النفسي؛ لأنهم لن يعودوا أبداً إلى حظيرة الإيمان ، ولذلك جاء الأمر : فأعرضوا عنهم؛ لأنهم لا يستحقون – حتى – اللوم ، فالتوبيخ جزاء على ذنب قد يُقلع عنه من ارتكبه . ولكن هؤلاء لا أمل فيهم ، والعلة يأتي بها القرآن : { إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } والرجس يطلق على معان متعددة ، وقوله : { إِنَّهُمْ رِجْسٌ } أي : هم الخباثة بذاتها ، ويقول العلماء : أي أن فيهم خبثاً وقذارة .

وأقول : إن الرجس هو القذارة نفسها ، فلا نقول : إنهم قذرون؛ لأننا إن قلنا ذلك فالمعنى يفيد أنهم طُهُرٌ أصابهم قذر ، وهم ليسوا كذلك ، إنهم « قذر » في حد ذواتهم ، ولا يطهرهم شيء؛ لأن الذي يخرج من القذارة يكون مثلها؛ فهم خباثة لا يطهرها لَوْم أو توبيخ . وأطلق الرجس هنا مثلما قال الحق : { إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ . . . } [التوبة : 28]

ولم يقل : « نجسون » بل هم أنفسهم نجس .

والرجس يطلق أيضاً على الشيء القذر حسيّاً؛ مثل الميتة ، والحق سبحانه يقول : { قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ . . . } [الأنعام : 145]

إذن : فالميتة قذارة حسّية ، كذلك الخمر التي يقول فيها الحق : { إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب

والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان . . . } [المائدة : 90]

فالخمر نفسها رجس ، أي : قذارة حسّية ، وعطف عليها الحق – سبحانه – الميسر والأنصاب ، والأزلام؛ وأخذوا حكم الخمر ، وهكذا نفهم أن الخمر رجس حسّي ، بينما الأنصاب والأزلام والميسر رجس معنوي .

وهناك أيضا الرجز ، ويطلق على وسوسة الشيطان ، فالحق يقول : { إِذْ يُغَشِّيكُمُ النعاس أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السمآء مَآءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشيطان . . . } [الأنفال : 11]

إذن : فالرجس له متعلقات؛ معناه الكفر ، والكافر هو قذارة في حَدّ ذاته لا أنه إنسان أصابته قذارة .

ويقول الحق : { فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } والمأوى : هو المكان الذي يؤويك من شر يلحقك ، ويقال : « آوى إلى كذا » أي : هرب من شر يُراد به ، فإذا كان المأوى الذي يفزعون إليه هو جهنم ، فمعنى ذلك أنهم بحثوا عن منفذ فلم يجدوا منفذاً إلا أن يدخلوا جهنم ، وهي بطبيعة الحال بئس المصير .

وهل ذلك افتئات عليهم أم جزاء؟ يقول الحق : { جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } ونعرف أن الحسنة يقال عنها : « كسب » ، والسيئة يقال عنها « اكتسب » ، والحق هو القائل : { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكتسبت . . . } [البقرة : 286]

وذلك لأن عمل الحرام المخالف لمنهج الله لا بد أن يشوبه الافتعال ، أما عمل الحلال فهو أمر فطري لا يكلف النفس مشقة ، ولا تتنازع فيه مَلَكَات ، لكن بعض الناس الذين يعملون السيئات يألفونها إلْفاً بحيث تصبح سهلة؛ فلا تكلفهم شيئاً ، ويعتبر الواحد منهم السيئة كسباً ، كأن تأتي لإنسان ، فيحدثك بمغامراته في الخارج ، ويروي عن رحلاته في باريس ولندن ، وما فعل فيهما من منكرات . هو يظن أنه يحكي عن مكاسب ، ولا يعلم أنه يحكي عن مصائب وقع فيها باختياره .

مثل هذا الإنسان يفعل السيئة ، وهو معتاد عليها؛ فتصير كَسْباً . وهو عكس إنسان آخر وقعت عليه المعصية؛ فيظل يبكي ويبكي ويبكي ، ويندم ، وقد يضرب نفسه كلما تذكر المعصية ، ويبدم عليها . فالأول فرح بخطاياه ومعاصيه واعتبرها كسباً وصارت له دُرْبة وله رياضة وله إلْفٌ بتلك المعاصي .

وهنا يقول الحق سبحانه : { يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ . . . }

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (96)

والرضا هو اطمئنان القلب إلى أمر فيه نفعٌ؛ فحين أقول : أنا راضٍ بالشيء الفلاني ، فمعنى هذا أن كمية النفع التي آخذها منه تكفيني . ومرحلة الإرضاء تختلف من إنسان إلى آخر ، فقد ترضى أنت بنفع ما ، وعند غيرك ما هو أحسن منه لكنه غير راضٍ ، ويتميز المؤمن بأن كل ما يجري عليه من غير كسب منه ، لا بد أن يرضى به؛ لأن مجريه رحيم . وقد تكون الرحمة لأمر لا يعلمه المؤمن الآن؛ فقد يُضَن عليه بمال؛ لأنه وقد تكون الرحمة لأمر لا يعلمه المؤمن الآن؛ فقد يُضَن عليه بمال؛ لأنه سبحانه لو زَوَّده بالمال فقد يبعثره على أولاده ، ويصبح المال وسيلة انحرافهم ، فالحق سبحانه يعطيه المال بقدر ما يطعم أولاده إلى أن يمر أبناؤه من فترة المراهقة ، ثم ينعم ربنا عليه بالمال بعد أن وصل الأبناء إلى النضج ، وضنَّ الحق على العبد أحياناً هو عين العطاء ، ولذلك يقال : « إذا لم يكُنْ ما تريد ، فَلْتُرِدْ ما يكون » .

ولماذا يحلف المنافقون؟ وتأتي الإجابة من الحق : { لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ } وماذا يحقق رضا المؤمنين لهؤلاء المنافقين؟ ثم هل للمؤمن رضاء من خلف رضاء رسول الله؟ وهل لرسول الله رضا من خلف رضاء ربه؟

إن ما يُفرح هو رضا مَنْ يملك النفع ، فأنتم حين ترضون عنهم بعد أن يحلفوا لكم ، وتقتنعوا ببشريتكم؛ فترضوا عنهم ، فليس لكم رضا ينفعهم ، ولا لرسول الله رضا من وراء رضا ربه ، فالرضا الحق هنا هو رضا الله ، فإياكم أن يخدعوكم بمعسول الكلام ، وزيف الأساليب؛ كي ترضوا عنهم .

ثم يقول الحق : { فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ } .

أي : إن تحقق هذا الرضا منكم عنهم ، فهو رضاً بعيد عن رضا الله ورسوله ، وليس من باطن رضا رسول الله ، ولا من باطن رضا الله؛ بذلك يُنْهي الحق الآية بقوله : { فَإِنَّ الله لاَ يرضى عَنِ القوم الفاسقين } وإن لم يَرْضَ الله فرضاكم لن ينفعكم ، وطلبهم الرضا منكم غباء منهم ، فإن رضاكم عنهم لن يقدم ، ولن يؤخر؛ إلا إن كان من باطن رضا الله ، ورضا رسوله .

وهنا ملحظ : هم فاسقون أم كافرون؟ نقول : إن الحق سبحانه أوضح لنا : { إِنَّ المنافقين فِي الدرك الأسفل مِنَ النار . . . } [النساء : 145]

أي أن مكان المنافق في النار أسفل من مكان الكافر . وكيف يكون المنافق فاسقاً مع أن المؤمن قد يكون فاسقاً؟ فالمؤمن قد يفسق بأن يرتكب كبيرة من الكبائر ، وسبحانه يقول : { والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ الله . . . } [المائدة : 38]

فالمؤمن قد يسرق ، وقد يزني أيضاً . فسبحانه يقول : { الزانية والزاني . . . } [النور : 2]

وما دام سبحانه قد جرّم الفعل ، ووضع له عقوبة؛ فمن الممكن أت يرتكبه المؤمن ، ولكن علينا أن نُفرّق بين الفاسق والعاصي ، فمن يرتكب الكبائر فهو فاسق ، ومن يرتكب الصغائر فهو عاص . فكيف يصف الله المنافقين بالفسق؟ ولنذكر ما نقوله دائماً من أن الكفر ، إنما هو كفر

بمحمد وبالإسلام ، والفسق إذا جاء مع الكفر فهو ليس فسق ارتكاب المعصية والإنسان على دين الإسلام ، لكنه الخروج عن الطاعة حتى في الأديان التي يتبعها أي قوم ، فالأديان كلها تضم قدراً من القيم ، وأتباعها محاسبون على القيم التي في أديانهم ، لكنهم أيضاً يفسقون عنها .
ويقول الحق بعد ذلك : { الأعراب أَشَدُّ كُفْراً . . . }

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97)

وقد تكلم الحق من قبل في المنافقين من غير الأعراب ، وهم العرب الذين نزل لهم وللناس كافة منهج الله ، وهنا يتكلم سبحانه من الأعراب ، فما الفرق بين العرب والإعراب؟
العرب هم سكان القرى المتوطنون في أماكن ، يذهبون منها أو فيها إلى مصالحهم؛ ويأوون إليها؛ وهذه مظهرها البيوت الثابتة ، والتأهيل المستقر ، لكن الأعراب هم سكان البوادي ، وليس لهم استقرار في مكان ، إنما يتتبعون مواضع الكلأ؛ وليس لهم توطُّن ، ولا أنس لهم بمقام ولا بمكان .
ومعنى ذلك أن كلاّ منهم ليس له سياسة عامة تحكمه في تلك البادية ، وكل واحد منهم – كما يقال – صوته من دماغه ، أو من دماغ رئيس القبيلة ، وما داموا بهذا الشكل ، وليس عندهم توطن؛ يوحي بالمعاشرة التي تقتضي لين الجانب وحسن التعامل؛ لذلك يقال عن كل واحد منهم « مستوحش » أي : ليس له ألفة بمكان أو جيران أو قانون عام .
أما الذي يحيا في القرية ويتوطنها فله جيران ، وله قانون يحكمه ، وله إلف بالمكان ، وإلف بالمكين ، ويتعاون مع غيره ، ويتطبع بسكان القرية ويألفهم ويألفونه ومع الإلف والائتلاف يكون اللين في التعامل ، عكس من يحيا في البادية ، فهو يمتلئ بالقسوة ، والفظاظة ، والشراسة؛ لأن بيئته نضحت عليه والوحدة عزلته .
فإذا سمعت « أعراب » فاعلم أنهم سكان البادية المشهورون بالغلظة؛ لأنه لا يوجد لهم تجمع يوحي لهم بلطف سلوك ، وأدب تعامل ، وكلمة « الأعراب » مفردها « أعرابيّ » . وهناك أشياء الفرق بين مفردها وجمعها التاء ، مثل « عنب » و « عنبة » هي المفرد ، وقد يفرق بين الجمع والمفرد « ياء » مثل « روم » والمفرد « رومي » .
ف « أعراب » – إذن – هي جمع « أعرابي » وليس جمع عرب . وهؤلاء مقسومون قسمين : قسم له إلف بالحضر؛ لأن كل أهل حضر قد يكون لهم بادية يلجأون إليها ، أي أن الأعرابي حين يذهب إلى البادية فهو ينزل ضيفاً عليهم ، ويسمون « المعارف » ، وكل واحد في البادية قد يكون له واحد في الحضر ، إذا اضطر للذهاب للمدينة أو للقرية فهو ينزل عنده . وهناك قسم آخر لا بادية لهم ولا حاضرة .
وبعد أن تكلم الحق عن العرب ونفاقهم ، يتكلم هنا عن الأعراب فيقول : { الأعراب أَشَدُّ كُفْراً

وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ الله على رَسُولِهِ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ }
ولماذا هم أشد كفراً ونفاقاً؟ لأنهم بعيدون عن مواطن العلم والدعوة ، وعندهم غِلْظة ، وعندهم جفاء ، وقوله سبحانه : { وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ الله على رَسُولِهِ } يعني : أحق ألاّ يعلموا حدود ما أنزل الله؛ لأن عرفان حدود ما أنزل الله من الأوامر والنواهي ، والحلال والحرام ، يأتي من التواصل مع العلم ، وهذا لا يتأتَّى بالتنقل من مكان إلى آخر ، بل لا بد من الاستقرار .

والعلم – كما نعرف – ألا تغيب عن العالم قضية من قضايا الكون؛ وكل واحد منا يعلم علماً على قدر تجربته ومراسه في الحياة ، وعلى قدر جلوسه إلى العلماء ، لكن الله وحده لا يعلم علم الجميع .
والعلم عند البشر قد يوظِّف ، وقد لا يوظِّف ، وكثير من الناس عندهم العلم لكنهم لا يوظِّفونه ، ومن لا يوظِّف علمه يصير علمه حُجة عليه . أما من يُوظِّف علمه ، ويضع الأمر في محله ، والنهي في محله ، والحلال في محله ، والحرام في محله ، والمشتبه يضع له حكماً مناسباً ، فهو يوصف بالحكيم؛ لأنه وضع كل شيء في محله .
فإذا شرع الله أمراً ، فسبحانه قد شرع عن « علم » وعن « حكمة » ، وما دام قد شرع يجب ألا نخالفه؛ لأن كل تشريع ينزله الله على رسوله إنما هو لتنظيم حركة الحياة؛ لأنه سبحانه هو الذي خلق الحياة وخلق كل المخلوقات ، وإياك أن تدس أنت أنفك فتشرِّع ما يغضب الحق؛ لأن فساد الكون كله قد جاء من الذين أرادوا أن يُقّننوا للخلق ، رغم أنهم لم يخلقوهم . ونقول لهم : دعوا التقنين للخلق لمن خلق الخلق ، فهو الصانع العالم بحدود ما صنع ووضع قوانين صيانة ما خلق ، وهو سبحانه هو الذي يمكنه أن يصلحها إن أصابها عطب أو فساد .
ومن هؤلاء الأعراب – الذين هم أشد كفاراً ونفاقاً ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله – قوم آخرون يقول عنهم الحق : { وَمِنَ الأعراب مَن يَتَّخِذُ . . . }

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98)

وعلى سبيل المثال : إذا ذهب إليهم داعية من الدعاة ، وقال لهم فكرة عن الإسلام . فالواحد من هؤلاء الأعراب يدَّعي في ظاهر الأمر أنه يتبع الإسلام ، وإن عُلِمَ أن في الإسلام زكاة فهو يعطي عامل الزكاة النصاب المقرر عليه ، ويعتبر ما دفعه « مغرما » أي غرامة؛ لأنه أعطى النصاب وهو كاره . وما دُمْتُ كارهاً فأنت لا تؤمن بحكمته ، وتظن أن ما دفعته مأخوذ منك . وتقول : « أخذوا عرقي » و « أخذوا ناتج حركتي » وأعطوه لمن لم يعرق ولم يتحرك في الحياة ، متناسياً أن هذا الأخذ هو تأمين لحياتك؛ لأنك حين تعجز ستجد من يعطيك ، والإسلام يأخذ

منك وأنت قادر ، ويعطيك إذا عجزت ، وفي هذا تأمين لحياتك .
وأنت تعلم أن الأشياء أعراض في الكون؛ القوة عرض ، والمرض عرض ، والصحة عرض ، والعجز عرض ، وأنت عُرْضة إن كنت قادراً أن تصير عاجزاً ، وإن كنت صحيح الجسد فأنت عرضة لأن تمرض ، فإذا ما طمأنك المشرع على أن أخاك العاجز حين عجز أخذنا منك له حين قدرت؛ وبذلك تواجه أنت الحياة برصيد قوي من الإيمان والشجاعة ، ويبين الحق لك أنك لا تعيش وحدك ، ولكنك تعيش في مجتمع متكافل ، إن أصابك شيء من عجز ، فقدرة الباقي هي المرجع لك .
وكان الواحد من هؤلاء الأعراب يؤدي نصاب الزكاة وهو كاره ويعتبرها مَغْرماً ، ومنهم من كان يتمنى أن تصيب المسلمين كارثة؛ حتى لا يأخذوا منه الزكاة ، وهكذا كان الواحد منهم يتربص بالمسلمين الدوائر ، مصداقاً لقول الحق : { وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدوائر } . أي يتمنى وينتظر أن يصيب الملسمين كارثة؛ فلا يأخذوا منه الزكاة التي اعتبرها مغرماً .
ولماذا قال الحق : { الدوائر } ؟ نعلم أن الخطْبَ الشديد حين يصيب الإنسان أو القوم إن كان فظيعاً وقوياً يقال : « دارت عليهم الدوائر » . أي أن المصيبة أحاطت بهم؛ فلا منفذ لهم يخرجون منه ، وكان بعض من الأعراب يتربصون بالمسلمين الدوائر؛ لأنهم كارهون لدفع الزكاة ويظنون أنها غرامة ، ولا يستوعبون أن الزكاة تُكْتب في الميزان ، وأنها تطهير ونماء للمال ، وأنها حمل لعجز العاجز ، إن عجز الواحد منهم؛ فسوف يجد من يحمله .
والذي يتربص بكم الدوائر ، ولا يفطن إلى حكمة الأخذ منه ، هو الذي تأتي عليه دائرة السوء مصداقاً لقوله الحق : { عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ } ؛ لأن أيّاً منهم لم يفطن وينتبه لقيمة الوجود في المجتمع الإيماني الذي يعطي له الزكاة إن عجز ، فإن تربصت الدائرة بمن يأخذ منك ، ولم تفطن إلى أن من يأخذ منك يصح أن يأخذ من الغير لك؛ فسوف تأتي الدائرة عليك .
وقوله الحق : { عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء } تبدو كأنها دعوة ، ومن الذي يدعو؟ إنه الله .

وهناك فرق بين أن يدعو غير قادر ، وبين أن يدعو قادراً . إن كان ربنا هو من يقول : { عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء } ، فدائرة السوء قادمة لهم لا محالة .
وينهي الحق الآية : { والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ } ، فسبحانه يسمع كلماتهم حين يأتي عامل الزكاة ليأخذ نصاب الزكاة ، وكيف كانوا يستقبلونه بما يكره ، وقد يكرهون في طي نفوسهم ولا يتكلمون ، فإن تكلموا فالله سميع ، وإن لم يتكلموا ، وكتموا الكراهية في قلوبهم ، فالله عليم ، إذن : فهم محاصرون بعلم الله وسمعه .
وبعد ذلك جاء الحق سبحانه للصنف الثاني ، وهم من لهم قليل من الإلف ، فإن كان من أهل

البادية فله أهل من الحضر ، أو كان من الحضر فله أهل من البادية فيقول سبحانه : { وَمِنَ الأعراب مَن يُؤْمِنُ . . . }

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (99)

ومن هؤلاء من يؤمن بالله ، ويؤمن باليوم الآخر ، وما ينفقه من زكاة أو صدقة فهو يتخذه قربى إلى الله الذي آمن به ، وكنزاً له في اليوم الآخر ، و « قربى » : أي : شيء يقربه إلى الله؛ يدخره له في اليوم الآخر ، وقوله الحق : { وَصَلَوَاتِ الرسول } أي : يجعل ما ينفق قربة إلى الله وكذلك طلباً لدعاء الرسول؛ لأن الصلاة في الأصل هي الدعاء ، فساعة يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة للمسلمين الضعاف ممن يعتبرها قربة ، فهو صلى الله عليه وسلم يدعو له .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم اغفر لآل أبي أوفى ، وبارك لهم »

وقد دعا بذلك حين جاء له ما تزكى وتصدق به بنو أبي أوفى ، ودعوة الرسول مجابة إلا ما قال الله إنه سبحانه لا يجيبه لحكمة .

ولقائل أن يقول ألا يعلم من يقدم الزكاة والصدقة قربى ، أنه سبحانه غير مستفيد من هذا الحمل؟ ألا يعلم أنها قربى له شخصيّاً؟ نعم إنه يعلم ، ويعلم أن الله يثيبه على أمر ينتفع به الفقراء ، وفي هذه إشارة إلى أن كل تكليف من الله إنما يعود نفعه إلى المكلَّف لا إلى المكلِّف . وما دام العائد إلى المكلَّف؛ فالله يدعو لصالح ذاتك وإلى خير لك .

ومن اعتبرها قربى إلى الله يأت لهم القول الحق : { ألا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ الله فِي رَحْمَتِهِ } وقد قال ذلك للأعراب الذين أنفقوا قربى لله ، وطمعاً في دعوات الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأوضح لهم سبحانه أنها قربى لهم؛ لأنهم المنتفعون بها ، وأنه سيدخلهم في رحمته . ورحمة الله هي نعيم مقيم ، وهي دائمة وباقية ببقاء الله الذي لا يُحَدّ ، أما الجنة فباقية وخالدة . بإبقاء الله لها .

إذن : فدخولك في رحمة الله أعلى من دخولك جنته .

فحين يقال : « دخل في الرحمة » فمعنى ذلك أن الرحمة ستظله إلى ما لا نهاية .

وحينما يسمع أي أعرابي قول الحق : { وَمِنَ الأعراب مَن يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ الله وَصَلَوَاتِ الرسول ألا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ الله فِي رَحْمَتِهِ } ؛ فعندما سمع الأعرابي هذه الآية جلس يحدث نفسه بالعطاءات الإلهية . فيكبح جماح خطرات السوء في نفسه ، أو بالزلات أو بالهفوات التي قد ينطق بها ، وقد يقول الأعرابي لنفسه : إني أخاف ألا يغفر الله الخطرات أو السيئات والهفوات ، فتأتي الآية مظمئنة له ما دام قد فعل السيئة بغفلة أو بسهو ، وعليه أن يعلم أن الله غفور رحيم ، ولا داعي أن يعكر على نفسه بالظن بأنه لن يدخل في رحمة الله .

لذلك جاء سبحانه بالقول : { إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ } لعل واحداً ممن يسمع هذا؛ يظن أن الجزاء والقربى والدخول في رحمة الله خاصٌّ بمن لم يذنب ذلك أبداً ، فيوضح له القول : اطمئن . إن كنت قد حصلت منك هفوة أو غفلة ، فاعلم أن الله غفور رحيم ، فلا يعكر عليك ذنبك إيمانك بأنك سوف تدخل في رحمة الله .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { والسابقون الأولون . . . }

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100)

و « السابق » هو الذي حصل منه الفعل – بصدد ما هو فيه – قبل غيره ، وكلنا والحمد لله مؤمنون ، ومن أمنوا أولاً ، ومن آمنوا بعد ذلك كلهم مؤمنون ، لكنْ هناك أناس سبقوا إلى الإيمان ، فهل كان سبقهم سبق زمان أم سبق اتباع؟ إن سبق الزمان يتحدد في الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن ظن ظان أن المقصود بالسابقين هم الذين سبقونا سبق زمان ، فقد يقول منا قائل : وما ذنبنا نحن وقد جئنا بعد زمانهم؟

ولذلك نقول : إنما السبق يعتبر من معاصر ، أي : كان معهم أناس غيرهم وهم سبقوهم؛ ولذلك جاء القول : { مِنَ المهاجرين } ونعلم أن الذين هاجروا مع الرسول لم يكن كل مسلمي مكة ، وجاء قوله : { مِنَ المهاجرين والأنصار } وأيضاً لم يكن كل الأنصار من أهل المدينة هم من السابقين .

وينحصر المعنى في الذين سبقوا إلى الإيمان في مكة ، وسبقوا إلى النصرة في المدينة ، هؤلاء هم { السابقون } .

وفي سورة الواقعة يقول الحق : { والسابقون السابقون * أولئك المقربون * فِي جَنَّاتِ النعيم } [الواقعة : 10–12]

ثم يأتي من بعدهم في المرتبة : { وَأَصْحَابُ اليمين مَآ أَصْحَابُ اليمين } [الواقعة : 27]

ثم يحدد الحق هؤلاء فيقول : { ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين } [الواقعة : 13–14]

ولذلك حينما يأتي من يقول : لن يستطيع واحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم تأخر عن عصر محمد صلى الله عليه وسلم أن يصل إلى منزلة الصحابة؛ لأن الله قال : { والسابقون } ، نقول له : لا ، بل افطن إلى بقية قوله سبحانه : { ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين } ، وهذا دليل على أن بعضاً من الذين جاءوا بعد زمان رسول الله صلى الله عليه سينالون المرتبة الرفيعة ، وهكذا لم يمنع الحق أن يكون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم سينالون المرتبة الرفيعة ، وهكذا لم يمنع الحق أن يكون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة مَنْ يصل إلى منزلة الصحابة .

وقد طمأن النبي صلى الله عليه وسلم الناس الذين لم يدركوا عهده حين قال :
« وددت أنِيّ لقيت إخواني » . فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : أو ليس نحن إخوانك؟ . قال : « أنتم أصحابي ، ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني »
وهذا قول صادق من المصطفى صلى الله عليه وسلم ؛ لأن منا من تنحصر أمنيته في أن يحُجَّ ويزور القبر الشريف . ويضيف النبي صلى الله عليه وسلم في وصف أحبابه :
« عمل الواحد منهم كخمسين » . قالوا : منهم يا رسول الله أم مِنَّا؟ قال : بل منكم؛ لأنكم تجدون على الخير أعواناً ، وهم لا يجدون على الخير أعواناً «

وهذا ما يحدث في زماننا بالفعل .
ولكن من هم السَّابِقُونَ المقصودون في الآية التي نحن بصددها؟
{ والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين } ونعلم أن السابقين من المهاجرين هم أهل بدر ، الذين دخلوا أول معركة في الإسلام ، مع أنهم خرجوا من المدينة ، لا ليشهدوا حرباً ، ولكن ليعترضوا عيراً تحمل بضائع ، ويرجعوا بالغنائم . ومع ذلك دخلوا الحرب ، لا مع القوافل التي ضمَّتْ العير والحراس والرعاة ، ولكن دخلوا الحرب مع النفير ، وهم من جاءوا ونفروا من مكة ، وهم صناديد قريش . وهكذا كانت منزلة أهل بدر ، أنهم من سبقوا إلى الجهاد في أول معركة للإسلام .

« ولذلك حين وشى حاطب بن أبي بلتعة بغزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فجاء به صلى الله عليه وسلم وقال له : ما الذي حملك على هذا؟ وكان صلى الله عليه وسلم يريد أن يفتح مكة دون أن يعلم أحد؛ حتى لا يقاتل المسلمون القادمون بعضاً من المؤمنين الموجودين في مكة ولم يعرفهم أحد؛ لذلك أراد صلى الله عليه وسلم المفاجأة في الفتح؛ حتى تهبط الشراسة الكفرية ، لكن حاطب بن أبي بلتعة كتب خطاباً إلى بعض أهل قريش ، فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعليٍّ رضي الله عنه ومن معه : اذهب إلى مكان اسمه » روضة خاخ « في الطريق بين مكة والمدينة ، فستجد ظعينة (مسافرة) معها كتاب إلى أهل مكة ، خبأته في عقيصتها .
فلما ذهب علي – رضي الله عنه – ومن معه يبحثون عن المرأة في الموضع الذي ذكره لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدوا المرأة ولكنها أنكرت أن معها كتاباً ، فهددوها؛ فأخرجته من عقيصتها؛ فوجده من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من مشركي قريش . وعاد به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأحضر النبي صلى الله عليه وسلم حاطبا ، وقال له : ما حملك على هذا يا حاطب؟ قال له : يا رسول الله : أنا لصيق بقريش ولي فيها أهل ومال ، وليس لي بها غزوة؛ فأردت أن أتخذ يداً عند قريش يعرفونها لي؛ فيحافظوا على أهلي وعلى مالي ، وعرفت أن ذلك

لا يضرك شيئاً وأن الله ناصرك . وما فعلته ينفعني ولا يضرك ، قال : صدقت . وأراد عمر – رضي الله عنه – أن ينزل عله بسيفه ، فقال النبي صلى الله عيله وسلم : » إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطّلَع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم « لأن أهل بدر دخلوا المعركة بدون عُدَّة ، وبدون استعداد ، ومع ذلك هانت نفوسهم عليهم ، فكأن الله قال : أنتم عملتم ما عليكم ، وقد غفرت لكم ما تفعلونه من السيئات .

إذن : فالسابقون من المهاجرين هم أهل بدر وأهل الحديبية ، وهم أهل بيعة الرضوان الذين رُدُّوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العمرة ، ثم عقد النبي صلى الله عليه وسلم مع القرشيين المعاهدة .

والسابقون من الأنصار هم من جاءوا للنبي في مكة ، وأعطوا له العزوة وأعطوا له الأمان والعهد ، وكانوا اثني عشر في بيعة العقبة الأولى ، وخمسة وسبعين في العقبة الثانية . هؤلاء هم السابقون ، وأضاف الحق إليهم { والذين اتبعوهم بِإِحْسَانٍ } أي : من يأتي من بعدهم .

وسيدنا عمر له وقفة في هذه الآية ، فقد رضي الله عنه يقرأها هكذا : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » أي : يعطف كلمة الأنصار على « السابقون » وكانت قد نزلت : { والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين والأنصار } ويكمل سيدنا عمر بعد « والأنصار » « الذين اتبعوهم بإحسان » أي : أنه جَعل « الذين ابتعوهم » صفة للأنصار .

وجاء زيد بن ثابت ليقول لسيدنا عمر : « قرأناها على غير هذا الوجه يا ابن الخطاب » . قال : فماذا؟ قال : { والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم } .

فقال عمر : ابعث إلى أبيّ بن كعب ، وكان ابن كعب حجة في القرآن فقال أبيّ : هكذا سمعتها – كا قال زيد – من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت تبيع القَرَظ في البقيع . أي أن أبيّ بن كعب كان ملازماً للنبي صلى الله عليه وسلم بينما عمر يبيع القرظ ، فضحك عمر وقال : لو قلت شَهِدت أنت وغِبْنا نحن ، وقرأها عمر من بعد ذلك كما نزلت .

{ والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بِإِحْسَانٍ } خصوصاً أن سيدنا أبيّاً البصير بالقرآن جاء بأكثر من دليل من غير هذه الآية فقد قال الحق : { وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ . . . } [الجمعة : 3]

وقوله الحق في سورة الحشر : { والذين جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفر لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الذين سَبَقُونَا بالإيمان . . . } [الحشر : 10]

وهي معطوفة أيضاً .

وهنا في الآية التي نحن بصددها يقول الحق :

{ رَّضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ذلك الفوز

العظيم } [التوبة : 100]

وفي هذا القول ما يطمئن أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلم يأتِ لنا فقط بخبر الفئة السيئة من المنافقين من العرب ، والمنافقين من الأعراب ، ولكنه أوضح لنا أن هناك أناساً وصلوا لنا جمال هذا الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الأعراب . . . }